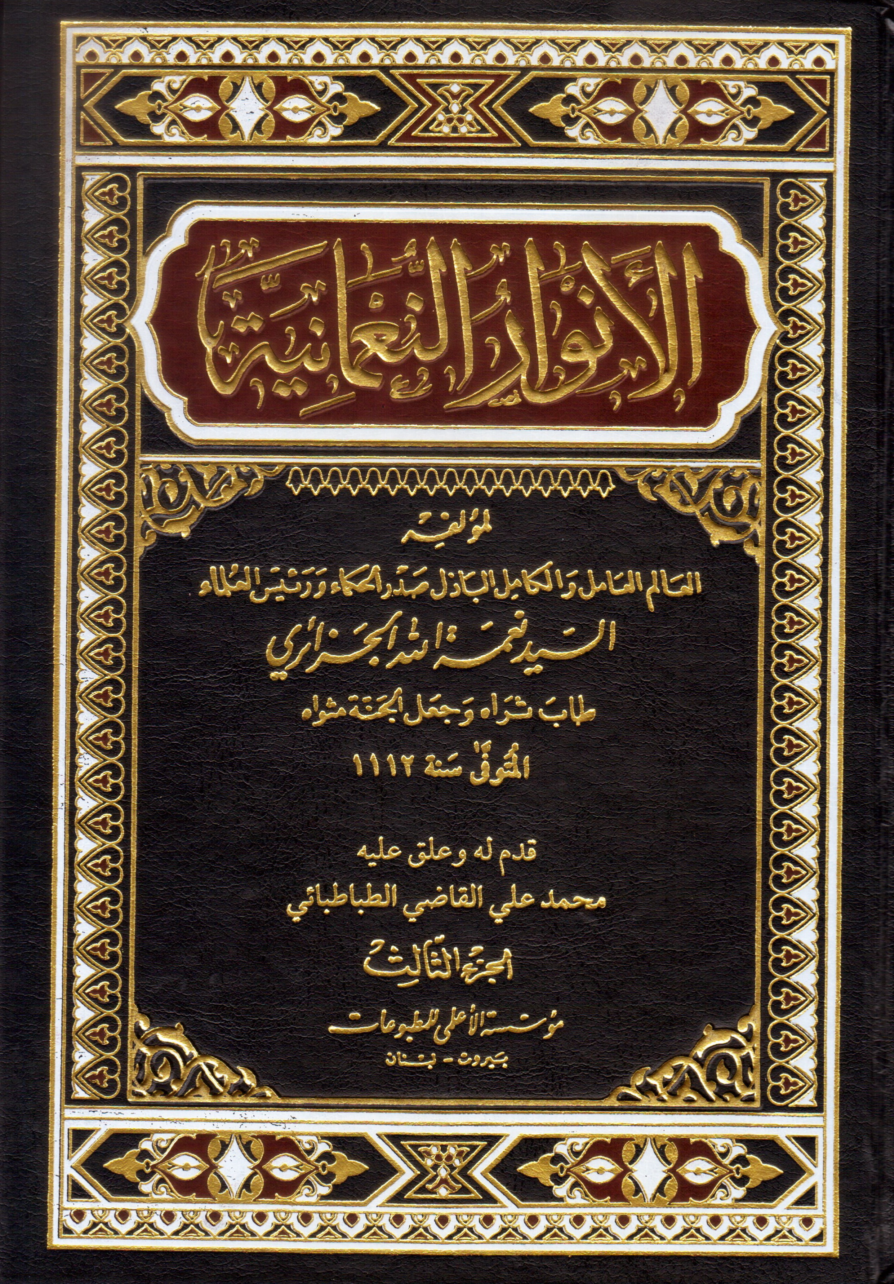

الأنوار النعمانية
لمؤلفه
العالم العامل والكامل الباذل صدر الحكماء ورئيس العلماء
السيد نعمة الله الجزائري
طاب ثراه وجعل الجنة مثواه
المتوفى سنة ١١١٢
قدم له وعلق عليه
محمد علي القاضي الطباطبائي
الجزء الثالث
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان


شبكة الفكر
alfeker.net


الأنوار النعمانية
٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنوار النعمانية

لمؤلفه

العالم العامل والكامل الباذل صدر الحكماء ورئيس العلماء

السيد نعمة الله الجزائري

طاب ثراه وجعل الجنة مثواه

المتوفى سنة ١١١٢

قدم له وعلق عليه

محمد علي القاضي الطباطبائي



الجزء الثالث

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - طريق المطار - مفرق حارة حريك
قرب سنتر زعرور
هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧



Beirut Airport Road
Tel: 01/450426 Fax: 01/450427
E-mail: alaalami@yahoo.com
http://www.alaalami.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نور يكشف عن أحوال الغيبة

وفيه أقسامها المحظورة والجائزة وذكر التّوبة منها وعلاجها وما يلحقها من المناسبات. إعلم وفقك الله تعالى أنّ الغيبة من أعظم الكبائر وقد توعد عليها النار ومع هذا فهي ذنب قد طمّت بليّته الخاص والعام وقد احترزوا عن غيره ولم يحترزوا عنه وذلك لأمور:

أحدها: الغفلة عن تحريمه وما ورد فيه من الوعد والوعيد والآيات والرّوايات وهذا هو السبب الأقل لأهل الغفلات.

وثانيها: إنّ مثل هذه المعصية لا يخلّ بمراتب الناس ولا يسقط محلّهم عندهم لخفاء هذا النوع من المنكر على من يرومون المنزلة عنده من أهل الجهالات وأيضاً فإنّ الناس كلهم في بلاء من هذه المصيبة ولو وسوس إليهم الشيطان أن اشربوا الخمر أو ازنوا بالمحصنات ما أطاعوه لظهور فحشه عند العامة ولو راجعوا عقولهم لوجدوا أنّ الغيبة أشدّ نكالاً وعذاباً وتقبيحاً من ذنوب كثيرة خصوصاً ممّا كان حقه لله تعالى وحده.

وثالثها: موافقة النّاس في مجالسهم كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وأمّا تعريفها في الاصطلاح فقد ذكر له اثنان أحدهما مشهوري وهو ذكر الإنسان حال غيبته بما يكره نسبته إليه مما يعد نقصاً في العرف بقصد الانتقاص والذّم، وثانيها وهو الذي عوّلنا عليه في شرح الصحيفة أنّها التّعرض لإنسان معيّن وما في حكمه بما يكون فيه بحيث لو سمعه لغضب ويعد في العرف نقصاً ويكون قاصداً لذلك النّقص سواء كان ذلك التّعرض بالقول أو الإشارة أو الكناية أو الكتابة، والتقييد بالمعيّن لإخراج مثل قولك في هذا البلد رجل فاسق فإنّه لا يكون غيبة إلّا إذا علم بالقرينة، وقولنا أو في حكمه ليدخل قولك إما زيد فاسق وإمّا عمرو فاسق فإنّه

إما غيبة لأحدهما كما قيل ويترتب عليه ذنب واحد وإمّا غيبة لكليهما فيكون عليه ذنبان وهو الأصحّ لغضبهما عند سماع هذا القول، وإخراج مثل هذا القول عن الغيبة كما قيل به فاسد، وقولنا بما يكون فيه لإخراج البهتان والتّهمة فإنّهما أشدّ ذنباً من الغيبة، والتّقييد بكونه نقصاً لإخراج مثل نسبة عبادة أو نحوها إلى غايب بحيث لو سمعها لغضب فإنّه لا يعدّ غيبة.

وقولنا ويكون قاصداً لذلك النّقص لإخراج ذكر العيب عند الطبيب مثلاً أو لاستدعاء المرحمة من السّلطان في حقّ الزمن والأعمى بذكر نقصانهما فإنّه لا يعدّ غيبة وقال النّبي ﷺ تدرون ما الغيبة؟ فقالوا الله ورسوله أعلم، قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه. وذكر عنده رجل فقالوا ما أعجزه فقال ﷺ: اغتبتم صاحبكم فقالوا يا رسول الله قلنا ما فيه قال إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه، وقد شبّهت في القرآن بلحم الميتة(1) فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

(١) بناءً على تجسم الأعمال بل الأحوال والصفات والملكات الإنسانية والاعتقادات القلبية بحقيقتها وجوهرها كما هو ظاهر الآيات والروايات ليس في الآية الشريفة تشبيه الغيبة بأكل لحم الميتة كما تخيله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعاً لجمع كثير من المفسرين بل حقيقة هذا العمل الشر وواقعه إنّما هو لحم ميت تأكله.
وكل عمل خير صدر عن الإنسان يجده صورة جميلة بحسب حقيقة ذلك العمل وواقعه يأنس بها في قبره وكل عمل شر صدر منه يجده صورة قبيحة مؤلمة مؤذية في قبره فالنميمة عقرب يلسعه والسعاية أفعى تلدغه وأكل مال اليتيم ظلماً نار تأكله في بطنه والغيبة لحم ميت تأكله وهكذا سائر الأعمال والأفعال التي تصدر في هذه النشأة من الإنسان لها واقع وحقيقة موجودة في باطن هذه النشأة ولبّها وملكوتها وتظهر تلك الحقائق للإنسان إذا انكشف له باطن هذه الدنيا وارتحل إلى الآخرة قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] ولا حذف هنا ولا تقدير كما يتخيله بعض المفسرين بل الجزاء نفس العمل وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] وفي الحديث يقول جل شأنه يوم القيامة للعباد: أعمالكم ردت إليكم ولكن بجوهرها وحقائقها ويأتي القرآن يوم القيامة شافعاً مشفعاً أو شاكياً إلى ربه ممن هجره أو لم يحفظه ومن قرأ سورة لا أُقسم وكان يعمل بها بعثها الله تعالى معه من قبره في أحسن صورة تبشره وتضحك في وجهه حتى يجوز الصراط وبعض السور تصير صورة جميلة =

وقال النبي ﷺ كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وعنه ﷺ

= تؤنسه في قبره وكذا سائر أعماله الحسنة وعباداته الواجبة والمستحبة تؤنسه وتبقى معه في قبره يعني في عالم البرزخ إلى يوم بعثه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ويدعى المؤمن للحساب فيتقدم القرآن أمامه في أحسن صورة فيقول: يا رب أنا القرآن وهذا عبدك المؤمن قد كان يتعب نفسه بتلاوتي ويطيل ليله بترتيلي وتفيض عيناه إذا تهجد فأرضه كما أرضاني فيقول العزيز الجبار: ابسط يمينك فيملأها من رضوان الله ويملأ شماله من رحمة الله ثم قال هذه الجنّة مباحة لك فاقرأ واصعد فكلما قرأ آية صعد درجة كما يستفاد ما ذكرناه كله من الأحاديث والسنة الثابتة عن أهل البيت عليهم السلام.

وقد ورد في الحديث أنّه تعالى يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً ينهشن لحمه ويكسرن عظمه يترددن عليه كذلك إلى يوم يبعث. وفي أربعين الشيخ البهائي قدس سره ويسلط عليه حيات الأرض. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام إنّ الله يسلط عليه تسعة وتسعين تنيناً لو أنّ واحداً منها نفخ على الأرض ما انبتت شجراً أبداً وروي في كتب أهل السنة هذا المضمون بهذا العدد الخاص أيضاً عن النبي ﷺ.

وروى الشيخ المفيد قدس سره بسنده عن أبي إسحاق الهمداني عن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه ولى محمد بن أبي بكر مصر وكتب له كتاباً وأمره أن يقرأه على أهل مصر ونقله الشيخ المفيد رحمه الله برمته في كتابه الأمالي وفيه ما هذا لفظه الشريف: وأن المعيشة الضنك التي حذر الله منها عدوه عذاب القبر إنّه يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً فينهشن لحمه ويكسرن عظمه يترددن عليه كذلك إلى يوم يبعث لو أنّ تنيناً منها نفخ في الأرض لم تنبت زرعاً أبداً اعلموا يا عباد الله أنّ انفسكم الضعيفة وأجسادكم الناعمة الرقيقة التي يكفيها اليسير تضعف عن هذا فإن استطعتم أن تنزعوا الأجساد وأنفسكم مما لا طاقة لكم ولا صبر لكم عليه فاعملوا بما أحبّ الله واتركوا ما كره يا عباد الله إنّ بعد البعث ما هو أشد من القبر الخ انظر الأمالي ص ١٥٥ ط النجف.

وينبغي التأمل وامعان النظر في قوله عليه السلام: ينهشن لحمه ويكسرن عظمه يترددن عليه كذلك إلى يوم يبعث فإنّ اللحم والعظم الموجود في هذا البدن العنصري يضمحل ويتلاشى في التراب ويفنى بالكلية في أدنى مدة فما هذا اللحم الذي ينهشه التنين والعظم الذي يكسره إلى يوم يبعث ولا شك أنّ الظاهر من قوله عليه السلام أنّ ذلك اللحم والعظم باقيان إلى يوم الحشر حتى أنّ تسعة وتسعين تنيناً يترددن عليه وينهشن لحمه ويكسرن عظمه إلى يوم القيامة فيظهر من قوله سلام الله عليه هذا أحوال البدن المثالي البرزخي وأنه مثل هذا البدن العنصري في تمام أحواله وشؤونه وهو كذلك كما يستفاد من أخبار أهل البيت عليهم السلام إلا أنّه جسم رقيق شفاف أثيريّ سيال أخف وألطف من الهواء هو برزخ بين الجسم المادي الثقيل والروح المجرد الخفيف كما تحقق وبرهن عليه في محله.

ويقال إنّ التخصيص بهذا العدد (أعني تسعة وتسعين) فلعل عدد هذه الحيات بقدر عدد =

إياكم والغيبة فإن الغيبة أشدّ من الزّنا إنّ الرجل قد يزني فيتوب الله عليه وإنّ صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه، وقال ﷺ مررت ليلة أُسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت يا جبرائيل من هؤلاء؟ فقال هؤلاء يغتابون النّاس ويقعون في أعراضهم وقال ﷺ لا تغتابوا المسلمين ولا تتبّعوا عوراتهم فإنّه من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته ومن تتبع الله تعالى عورته يفضحه ولو في جوف بيته.

وخطب ﷺ ذات يوم فذكر الرّبا وعظّم شأنه فقال إنّ الدّرهم يصيبه الرّجل من الرّبا أعظم عند الله في الخطيئة من ستّ وثلاثين زنية يزنيها الرّجل، وفي حديث آخر يزنيها الرجل بمحارمه في جوف الكعبة، ثم قال وإنّ أربى الرّبا عرض الرّجل المسلم. وروي أنّه ﷺ أمر بصوم يوم وقال لا يفطرنّ أحد حتّى آذن له، فصام النّاس حتّى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر فأذن له والرّجل والرجل حتّى جاء رجل فقال يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلتا صائمتين وإنّهما تستحيان أن تأتياك، فأذن لهما أن تفطرا، فأعرض عنه ثم عاوده فأعرض عنه، ثم عاوده فقال أنّهما لم تصوما وكيف صام من ظلّ هذا اليوم يأكل لحوم النّاس؟ إذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا فرجع إليهما فأخبرهما؛ فاستقاءتا، فقاءت كلّ واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النّبيّ ﷺ فقال والّذي نفس محمّد بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار.

وفي رواية أنّه لمّا أعرض عنه جاءه بعد ذلك وقال يا رسول الله إنّهما والله لقد ماتتا أو كادتا أن تموتا، فقال رسول الله ﷺ ائتوني بهما، فجاءتا، فدعا بقدح فقال لإحداهما قيئي فقاءت من قيح ودم صديد حتّى ملأت القدح، وقال للأُخرى قيئي فقاءت كذلك، فقال إنّ هاتين صامتا عمّا أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله

= الصفات المذمومة من الكبر والرياء والحسد والحقد وسائر الاخلاق والملكات الرديئة فإنما تتشعب وتتنوع انواعاً كثيرة وهي بعينها حيات في تلك النشأة والدنيا غلاف الآخرة وقشرها والآخرة هي اللب والحقيقة وهي موجودة حالاً في باطن الدنيا كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] نعم الآخرة داخلة في الدنيا دخول الرقيقة في الحقيقة والمعنى في اللفظ والروح في الجسم والهيولى مع الصورة. انظر الفردوس الأعلى ص ٢٧١ ط ٢ تبريز.

ويدل على ما ذكرناه ما نقله المصنف رحمه الله بقوله وروي انه ﷺ الخ وقوله في رواية أنّه لما أعرض عنه الخ وغيرهما من الأخبار التي نقلها.

عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم النّاس. وروي أنّه من أكل لحم أخيه في الدّنيا قرب إليه لحمه في الآخرة، فقيل له كله ميتاً كما أكلته حيّاً، فيأكله ويكلح، ولمّا رجم رسول الله ﷺ الرّجل في الزّنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمر النّبيّ ﷺ معهما بجيفة فقال انهشا منها، فقالا يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه.

وقال الصادق عليه السلام الغيبة حرام على كلّ مسلم، وإنّها لتأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب، وقد أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى بن عمران إنّ المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنّة، وإن لم يتب فهو أول من يدخل النّار، وروي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة إلّا أنّ يغفر له صاحبه، ومن اغتاب مسلماً في شهر رمضان لم يؤجر على صيامه.

وقال عليه السلام يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته، فيقول إلهي ليس هذا كتابي، فإنّي لا أرى فيه طاعتي، فيقال له إنّ ربّك لا يضلّ ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب النّاس، ثمّ يؤتى بآخر فيدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول يا إلهي ما هذا كتابي فإنّي ما عملت هذه الطاعات، فيقال إنّ فلاناً اغتابك فدفعت حسناته إليك، وقال عليه السلام كذب من زعم أنّه ولد من حلال وهو يأكل لحوم النّاس بالغيبة، اجتنب الغيبة فإنّها إدام كلاب أهل النّار. وقال عليه السلام عذاب القبر من النّميمة والغيبة والكذب.

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرّ والحواريّون على جيفة كلب، فقال الحواريّون ما أنتن ريح هذا الكلب، فقال عيسى عليه السلام ما أشدّ بياض أسنانه، كأنّه ينهاهم عن غيبة الكلب وينبّههم على أنّه لا يذكر من خلق الله إلّا أحسنه[1]، وقد قيل في السبب الموجب للتّشديد في أمر الغيبة وأنّها أعظم من كثير من المعاصي هو اشتمالها على المفاسد الكلّية المنافية لغرض الحكيم سبحانه، بخلاف باقي المعاصي فإنّها مستلزمة لمفاسد جزئيّة، وبيان ذلك أنّ المقاصد المهمّة للشارع اجتماع النّفوس على همّ واحد وطريقة واحدة، وهي سلوك سبيل الله بسائر وجوه الأوامر والنّواهي، ولا يتّم ذلك إلا بالتعاون والتّعاضد بين أبناء النّوع الإنساني، وذلك يتوقّف على اجتماع همّهم وتصافي بواطنهم؛ واجتماعهم على الألفة والمحبّة حتّى يكونوا بمنزلة عبد

(١) مستدرك الوسائل ج ٩ ص ١٢٠ باب ١٣٢.

واحد في طاعة مولاه، ولن يتم ذلك إلّا بنفي الضّغائن والأحقاد والحسد، وكانت الغيبة مفرقة بينهم فكانت مستلزمة لنقيض غرض الشارع من خلق العالم وما فيه.

وأمّا تفصيل أقسامها فهي كما عرفت التّعرّض للمؤمن بما يكرهه بنقصان، وذلك النّقصان إما في بدنه، أو نسبه أو خلقه بضم الخاء، أو فعله، أو قوله، أو دينه، أو دنياه أو ثوبه، أو داره، أو دابته، وقد أشار الصادق عليه السلام إلى ذلك مجملاً بقوله وجوه الغيبة يقع بذكر عيب في الخلق، والفعل، والمعاملة، والمذهب، والجهل، وأشباهه، فالبدن كذكرك فيه العمش والحول والعمى وجميع ما يكرهه من الأوصاف.

وأما النّسب فأن يقول أبوه زانٍ أو فاسق أو حائك أو إسكاف أو نحو ذلك ممّا يكرهه كيف كان، وأما الخلق فأن يقول إنّه سيّىء الخلق خسيس متكبّر شديد الغضب ونحو ذلك، وأما أفعاله المتعلّقة بالدّين فكقولك سارق متهاون بالعبادات ليس باراً بوالديه، وأما المتعلّقة بالدّنيا فكقولك قليل الأدب، متهاون بالنّاس كثير الأكل إذا دخل المجلس يجلس في غير موضعه، وأما في ثوبه فكقولك أنّه واسع الكمّ طويل الذيل وسخ الثّياب ونحو ذلك، وهذا لا يكون مقصوراً على اللّسان بل يجري في الكناية والإشارة والغمز والرّموز، ومن ذلك ما روي عن عائشة أنها قالت دخلت علينا امرأة، فلمّا ولّت أومأت بيدي أي قصيرة، فقال صلى الله عليه وآله: اغتبتها، ومن ذلك تقليد الأعرج في مشيته، أو كما يمشي الغير بل هو أشد من الغيبة. لأنّه أعظم في التّصوير والتّفهيم، وكذلك الغيبة بالكتاب فإنّ الكتاب كما قيل أحد اللّسانين، ومن ذلك كما قاله الشّهيد الثّاني طاب ثراه ذكر المصنّف شخصاً معيّناً وتهجين كلامه في الكتاب إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كمسائل الاجتهاد التي لا يتم الغرض من الفتوى وإقامة الدّليل على المطلوب إلّا بتزييف كلام الغير ونحو ذلك، ويجب الاقتصار على ما يندفع به الحاجة.

وقد بقي أفراد خفية من الغيبة.

الفرد الأول: ممّا يستعمله أهل العلم والمعرفة المرائين، فإنّهم يفهمون المقصود على صنعة أهل الصّلاح ويظهرون التّعفّف عن الغيبة ولا يدرون، لجهلهم أنّهم جمعوا بين إثمين: الرياء والغيبة، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول الحمدلله الّذي لم يبتلنا بحبّ الرّياسة أو بحبّ الدّنيا، أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء أو من سوء التّوفيق، أو نسأل الله أن يعصمنا من كذا، بل مجرّد الحمد على شيء إذا علم

اتصاف المحدث عنه بما ينافيه ونحو ذلك، فإنّه يغتابه بلفظ الدّعاء وسمة أهل الصّلاح، وإنّما قصد أن يذكر عيبه بضرب من الكلام المشتمل على الغيبة والرياء ودعوى الخلاص من الرّذائل وهو عنوان الوقوع فيها.

الثّاني: أن يقدم من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما نبتلى به كلّنا وهو قلّة الصبر، فيذكر نفسه بالذّم ومقصوده أن يذمّ غيره وأن يمدح نفسه بالتّشبّه بالصالحين في ذمّ أنفسهم، فيكون مغتاباً مرائياً مزكّياً نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو يظن لجهله انّه من الصالحين المتعففين عن الغيبة، هكذا يلعب الشّيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعلم أو العمل من غير أن يتفطّنوا الطريق.

الثالث: أن يذكر ذاكر عيب الإنسان فلا يتنبّه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتّى يصغي الغافل إلى المغتاب ويعلم ما يقوله، فيذكر الله، ويستعمل اسمه آلة في تحقيق خبثه وباطله وهو يمنّ على الله بذكره جهلاً وغروراً.

الرابع: أن يقول جرى لصاحبنا أو صديقنا كذا تاب الله علينا وعليه، يظهر الدّعاء له والتألم والصداقة والصحبة والله مطّلع على خبث سريرته، وهو لا يدري أنّه قد تعرّض لمقت أعظم ممّا يتعرّض له الجهّال إذا جاهروا بالغيبة.

الخامس: الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التّعجب فإنّه إنّما يظهر التّعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيزيد فيها لاستخراج الغيبة منه بهذا الطريق، فيقول عجبت ممّا ذكرته ما كنت أعرف من فلان ذلك، يريد بذلك تصديق المغتاب واستدعاء الزّيادة منه باللطف والتصديق بها غيبة بل الإصغاء إليها بل السكوت عند سماعها؛ قال رسول الله ﷺ المستمع أحد المغتابين وذلك أنّ أحدهما يتكيّف لسانه بها والآخر يتكيّف سمعه بها، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلّا بأن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام غيره فلم يفعله لزمه ولو قال بلسانه اسكت وهو يشتهي ذلك بقلبه فذلك نفاق وفاحشة أُخرى زائدة لا تخرجه عن الإثم ما لم يكرهه بقلبه.

وقد روي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال من أُذلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد (الخلائق خ) وقال ﷺ من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حتماً على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة، وقال ﷺ من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حتماً على الله أن يعتقه من النّار. وروى

الصّدوق رحمه الله بإسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال من تطوّل على أخيه في غيبة سمعها منه في مجلس فردّها عنه ردّ الله عنه ألف باب من الشر في الدُّنيا والآخرة، وإن هو لم يردّها وهو قادر على ردّها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرّة.

وأمّا العلاج الّذي يمنع الإنسان عن الغيبة فاعلم أنّ مساوىء الأخلاق إنّما تعالج بمعجون العلم والعمل وإنّما علاج كل علّة بمضادّ سببها فلنذكر أسباب الغيبة أوّلاً ثمّ نذكر علاج كفّ اللّسان عنها على وجه يناسب علاج تلك الأسباب، فنقول جملة ما ذكروه من الأسباب الباعثة على الغيبة عشرة أشياء، وقد أشار الصادق عليه السلام إليها إجمالاً بقوله الغيبة تتنوّع بعشرة أنواع: شفاء غيظ، ومساعدة قوم، وتصديق خبر بلا كشفه والتّبري من عيب وسوء ظنّ وحسد وسخرية وتعجّب وتبرّم وتزيّن.

وأمّا تفصيلها **فأوّلها** تشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب فإذا هاج الغضب تشفى بذكر مساوئه وسبق اللّسان إليه بالطبع إن لم يكن دين وورع، وقد يمنع من تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن ويصير عقداً ثانياً، فيكون سبباً لذكر المساوىء، فالحقد والغضب هما البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجالسة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فإنّهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنّه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظنّ أنّه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضّراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء.

الثّالث: أن يستشعر من إنسان أنّه سيقصده ويطوّل لسانه أو يشهد عليه بشهادة فيبادر قبل ذاك ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته وفعله، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروّج كذبه بالصّدق الأوّل ويستشهد به ويقول ما من عادتي الكذب فإنّي أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرّأ منه فيذكر الّذي فعله وكان حقّه أن يبرّىء نفسه ولا يذكر الذي فعله ولا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بأنّه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه.

الخامس: إرادة التصنّع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويوهم أنّه أفضل منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد وهو أنّه ربما حسد من أثنى النّاس عليه ويحبّونه فيريد زوال تلك النّعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلّا بالقدح فيه فيريد أن يسقط محلّه عند النّاس حتى يكفّوا عن إكرامه والثناء عليه.

السّابع: اللّعب والهزل والمطايبة وتزيين الوقت بالضّحك فيذكر غيره بما يضحك النّاس على سبيل المحاكاة والتعجب والتعجيب.

الثامن: السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإنّ ذلك قد يجري في الحضور فيجري أيضاً في الغيبة، ومنشأه التّكبر واستصغار المستهزأ به.

التّاسع: وهو مأخذ دقيق ربما يقع فيه الخواص، وهو أن يغتمّ بسبب ما يبتلى به أحد فيقول يا مسكين فلان قد غمّني أمره، ويذكر سبب الغم ويكون صادقاً في اغتمامه ويلهيه الغم عن عدم ذكر اسمه فيذكره بما يكرهه فيصيربه مغتاباً فيكون غمّه ورحمته خيراً، ولكن ساقه إلى شرّ من حيث لا يدري، والتّرحّم والتّغمّم ممكن من دون ذكر اسمه ونسبته إلى ما يكره فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحّمه.

العاشر: الغضب لله تعالى فإنّه قد يغضب على منكر قارفه فيظهر غضبه ويذكر اسمه على غير وجه النّهي عن المنكر وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه على ذلك الوجه خاصّة، وهذا ممّا يقع فيه الخواصّ أيضاً فإنّهم يظنّون أنّ الغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً كيف كان وليس كذلك.

وأمّا علاجات هذه الأمور فهي أمران مجمل ومفصّل أمّا الأوّل فبأن يعلم أنّه تعرّض لسخط الله تعالى ونقل حسناته إلى ميزان غيره ويشتغل في تدبير عيوب نفسه عن عيوب غيره وإن كان ذمّاً خَلقياً فالذم له ذمّ للخالق، من ذمّ صنعة فقد ذمّ الصانع، قال رجل لبعض الحكماء يا قبيح، فقال ما كان خلق وجهي إليّ فأُحسنه. وروي أنّ نوحاً عليه السلام مرّ على كلب أجرب فقال ما هذا الكلب؟ فنطق الكلب وقال يا نوح هكذا خلقني ربّي فإن قدرت أن تغيّر صورتي بأحسن من هذه الصّورة فافعل؛ فتندم على ما قال وبكى على هذه المقالة أربعين سنة فسمّاه الله نوحاً وكان اسمه عبدالملك أو عبد الجبار.

وأما الثّاني فهو أن ينظر إلى السبب الباعث له على الغيبة ويعالجه، فإنّ علاج العلّة يقطع شينها وقد عرفت الأسباب الباعثة، أما الغضب فيعالجه بأن يقول إن أمضيت غضبي عليه لعلّ الله تعالى يمضي عليّ بسبب الغيبة إذ نهاني عَنها،

وقال ﷺ إنّ لجهنم باباً لا يدخله إلّا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى، وقال ﷺ من كظم غيظاً وهو يقدر أن يمضيه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيّره في أيّ الحور شاء. وفي بعض كتب الله يابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك حين أمحق، وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضاء المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقّر غيرك وتحقّر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلّا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذ ذكروه بالسوء فإنّهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهو الغيبة.

وأما تنزيه النفس بنسبة الخيانة إلى الغير حيث يستغني عن ذكر الغير فيعالجه بأن يعرف أنّ التعرض لمقت الخالق أشدّ من التعرض لمقت الخلق وأنت بالغيبة متعرّض لسخط الله تعالى يقيناً، ولا تدري أنك تتخلّص من سخط النّاس أم لا فتخلص نفسك في الدّنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة وتحصل ذم الله تعالى لك نقداً وتنتظر دفع ذمّ الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان.

وأما عذرك كقولك إنّي إن أكلت الحرام ففلان يأكل وإن فعلت كذا ففلان يفعل وإن قصرت في كذا من الطاعة ففلان مقصّر ونحو ذلك فهذا جهل لأنّك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإنّ من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائناً من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن (لا) تدخلها لم توافقه ولو وافقته سفه عقلك فما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى الغير يردي نفسه من الجبل فهي أيضاً تردي نفسها، ولو كان لها لسان وصرّحت بالعذر وقالت الغير أكيس منّي وقد أهلك نفسه فكذلك أفعل لكنت تضحك من جهلها، وحالك مثل حالها ثمّ لا تتعجّب ولا تضحك من نفسك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنّك بما ذكرته أبطلت فضلك عند الله تعالى وأنت من اعتقاد النّاس فضلك على خطر وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس(١) فتكون قد بعت ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوق وهماً.

وأما الغيبة للحسد وهو جمع بين عذابين لأنّك حسدته على نعمة الدّنيا وكنت

(١) (ثلبه ثلباً) عابه ولامه. اغتابه، سبه، طرده.

معذّباً بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة فكنت خاسراً في الدّنيا فجعلت نفسك خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسنتك فإذا أنت صديقه وعدوّ نفسك، إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه لانتقال حسناتك إليه أو سيّئاته إليك، فقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة وربّما يكون حسدك وقدحك فيه سبب انتشار فضله، فقد قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وقد جاء في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام إنّ من اغتابك فهو أصدق أصدقائك، وذلك أنّه رجّحك على نفسه بأن رضي بدخول النّار ورضي لك بدخول الجنّة فمن آثرك على نفسه فهو الصديق. وفي حديث آخر أنّه أتعب نفسه بالصيام والقيام ووضع ذلك في طبق مغشى وأرسله إليك هديّة بدل ما اغتابك فكيف لا يكون صديقك؟ وقال رجل لعابد إنّي قد رقّ قلبي لك هذا اليوم ورحمك، فقال ممّ؟ فقال من استغابة النّاس لك، فقال سمعت منّي يوماً إنّي استغبت أحداً منهم؟ فقال لا، فقال إذن فارحمهم فهم محل الرّحمة.

أما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند النّاس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة، فلو تفكّرت في حسرتك وخجلتك وخزيك يوم تحمل سيّئات من استهزأت به وتساق به إلى النّار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك، ولو عرفت حالك لعرفت أنّك أنت المضحكة فإنّك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لأن يأخذ بيدك في القيامة على ملأ من النّاس ويسوقك تحت سيّئاته كما يساق الحمار إلى النّار مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك، وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ولكن حسدك إبليس فاستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبراً لإثم المرحوم فتصير أنت المرحوم لا هو إذ حبط أجرك ونقصت حسناتك.

وأما الأعذار المسوّغة للغيبة فقد حصرها الأصحاب رضوان الله عليهم في عشرة.

الأول: التظلّم كأن يتظلّم من قاض ظلمه عند من يرجو منه إزالة ظلمه، فإنّه يجوز له أن ينسب القاضي إلى الظّلم، إذ لا يمكن استيفاء حقّه إلّا به فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب الحق مقال. وقال مطل الواجد يحلّ عقوبته وعرضه.

الثّاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى منهج الصلاح. وهذا يرجع إلى النّيّة والقصد.

الثالث: الاستفتاء كما تقول للمفتي قد ظلمني أبي وأخي فكيف طريقي في الخلاص والأولى هنا التعريض بأن يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه، وقد روي أنّ هنداً قالت للنّبي ﷺ إنّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه؟ فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف، فذكرت الشحّ والظلم ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلم من الوقوع في الخطر والشرّ ونصح المستشير فإذا رأيت متفقهاً يتلبّس بما ليس من أهله فلك أن تنبّه الناس على نقصه وقصوره عمّا يؤهّل نفسه له(١) وكذا إذا رأيت رجلاً يتردّد إلى فاسق يخفي أمره وخفت عليه من الوقوع

---

(١) أيها السيد المصنف لو كنت في هذا الزمان لرأيت أنّ تنبيه الناس على نقص من ليس له أهلية المرجعية والفتوى وإيقاظهم أنّه قاصر عما يؤهل نفسه له لنقصان في ورعه وتقواه أو للشك في اجتهاده وكونه أهلاً بأن يعمل بفتواه صار من أصعب الأمور وأهم المطالب في المجتمع المذهبي لكثرة الأغراض الدنيوية والنيات الممقوتة وقلة الورع والتقوى بل عدم وجودهما في بعض من يدخل نفسه في زمرة أهل الخبرة والعلم من ذوي المطامع والأغراض الفاسدة والمقاصد المشؤومة.

وأضف إلى ذلك أنّه ما أكثر المدعين للفقاهة والاجتهاد في هذا الزمان التعيس جهلاً بأنفسهم وبهذا المقام وما أكثر المخدوعين بهم جهلاً أو لغرض والغرض يعمي ويصم وحقاً أقول وما في الحق مغضبة: إنّه ضاعت الموازين الشرعية والمعيار الصحيح في تعيين المرجع الديني في زماننا هذا وقد تداخلت الأيدي الظالمة والسياسة الغاشمة وعمالها الجائرة في البلاد الايرانية (في أيام الشاه المخلوع) في تعيين المرجع للتقليد وقد كثرت الدعايات الخبيثة والأصوات المنكرة والأقلام المستأجرة في هذه الجرائد السوداء في تعيين المرجع الديني في هذه البلاد:

وما افسد الناس إلا الملوك وأحبار دين ورهبانها

ولذا قد يلتبس الأمر على العوام ويشتبه المطلب عليهم في معرفة المجتهد الذي يجب عليهم تقليده والاذعان بفتواه فلا بد لهم من التثبت والتحقيق في هذا المقام والرجوع في تعيين المرجع الديني للتقليد إلى تشخيص أهل الورع والتقوى من أهل الخبرة والعلم والاجتهاد من العلماء لا الرجوع إلى كل من يدعي العلم ويتشبه بأهله ويعمل في شؤون دينه لميل نفسه وغرضه الفاسد وليس له معرفة بتشخيص من له ملكة الاجتهاد عن غيره وبعد معرفته أنّه هل هو أعلم أم لا؟

وقد ذكر الشيخ الشهيد قدس سره في كتابه الذكرى في مقدمته ثلاثة عشر شرطاً للفقيه والعجب أنّ بعض القاصرين ينكر وجوب تقليد الاعلم فلو رخينا عنان القلم في إثبات هذا المطلب وبيانه لطال الكلام وقد ذكرنا تفصيل ذلك في رسالة الاجتهاد والتقليد واثبتنا وجوب تقليد الاعلم فراجع.

وإليه تعالى نفزع في إصلاح هذه الشؤون الدينية ونسأله تعالى أن يحفظ أهل دينه من العثرات=

بسبب الصحبة فيما لا يوافق الشرع فلك أن تنبّهه على فسقه مهما كان، وكذلك إذا كان في العبد عيب فلك أن تحدّثه بعيوبه ولكن تقتصر في كل عيب على محل الحاجة ولا تذكر العيب الآخر الّذي لا مدخل له في التحذير، قال النبي ﷺ أترعوون عن ذكر الفاجر حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه تحذره الناس، وقال ﷺ لفاطمة بنت قيس حين شاورته في خطّابها أما معاوية فرجل صعلوك لا مال له، وأما أبوجهم فلا يضع العصا عن عاتقه.

الخامس: الجرح والتّعديل للشاهد والرّاوي، ومن ثمّ وضع العلماء كتب الرجال وذكروا أسباب الجرح لكن يشترط أن يكون القصد فيه صحيحاً.

السادس: أن يكون المقول فيه مستحقّاً لذلك لتظاهره بسببه كالفاسق المتجاهر بفسقه بحيث لا يستنكف من أن يذكر بذلك الفعل الّذي يرتكبه، فيذكر بما هو فيه لا بغيره، قال رسول الله ﷺ من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له، وظاهر الخبر جواز غيبته وإن استنكف من ذكر ذلك الذنب وأن يكون معنى الحديث إنّ من نزع جلباب الحياء لا غيبة له يعني أنّ ما يقال فيه لا يدخل في الغيبة ولا يطلق عليه لفظها لا أنّها غيبة جائزة، وفي جواز اغتياب مطلق الفاسق احتمال ناشىء من قوله ﷺ لا غيبة لفاسق وردّ بمنع أصل الحديث، وبحمله على فاسق خاص، أو بحمله على النّهي وإن كان بصورة الخبر، وهذا هو الأجود إلّا أن يتعلّق بذلك غرض ديني ومقصد صحيح يعود على المغتاب بأن يرجو ارتداعه عن معصيته بذلك، فيلحق بباب النّهي عن المنكر.

السابع: أن يكون الإنسان معروفاً باسم يفصح عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول ذلك، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولأنّه صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن صار مشهوراً به.

الثامن: لو اطّلع العدد الّذين ثبت بهم الحدّ أو التعزير على فاحشة جاز ذكرها عند الحكّام بصورة الشّهادة في حضرة الفاعل وغيبته ولا يجوز التعرّض إليها في غير ذلك إلّا أن يتجه فيه أحد الوجوه الأُخرى.

= والزلات في هذه العصور التعيسة وقد اصبحنا اليوم واصبح فيه المسلمون في مشاكل عويصة ومصائب كثيرة ولا يحل تلك المشاكل ولا يزيل تلك المصائب ولا يرد تلك البلايا والرزايا إلا التوجه لله تعالى والرجوع إلى الإيمان الراسخ والتمسك بالقرآن الكريم والعمل عليه والله الموفق.

التّاسع: قيل إذا علم اثنان من رجل معصية شاهداها فأجرى أحدهما ذكرها في غيبة ذلك العاصي جاز لأنّه لا يؤثّر عند السامع شيئاً وإن كان الأولى تنزيه النّفس واللّسان عن ذلك لغرض من الأغراض المذكورة خصوصاً مع احتمال نسيان المقول له لتلك المعصية أو خوف استتارها عنهما.

العاشر: إذا سمع أحد مغتاباً لآخر وهو لا يعلم استحقاق المقول عنه للغيبة ولا عدمه قيل لا يجب نهي القائل لإمكان استحقاق المقول عنه فيحمل فعل القائل على الصحة ما لم يعلم فساده لأنّ ردعه يستلزم انتهاك حرمته وهو أحد المحرمين. والأولى التنبيه على ذلك إلى أن يتحقّق المحتاج منه لعموم الأدلّة وترك الاستفصال فيها وهو دليل إرادة العموم حذراً من الإغراء بالجهل، ولأنّ ذلك لو تمّ لتمشى فيمن يعلم عدم استحقاق المقول عنه بالنسبة إلى السامع لاحتمال اطّلاع القائل على ما يوجب تسويغ مقاله وهو يهدم قاعدة النهي عن الغيبة، وهذا الفرد مستثنى من جهة سماع الغيبة، وبالجملة فأمر الغيبة في غاية الإشكال وعلى الله الاتّكال، بقي الكلام في كفارة الغيبة.

اعلم أنّ الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسّف على ما فعل ليخرج من حق الله تعالى ثمّ يستحلّ المغتاب ليحلّه فيخرج عن مظلمته، وينبغي أن يستحلّه وهو حزين نادم وإلاّ فالمرائي قد يطلب المحالة فيكون عليه ذنب آخر، وقد ورد في كفّارتها حديثان أحدهما قوله صلى الله عليه وآله كفّارة من اغتبته أن تستغفر له، وفي حديث آخر كلّما ذكرته، ومعنى قوله كلّما ذكرته يعني كلّما ذكرته على طريق الغيبة، أو كلّما عنّ في خاطرك أو جرى ذكره على لسانك بعد المحالة الأولى؛ الثاني قوله صلى الله عليه وآله من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها (فليحتلّها خ) منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيّئات صاحبه فيزيد على سيّئاته، وجمع بين الحديثين شيخنا الشهيد الثاني قدّس الله روحه بحمل الاستغفار على من لم يبلغ غيبة المغتاب فينبغي الاقتصار على الدعاء له والاستغفار لأنّ في محالته إثارة للفتنه وجلباً للضغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه لموت أو غيبة، وحمل المحالة على من يمكن التوصّل إليه مع بلوغه الغيبة، أقول ويمكن الجمع بينهما بوجهين:

أحدهما: إنّ الاستغفار له كفّارة معجّلة تكون مقارنة للغيبة والمحالة متأخّرة عنه غالباً فيجب عليه المبادرة بذاك لعدم توقّفه على التمكّن وعدمه والمحالة إذا تمكّن بعد هذا، فيكون الواجب اثنين لا واحداً كما هو مذكور في القول الأوّل.

الثاني: حمل الاستغفار له على الاستحباب، والواجب إنّما هو المحالّة لا غير، وإذا جاء إلى المغتاب فينبغي أن لا يظهر له الكلام الذي اغتابه به خوفاً من إثارة الشحناء وتجديد العداوة، بل يقول له يا أخي لك عليّ حقوق عرضية وأريد أن تحالني منها ونحو ذلك من العبارات المجملة، ويستحبّ للمعتذر إليه قبول العذر والمحالة استحباباً مؤكّداً، قال الله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾[الأعراف: ١٩٩] الآية، فقال رسول الله ﷺ يا جبرائيل ما هذا العفو؟ فقال إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك.

وروي عن بعضهم أنّ رجلاً قال له قد اغتابك فلان، فبعث إليه طبقاً من الرطب وقال بلغني أنّك قد أهديت إليّ حسناتك فأردت أن أُكافئك عليها، فاعذرني فإنّي لا أقدر أن أُكافئك على التمام ولا فرق بين غيبة الصغير والكبير والحيّ والميّت والذكر والأنثى، وليكن الاستغفار والدّعاء على حسب ما يليق بحاله، فيدعو للّصغير بالهداية وللميّت بالرحمة والمغفرة ونحو ذلك، ولا يسقط الحق بإباحة عرضه للناس لأنّه عفو عمّا لم يجب، وقد صرّح الفقهاء بأن من أباح قذف نفسه لم يسقط حقّه من حدّه؛ وما روي عن النّبي ﷺ أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، كان إذا خرج من بيته قال اللّهمّ إنّي تصدّقت بعرضي على الناس، معناه إنّي لا أطلب مظلمته في القيامة ولا أُخاصم عليها لا[1] أنّ غيبته صارت بذلك حلالاً، ويجب النيّة لها كباقي الكفّارات.

نور يكشف عن الحسد والنميمة ولواحقهما

اعلم أنّ الحسد من أعضل[2] الأدواء وأكبر المعاصي وأفسدها للقلب، وكفى به شرّاً أنّه أوّل خطيئة عصي الله تعالى بها، وذلك هو حسد ابليس لأبينا آدم عليه السلام فاستمرّت تلك البليّة إلى يوم القيامة، وقد أمر الله نبيّه بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، بعد أن استعاذ من الشيطان والساحر فأنزله منزلتهما، وقال ﷺ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[3].

وقال ﷺ ستّة يدخلون النّار قبل الحساب بستّة: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبيّة، والدهاقين بالكبر، والتجّار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهالة، والعلماء

(١) في بعض النسخ المطبوعة (إلا) وهو غلط واضح.
(٢) أي من أعيا الأدواء.
(٣) حسد المرء يأكل الحسنات وإن اعتاد كسبها سنوات.

بالحسد. وفي حديث آخر إنّ الحسد عشرة أجزاء منها تسعة بين العلماء وواحد في الناس ولهم من ذلك الجزء الحظّ الأوفر، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يخلو المؤمن من شيطان يغويه، ومنافق يقفو أثره، ومؤمن يحسده، أما إنّه أشدّ عليه، وذلك أنّه يقول القول فيه فيصدَّق.

وعن داود الرقيّ قال سمعت أباعبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول إتّقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً إنّ عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من شرائعه السيح في البلاد فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير، وكان كثير اللزوم لعيسى فلمّا انتهى عيسى إلى البحر فقال بسمالله بصحّة يقين منه فمشى على ظهر الماء، فقال الرّجل القصير حين نظر إلى عيسى جاز: بسم الله بصحّة يقين منه فمشى على الماء ولحق بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فدخله العجب بنفسه، فقال هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فما فضله عليّ، قال فرمس في الماء فاستغاث بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فتناوله من الماء فأخرجه ثم قال له ما قلت يا قصير؟ قال قلت هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى لقد وضعت نفسك في غير الموضع الّذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت فتب إلى الله تعالى ممّا قلت قال فتاب الرّجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها، فاتّقوا الله ولا يحسدنّ بعضكم بعضاً. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر، وقال الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، وإنّ المنافق يحسد ولا يغبط؛ وفي خبر معاذ الطويل إنّ صلاة الحاسد تردّ من السماء الخامسة، وقال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الحاسد مضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود كإبليس أورث بحسده له اللّعنة ولآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الاجتباء والهدى والرّفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء، فكن محسوداً ولا تكن حاسِداً فإنّ ميزان الحاسد أبداً خفيف يثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم فماذا ينفع الحسد الحاسد، وما يضرّ المحسود الحسد. والحسد يهيج خمسة[١] أشياء: أحدها إفساد الطاعات، لما عرفت من أنّه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والثّاني فعل المعاصي والشرور، والثّالث التّعب والغم من غير فائدة بل مع كل وزر، والرّابع الحرمان والخذلان فلا يكاد يظفر بمراد ولا ينصر على عدوّ، وكيف يظفر بمراده ومراده زوال نعم الله عن عباده، وكيف ينصر على أعدائه وهم عباد الله الّذين ساق إليهم النعم لتأهّلهم لها.

---

(١) كذا في النسخ.

فإن قلت قد ظهر من هذه الأخبار والكلمات أنّ الحاسد لا يضرّ المحسود ولا يكون حسده باعثاً لزوال نعم الله سبحانه فكيف يجمع هذا مع قوله ﷺ كاد الحسد أن يغلب القدر، فإنّ ظاهره أنّ للحسد تأثيراً شديداً في أمر المحسود وزوال النّعمة عنه، قلت وجه الجمع أنّ الحاسد وإن كان سبباً في زوال تلك النّعمة عن المحسود كتأثير العين الصائبة إلا أنّه ينقل المحسود من نعمة حقيرة إلى نعمة جزيلة؛ أمّا في الدّنيا بأن يكون الحاسد مثلاً سبباً في زوال نعمة تأتي المحسود من بعض إخوانه، فأوقع الحاسد أموراً منعت من وصول تلك النّعمة إليه كما يتفق في كثير من الأوقات، فإذا كان كذلك ساق الله سبحانه تلك النعمة إليه من محلّ آخر بناء على ما عرفت من أنّ الرّزق مقسوم؛ ومن قوله ﷺ لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب، وأمّا في الآخرة والأمور المتعلّقة بها فقد يكون حسد الحاسد باعثاً لارتقاء درجات المحسود كما في حكاية إبليس لآدم عليه السلام فإنّه إنّما ارتقى إلى درجة الاصطفاء والعصمة بأعماله العظيمة التي وقعت بعد الحسد

إذا عرفت هذا فاعلم أنّه قد بقي هنا أمور:

الأوّل: حقيقة الحسد هو انبعاث القوة الشهويّة إلى تمنّي مال الغير أو حاله التي هو عليها وزوالها عن ذلك الغير وهو مستلزم لحركة القوة الغضبيّة، ولذلك قال علي عليه السلام الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، وقد اتفق العقلاء على أنّ الحسد مع أنّه رذيلة عظيمة للنّفس فهو من الأسباب العظيمة لخراب العالم إذ كان الحاسد كثيراً ما يكون حركاته وسعيه في هلاك أرباب الفضائل وأهل الشرف والأموال الّذين تقوم بوجودهم عمارة الأرض، إذ لا يتعلّق الحسد بغيرهم من أهل الخسة والفقر.

وأمّا الغبطة المحمودة فهي أنّك لا تتمنى زوال تلك النعمة عنه ولكنك تشتهي لنفسك مثلها كما قال الصادق عليه السلام أنّا نغبطكم يا أهل العراق على الأرز.

الثاني: في الأسباب المثيرة للحسد وقد حصروها في سبعة: العداوة؛ والتّعزز، والتّكبر، والتعجّب، والخوف من فوت المقاصد، وحبّ الرياسة وخبث النّفس وبخلها فإنّه إنّما يكره النّعمة عليه إمّا لأنّه عدوّه فلا يريد له الخير، وهذا لا يختصّ بالأمثال وإمّا لأنّه يخاف أن يتكبّر بالنّعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وعظمته لعزة نفسه وهو المراد بالتّعزز، وإما أن يكون في طبعه أن يتكبّر على المحسود ويمتنع ذلك عليه بنعمته وهو المراد بالتكبر، وإما أنّ تكون النعمة عظيمة والمنصب كبيراً ويتعجّب من فوز مثله بمثل تلك النّعمة وهو التّعجّب، وإما أن يخاف من فوات

مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل به إلى مزاحمته في أغراضه، وإما أن يكون لحبّ الرياسة التي تبتنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها، وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل بخبث النّفس وشحّها بالخير لعباد الله.

وقد أشار سبحانه إلى السّبب الأوّل بقوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] وإلى الثّالثة بقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أي كان لا يثقل علينا الانقياد لأنّهم قالوا كيف يتقدّم علينا غلام يتيم، وإلى الرابعة بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وأعظم الأسباب فساد الخامس والسّادس لتعلّقهما غالباً بعلماء السّوء ومناط الخامس يرجع إلى متزاحمين على مطلوب واحد ومن هذا الباب تحاسد الضرّات(١) في التّزاحم على مقاصد الزوجيّة.

الثالث: في بيان الدّواء الذي ينقي مرض الحسد عن القلب. اعلم أنّ الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلب إلّا بالعلم والعمل، والعلم النّافع لمرض الحسد هو أن تعلم يقيناً أنّ الحسد ضرر عليك في الدّنيا والدين ولا ضرر به على المحسود في الدّنيا ولا في الدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوّك فارقت الحسد لا محالة وما أحسن ما قيل:

لا مات أعداؤك بل خلّدوا	حتى يروا منك الّذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة	فإنّما الكامل من يحسد

وفي الحديث إنّ أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحبّ له والكافّ عنه، أي من يكفّ عنه الأذى والحسد والبغض، هذا مجمل الكلام في الحسد.

وأما النميمة فهي نقل قول الغير إلى المقول فيه كما تقول فلان تكلّم فيك بكذا وكذا سواء كان نقل ذلك بالقول أم بالكتابة أم بالإشارة والرمز، وذلك النقل كثيراً ما يكون متعلّقه نقصاناً أو عيباً في المحكيّ عنه موجباً لكراهته وإعراضه عنه فيكون راجعاً إلى الغيبة أيضاً، فقد جمع بين معصية الغيبة والنميمة، وهي من المعاصي العظيمة لأنّها توجب العداوة بين الأحباب وتهدم حصول الألفة بين الأقارب والأنساب ومن ثمّ قال سبحانه: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وقال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:

(١) ضرة المرأة امرأة زوجها وهما ضرتان جمع ضرائر ويقال: بينهم داء الضرائر أي الحسد.

١٣]، قال بعض العلماء دلّت هذه الآية على أنّ من لم يكتم الحديث ومشى بالنّميمة ولد زنا لأنّ الزنيم هو الدعيّ، وقال تعالى في امرأة نوح ولوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وكانت امرأة لوط تخبر بالضيفان، وامرأة نوح تخبر بأنّه مجنون. وعنه ﷺ إنّ الله تعالى لما خلق الجنّة قال لها تكلّمي، قالت سعد من دخلني، قال الجبّار جلّ جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكن فيك مدمن خمر، ولا مصرّ على الزنا، ولا قتّات وهو النمّام، ولا ديّوث، ولا شرطيّ، ولا مخنّث ولا قاطع رحم، ولا الّذي يقول عليّ عهد إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يفِ به.

وروي أنّ موسى عليه السلام استسقى لبني إسرائيل حين أصابهم قحط، فأوحى الله تعالى إنّي لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة، قال موسى عليه السلام من هو يا ربّ حتى نخرجه من بيننا؟ فقال يا موسى أنهاكم عن النّميمة وأكون نمّاماً فتابوا بأجمعهم فسُقوا، وروي أنّ رجلاً اتبع حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلمّا قدم عليه قال إنّي جئتك للّذي أتاك من العلم، أخبرني عن السّماء وما أثقل منها؛ وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الحجارة وما أقسى منها، وعن النّار وما أحرّ منها؛ وعن الزمهرير وما أبرد منه، وعن البحر وما أغنى منه، وعن اليتيم وما أذلّ منه، فقال: البهتان على البريء أثقل من السموات؛ والحقّ أوسع من الأرضين، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحرّ من النّار، والحاجة إلى القريب إذا لم ينجح أبرد من الزّمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمّام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

وفي بعض الكتب إنّ رجلاً أراد أن يشتري عبداً فقال له صاحبه إنّه لا عيب فيه سوى النميمة، فقال لا عليّ من نميمته، فاشتراه فبقي عنده، فأتى يوماً لامرأة مولاه فقال مولاي لا يحبّك فإن قدرت أنّ تأخذي شعرة من لحيته حتى أقرأ عليها شيئاً من الأسماء والتعويذات فإنّه يعود إلى محبّتك؛ فرضيت وقالت إذا نام أقطع من لحيته شعرة بالموسى فأتى إلى مولاه وقال يا مولاي الواجب عليّ أن أنصحك اعلم أنّ امرأتك أظهرت لي أنّها تريد أنّ تذبحك إذا نمت بالموسى، فإن لم تصدّق فتناوم هذا اليوم حتى تنظر ما تفعل فلمّا تناوم أقبلت المرأة ومعها الموسى تريد قطع الشعرة، فلمّا دنت إلى الرجل قام وأخذ لها السيف فضربها به حتى قتلها، فسمع أهلها فأتوا إلى الرّجل وقتلوه وثارت الفتنة بين القبائل حتى قتل منهم أناس كثيرة، ومن هذا أحلّ الله الكذب في الإصلاح بين النّاس وبغض الصّدق فيه؛ فقال عليه السلام

المصلح ليس بكذّاب، مع أنّ الكذب من أقبح المعاصي حتى أنّه سئل عليه السلام عن المؤمن هل يزني؟ فقال إنّ المؤمن يزني ويلوط ويسرق ويشرب الخمر ويفعل الكبائر لكنه لا يكذب، فجعل الكذب أعظم من هذه الذنوب والوجه فيه ظاهر، وهو أنّ المفسدة التي تترتّب عليه أعظم من غيرها، فإنّ بها سفك المهج وخوض اللّجج كما عرفت. قال بعض المحققين كل من حملت إليه النميمة فعليه ستّة أمور:

الأول: أن لا يصدّقه لأنّ النمّام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبّح له فعله؛ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى فإنّه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا تظن بأخيك السوء بمجرد قوله، لقوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، بل تتثبت حتى يتحقق الحال.

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التّجسّس والبحث لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا ترضى لنفسك بما نهيت النّمام عنه فلا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نمّاماً ومغتاباً وقد تكون قد أتيت بما عنه نهيت؛ وروي أنّ رجلاً أتى أمير المؤمنين عليه السلام يسعى إليه برجل، فقال يا هذا نحن نسأل لما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، قال أقلني يا أمير المؤمنين. وروي أنّ حكيماً من الحكماء زار بعض أخوانه فأخبره بخبر عن غيره؛ فقال له الحكيم قد أبطأت في الزيارة وأتيتني بثلاث جنايات: بغّضت إليّ أخي؛ وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

خاتمة هذا النور في ذكر ذي اللسانين وهو الذي يتردد بين الاثنين سيّما المتعاديين ويكلّم كلّ واحد منهما بكلام يوافقه، وقلّما يخلو عنه من يشاهد متعاديين، وذلك عين النفاق، وهو من الكبائر المتوعد عليها النار، وروى عمّار بن ياسر عن النّبي صلى الله عليه وآله: من كان له وجهان في الدّنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة، وروى الصدوق رحمه الله بإسناده إلى علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً ثمّ يلهبان جسده، ثمّ يقال هذا الّذي كان في الدّنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك

يوم القيامة، ويتحقّق كونه ذا لسانين كما قال شيخنا الأجلّ الشيخ زين الدين بأمور:

منها أن ينقل كلام كل واحد إلى الآخر وهو مع ذلك نميمة وزيادة، فإن النميمة تتحقّق بالنّقل من أحد الجانبين فقط؛ ومنها أن يحسن لكلّ واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه وإن لم ينقل بينهما كلاماً، ومنها أن يعد كل واحد منهما بأن ينصره ويساعده، ومنها أن يثني على كل واحد منهما في معاداته، وأولى منه أن يثني عليه في وجهه وإذا خرج من عنده ذمّه، والذي ينبغي له إمّا أن يسكت أو يثني على المحقّ منهما في حضوره وغيبته وبين يدي عدوّه، ولا يتحقق اللسانان بالدخول على المتعاديين ومجاملة كل واحد منهما مع صدقه في المجاملة، وإن الواحد قد يصادق المتعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تصل إلى حدّ الأخوّة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة العدو كما هو المشهور من أنّ الأصدقاء ثلاثة: الصديق، وصديق الصديق، وعدو العدو، والأعداء ثلاثة: العدوّ وعدوّ الصّديق، وصديق العدوّ.

فان قيل كثيراً ما يتّفق لنا اختلاف اللّسانين مع الأمراء وأعداء الدّين فهل يكون ذلك داخلاً في النّهي والنفاق كما ورد من أنّه سأل بعض الصحابة إنّا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره، قلنا إن كان القائل مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن مخالطة العدوّ الدّيني واختار الاجتماع معه والصحبة له اختياراً طلباً للجاه والمال زيادة على القدر الضروري فهو ذو لسانين ومنافق كما ذكره الصحابي، وعليه يحمل الخبر، وإن كان محتاجاً إلى ذلك اتقاء ضرورة فهو معذور لا حرج عليه، فإنّ اتقاء الشر جائز، قال أبو الدّرداء إنّا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتبغضهم، وروي أنّه مرّ رجل على النبي ﷺ فقال بئس رجل العشيرة، فلمّا دخل عليه أقبل عليه فقيل له في ذلك، فقال إنّ شرّ الناس الذي يكرم اتّقاء شرّه. وأكثر التّحقيقات التي في هذين النورين قد أخذناه من كلام شيخنا الشهيد الثاني طاب ثراه.

نور في الكبر والفخر وعلاجاتهما وما يناسب ذلك

اعلم وفّقك الله تعالى إنّ الغرض الذّاتي من خلق الإنسان إنّما هو الإطاعة والقيام بوظائف العبوديّة، قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وليس المثل إلّا كمولى يشتري عبداً فإنّه ليس العلّة في شرائه إلّا أن يأتي برسوم العبوديّة ولوازمها، وحينئذ فارتقاؤه في درجات الكمال إنّما يكون بارتقائه في درجات العبوديّة سواء كان نبيّاً أو

غيره، ومن هذا فضّلت مرتبة العبوديّة على مرتبة النّبوّة والرّسالة، فقال تعالى مخبراً عن غاية قرب نبيّه وتمام التنويه باسمه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] [(١)] ولم يقل في هذا المقام أسرى برسوله، مع أنّها الحة التّي امتاز بها عن سائر الأُمة.

ووجه ذلك أنّ العبوديّة نسبة بين العبد ومولاه والرّسالة نسبة بين النّبيّ وأُمّته وهي كونه رسولاً إليهم، ولا ريب في أشرفيّة النّسبة الأولى لمكان طرفيها، ولأنها النّسبة المقصودة بالذات، وأما الرّسالة وما شابهها فهي نسبة عرضيّة لا ذاتيّة، ومن ذلك كانت الأولى هي المقدّمة في الوجودين فإنّه عزّوجلّ لم يرسله إلى الأمة إلّا بعد أربعين سنة، وهي مدة سيره في تحصيل كمال العبوديّة فإنه ترقى فيها حتى أخبر عنه بقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، ولمّا كمل في تلك الدّرجة أهبطه منها إلى درجة سافلة وهي الرسالة، فقال عزّ من قائل: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١]، ففي قوله أنزلنا إشارة إلى هذا الإنزال المعنوي وهو من درجة إلى درجة، وليس المراد الإنزال الحسّي لأنّه لم يكن في السماء حتى ينزل إلى الأرض بل كان بين ظهرانيهم وما كان أشق هذا الإنزال عليه لأنّه كان في الدّرجة الأولى يحاكي جناب القدس في عالم الملكوت، وقد صار في الثانية متكلّماً مع أجلاف قريش وجهّالهم الذين يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فإنّهم كانوا يعبدون ثلاثمائة وستّين صنماً، ولمّا أُنزل صلّى الله عليه وآله إليهم أمرهم بالتوحيد فأظهروا هذا التّعجّب من قوله، وقد حصل له من ردّهم عليه مقالته تعب عظيم وألم

---

(١) يعني أنّ الله تعالى بنفسه أسرى بنبيه صلّى الله عليه وآله وتوجه بذاته على طلبه وفي مجيئه وذهابه كمن طلب ضيفاً واستقبل بنفسه إليه مجيئاً وذهاباً من الابتداء إلى الانتهاء وهيأ له طعاماً وتحفاً وانعاماً بيده لعلو شأنه ورفعة مكانه عنده فمن إسراءه السلطان الجليل واهتم بنفسه في مسيره فهو أشرف وأفضل ممن لم يسر به والحاصل أنّ إسراءه من طلبه وأمره تعالى تعظيماً له وإنما قال سبحانه: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ذلك إشارة إلى أنه تعالى هو المسري به ليعلم أنّ الأمر من عنده تعالى هبة إلهية وعناية ربانية تبعث له بما لم يخطر بسره ولا اختلج في ضميره وأدخل باء المصاحبة في قوله بعبده ليفيد أنّه تعالى صحبه في مسراه صحبة بالالطاف والعناية والاسعاف والرعاية والاضعاف ويشهد به قوله اللهمَّ أنت الصاحب في السفر فقوله أسرى بعبده صريح في تخصيص الرسول بمصاحبته مصاحبة الرضوانية والتفضيل والتعظيم.
وعبودية النبي أشرف من رسالته لأنه بالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق وبالرسالة بالعكس ولهذا قدم في: أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

جسيم، وتعب القلب أشدّ من ضرب السيوف لأنّه من ربّي أربعين سنة في حجر جبرائيل عليه السلام وكان المعلّم له ربّ الملكوت(١) فأدّبه بآدابه، وأطلعه على مراتب

(١) اتفقت الإمامية على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن متعبداً بشريعة من تقدمه من الأنبياء قبل بعثته في مدة أربعين سنة بل جميع ما تعبد به كان شرعاً له وكان من أول الأمر مأموراً بالتستر وعدم الإظهار معتزلاً في غار حراء مشغولاً بعبادة الله تعالى إلى أن بعثه الله تعالى بالرسالة ودعوة الناس كافة إلى الله تعالى والإقرار بنبوته فصدع بما كان مأموراً به.

قال شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي النجفي شيخ الإمامية على الإطلاق في كتابه النفيس (عدة الأصول) ما هذا لفظه: عندنا أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يكن متعبداً بشريعة من تقدمه من الأنبياء لا قبل النبوة ولا بعدها وأن جميع ما تعبد به كان شرعاً له ويقول أصحابنا أنه صلى الله عليه وآله قبل البعثة كان يوحى إليه بأشياء تخصه وكان يعمل بالوحي لا اتباعاً لشريعة.

وأما الفقهاء فقد اختلفوا في ذلك والمتكلمون فالذي ذهب إليه أكثر المتكلمين من أهل العدل وهو مذهب أبيهاشم وأبي علي أنّه لم يكن متعبداً بشريعة من تقدمه وأن جميع ما تعبد به كان شرعاً له دون من تقدمه (اهـ) ومراده من الفقهاء والمتكلمين هو فقهاء أهل السنة ومتكلميهم كما هو ظاهر وقال قدس سره أيضاً بعدما نقلناه:

والذي يدل على ما ذهبنا إليه اجماع الفرقة المحقة لأنه لا اختلاف بينهم في ذلك واجماعها حجة على ما نستدل عليه إن شاء الله ويدل على ذلك أيضاً ما ثبت بالإجماع من أنه صلى الله عليه وآله أفضل من جميع الأنبياء ولا يجوز أن يؤمر الفاضل باتباع المفضول على ما دللنا عليه في غير موضوع فإن قيل: فمن أين يعلم أنّه كان قبل النبوة أفضل من سائر الأنبياء قيل: لم يخص أحد تفضيله على سائر الأنبياء بوقت دون وقت فيجب أن يكون أفضل في جميع الأوقات ويدل على ذلك أيضاً أنّه لو كان متعبداً بشريعة من تقدمه فإما بأن يكون شرعاً لذلك المتقدم ويكون في حكم المؤدي عنه فكان يجب أنّ لا يضاف جميع الشرع إليه كما لا يضاف الشرع إلى من يؤدي عنه صلى الله عليه وآله لما كان مؤدياً عنه وفي علمنا باضافة جميع الشرع إليه دليل على أنّه لم يكن متعبداً بشرع من تقدمه. إلى آخر ما ذكره رحمه الله تعالى من الاستدلال ودحض بعض الشبهات انظر ج ١ ص ٦٠ - ٦٤ط هند.

وقال الشهيد النيسابوري رحمه الله في كتابه روضة الواعظين: اعلم أنّ الطائفة قد اجتمعت على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان رسولاً نبياً مستخفياً يصوم ويصلّي على خلاف ما كانت قريش تفعله مذ كلفه الله تعالى فإذا أتت أربعون سنة أمر الله عز وجل جبرائيل عليه السلام أن يهبط إليه باظهار الرسالة وذلك في يوم السابع والعشرين من شهر الله الأصم الخ انظر ص ٦٢ط الأعلمي.

أقول: الأدلة الدالة على ما ذكرناه من عدم كون النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة متعبداً بشرع من تقدمه من الأنبياء وأن جميع ما تعبد به منذ أربعين سنة كان شرعاً له من الآيات الشريفة والأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام كثيرة يطول الكلام بذكرها مضافاً إلى الأدلة العقلية المذكورة في محلها.

=

جبروته، ثمّ تنزَّل من هذا كلّه حتّى أُمر بمعاشرة أجلاف العرب وأهل ترك الأدب مع فرط روحانيّته ولطافة قدسيّته كان عليه هذا أثقل من الجبال الرواسي لولا أمره سبحانه له بمثله.

وفي الروايات أنّ سليمان عليه السلام لما أراد تأديب الهدهد أمر به فحبس مع الحدأة في قفص واحد، فلمّا رأى حاله معها طلب من سليمان أن يخرجه من القفص وأن يعذّبه في كلّ ما أراد من أنواع العذاب فقد كان أخفّ عليه، ومن هنا قال سبحانه: ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، ولم يقل فقد أحرقته أو عذّبته، وذلك أنّ الخزي عذاب الرّوح والإحراق عذاب على البدن وعذاب الرّوح أشدّ وأفظع لو كانوا يشعرون، وروي أيضاً أنّه سئل عليه السلام عن الحمل الثّقيل يحمله الرجل على رأسه فلا يثقل عليه كثيراً ويرى الرجل المكروه يجلس على بعد من الإنسان ويكون ثقله ومشقّته عليه أعظم من ذلك الحمل الثقيل فقال عليه السلام إنّ الحمل الثقيل يحمله البدن والرجل المكروه تحمله الروح وهي ألطف من البدن وأرقّ، فما تحمله الروح أشقّ عليها ممّا يحمله البدن. وفي الأخبار إنّ من الذّنوب ذنوباً قد تناهت في العظم فلا يكفّرها إلّا الهمّ والغمّ والصّبر على المصائب وذلك لأنّه عذاب على الروح فيكون مكفّر الذنوب البدن أو شهواته الحيوانيّة.

وإذا تحقّقت هذا فاعلم أنّ النّاس كلّهم بل كلّ أصناف المخلوقات متساوون في العبوديّة لأنّ مولاهم واحد فهم من قبيل أن يكون سلطان عنده أنواع من العبيد فليس للأبيض أن يفخر على الأسود في أصل العبوديّة، ومن هذا جاء في الحديث إنّ الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام إذا جئت للمناجاة فاصحب معك من تكون خيراً منه، فجعل موسى عليه السلام لا يتعرّض أحداً إلّا وهو لا يجسر أن يقول إنّي خير منه، فنزل عن النّاس وشرع في أصناف الحيوانات حتّى مرّ بكلب أجرب، فقال أصحب هذا فجعل في عنقه حبلاً ثمّ مرّ به، فلمّا كان في بعض الطريق شمّر الحبل وأرسله، فلمّا جاء إلى مناجاة الربّ سبحانه قال يا موسى أين ما أمرتك به؟ قال يا ربّ لم

= وأما القول بأن النبي صلى الله عليه وآله - والعياذ بالله - كان قبل البعثة منذ أربعين سنة على أمر قومه وطريقتهم وأنه ما كان يعبد الله تعالى ولم يتعبد بالفروع وكان في مدة أربعين سنة خالياً من العبادات الشرعية الفرعية.

فالتفوه به وإسناده إليه صلوات الله عليه وآله كاد أن يكون كفراً كما صرح به المحقق الاردبيلي قدس سره الذي لم يسمح الزمان بمثله في بعض حواشيه على تفسير الكشاف فراجع.

أجده، فقال تعالى وعزّتي وجلالي لو أتيتني بأحد لمحوتك من ديوان النبوّة. فهذا الحديث وما روي في معناه منزّل على ما ذكرناه، وإلاّ فلا خلاف في أنّ كلّ نبيّ بعث في زمان فهو أفضل وأشرف من أهل زمانه وكذلك النّاس يتفاوتون في الفضل والشّرف على قدر خدمتهم لمولاهم، فيكون هذا الشّرف عارضيّاً ومع هذا فلا ينبغي للعبد أن يفتخر على غيره به وذلك لأنّه شيء قد أُلزم به وهو واجب عليه، فينبغي له أن يكل الفخر والمدح إلى مولاه بأن يكون هو الذي يباهي به ويظهر شرفه.

وفي الحديث إنّ الله تعالى يباهي الملائكة ويفاخرهم بأقوام، منهم رجل صار في قفر من الأرض ليس معه أحد فيقوم يؤذّن ويقيم للصلاة فيقول سبحانه انظروا يا ملائكتي إلى عبدي هذا قام يذكرني في هذه الفلاة من الأرض، ورجل قام إلى صلاة اللّيل فأخذه النّعاس وهو ساجد فيقول سبحانه انظروا إلى عبدي روحه عندي في قبضتي وبدنه ساجد لي ورجل لم يقم لصلاة اللّيل لعارض، ثمّ إذا جاء النهار قام يقضيها، إلى غير ذلك فيكون المولى هو المادح لهم والمثني عليهم، ولهم الفخر الواقع في نفس الأمر، وفي الدّيوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

النّاس من جهة التّمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأمّ حوّاء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلّا لأهل العلم إنّهم ... على الهدى لمن استهدى أدلّاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

نعم إذا أراد الإنسان بيان أحواله إذا كانت مجهولة لغرض من الأعراض الشّرعية جاز له وإن كان فيه عبارات الفخر، لكن لا يكون الفخر والكبر مقصودين له كما كان يستعمله قدماء علمائنا من ذكرهم مدائحهم ومعالي منابتهم في كلّ العنوان، ومن هذا جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وآله أنا خير الخلق ولا فخر؛ وأنا أفصح العرب ولا فخر، إلى غير ذلك ومقصوده عليه السلام إظهار بيان شيء من شأنه عند جهّال الناس لا الفخر، ولهذا بالغ في نفيه بلا الجنسيّة، والكبر والفخر ليسا من مساوىء الأخلاق بل من أشرف الصفات والحالات وهما من صفات الإكرام له سبحانه وتعالى، وممّا اختصّا به فلا يجوز لأحد أن ينازعه في أخصّ صفاته.

قال أبو جعفر عليه السلام العزّ رداء الله والكبر إزاره فمن تناول شيئاً منه أكبّه الله في جهنّم، وفي الحديث القدسي العزّ إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعنيهما أُدخله ناري ولا أُبالي، فهما بالنسبة إلينا صفات ذمّ لأنّهما ثوبان مغصوبان قد لبسناهما والثوب

المغصوب يحرم استعماله في جميع الأحوال، ولهذا ساوى سبحانه بينهم في أغلب الأحوال حتّى قال ﷺ أبناء آدم كأسنان المشط لا يفضل بعضهم بعضاً، ويكون هذا إشارة إلى ما قدّمناه من أنّ المراد المساواة في أصل العبودية، ويجوز أن يكون هذا الحديث منزّلاً على إرادة المؤمنين والمسلمين، كما قال ﷺ ما ترك الإيمان لذي شرف شرفاً، فإنّهم كانوا يتكبّرون ويفخرون في أعصار الجاهليّة حتى بلغ بهم الحال إلى أنّ الرجل العظيم منهم إذا كان له بنت انتظر بها حتى إذا بلغت مبالغ النساء زيّنها وحلاّها بأنواع الحلي والحلل وأخذها إلى المقابر وحفر لها قبراً ودفنها فيه وهي في عالم الحياة، وذلك لأنّه ليس لها كفء بزعمه حتّى يزوّجها منه، فنفى سبحانه هذه المقالة عليهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩] وقد حكى عمر بن الخطاب[1] فيما روي عنه أنّه قال أدركني الرقّة على ابنة لي في أعصار الجاهليّة، وذلك أنّي أمرت بأن يحفِر لها قبر لأدفنها فيه، فلمّا أتيت بها إلى القبر،

---

(١) لا يخفى أنّه قد يقال أنّ والد الخليفة كان حطاباً جامعاً للحطب من الصحارى كما أشار بهذا المعنى عمرو بن العاص فيما نقله ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة.
قال كتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو عامله في مصر: أما بعد فقد بلغني أنه قد ظهر لك مال من إبل وغنم وخدم وغلمان ولم يكن لك قبله مال ولا ذلك من رزقك فأنى لك هذا الخ ثم ذكر جواب عمرو بن العاص إليه وإن عمر كتب إلى عمر وللمرة الثانية إلى أن قال: وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرك على ما في يديك فلما قدم إليه محمد اتخذ له طعاماً وقدمه إليه فأبى أن يأكل فقال مالك: لا تأكل طعامنا، قال: إنك عملت لي طعاماً هو تقدمة للشر ولو كنت عملت لي طعام الضيف لأكلته فابعد عني طعامك واحضر لي مالك فلما كان الغدو أحضر ماله جعل مسلمة يأخذ شطراً ويعطي عمرو شطراً فلما رأى عمرو ما حاز محمد من المال قال: يا محمد أقول، قال: قل ما تشاء، قال لعن الله يوماً كنت فيه والياً لابن الخطاب والله لقد رأيته ورأيت أباه وإن على كل واحد منهما عباءة قطوانية مؤتزراً بها ما تبلغ مأبض ركبتيه وعلى عنق كل واحد منهما حزمة من حطب وإن العاص بن وائل لفي مزررات الديباج فقال محمد: ايهاً يا عمرو فعمر والله خير منك وأما أبوك وأبوه ففي النار الخ وصورة أخرى لهذه القضية وفيها: فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن سلمة قبح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل والله أني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها وما منهما إلا في نمرة لا تبلغ وسفيه والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزرراً بالذهب قال له محمد: اسكت والله عمر خير منك وأما أبوك وأبوه ففي النار، والله لولا الزمان الذي سبقته فيه لا ألفيت معقل شاة يسرك غزرها ويسترك بكرها فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله فلم يخبر بها عمر.
انظر شرح النهج لابن أبي الحديد ج٣ ص١٠٤ ط مصر والغدير ج٦ ص٢٧٣ ط طهران.

كان الحفّار يخرج التراب من القبر فتناولت منه التراب، فعلق بعض التراب بلحيته، فأخذت البنت تنفضه منها فرققت لها، ثم دفنتها وهي حية، فلما جاء الإسلام أبطل تلك الأمور وعطّلها، حتّى أنّه ﷺ صعد المنبر يوماً وذكر ما كانوا به يتفاخرون ويتكبّرون فقال إنّه موضوع تحت قدمي إلى يوم القيامة، ولم ينزل من المنبر حتّى زوّج بنت صفية ابنة عبدالمطلب من المقداد مع أنّه كان أفقر النّاس حالاً وأقلهم مالاً، وقد ساوى بينهم في أعزّ الأمور وأنفسها وهو أمر الدّماء، فقال ﷺ المسلمين أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم، فإذا كان دم السلطان والكنّاس على حدّ سواء يقتل هذا بهذا فأنّى للسلطان والفخر والتّكبّر على الكنّاس.

وأمّا حطّ دية العبيد عن الأحرار فلكون الغالب فيهم النّشوء والنماء على ملل الكفر وحالاتهم، وأمّا نقصان المرأة عن الرجل فلنقصان عقلها ودينها، أمّا العقل فهو أنّ شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد، وأمّا الدين فهو أنّ المرأة تمكث زماناً لا تصلّي فيه ولا تصوم لمكان حيضها، وأيضاً فإنّ الإنسان إذا تفكّر في مبادىء أحواله وأواخرها ذلّت عنده نفسه ولم يدخلها في ميدان الفخر والكبر، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام ابن آدم أنّى لك والفخر فإنّ أولك جيفة وآخرك جيفة وفي الدّنيا حامل الجيف، ولينظر أيضاً إلى أحوال هذه الجيف فإنّها ليست كجيف الحيوانات، أمّا الجيفة الأولى فهي المنيّ فقد غلّظ الشّارع نجاستها حتّى فهم بعض الأصحاب من تغليظه أنّ تطهير الثياب والأبدان منها يحتاج إلى الغسل مرّتين، كما ورد في إزالة البول أيضاً وأنها تخرج من طريقين نجسين بالبول فيكون حاله ضمّ نجاسة إلى نجاسة، وأمّا الجيفة الأخيرة وهي ميتته فإنّها أخسّ وأخبث من ميتة الكلب والخنزير؛ وذلك أنّ كلّ من مسّ ميتة الكلب لم يوجب الشارع عليه غسلاً وأما من مسّ جلد الميّت فقد أوجب عليه تطهير كلّ بدنه مبالغة في خبث جيفته وفي اجتناب النّاس له، حتى يعتبر الأحياء برؤية الأموات، وقد ألقى أيضاً على الميّت من الريح المنتنة ما لم يلقه على ميتة شيء من الحيوانات لما ذكر من العلة، وأما جيفته وهو في عالم الحياة فهي أظهر من أن تذكر، وحاله في الدّنيا أخسّ من حمار قد حمل جوالقاً من العذرة.

والعجب أنّه لو مرّ على مثل هذا الحمار لتنفّر منه وبعد عنه ولعن الحمار وشتم صاحبه ولم يتفكّر في أنّ هذا البلاء الذي قد أصاب الحمار إنّما هو منه وإلاّ فالحمار أنّى له والعذرة، فهما قد تراوحا على الجوالق، فقد كان الحامل له أولاً هذا الرّجل

الظريف الذي يقبض الآن على أنفه منه، ثم لمّا عجز عن حمله ولم يطقه رمى ذلك الجوالق على الحمار الفقير فأخذه الحمار ليبعده عنه، فذلك الجوالق قد تراوح عليه حماران إن كنت تعقل.

وقد رأيت بخطّ شيخنا الشيخ بهاء الدين قدّس الله زكيّ تربته هذين البيتين وهما من قوله:

وثورين أحاطا بهذا الورى فثور الثريّا وثور الثّرى

فهم فوق هذا ومن بين ذا حمير مسرّحة في القرى

ولعمرك إنّهم أخسّ من الحمير والثيران، فقد حكى سبحانه عن جماعة قصروا في القيام بوظائف العبوديّة فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وذلك أنّ الأنعام تهرب من الضّار لها وتقبل على من قصد إيصال النفع إليها بخلاف الإنسان فإنّه يهرب عمّن قصد نفعه وهو الذي ربّاه صغيراً ورزقه كبيراً، ويقبل على من أراد ضرره وهم شياطين الجن والإنس، فقد قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] وأنت تهرب عمّن يدعوك إلى دار السلام وتقبل على من يدعوك إلى طبقات النيران، وفي الحديث إنّ أهل النار إذا دخلوها دخل الشيطان فيوضع له منبر من نار ويلبس ثياباً من نار، كما قال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]، فيرقى فوق المنبر ثمّ يأخذ في السخرية والاستهزاء على من تحت منبره، فتضج أهل النار بلعنه وسبّه، فيقول لهم أنصتوا لكلامي، فيقول أيّها الجهّال إنّ الله تعالى أرسل إليكم مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي يدعونكم إلى تلك الجنّة العالية فلم تقبلوا قولهم وأنا دعوتكم وحدي إلى هذه النّار الشديدة العذاب فأطعتموني فلا تلوموني ولوموا أنفسكم.

وإمّا لأن الأنعام تعرف بيت صاحبها فتغدو عليه وتروح وتسرح وتجيء فحالها أحسن من حالك، وذلك أنّك تهرب من المساجد والبيت والكعبة ومن أولياء الله وأحبائه. وإمّا لأنّ الأنعام قد قامت بوظائف ما خلقت له فإنّ الثّور إنّما خلق للحرث والفرس للركوب ونحو ذلك، ولم يحصل منها تقصير في هذه الغايات، وأمّا انت فإنّما خلقت للعبادة ولم تأت بشيء منها فهي أهدى منك وأحسن حالاً، ولو تفكّرت أيها الفاخر المتكبّر لرأيت أنّ أول من سبقك بهذه الخصلة القبيحة هو إمامك الشّيطان حيث أبى عن السجود بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، فإنّه نظر إلى أنّ جوهر النّار يطلب جهة العلوّ والطين يطلب جهة السفل فيكون أشرف

من الطّين، وقد غلط في هذا أيضاً فإن النار وإن ارتفع سنانها في الهواء وشبّت لكنّه لحظة واحدة ثمّ لا يحصل منها بعد إلّا الرماد الّذي لا ينتفع به، وأمّا التراب فهو وإن كان موضوعاً تحت الأقدام لكنّه بسبب هذا التّواضع قد صار مادة لأنواع الورد والريحان وكل خير فهو إذن أشرف من النّار وأنفع منها، فقد غلط في القياس كما سبق تحقيقه، وقد تقدّم في وظائف الصّلوات أنّ الله سبحانه إنّما جعل موسى كليمه لأنّه كان إذا فرغ من الصلاة عفّر خدّيه على التراب، فانظر إلى شرف التراب كيف ترقت بسببه الأنبياء إلى مراتب القدس ومكالمة الحق.

وروي أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام فقال أتدري لم رزقتك النبوّة؟ فقال يا رب أنت أعلم به مني، فقال تذكر اليوم الّذي كنت ترعى الغنم بالموضع الفلاني فعدت شاة فعدوت خلفها، فلمّا لحقتها لم تضربها وقلت أتعبتني وأتعبت نفسك، فحين رأيت منك تلك الشّفقة على ذلك الحيوان رزقتك النبوة. وبالجملة فليس الفخر والشّرف إلّا لمن شرّفته الطّاعة، كما قال في الحديث القدسي ليس الشريف إلّا من شرّفته طاعتي.

وفيه أيضاً: إنّ النّاس يطلبون أشياء في أشياء فلا يجدونها لأنّي وضعتها في غيرها؛ يطلبون العلم في الوطن فلا يجدونه لأنّي وضعته في الغربة، ويطلبون الغنى في جمع المال فلا يجدونه لأنّي وضعته في القناعة، ويطلبون العزّ بخدمة السّلطان فلا يجدونه لأنّي وضعته بخدمتي، ومن هذا قال سبحانه إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ولم يقل إنّ أكرمكم أتقاكم، إشارة إلى ما حققناه من أنّ الفخر والشرف إنّما ينبغي أن يكون هو الّذي يفعله بالإنسان وينشر مدائحه ويرقّيه فوق درجات المعالي من غير أن يكون الإنسان هو المتولي لذلك، وناهيك بالتّكبّر ذماً بعد الناس عن صاحبه بالذلّ فهو لا يحبّهم وهم لا يحبّونه وذمّه على ألسنة الخلائق وأنّ الله يبتليه في أغلب الأوقات بالذلّ والهوان، فإنّ الصادقين عليهم السلام قد مثّلوا الدّنيا ببيت سقفه مخفوض[1] فالدّاخل إليه لا بدّ له من أن يطأطى رأسه عند الدخول، ومن رفع رأسه تلك الحالة شجّه السّقف وأخرج دمه ورمى بعمامته من فوق رأسه وفضحه بين الأقران الذين كان يريد التّرفّع عليهم.

وجاء عن الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض تلاميذه يوماً أيّ شيء تعلّمت مني؟ فقال يا مولاي ثماني مسائل، قال عليه السلام قصّها عليّ لأعرفها، قال الأولى رأيت كل

---

(١) خفضه خفضاً ضد رفعه.

محبوب يفارق محبوبه عند الموت فصرفت همّي إلى من لا يفارقني وهو فعل الخير، قال أحسنت والله، الثانية رأيت قوماً يفخرون بالحسب وآخرين بالمال والولد وإذا ذلك لا فخر فيه، ورأيت الفخر العظيم قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فاجتهدت أن أكون عند الله كريماً قال أحسنت والله، الثالثة قال رأيت الناس في لهوهم وطربهم وسمعت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، فاجتهدت في صرف الهوى عن نفسي حتى استقرّت على طاعة الله تعالى، قال أحسنت والله، الرابعة قال رأيت كلّ من وجد شيئاً يكرم عنده اجتهد في حفظه، وسمعت قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، فأحببت المضاعفة ولم أر أحفظ ممّا يكون عنده، فكلّما وجدت شيئاً يكرم عندي وجّهت به إليه ليكون ذخراً لي وقت حاجتي إليه قال أحسنت والله.

الخامسة: قال رأيت حسد النّاس بعضهم لبعض، وسمعت قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فلما عرفت أنّ رحمة الله خير مما يجمعون ما حسدت أحداً ولا تأسفت على ما فاتني، قال أحسنت، السادسة قال رأيت عداوة الناس بعضهم لبعض في دار الدنيا، وسمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦] فاشتغلت بعداوة الشّيطان عن عداوة غيره، قال أحسنت، السابعة قال رأيت كدح[1] الناس واجتهادهم في طلب الرزق وسمعت قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] فعلمت أنّ وعده حق وقوله صدق فسكنت إلى قوله ووعده ورضيت بقوله واشتغلت بما له عليّ عمّا لي عنده قال أحسنت والله، الثامنة قال رأيت قوماً يتكلون على أبدانهم وقوماً على كثرة أموالهم وقوماً على خلق مثلهم وسمعت قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٢-٣] فاتّكلت على الله وزال اتكالي عن غيره، فقال والله إنّ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وسائر الكتب مشحونة بهذه المسائل.

---

(١) كدح - كدحاً في العمل: جهد نفسه فيه وكد حتى يؤثر فيها. كدح لعياله: كسب، اكتدح لعياله: سعى وكسب الرزق.

وأعظم أسباب التّكبر الغنى وجمع الأموال، وروي أنّ أول من سكّ الدّراهم والدنانير النّمرود، فأوّل درهم ودينار سكّهما الصّائغ أخذهما الشيطان وقبلهما ووضعهما على عينيه، وقال أنال ما أريد من النّاس بهذين، فكان كما قال، ومن هنا قال عليه السلام إنّ الله يبغض الشيخ الزاني، والفقير المتكبّر، وذلك لعدم وجود الداعي فيهما وهو الشهوة والمال، وفي بعض التواريخ أنّه قد سئل الفضل بن يحيى بن البرمكي(١) عن سبب التّكبر الذي كان يفعله مع النّاس ومن أين أخذه، فقال أخذته

(١) هو وزير الرشيد العباسي وأخوه في الرضاع واستوزره الرشيد مدة قصيرة ثم ولاه خراسان سنة (١٧٨هـ) وأقام فيها إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة سنة (١٨٧هـ).
وقد حصل لآل برمك في دولة بني العباس عز عظيم وجاه عريض وثروة طائلة ومناصب عالية وصارت بأيديهم ازمة الملك وانقادت لهم الدولة.
والبرامكة يرجعون في أنسابهم إلى الفرس وأصلهم من خراسان وهم نظراً إلى أصلهم المجوسي وتعصبهم الممقوت كانوا من المعاندين للإسلام باطناً ولكن تظاهروا بالتدين به ظاهراً ولذلك سعوا عند الرشيد في قتل الإمام الكاظم عليه السلام فإنّ الإمام عليه السلام كان أصل الدين وأسه وحجة الله وخليفته في أرضه ومن بيته بزغت شمس الرسالة والنبوة ونظراً إلى الضغائن الخبيثة في قلوبهم سعوا بعده في حق ابنه الإمام الرضا عليه السلام أيضاً.
ولكن الرشيد لم يقبل ذلك منهم وكان الرضا عليه السلام يدعو عليهم فاستجاب الله تعالى دعاءه في حقهم وخذلهم واخزاهم ونقم الرشيد عليهم وبهذا السبب زَالت النعمة عنهم وسعى الرشيد في إبادة كبريائهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **(من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه)**.
عن موسى بن مهران كما في عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق رحمه الله، قال سمعت جعفر بن يحيى يقول: سمعت عيسى بن جعفر يقول لهارون حيث توجه من الرقة إلى مكة: اذكر يمينك التي حلفت بها في آل أبي طالب فإنك حلفت إن ادعى أحد بعد موسى الإمامة ضربت عنقه صبراً وهذا عليّ ابنه يدعي هذا الأمر ويقال فيه ما يقال في أبيه فنظر إليه مغضباً فقال: وما ترى؟ تريد أن اقتلهم كلهم؟ قال موسى بن مهران: فلما سمعت ذلك صرت إليه فاخبرته فقال عليه السلام ما لي ولهم لا يقدرون إليّ على شيء(اهـ).
وعن صفوان بن يحيى قال: لما مضى أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وتكلم الرضا عليه السلام خفنا عليه من ذلك فقلت له، إنك قد اظهرت أمراً عظيماً وإنّا نخاف من هذا الطاغي فقال ليجهد جهده فلا سبيل له عليّ. قال صفوان: فاخبرنا الثقة أنّ يحيى بن خالد قال للطاغي (هو هارون) هذا عليّ ابنه قد قعد وادعى الأمر لنفسه فقال: ما يكفينا ما صنعنا بأبيه؟ تريد أن نقتلهم جميعاً. ولقد كانت البرامكة مبغضين على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله مظهرين لهم العداوة (اهـ) أقول لم تكن عداوتهم لأهل البيت عليهم السلام إلا لأن الإسلام ظهر من بيتهم والدولة الإسلامية قضت على الدولة المجوسية وأبادتهم والبرامكة كانوا يعرفون أنّ أساس الإسلام وحقيقته إنّما هو في البيت النبوي الخالد ولذا كان من نيّاتهم الممقوتة محو هذا البيت ومحقه=

من فلان وهو رجل من أقارب الخليفة، وذلك أنّ الخليفة جعلني عاملاً على قم وتوابعها وكان لي من يكرهني عند الخليفة، فقالوا له ينبغي أن تأخذ منه خراج هذه السنة قبل أن يمضي إلى قم فأتتني غلمان الخليفة والخراج كان مالاً جزيلاً فقال لي أبي إمض إلى فلان وقل له إنّ أبي يقرأ عليك السلام وتقول القصّة كذا وكذا، فإن حصل شيء تقرضنا حتّى نأتي بالخراج فمضيت إليه ووجدته جالساً وحده متكياً على محجّر، فسلّمت عليه ولم ينظر إليّ فتندّمت على المجيء إليه؛ فقلت له ما قال لي أبي فلم يكلّمني فخرجت ولم أحك ما جرى لأبي، فلمّا كان قد مضى ساعة وإذا الجمال محملة بتلك الأموال معها غلمانه، وإذا هي تفي بالخراج وفوقه، فأوصلناها إلى خزانة الخليفة، فلما جمعت الخراج أتيت بها إلى بغداد حملت الجمال تلك الأموال وتقدّمتها فرأيته جالساً على تلك الهيئة فلما رأى الجمال قال ما هذه الجمال؟ فقلت هذه الأموال التي استقرضها أبي منك، فقال إنّي كنت خزّاناً لأبيك؟ خذ أموالك وامض، فلم يكلّمني غيرَ هذه الكلمة، فأتيت بالأموال فأعجبني تكبّره لأنه مشفوع بالكرم.

وأمّا حال المتكبّر في الآخرة فهو شنيع فظيع، قال عليه السلام يحشر المتكبّرون يوم القيامة بصورة الذر تطأهم الخلائق بأرجلها حتّى يفرغ الله من الحساب، فهذا الهوان والذلّ بازاء ما راموه في الدّنيا من الفخر والكبر ولم يحصّلوه.

بقي الكلام في معناه وفي تحقيقه فقد روى الكليني رحمه الله في الصحيح مسنداً إلى محمّد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر، قال فاسترجعت، فقال ما لك تسترجع؟ قلت لما سمعت منك، فقال ليس حيث تذهب إنّما هو الجحود، وقال الصادق عليه السلام الكبر أن تغمص[1]

= وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ونياتهم وحيلهم ولكن أبى الله إلا أنّ يتم نوره ولو كانت البرامكة للإسلام كارهين.

عن محمد بن الفضيل قال: لما كان في السنة التي بطش هارون بآل برمك بدأ بجعفر بن يحيى وحبس يحيى بن خالد ونزل بالبرامكة ما نزل كان أبو الحسن عليه السلام واقفاً بعرفة يدعو ثم طأطأ رأسه فسئل عن ذلك فقال: إني كنت ادعو الله تعالى على البرامكة بما فعلوا بأبي عليه السلام فاستجاب الله لي اليوم فيهم فلما انصرف لم يلبث إلا يسيراً حتى بطش بجعفر ويحيى وتغيرت أحوالهم (اهـ) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٢٢٥ ط قم.

قلت هذه نكبتهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

(١) غمصه: احتقره، رجل غمص: عيوب.

الناس وتسفه الحق وقال رسول الله ﷺ إنّ أعظم الكبر غمص الخلق وسفه الحقّ، قال قلت وما غمص الخلق وسفه الحق؟ قال يجهل الحقّ ويطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع الله تعالى رداءه. وعن عمر ابن يزيد عن أبيه قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام إنّني آكل الطعام الطيّب، وأشمّ الريح الطيّبة، وأركب الدابّة الفارهة، ويتبعني الغلام، فترى في هذا شيئاً من التجبّر فلا أفعله، فأطرق أبوعبدالله عليه السلام ثمّ قال إنّما الجبّار الملعون من غمص الناس وجهل الحق، قال عمر فقلت أما الحقّ فلا أجهل والغمص لا أدري ما هو؟ قال من حقر الناس وتجبّر عليهم فذلك الجبّار، والغمص بالغين المعجمة والصاد المهملة هو تحقير النّاس. أقول دلّت هذه الأخبار على أنّ الكبر المتوعد عليه هو تحقير الناس وعدم قبول الحق فيدخل في هذا أمور:

الأوّل: ما يقع في مناظرة بين أرباب العلم فإنّ الغالب من أحوالهم أنّه يريد كل واحد منهم إفحام خصمه ليترفّع عليه في المجالس، وإذا ظهر له أنّ كلام خصمه حق ردّه ولم يقبله منه لئلا يظهر للناس أنّه قد أفلج، فمثل هذا المناظر يدخل في تعريف هذا المتكبّر ولأنّه ردّ الحق بعدما ظهر له أنّه حق، وأيضاً فقد حقر قائله حيث زعم الناس أنّه هذا الرجل المبطل هو المحقّ وذلك المحقّ هو المبطل.

ومن هنا كان المولى الصالح العالم عبدالله التستري إذا سأل التقي الورع المولى أحمد الأردبيلي عن مسألة وتكلّما فيها سكت الأردبيلي في أثناء الكلام، أو قال حتّى أُراجعها في الكتب، ثمّ أخذ بيد التستري ويخرجان من النجف الأشرف إلى خارج البلد فإذا انفردا قال المولى الأردبيلي هات يا أخي تلك المسألة، فيتكلّم فيها ويحققها الاردبيلي على ما يريد المولى التستري، فيسأله فيقول يا أخي هذا التحقيق لم لا تكلّمت به هناك لمّا سألتك؟ فيقول له إنّ كلامنا كان بين الناس، ولعل كان فيه تنافس وطلب الظفر منك أو منّي والآن لا أحد معنا إلّا سبحانه.

الثّاني: في التواضعات بأن يقوم لبعض الناس على وجه التعظيم ولا يقوم للبعض الآخر على وجه التحقير بأن يخطر بباله إنّ هذا لا يستأهل التعظيم والقيام له، أمّا لو كان بعض النّاس يتوقّع التّعظيم والآخر لا يتوقعه ولا يطلبه من ذلك الرّجل بل ربّما شق عليه تواضعه له فالظاهر إنّ تركه له لا يعد من باب التكبّر والفخر؛ وكذا في باب السلام والتحيّات فإنّ كثيراً من الّناس إذا تلاقوا مع أخوانهم لا يتبدئونهم بالّسلام عمداً وقصداً ويحقّرونهم ويبخلون عليهم بالسلام، ويطلبون أن يكون المبتدىء بالسّلام هو ذلك الرجل الذي حقروه، مع قول النبي ﷺ يا علي كلّ من لقيته فسلّم عليه، وقوله ﷺ إنّ من المنجيات من عذاب الله تعالى إفشاء السلام، وقوله إنّ

البخيل من بخل بالسلام، وما ورد من أنّ ثواب المسلّم أكثر من ثواب الرادّ للسلام مع أنّ الأول مستحب والثاني واجب، فهذا من المواضع المستثناة من القاعدة الكليّة وهي أنّ ثواب الواجب أزيد من ثواب المستحبّ، ومن المستثنى أيضاً إنظار المعسر وإبراؤه من الدين، فإنّ الأول واجب والثاني مستحبّ. والثاني يفضل على الأول في الثواب.

ومنها الصلاة المعادة بالجماعة بالنسبة إلى الأولى؛ وقد عدّ منها الصلاة في الأماكن الّشريفة والبقاع فإنّه أفضل من الصلاة في غيره، قال شيخنا البهائي رحمه الله ويمكن المناقشة في حكاية إنظار المعسر فإنّ الواجب عدم مطالبته سواء حصل في ضمن الإنظار أو الإبراء لكن حصوله في ضمن الإبراء أفضل الواجبين، وقس عليه المناقشة في حكاية الصلاة في البقاع الشريفة بل هي فيه أظهر، انتهى. أقول يمكن رفع المناقشة بأن الواجب في المعسر ليس هو عدم المطالبة مطلقاً بل عدم المطالبة إلى وقت الإيسار فالواجب إنّما هو هذا الفرد، وأمّا عدم المطالبة مطلقاً فليس هو بواجب بل مستحب فيدخل في جملة الأفراد، وأمّا المناقشة في الأخير فجوابها إنّ مراد القائل بها إنّ الصلاة النافلة في الأماكن الشريفة تفضل على الصلاة الواجبة في غيرها كما وردت به الأخبار، وليس المراد به الصلاة الواجبة الواقعة في البقاع الشريفة كما لا يخفى، وقد روى الشيخ رحمه الله في الصحيح عن معاوية بن عمار قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام رجلان إفتتحا الصلاة في ساعة واحدة فتلا هذا القرآن فكانت تلاوته أكثر من دعائه، ودعا هذا فكان دعاؤه أكثر من تلاوته، ثمّ انصرفا في ساعة واحدة فأيّهما أفضل. قال كلّ فيه فضل كلّ حسن، قلت إنّي قد علمت إنّ كلاً حسن وإنّ كلاً فيه فضل، فقال الدعاء أفضل أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] هي والله العبادة هي والله أفضل، الحديث. وقد جعل بعضهم هذا الفرد الخاصّ من جملة الأفراد المستثناة فردّ عليه شيخنا البهائي طاب ثراه بقوله ما تضمنه من أنّ تفضيل الدّعاء على قراءة القرآن في الصلاة لا يدلّ على تفضيل المستحبّ على الواجب فلعل المراد بالقراءة ما عدا القراءة الواجبة إن قلنا باستحباب السورة أو المراد بالدعاء القنوت إن قلنا بوجوبه وإن أريد بالقراءة والدعاء الواقعان بعد الصلاة في تعقيبها فلا إشكال. هذا كلامه ولا يخفى ما فيه إذ القول بوجوب القنوت نادر، كما إنّ القول باستحباب السورة خلاف المشهور، وقد خطر بالبال جواب عن أصل السؤال، وحاصله إنّ قراءة السورة وإن

وصف بالوجوب من حيث حصول القراءة في ضمنها لكنّها توصف بالاستحباب أيضاً من حيث الطول والقصر وغيرهما من الاعتبارات، ومن ثمّ قال الأصحاب رضوان الله عليهم تبعاً للأخبار يستحبّ قراءة سورة كذا في صلاة كذا فهي من حيث إنّها سورة طويلة توصف بالحكمين الوجوب والاستحباب لكن كلّ واحد باعتبار فيكون عليه السلام قد فضل الدّعاء المستحب على قراءة السورة الطويلة مثلاً لكن لامن حيث الوجوب وجهته، بل من جهة الاستحباب واعتباره اذ السورة الّطويلة مثلاً يثاب عليها صاحبها مرتين، مرّة لحصول الواجب في ضمنها ومرة أُخرى بكونها أطول من غيرها فتكون مستحبة، وبالجملة فهو تفضيل مستحبّ على مثله، وهذا كلام وقع في البين فلنرجع إلى تمام كلامنا السابق فنقول:

إنّه قد تعارف في بعض البلاد أن يسلّم زيد مثلاً على عمرو ابتداءً فلو ترك عمرو الابتداء بالتسليم نظراً إلى الرسوم المتعارفة لا من جهة التحقير فالظاهر أنّه لا بأس به، نعم قد فوَّت على نفسه مزيد الثواب، والعلة في توفير ثواب المسلّم على المجيب أنّ المسلّم هو السبب في تحصيل الثواب للمجيب فمن هذا زاد عليه.

الأمر الثالث: في الجلوس في المجالس والتصدر فيها وتحقير الفقير بحيث لا يرضى الغير بجلوسه في قرب منه، كما روي عن الصادق عليه السلام قال جاء رجل موسر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله نقيّ الثوب فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاء رجل معسر درن[1] الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله خفت أن يمسَّك من فقره شيء، قال لا قال خفت أن يصيبه من غناك شيء، قال لا، قال فخفت أن يوسخ ثيابك، قال لا، قال فما حملك على ما صنعت؟ فقال يا رسول الله إنّ لي قريناً يزيّن لي كلّ قبيح ويقبح لي كلّ حسن، فقد جعلت له نصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للمعسر أتقبل؟ قال لا، فقال له الرجل ولم؟ قال أخاف أن يدخلني ما دخلك، فهذا أيضاً نوع من أنواع العجب وأفراده.

الأمر الرابع: في المحاورات والمكالمات، فإنّ كثيراً من الناس من يعبّر عن نفسه بالعبارات الموجبة للتعظيم والتكبّر كأن يقول أنا أمرت وأنا نهيت إلى غير ذلك من العبارات الظاهرة في الفخر والتعظيم، وقد روي إنّ رجلاً جاء إلى النّبي صلى الله عليه وآله فدق عليه الباب، فقال من بالباب؟ فقال أنا فغضب صلى الله عليه وآله من قوله، فخرج وهو يقول من القائل أنا وهي لا تليق إلّا بالله الذي يقول أنا الجبار أنا القهار أنا الخالق، ثم

---

(١) درن درناً الثوب: علاه الوسخ. الدرين الثوب البالي.

قال ﷺ إنّ في رأس كلّ واحد من الناس سلسلتين، فواحدة من رأسه إلى العرش وطرفها في يد ملك جالس هناك، والأُخرى تنتهي إلى تحت الأرض وطرفها في يد ملك هناك أيضاً، فإذا تواضع لله قال الله سبحانه للملك الذي في العرش قد تواضع فلان فارفعه بين الناس حتى تكون مرتبته إلى العرش، وإذا تكبر قال الله سبحانه للملك الآخر اخفضه بين الناس وأهبط درجته حتى ينتهي حاله إلى ما تحت الثرى.

الأمر الخامس: في تبختره في المشي إمّا بأن يضرب الأرض برجله كأنّه يريد أن يخرقها، أو يمشي الهوينا[1] متبختراً متخيّلاً في المشي جاذباً عنقه، وربّما قلب عمامته فوق وجهه كما يفعله المتكبّرون، كأنّه يريد أن يبلغ السماء حتّى إنّ الأرض تخاطبه وتقول يا متكبّر تمشي على وجهي بهذه الطريقة فأنا أتقاضى منك إذا وصلت إلى بطني، فإذا مات قالت له الأرض هذا الكلام أيضاً، ثمّ تضغطه ضغطة شديدة حتّى تخرج مخّ رأسه من تحت أظافير رجليه. وروي أنّ ذا النون المصري رأى (رجلاً خ) عبداً أسود متزراً بإزار يتبختر عند البيت في جماعة من أتباعه، فقال من أنت وما هذا التبختر؟ قال كيف لا أتبختر وأنا عبد ملك مكة، قال ذو النّون فأنا بالتبختر أولى منك فإنّي عبد ملك النّاس ويوم الدين. وبالجملة فأنواع التّكبر كثيرة وأكثرها يرجع إلى القصد والنّية، وكلها تشترك في ذلك العذاب الشديد نعوذ بالله من سيئات الأعمال ومساوىء الأخلاق.

نور يكشف عن تحريم معونة الظالمين مطلقاً

إعلم أيدك الله وسدّدك وإلى كلّ خير وفقك وأرشدك إنّ المقصود من إيجاد هذا العالم إنّما هو التعاون على البر والتّقوى وقضاء مآرب بعضهم بعضاً حتّى يتمّ أمر الاجتماع والائتلاف، ومن ثم ورد الحثّ على مثل هذا حتّى في الأمور القليلة، فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ٤-٧]؛ والمراد بالماعون الآلات التي يحتاج إليها الجيران والمؤمنون مثل الظّروف والفروش والفأس والمسحاة وغيرها، فقرن من منع جيرانه وإخوانه من إعارة هذه الأمور بالمرائي الذي جعل له الويل، وهو واد في جهنم، وفي ظاهره دلالة على وجوب إعارة هذه الآلات، وحيث انعقد الإجماع على الاستحباب قلنا به وإلاّ فالقول بالوجوب لا يخلو من وجه خصوصاً

(١) الهوينا التؤدة والرفق. وهي تصغير الهونى والهونى تأنيث الأهون.

إذا استلزم الهوان به وقصد تحقيره ومذلّته، فإن القول بتحريم المنع قوي جدّاً؛ لما عرفت في النور السابق، ولا ريب أنّ الظلم والتعدّي ممّا يخل بنظام نوع الإنسان، إذ فيه تفريق ما اجتمع ومن ثم وقع في الشرع الأمر بالأخذ على يدي الظالم فقال ﷺ انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً، فقيل يا رسول الله ننصره مظلوماً فما بالنا ننصره ظالماً؟ فقال خذوا على يديه وامنعوه عن الظلم فهذا نصرتكم لأخيكم. وكما حرّم الظلم حرّم معونة الظالمين أمّا الذي له مدخل في الظلم فقد انعقد الاجماع على تحريمه، مثل يكون صاحب سيف أو سوط عند الظالمين، أو يكون يكتب لهم المظالم أو يبعثونه في تحصيلها، إلى غير ذلك، أمّا الّذي لا مدخل له في الظلم كالخيّاط يخيط لهم ثيابهم والبنّاء يبني لهم المنازل، أو النجار أو الحداد ونحوهم فالمشهور بين الأصحاب هو عدم تحريمه، وناقشهم فيه شيخنا البهائي طاب ثراه وذهب إلى تحريم معونة الظالمين مطلقاً، وهو الذي اخترناه في شرح الصحيفة، ولنذكر هنا بعضاً من الدلائل:

منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، فالركون هو مطلق الميل سواء كان بالقلب أو اللسان أو الأعضاء والجوارح أو المعونة أو نحوها، فإذا كان بالقلب كان فيه موادّة الظالم، وقد أخبر سبحانه عن أقوام ونعى عليهم هذه الزلّة فقال ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولا ريب إنّ الظّالم ممّن نصب الحرب مع الله تعالى، وإذا كان باللّسان أو بغيره من الأعضاء كان فيه مع الموادة الإعانة المحرمة، فيكون قد أتى بحرامين مغلّظين، وقد نفى سبحانه في هذه الآية معونة الظالمين مطلقاً، وعقّبها بدخول النار على طريق العذاب، إذ لم يقل ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتدخلوا النار، وذلك أنّ دخول النار لا يستلزم مسّها والعذاب فيها.

روى شيخنا الكليني طاب ثراه عن الوصّافي قال سمعت أباجعفر عليه السلام يقول إنّ فيما ناجى الله عبده موسى عليه السلام قال إنّ لي عباداً أُبيحهم جنّتي وأُحكّمهم فيها، قال يا ربّ ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنّتك وتحكمهم فيها؟ قال من أدخل على مؤمن سروراً، ثم قال إنّ مؤمناً كان في مملكة جبّار فولع به، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فأظلّه وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت أوحى الله عزّ وجلّ إليه وعزّتي وجلالي لو كان لك في جنّتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنّها محرّمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي

النهار، قلت من الجنّة؟ قال من حيث شاء الله[١]. وقوله هيديه على ما في القاموس معناه أصلحي أحواله، فهذا قد دخل النّار ولم تمسّه، فانظر إلى عظم شأن المؤمن عند الله سبحانه حيث أدخل المشرك الكافر جنّته لأجل ضيافة المؤمن مرّة واحدة، فمن أحبّ المؤمن وأضافه وكساه وخدمه كيف يكون حاله عند الله سبحانه وتعالى.

وروي عن الصادق عليه السلام قال إنّ الله يأمر بإدخال جماعة إلى النّار، ويقول لمالك يا مالك قل للنّار لا تحرق لهم أيدياً لأنّهم كانوا يرفعونها إليّ أوقات الصلوات؛ وقل للنّار لا تحرق لهم وجوهاً لأنّهم كانوا يسبغون الوضوء، وقل للنّار لا تحرق لهم أرجلاً لأنّهم كانوا يمشون بها إلى المساجد، فيأتي إليهم مالك فيقول لهم يا أشقياء ما كانت أعمالكم التي دخلتم بها النّار؟ فيقولون إنّا كنّا نعمل لغير الله، فتخطف النار قلوبهم، فهؤلاء أيضاً لا تمسّ النّار لهم أبداناً[٢].

ومنها ما رواه الشيخ في الحسن عن ابن أبي يعفور قال كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ دخل عليه رجل من أصحابه، فقال له أصلحك الله إنّه ربّما أصاب الرجل منّا الضّيق أو الشّدة فيدعى إلى البناء فيبنيه أو النّهر يكريه والمسناة يصلحها[٣]

---

(١) ومما يجدر التنبيه عليه هنا هو أنّ المصنف رحمه الله قد ذكر سابقاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٥٩ خبراً مرسلاً بقوله: روي أنّ رجلاً مؤمناً قد أخافه سلطان بلاده فلحق ببلاد الكفار فاضافه رجل كافر الخ والخبر الذي ذكره هنا قريب المضمون مع ذلك الخبر المذكور ولعله نقله بالمعنى هناك.

وقد ذكرنا سابقاً القاعدة المستفادة من القرآن الكريم والسنة الثابتة اعني قاعدة الموافاة وان استحقاق الثواب مشروط بالموافاة على الإيمان وأن الشرك يحبط الأعمال ويبطلها فكيف يستحق المشرك ومن مات على الكفر شيئاً من جزاء بعض أعماله في الآخرة فلا بد من توجيه هذا الخبر كما ذكرنا في الموضع الذي أوعزنا إليه.

ولا يخفى ما في عبارة المصنف رحمه الله: ادخل المشرك الكافر جنته لأجل ضيافة المؤمن الخ، من المسامحة فإنّ الخبر صريح بأن الجنّة محرمة على من مات مشركاً اللهم إلا أن يكون مراده من الجنّة هو محله من النار التي يؤتى فيها برزقه.

نعم يدل الخبر على أنّ ذلك الكافر دخل النار ولكنها لا تؤذيه وهذا بظاهره محل تأمل فإنّه لا ينفع مع الكفر عمل كما في الأخبار وقد ذكرنا تفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب انظر ج ٢ من صفحة (٢٥٩) إلى صفحة (٢٦٣) وتدبر.

(٢) علل الشرائع ج ٢ باب ٢٢٢.

(٣) كريت النهر كرياً من باب رمى حفرت فيه حفرة جديدة والمسناة بضم الميم ما يقال له بالفارسية (مرز) ويقال أنّ ما يكون أزيد تراباً منه ومن التحجير هو المسناة. وكيت شددت =

فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام ما أُحبّ أنّي عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاءً وأنّ لي ما بين لابتيها لا ولا مدة بقلم؛ إنّ أعوان الظالمين يوم القيامة في سرادق من نار حتّى يحكم الله بين العباد. وهذا صريح في تحريم إعانتهم بالمباحات فإن شدّ الوكاء وأمثاله ممّا لا مدخل له في الظلم كما قاله العلماء في المثال.

ومنها ما رواه الكليني قدس الله روحه عن علي بن أبي حمزة قال كان لي صديق من كتّاب بني أميّة، فقال استأذن لي على أبي عبدالله جعفر بن محمد

= والوكاء بالكسر والمد ما يشد به رأس القربة ونحوها. واللابتان للمدينة الحرتان أي الارضان الواسعتان في جنبي المدينة تكتنفانها وحدّتا بعبارات منها: ما بين ظل عائر ووعير وهما جبلان عظيمان. والمراد من هذه العبارة: إني لا أحب أن أعمل لهم عملاً قليلاً مثل عقد عقدة أو شد وكاء والحال أن يكون لي ما بين لابتي المدينة من الملك والمال عوضاً عن هذا العمل اليسير فكيف بغير تلك الحال. وفي نسخة الحدائق والوسائل بزيادة كلمة (لا) بعد قوله لابتيها إلا أنّه ليس في الكافي وعلى تقدير وجودها ـ كما انها موجودة في المتن في النسخ التي وقفنا عليها ـ تأكيد للنفي المذكور بقوله: ما أحب وقوله: ولا مدة، الواو للعطف ولا لإعادة النفي ومدة إما مفعول لقوله احب أو مفعول مطلق والتقدير ما أحب أني مددت لهم مدة بقلم لهم عوضاً عما بين لابتيها.

والمدة بالفتح غمس القلم في الدواة مرة للكتابة. وسرادق معرب (سرا پرده) كما في الوافي للعلاّمة الكاشاني رحمه الله وقال الجواليقي في كتابه (المعرب): السرادق فارسي معرب واصله بالفارسية «سرادار» وهو الدهليز قال الفرزدق:

تمنيتهم حتى إذا ما لقيتهم ... تركت لهم قبل الضراب السرادقا

قوله: سرادار قال المحقق أحمد محمد شاكر أبي الأشبال: هكذا في النسخ المخطوطة بألف قبل الدال وألف بعدها وضبط بفتح السين والراء والدال في (م) وفي (ب) سردار بدون ضبط وبحذف الألف الأولى قوله: وهو الدهليز، قال المحقق المذكور: هكذا فسره الجواليقي وهو غير جيد قال في اللسان، السرادق: ما أحاط بالبناء والجمع سرادقات ثم نقل عن الجوهري قال: السرادق واحد السرادقات التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف فهو سرادق. والكلمة قرآنية قال تعالى في سورة الكهف آية ٢٩: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ولم يزعم أحد فيما رأيت أنها معربة إلا الجواليقي هنا والراغب في المفردات قال: «فارسي معرب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالثة ألف وبعده حرفان». والكلمة عربية قال ابن دريد في الجمهرة (٣ ـ ٣٣٢)، وسردق البيت: جعل له سرادقاً وذكر شاهداً من شعر الأعشى. وفي اللسان «وبيت مسردق بضم الميم وفتح السين وسكون الراء وفتح الدال على بناء اسم المفعول وهو أن يكون أعلاه وأسفله مشدوداً كله وقد سردق البيت ثم ذكر بيت الأعشى ولكن نسبه لسلامة بن جندل. انظر (المعرب) ص ٢٠٠ ط مصر ١٣٦١هـ.

الصادق عليه السلام، فاستأذنت له فأذن له، فلمّا دخل وسلّم جلس، ثمّ قال جعلت فداك إنّي كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه، فقال أبو عبدالله عليه السلام لولا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم النّاس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع في أيديهم- الحديث، وهو شامل للمباح والمحرّم بل والمستحبّ أيضاً لمكان قوله ويشهد جماعتهم؛ وقد أغرب العلاّمة رحمه الله في التذكرة حيث استدل بهذه الأخبار على ما ذهب إليه من تخصيص التّحريم بمعونتهم بالمحرّم.

ومنها ما رواه أهل كتب الرجال عند ترجمة صفوان بن مهران روى الكشّي عن الحسن ابن علي بن فضال قال حدّثني صفوان بن مهران الجمّال قال دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام، فقال لي يا صفوان كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً، فقلت أي شيء جعلت فداك؟ قال إكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعني هارون، قلت والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو، ولكن أكريته لهذا الطريق يعني طريق مكّة؛ ولا أتولاّه بنفسي ولكن أبعث معه غلماني؛ فقال لي يا صفوان أيقع كراك عليهم قلت نعم جعلت فداك، قال فقال لي أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت نعم؛ قال فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم؛ ومن كان منهم كان ورد النّار؛ قال صفوان فذهبت وبعت جمالي عن آخرها فبلغ ذلك إلى هارون؛ فدعاني فقال لي يا صفوان بلغني إنّك بعت جمالك؟ قلت نعم، فقال ولم؟ قلت أنا شيخ كبير وإنّ الغلمان لا يفون بالأعمال؛ فقال هيهات هيهات إنّي لأعلم من أشار عليك بهذا إنّما أشار عليك بهذا موسى بن جعفر؛ قلت ما لي ولموسى بن جعفر؛ فقال دع هذا عنك فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك؛ وهذا الحديث أبلغ من الأخبار السابقة فإنّه بظاهره يعطي تحريم معونتهم حتّى في الأمر الواجب كسفر مكّة وأمثاله[1].

---

(١) معونة الظالمين في ظلمهم حرام بالأدلة الأربعة وهو من الكبائر وأما معونتهم في غير المحرمات فظاهر كثير من الأخبار حرمتها أيضاً لكن المشهور عدم الحرمة حيث قيدوا المعونة المحرمة بكونها في الظلم والأقوى التحريم مع عد الشخص من الأعوان فإنّ مجرد إعانتهم على بناء المسجد ليست محرمة إلا أنّه إذا عد الشخص معماراً للظالم أو بنّاء له ولو في خصوص المساجد بحيث صار هذا العمل منصباً له في باب السلطان كان محرماً ويدل على ذلك جميع ما ورد في ذم أعوان الظلمة وأما العمل له في المباحات لاجرة أو تبرعاً من غير أن يعدّ معيناً له في ذلك فضلاً عن أن يعّد من أعوانه فالأولى عدم الحرمة للأصل وعدم الدليل عدا ظاهر بعض الأخبار مثل رواية ابن أبي يعفور ورواية صفوان بن مهران الجمال وغيرهما =

ومنها ما سنح بالبال وهو أنّ الأمور التي ذكروها وقسّموها قسمين وجعلوا منها ما له مدخل في الظلم، ومنها ما ليس كذلك ليس على ما ينبغي فإن الأمور التي ذكروها ممّا له مدخل في الظلم كلّها، وذلك أنّ الخياطة والبنائية ونحوهما من الأمور التي جعلوها من القسم الثاني لو تركها أهلها لأقلع الظالمون عمّا هم فيه، وذلك أنّ الخيّاط لو ترك خياطة ثياب الظالمين والبنّاء ترك بناء منازلهم لبقوا بلا منزل ولا ثياب وكذا باقي الحرف وأهل الكسب، فدلّ على أنّ كلّ هذه الأمور ممّا له مدخل في الظلم لكن بعضها أقرب إلى الظلم من بعض؛ كالكتابة في ديوانهم فإنّها أقرب إلى الظلم من الحدادة والخياطة، ومن ثمّ صارت الكتابة معونة في العرف دون الثانية وإلاّ فالكلّ من واد واحد مع أنّك قد عرفت أنّ الأمور التي جعلوها من القسم الثاني يجب تحريمها من جهة أُخرى أيضاً وهي أنّها مستلزمة لوداد من حادّ الله ورسوله فهو حرام على كل وجه، ومنها أنّه يرد على التخصيص اعتراض وهو أن

= كما نقلها المصنف رحمه الله ولكن الباحث المنقب يعلم عند التحقيق أنّ شيئاً منها لا ينهض دليلاً لتحريم العمل لهم على غير جهة المعونة أما رواية ابن أبي يعفور فلأن التعبير فيها في الجواب بقوله: ما أحب، ظاهر في الكراهة وأما قوله عليه السلام: إنّ أعوان الظلمة الخ فهو من باب التنبيه على أنّ القرب إلى الظلمة والمخالطة معهم مرجوح لأن المخالطة تؤدي إلى عده من أعوانه من كثرة العمل وغيره وإلا فليس من يعمل لهم الأعمال المذكورة في السؤال خصوصاً مرة أو مرتين خصوصاً مع الاضطرار معدوداً من أعوانهم.

وأما رواية صفوان فالظاهر منها أنّ نفس المعاملة معهم ليست محرمة بل من حيث محبة بقاءهم وإن لم تكن معهم معاملة ولا يخفى على الفطن العارف بأساليب الكلام أنّ قوله عليه السلام ومن أحب بقاءهم كان منهم لا يراد به من أحبهم مثل محبة صفوان بقائهم حتى يخرج كراؤه بل المراد حبهم من أنفسهم وكونهم من ولاة الجور والظلم بل هو من باب المبالغة في الاجتناب عن مخالطتهم حتى لا يفضي ذلك إلى صيرورتهم من أعوانهم وأن تشرب القلوب حبهم لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها.

قال الشيخ الأعظم الأنصاري قدس سره بعد التصريح بما ذكرناه ملخصاً ما هذا لفظه: (وقد تبين مما ذكرنا أنّ المحرم من العمل للظلمة قسمان أحدهما الإعانة لهم على الظلم والثاني ما يعد معه من أعوانهم والمنسوبين إليهم بأن يقال هذا خياط السلطان وهذا معماره وأما ما عدا ذلك فلا دليل معتبر على تحريمه (اهـ).

والقارىء الخبير بعد الإحاطة بما ذكرناه تعرف مواضع النظر في كلمات المصنف رحمه الله وأنه خلط بين ما يستفاد منه الكراهة وبين ما يستفاد منه الحرمة وتعرف أيضاً النظر في ما ذكره المصنف رحمه الله بقوله: وقد اغرب العلاّمة رحمه الله في التذكرة حيث استدل بهذه الأخبار الخ.

إعانة كل أحد بالمحرّم محرّمة سواء كانت إعانة الظالمين أم غيرهم، بل فعل المحرّم في نفسه حرام سواء كان إعانة أو غيرها.

قال شيخنا البهائي رحمه الله وأما ما ينقل عن بعض الأكابر من إنّ خيّاطاً قال له إنّي أخيط للسلطان ثيابه فهل تراني داخلاً بهذا في أعوان الظلمة؟ فقال الدّاخل في أعوان الظلمة من يبيعك الإبر والخيوط وأمّا أنت فمن الظلمة أنفسهم، فالظاهر أنّه محمول على نهاية المبالغة في الاحتراز عنهم والاجتناب عن تعاطي أمورهم وإلاّ فالأمر مشكل جداً، انتهى.

أقول: وعلى ما ذكرناه لا يكون هذا من باب المبالغة ولا من نهايتها لأن بيّاع الإبر والخيوط إذا علم أنّ الخيّاط يخيط ثياب الظالم لا يجوز له أن يبيع منه، ولو أصرّ الناس كلّهم على هذا لتعطّلت أمور الخياط فترك الخياطة، وإذا ترك الخياطة أقلعوا عن الظّلم وعزلوا أنفسهم عمّا ليس لهم من المناصب الجليلة، وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله قال إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأشباه الظلمة حتى من برى لهم قلماً أو لاق لهم دواة[1] قال فيجتمعون في تابوت من حديد ثمّ يرمى بهم في جهنّم. إذا تحقّقت هذا كلّه فاعلم أنّه قد بقي الكلام في مقامين:

الأول: في تحقيق معنى الظالم الّذي يحرم معاونته مطلقاً أو على وجه، فنقول المفهوم من الكتاب والسنّة إنّ للظالم إطلاقات، منها إطلاقه على الكفّار والمشركين قال سبحانه: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ومنها إطلاقه على كل من خالف مذهب الاماميّة حيث أنهم ظلموا علياً عليه السلام حقّه بقولهم إنّ غيره أفضل منه، وترتيبهم الخلفاء على ما ذكروه، ومنها إطلاقه على حكّامهم وسلاطينهم حيث ظلموا الأئمة عليهم السلام مناصبهم وظلموا الرعيّة وظلموا أنفسهم أيضاً، فأبو بكر وعمر وعثمان من الظالمين بالأمور المذكورة كلّها، ومنها إطلاقه على كل سلاطين الجور الّذين لم يكن لهم إذن من الإمام عليه السلام لا عموماً ولا خصوصاً كالمجتهدين وإن كان أولئك السلاطين من الشيعة فإنّهم قد حكموا بالجور لا بالعدل، ومنها إطلاقه على كل من يحكم بجور سواء كان في الأحكام الشرعيّة أم غيرها سواء كان منّا أو منهم، فيدخل فيه القضاة وأهل الفتوى من الفريقين.

ومنها إطلاقه على البالغ في انتهاك الذنوب حيث أنّه ظلم نفسه، وآيات القرآن

(١) لقت الدواة أصلحت مدادها.

متكثّرة بهذا الإطلاق كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] إلى غير ذلك، فيدخل فيه جميع أهل المعاصي من جميع فرق الإسلام وإن كان من الشيعة، والشائع في العرف إطلاقه على أهل الحكم الذين يحكمون بالجور سواء كانوا منّا أو من غيرنا وسواء كان حكمهم في الأحكام الشرعيّة أم في الأحكام العرفية، فيكون مخصوصاً في الحكّام والقضاة، ولا يبعد إرادة المعاني كلّها فإنّك قد عرفت ما ورد من الأخبار الواردة في عقاب من أعان تارك الصلاة أو سلّم عليه أو تبسّم في وجهه وكذا شارب الخمر وقاطع الرّحم وغير ذلك من الذنوب المغلّظة، وحينئذ فيحرم إعانة كل هؤلاء بما يسمّى إعانة عرفاً كما قاله بعض المحقّقين أو بكلّ ما أُطلق عليه الإعانة لغة كما هو الأولى، وفي هذا بليّة عامّة لعموم البلوى به؛ وذلك أنّ قضاة الشيعة خصوصاً في هذه الأعصار الغالب عليهم الجهالة بالأحكام الشرعيّة وأخذ الرشاوي والعمل بالأحكام موافقاً لمن كان لهم إليه ميل من الخصمين، فقد شاهدنا بعض القضاة إذا وردت عليه الدعوى يحكم بها بعد أخذ الرشوة؛ فقال له رجل من الصّلحاء لو أنّ الخصم الآخر أعطاك أكثر من ذلك الرجل كيف كنت توجه له الحكم، قال لو أعطاني أكثر لكان قلت كذا وكذا، فصوّر صورة لم تكن تخطر على خاطر الشيطان، وقد يكون القاضي رجلاً يتجنّب الرشاوي لكن ليس له أهليّة الفتاوى في الأحكام، فهذا أيضاً من قضاة الجور وإن قضى بحق اتفاقاً، بل ولو قضى بحق من وجه الكتاب الفقهي لأنّ المشهور بين علمائنا رضوان الله عليهم أنّه لا يجوز تقليد الميت، فإنّ الخلاف موجود في أكثر مسائل الفقه، ولو طالع كتاباً آخر كان قد رأى مذهباً آخر وهلمّ جرّاً، بل ولو طالع كتاباً آخر لصاحب هذا الكتاب لوجد الاختلاف كما لا يخفى على من تتبّع كتب العلاّمة قدس الله روحه، فإنّه قلّما ذهب في كتابين إلى اجتهاد واحد بل له في كتاب واحد اجتهادات مختلفة.

وبالجملة فإعانة مثل هؤلاء القضاة معونة الظالمين أيضاً، ومن جملة إعانتهم الاختلاف إلى مجالسهم الّذي يحصل منه ترويج أقوالهم وإقبال عوام النّاس عليهم قائلين لو لم يكن هذا القاضي من أهل هذا المنصب لما قصده فلان وجلس معه ولم ينكر عليه، ومن الاعانة أيضاً السعي له عند السلطان أو من نصبه لنصب القضاة وكذا قرضه الدّراهم ليستعين بها على إتمام أموره، ومن الإعانة المحرّمة الاختلاف إليه في الدعاوى وأخذ الأموال بحكمه وإن كان حقّاً، روى شيخنا الكليني عن عمر ابن حنظلة قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين

أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحلّ ذلك؟ قال من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنّما تحاكم إلى الطّاغوت، وما يحكم له فإنّما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له، لأنّه أخذ بحكم الطّاغوت وقد أمر الله أن يكفر به، قال الله عزّوجلّ : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، قلت كيف يصنعان، قال ينظران من كان منكم ممّن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً فإذا حكم بحكم فلم يقبله منه فإنّما استخفّ بحكم الله وعلينا ردّ؛ والرادّ علينا الرادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله، قلت فإن كان كلّ واحد اختار رجلاً من أصحابنا فرضيا أن يكونا الناظرين في حقهما فاختلفا فيما حكما وكلاهما اختلف في حديثكم قال الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر؛ قال قلت فإنّهما عدلان مرضيّان عند أصحابنا لا يفضل واحد (لا نفضل واحداً) منهما على صاحبه، قال فقال ينظر إلى ما كان من روايتهم عنّا في ذلك الّذي حكما به المجمع عليه من أصحابك فيؤخذ به من حكمنا ويترك الشاذّ الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإنّ المجمع عليه لا ريب فيه، وإنّما الأمور ثلاثة: أمر بيّن رشده فيتّبع، وأمر بيّن غيّه فيجتنب، وأمر مشكل يردّ علمه إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وآله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرّمات؛ ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لا يعلم.

قلت فإن كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم، قال ينظر فما وافق حكمه حكم الكتاب والسّنة وخالف العامّة فيؤخذ به ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسنّة ووافق العامّة، قلت جعلت فداك أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكمه من الكتاب والسنّة ووجدنا أحد الخبرين موافقاً للعامّة والآخر مخالفاً لهم بأي الخبرين يؤخذ؟ قال ما خالف العامّة ففيه الرشاد، قلت جعلت فداك فإن وافقهما الخبران جميعاً قال ينظر إلى ما هم إليه أميل حكّامهم وقضاتهم فيترك ويؤخذ بالآخر؛ قلت فإن وافق حكّامهم الخبرين جميعاً، قال إن كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك فإنّ الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات.

وقوله عليه السلام قد روى حديثنا وقوله حلالنا وحرامنا وإن كان مصدراً مضافاً فيفيد العموم إلّا إنّ القرينة دالّة على إنّ المراد بعض الأحاديث لكن ليس المراد الأحاديث المتعلّقة بخصوص تلك الدعوى، بل المراد ما يتعلّق بالأحكام غيرها أيضاً؛ وذلك

مثل رواة الحديث في الصدر السّالف، وفائدة روايته للأحاديث العمل بها في تلك الدعوى الواردة عليه، فلو كان ممّن روى الأحاديث لكن لم يعمل بها اعتباراً بالأغراض الدنيويّة كان من قضاة الجور أيضاً، وقوله عليه السلام فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً ممّا استدل به الأصحاب على أنّ المجتهدين منصوبون من قبله عليه السلام للقضاء فهم وكلاؤه والمعبّرون عنه في هذه الأعصار.

أقول: بل فيه دلالة أيضاً على أنّ من روى الأحاديث وعرف مواقعها كان له منصب القضاء وإن لم يكن مجتهداً بالمعنى الجديد للمجتهد؛ فإن المعنى المعروف منه في الصدر السّالف هو بذل جهده وطاقته في دراية الأحكام والاطلاع عليها حتّى إنّ قول الحلبيّين رحمهما الله بوجوب الاجتهاد عيناً يرجع إلى هذا لا إلى الاجتهاد الاصطلاحي كما لا يخفى[1] وقوله عليه السلام المجمع عليه من أصحابك الظاهر أنّ

---

(١) هذا الكلام من المصنف رحمه الله مبني على مذاقه الأخباري فإنّه ليس للمجتهد معنى جديد وقديم فإنّ المراد من المجتهد هو من زاول الأدلة ومارسها واستفرغ وسعه فيها حتى حصلت له ملكة وقوة يقتدر بها على استنباط الحكم الشرعي من تلك الأدلة ولا فرق في ذلك بين الزمن السالف واللاحق نعم إنّ الاجتهاد في الزمن الغابر كان خفيف المؤنة سهلاً لقرب العهد من زمن صاحب الرسالة المقدسة وتوفر القرائن لتحصيل الحكم الشرعي وإمكان السؤال عن العترة الطاهرة المفيد للعلم ولكن كلما بعد العهد من زمن صاحب الرسالة وعترته الطاهرة واختفت القرائن صار الاجتهاد صعباً والحائز لتلك المرتبة السامية قليلاً ويحتاج الاجتهاد إلى مزيد مؤنة واستفراغ واسع ومشقة كبيرة ومزاولة علوم عديدة وما ذكره المصنف رحمه الله: (أن من روى الأحاديث وعرف مواقعها كان له منصب القضاء وإن لم يكن مجتهداً بالمعنى الجديد للمجتهد) كلام شعري فإنّ قوله عليه السلام: من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا- يدل على عدم كفاية رواية الأحاديث ومعرفة مواقعها فقط في التصدي لمنصب القضاء بل لا بد من النظر في الحلال والحرام ولا يكون النظر إلا ممن حصل له ملكة يقتدر بها على النظر والاستنباط والحكم المستنبط من الأدلة إن كان على موضوع كلي فهو الفتوى وإن كان على موضوع جزئي فهو القضاء والحكومة.

والقضاء في الحقيقة عبارة عن تشخيص الموضوعات ولذا يحتاج إلى ملكة وقريحة وعبقرية فذة وذكاء وحدة ذهن وسرعة في الخاطر أكثر مما تحتاجه الفتوى واستنباط الأحكام الكلية بكثير ولو تصدى له غير الحائز لمرتبة النظر والاستنباط وغير الواجد لملكة الاجتهاد مع اجتماع سائر الشرائط اللازمة فيه كما فصل في محله كان ضرره أعظم من نفعه وخطاؤه أكثر من صوابه وأما تصدي غير المجتهد العادل الذي له أهلية الفتوى فهو عند الإمامية من أعظم المحرمات وأكبر الكبائر الموبقة بل هو على حد الكفر بالله تعالى فإنّ الحكومة بين الناس والتصدي لولاية القضاء بينهم عند الامامية نيابة عن صاحب الرسالة والإمامة ومرتبة من

المراد بهذا الاجماع الاتفاق في نقل الرواية لا الاتّفاق في الفتوى كما ذهب إليه جماعة من الأصحاب بقرينة ما سيأتي، ولأنّ الكلام إنّما هو في تعارض الروايات وترجيحها لا في تعارض الأقوال.

وقوله عليه السلام وشبهات بين ذلك، الظاهر إنّ المراد بالشبهات هنا ما تعارض فيه الدليلان من غير اهتداء إلى الترجيح بينهما كما يقع كثيراً في كتب الحديث، وقوله عليه السلام ما خالف العامّة ففيه الرشاد ممّا لا ريب فيه حتى إنّه روي أنّ رجلاً من أهل الأهواز كتب إليه عليه السلام وهو في المدنية إنّه ربّما أشكل علينا الحكم في المسألة التي يحتاج إليها ولا تصل الأيدي إليك في كل وقت فماذا نصنع؟ فكتب إليه عليه السلام إذا كان الحال على ما ذكرت فأت لقاضي البلد وسله عن تلك المسألة، فما قال لك فخذ بخلافه فإن الخير (الحقّ خ) في خلافهم.

وقوله عليه السلام ينظر إلى ما هم إليه أميل (اهـ) مشكل بالنّظر إلينا وذلك إنّ أعصارهم عليهم السلام مختلفة فقد كان في عصر كل إمام وزمان كلّ سلطان من سلاطين الجور من فتاوى الفقهاء الأربعة ومن يحذو حذوهم قول واحد وقد خفي علينا في هذه الأعصار المشهور من تلك الأقوال في أزمانهم، فإنّ أقاويل أبي حنيفة قد كانت مشهورة في أعصار بعض الخلفاء وأقوال مالك كانت مشهورة في بعض الأعصار أيضاً وكذا أقوال الشافعيّ والحنبلي فمن ثمّ احتاج حمل الأخبار على التقيّة إلى تفحّص تامّ عن أقوال الفقهاء الأربعة التي كانت مشهورة في أعصار ذلك الإمام عليه السلام الّذي نقل الحديث عنه، فالمجتهد يحتاج إلى الاطلاع على هذا وإن كان متعسّراً، وقوله عليه السلام فأرجه، الهاء ضمير المفعول أي أخّر ذلك الأمر حتى تلقى إمامك، وفي حديث آخر قال إذا كان ذلك فأيّهما أخذت به من باب التسليم وسعك، وجه الجمع بينهما إمّا أن يحمل هذا على ما إذا كان الإمام عليه السلام ظاهراً

الرياسة العامة وخلافة الله في الأرضين قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] قال أمير المؤمنين عليه السلام: يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي أو وصي نبي أو شقي.

فكيف يدعي الإسلام من يتصدى للقضاء في هذه المحاكم الرسمية (العدلية) وهو لم يتعلم إلا نبذة يسيرة من علم الحقوق وأخذ شهادة رسمية لنفسه من بعض هذه المدارس الرسمية الفاقدة للفضائل كلها من دون احراز مرتبة الاجتهاد ومن غير حصول ملكة الاستنباط له بل يحكم على ما يريد ويفعل ما يشاء ولذا ضاعت الحقوق وشاع الظلم وارتفع العدل والأُمة الإسلامية حيارى سكارى وليس سبب ذلك إلا الأُمة أنفسهم فإنهم أموات في صورة الأحياء وإلى الله المشتكى.

يتمكّن من الوصول إليه كما يدلّ عليه قرينة المقال وذاك على مثل هذه الاعصار، وإما أن يحمل هذا التأخير على ما إذا كانت الأخبار الواردة في المعاملات وحقوق النّاس، والأخذ بأيّهما شاء يكون محمولاً على أحكام العبادات، وهذا هو الّذي فهمه شيخ الطائفة رحمه الله وجعله وجهاً للجمع بين هذين الخبرين؛ وإمّا أن يحمل الإرجاء على ما إذا أمكن الاحتياط فيه كأكثر مسائل العبادات، والأخذ بأيّهما شاء على ما إذا لم يكن فيه ذلك؛ كما إذا تردّد الحكم بين الوجوب والتحريم، وبالجملة فالقاضي يحتاج إلى اطلاع على كلّ ما في هذا الحديث ومن لم يكن كذلك لم يكن أهلاً للقضاء، فلا يجوز أن يجعل قاضياً ولا يجوز التّحاكم إليه، بل ولا الجلوس عنده، روى الشيخ قدس الله روحه عن محمّد بن مسلم قال مرّ بي أبو جعفر عليه السلام وأبوعبدالله عليه السلام وأنا جالس عند قاض بالمدينة فدخلت عليه من الغد، فقال لي ما مجلس رأيتك فيه أمس، قال قلت جعلت فداك إنّ هذا القاضي لي مكرم فربّما جلست إليه، فقال لي وما يؤمنك أن تنزل اللّعنة فتعمّ من في المجلس.

وأمّا السّلاطين والأمراء الجائرون سواء كانوا من العامة أو الخاصة فالتردّد إليهم والاختلاف إلى مجالسهم إذا لم يكن لضرورة شرعيّة فيه المعاونة والوداد، والحضور أوقات حكم الظّلم فقد اشتمل على ثلاث محرّمات مغلّظة.

الأمر الثاني: في جواز أكل طعامهم وقبول عطاياهم. اعلم أنّ المنقول من أطوار الأئمة عليهم السلام أنّهم كانوا يأكلون طعامهم ويقبلون أموالهم، وقد ذكر الفقهاء رضوان الله عليهم إنّ عطايا الحكّام حلال على الآخذ لها وإن كان الإثم على الحكّام؛ كما قال عليه السلام لك المهنا وعليهم الوزر، نعم قيّدوها بما إذا لم تعلم بعينها أنّها من مال فلان، أقول قد دلّت الأخبار الكثيرة على أنّ ما يأخذه سلاطين الجور باسم الخراج والمقاسمة وإن كان أقل أو أكثر من القدر الواجب الذي يأخذه الإمام يجوز شراؤه من العمّال وإن كان عند صاحبه وعلل في الرّواية بأنّك إذا لم تأخذه أنت لم يرجعوه إلى صاحبه فلا بأس بشرائه منهم وقبول عطيته منهم وإن علم صاحبه؛ نعم إذا أخذ الحاكم والسّلطان شيئاً زائداً على القدر المقرّر كالجرائم ونحوها فإذا أعطاها أحداً لا يجوز له أخذها، وحينئذ فقولهم جوائز الظالم حلال إذا لم تعلم بعينها إن أرادوا به الجوائز التي يعطونها النّاس ويأخذونها من مال الخراج فالظاهر جواز أخذها وإن علم صاحبها بعينه، ولا فرق بين الجائر من الطرفين بل ذهب شيخنا الشهيد الثاني قدس الله روحه إلى أنّ ما يأخذه السلطان الجائر منهم أقرب إلى الحل والإباحة مما يأخذه الجائر منّا، وذلك أنّهم يزعمون أن أولي الأمر المأمور بإطاعتهم في الكتاب

العزيز في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] هم السلاطين والحكام فهم يجب إطاعتهم عندهم ويجب دفع مال الخراج إليهم فكلّ ما يأخذونه من الرّعايا يزعمون أنه حلال عليهم والرعيّة أيضاً تعتقد إنّه يجب عليهم دفعه إليهم فالآخذ والمأخوذ منه يزعمون أنه حلال.

وقد قال عليه السلام دينوهم بما دانوا به أنفسهم أي ألزموهم وعاملوهم بما اعتقدوا حقيّته في دينهم كأخوانهم من اليهود والنّصارى فإنّ الجزية إذا أخذت منهم أجريت عليهم أحكامهم بخلاف ما يأخذه سلطان الشيعة من الرّعايا فإنّه يعتقد أنّه ظالم بأخذه، وكذلك اعتقاد المأخوذ منهم من رعايا الشيعة، ولو اعتقد ذلك السلطان أنّه حلال له لم يكن من الشّيعة الإماميّة لأنّ أُولي الأمر المأمور بإطاعتهم إنّما هم الأئمة المعصومون من آل محمد صلى الله عليه وآله، وأمّا في هذه الأعصار فلمّا لم يكن الإمام عليه السلام ظاهراً كان نوّابه وقوّامه هم الفقهاء والمحدّثون بما عرفت في مقبولة عمر بن حنظلة من قوله عليه السلام في شأن من روى أحاديثهم وعرف حلالهم وحرامهم: فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً، وحرم (تحريم) الرّد عليه وعدم قبول قوله، فالآخذ هنا والمأخوذ منه يعتقدان إنّ هذا المأخوذ باسم الخراج والمقاسمة حرام، لكن أكثر الأصحاب رضوان الله عليهم نظروا إلى إطلاق الأخبار أو عمومها الواردة بإباحة ما يعطيه الجائر من غير فرق بين أن يكون من الشيعة أو من غيرهم فأطلقوا الحكم نعم يمكن أن يقال إنّ عمّال السلطان إذا لم يأخذوا إلّا ما تعارف أخذ السلطان له من الخراج والمقاسمة كان بالنسبة إليهم أقرب إلى الإباحة، وذلك لأنّهم إذا لم يأخذوه من الرّعايا بعث السلطان من يأخذه غير ذلك العامل فهو بمنزلة ما يعطيه السلطان لغيرهم لكن أين يوجد مثل هذا العامل قبّح الله الجميع، وذلك أنّ أهل الجور من الحكّام والقضاة لو عزلوا أنفسهم ورفعوا أيديهم عن هذه المناصب لوجب على الإمام عليه السلام أن يظهر حتى لا تتعطل أمور المسلمين ولا يختل نظام الكون، لكن لمّا جرى نظام الدّنيا وتمشى على هذا الوجه وإن كان أكثره على البطلان تأخّر أمره عليه السلام إلى أن يأذن الله سبحانه به عجلّ الله فرجه بحق محمّد وآله.

نور يكشف عن الكذب وعن عظم خطره وعن توابعه ولواحقه

إعلم وفّقك الله تعالى أنّ الكذب من أعظم الذنوب حتّى إنّه قد روي أنّ المؤمن يزني ويلوط ويسرق، ويشرب الخمر لكنّه لا يكذب، فيكون قبحه في الشرع أشدّ من قبح الزنا وشرب الخمر، وروي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه

سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتّى يبلغ العرش فتلعنه حملة العرش وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية أهونها كمن يزني مع أمّه.

روى الكلينيّ طاب ثراه في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام قال إنّ الله تعالى جعل للشرّ أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرّ (أشرّ خ) من الشراب، وذلك لأنّ المفاسد المترتّبة على الكذب أزيد من مفاسد الشّراب، لأن الكذبة الواحدة ينشأ منها إهراق الدّماء بغير حق ونهب الأموال ولأنّ الغالب في الكذب وروده في حق الناس والشراب حق الله سبحانه وهو بالعفو أولى وأحرى، ولأنه يسلب الإيمان ويمنعه من الاستقرار في القلب والشراب إنّما يمنع من قبول الصلاة أربعين يوماً لمكان بقائه في الجوف هذه المدة، قال أمير المؤمنين عليه السلام لا يجد عبد طعم الايمان حتى يترك الكذب هزله وجدّه، ولأنّ الكاذب قد لا يصدق في القول فتختل أموره بل أمور غيره لأنّه يحتاج إليه في الشهادات والإقرارات والوكالات والمعاملات؛ وقال عليه السلام ينبغي للرجل المسلم أن يجتنب مؤاخاة الكاذب، فإنّه يكذب حتّى يجيء بالصدق فلا يصدّق.

وأمّا شارب الخمر فتوبته إذا احتيج إليه في هذه الأمور أن يقول أستغفر الله ويظهر النّدامة، والكذاب لو قال هذا لم يصدّق، ويحصل الرّيب لحاكم الشرع عند أداء الشهادة ونحوها، وشهادة المرتاب فيه لا تقبل شرعاً، لأنّ النتيجة الحاصلة من الكذب إنّما هي البخل لأنّ أقوى دواعي الكذب وأسبابه إنّما هو دناءة الهمّة والحرص والخسّة، والنتيجة الحاصلة من الشراب إنّما هو علوّ الهمة وإعانة الناس بأنواع العطايا وإن كان عطاء في غير محلّه لكنّه أولى من البخل، وقد يصل إلى المستحق أحياناً، ولأنّ الغالب على أهل الشراب الخجالة والحياء من الناس لعلمهم بقبيح ذنبهم، والكذاب عند نفسه ليس خجلاً ولا له حياء من الناس ولا ندامة، ولأنّ الشراب ربّما يتداوى به من بعض الأمراض كما أشير إليه في قوله سبحانه ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ ومن ثمّ جوّز بعض فقهائنا التداوي به عند الضرورات، والذي يرجّح في النظر هو عدم جواز التداوي بالمحرّمات لقوله عليه السلام ما جعل الله الشفاء في حرام قطّ، وما في معناه، وما دلّ من الأخبار على جواز التداوي به محمول على التّقيّة، وأمّا الكذب فليس فيه سوى محض الضرر مع أنّ شارب الخمر قرن بعابد الصنم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقدّم فيه الخمر للاهتمام بتحريمه.

وقال عليه السلام شارب الخمر كعابد الوثن، ومن بات سكراناً بات عروساً للشّيطان،

وقال عليه السلام والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً إنّ شارب الخمر يموت عطشاناً، ويمكث في القبر عطشاناً؛ ويبعث يوم القيامة عطشاناً، وينادي وا عطشاه ألف سنة، فيؤتى بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب، فينضح وجهه وتتناثر أسنانه وعيناه في ذلك الإناء فليس له بدّ من أن يشرب فيصهر ما في بطنه، ومن كان في قلبه آية من القرآن ثمَّ صبّ عليه الخمر يأتي كل حرف يوم القيامة فيخاصمه بين يدي الله عزّ وجلّ ، ومن كان له القرآن خصماً كان الله له خصماً ومن كان الله له خصماً كان في النار.

وقال عليه السلام من بات سكراناً عاين ملك الموت سكراناً، ودخل القبر سكراناً، فوقف بين يدي الله سكراناً، فيقول الله تعالى ما لك؟ فيقول أنا سكران فيقول الله تعالى أبهذا أمرتك اذهبوا به إلى السكران، فيذهب إلى جبل في وسط جهنّم في عين تجري مدّة[1] ودماً ولا يكون طعامه وشرابه إلّا منه، وعنه عليه السلام من أطعم شارب الخمر لقمة من الطعام أو شربة من الماء سلط الله عليه في قبره حيات وعقارب طول أسنانها مائة ذراع وأطعمه من صديد جهنم يوم القيامة، ومن قضى حاجته فكأنّما قتل ألف مؤمن، أو هدم الكعبة ألف مرة، ومن سلّم عليه لعنه سبعون ألف ملك، وقال عليه السلام لعن الله شارب الخمر، وعاصرها وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله ما من أحد يبيت سكراناً إلّا كان للشيطان عروساً إلى الصباح فإذا أصبح وجب عليه أن يغتسل من الجنابة، فإن لم يغتسل لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، ولا يمشي على وجه الأرض أبغض إلى الله من شارب الخمر، وقال عليه السلام من سلّم على شارب الخمر، أو عانقه أو صافحه أحبط الله عليه عمل أربعين سنة.

فإن قلت إذا كان هذا حاله فكيف صار غيره أقبح منه في العرف العام، قلت الذنب إذا كان مأنوساً كثير الاستعمال ربما ارتفع قبحه من الأنظار بخلاف غيره من المعاصي، ولذا ترى اللواط مع أنه أفحش الذنوب غير قبيح في بعض بلاد أهل الخلاف لإطباق الأكثر على فعله مع أنّه حرام عندهم، ولهذا لم يجعل الشّارع للكذب حدّاً شرعياً كالشراب ونحوه إذ هو كثير في محاورات الناس، وأيضاً فإثباته لا يخلو من نوع إشكال، وذلك أنّ الكاذب يمكنه التخلّص من كذبه بوجوه كثيرة مع قوله عليه السلام أدرأوا الحدود بالشبهات.

واعلم إنّ الكذب على قسمين: جليّ وخفيّ، فأمّا الجلي فهو أقسام.

---

(١) بالكسر وتشديد المهملة ما يجتمع في الجرح من القيح الغليظ منه.

أولها: الكذب على الله ورسوله والأئمة عليهم السلام وهذا يقع على وجوه:

الوجه الأوّل: أن يقول قال الله كذا، وقال الرسول كذا، وقال الإمام كذا؛ فيكذب عليهم في حكم شرعي أو غيره، وهذا يقع من علماء السوء كثيراً، ولقد كذب على النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته وبعد موته حتّى وضعوا من الأكاذيب أدياناً مختلفة، وليت شعري ما كان دين النّبي، أهو دين أبي حنيفة؟ أم الشافعيّ أم المالكي أم الحنبلي؟ ولا يقدرون أن يقولوا إنّ دينه كان واحداً منها نعم يمكنهم أن يقولوا إنّ دين أبي حنيفة كان نقيض دين النّبي صلى الله عليه وآله لأنّه كان يجلس في مسجد الكوفة ويقول في فتواه قال عليّ وأنا أقول، ودين عليّ هو دين النبي صلى الله عليه وآله بلا ريب، وهذا الوجه من الكذب يقع من كلّ أحد حتّى من المؤمنين والشّيعة.

الوجه الثاني: ما اعتاده النّاس في المحاورات من قولهم الله يعلم، الرسول أو الإمام إني ما فعلت ذلك الشيء، أو فعلته وهو كذب، ومن هذا روى أنّ الرجل إذا قال الله يعلم وهو كاذب يقول الله سبحانه للملائكة يا ملائكتي انظروا إلى عبدي لم يجد أحداً أعجز مني يحيل هذه الكذبة عليه حتّى أحالها على علمي، فأنا أفعل به كذا وكذا من الهوان والعذاب.

الوجه الثالث: أن يكذب ثمّ يروّج كذبه بالحلف بالله أو النبيّ أو الإمام عليه السلام وهذا يقال له الكذب بالله وهو الذي يذر الديار بلاقع من أهلها، وهو حالقة الدين يعني أنّه يحلق الدين ويمحوه كما يمحو الموسى الشعر، وفي الرواية لا تحلف بالله لا صادقاً ولا كاذباً، نعم روي في حديث آخر أنّ الدّعوى إذا كانت ثلاثين درهماً واحتاجت إلى اليمين فله الخيار في الحلف وإن كانت أقلّ فلا يحلف، والوجهان الأولان بل الثلاثة هي التي تضر بالوضوء والصوم، روى الشيخ رحمه الله عن أبي بصير قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول الكذبة تنقض الوضوء وتفطر الصّائم، قال قلت هلكنا؛ قال ليس حيث تذهب إنّما ذلك الكذب على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة عليهم السلام، ومنه ذهب الشيخان والمرتضى إلى أنّه مفسد للصوم ويجب به القضاء والكفارة، وأمّا الوضوء فقال الشيخ قدّس الله روحه المراد أنّه ينقض كماله وثوابه، ووجهه الذي يستحق به الثواب، وما صار إليه المرتضى رحمه الله لا يخلو من وجه لما رواه الشيخ عن سماعة قال سألته عن رجل كذب في شهر رمضان، فقال قد أفطر وعليه قضاؤه وهو صائم يقضي صومه ووضوءه إذا تعمّد، والحمل على الاستحباب غير محتاج إليه؛ لعدم وجود المعارض.

القسم الثاني: الكذب على النّاس لغرض من الأغراض الدنيويّة، بل قد لا يكون

لغرض كمن اعتاده فكأنّه طبع عليه وهذا هو الّذي ورد فيه إنّه ينقض الدّين والمروّة ويذهب ماء الوجه ولعذاب الآخرة أشدّ نكالاً لو كانوا يعلمون.

القسم الثالث: الجائز المشروع وهو كما سبق إذا ترتّب عليه غرض أُخرويّ كإصلاح ذات البين بل لا يسمّى كذباً، قال الصادق عليه السلام الكلام ثلاثة: صدق، وكذب، وإصلاح بين الناس؛ قيل له جعلت فداك ما الإصلاح بين الناس؟ قال تسمع من الرجل كلام يبلغه فتخبث نفسه فتلقاه فتقول سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه. ويجوز الكذب في الحرب لمخادعة العدوّ، وكان علي عليه السلام في حرب صفّين لما يركب ينادي بأعلى صوته والله لأقتلن معاوية، ثم يقول سرّاً إن شاء الله؛ فقال له رجل كان من خواصّه كيف هذا يا أمير المؤمنين؟ قال الحرب خدعة، إنّ عسكري إذا سمع هذا الكلام منّي جدّوا في الجهاد لعلمهم بأنّي لم أكذب، ثمّ أقول خفية إن شاء الله سبحانه، مع أنّ قسمه عليه السلام على قتل معاوية سيكون في زمن ظهور المهدي عليه السلام، فإنّه يخرج معاوية ويقتله قتلات متعدّدة وكذلك الكذب على الزوجة، فإنّه جائز أيضاً إذا واعدها بوعد ثم لم يفِ به، روى الكليني نوّر الله ضريحه عن عيسى بن حسان قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلّا كذب في ثلاثة: رجل كائد في حربه فهو موضوع عنه، أو رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى هذا يريد بذلك إصلاح ما بينهما، أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتمّ لهم.

وقال لي يوماً واحد من مشايخي المجتهدين وكان كثير المطايبة والمزاح يا بنيّ ينبغي لصاحب الزوجة أن يكون فخذه وجفن عينه منه في ألم شديد، وذلك أنّه إذا أراد الخروج من المنزل قالت له امرأته هات لنا الشيء الفلاني؛ فيضع يده على عينه للوعدة لها، فإذا رجع إلى المنزل ولم يأت بشيء قالت له أين الشيء الفلاني؟ فعند ذلك يضرب يده على فخذه ويقول إنّي نسيت ولم أذكر؛ فيكون هذان العضوان منه في الألم دائماً.

القسم الثّاني: هو الكذب الخفيّ وتحقيقه يتوقّف على تمهيد مقدّمة؛ وهي إن الله عزّ شأنه قد كلّف العباد في عالم الأرواح وعالم الأشباح وقبلوا تكاليفه وسيّما هذا العالم فإنّهم ذاكرون له ويدعون في ذلك النّسيان؛ كما قال ابن عباس سمّيت إنساناً لأنّك ناسي؛ وهو نسيانه لما جرى في عالم الأرواح؛ وجملة التكاليف هو التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله؛ وأعظمها الأوامر والنّواهي، ومن دخل تحت قلم التّكليف

فقد أقرّ ظاهراً وباطناً بالتزام الشرائع ولوازمها من الأحكام، فالصادق في هذا الإقرار من بقي على حالة واحدة ولم يتلوّث بمخالفة الأوامر والنّواهي؛ ومن تلوّث فيها وارتكب ما يخالف اعترافه الأوّل فقد كذّب نفسه في ذلك الاعتراف وفي قوله أتوب إلى الله فإنّ أتوب معناه أرجع إليه عمّا فعلته؛ فمن قال هذه الكلمة في هذا اليوم وارتكب شيئاً من النواهي في غد فقد كذب وهذا الكذب أقبح من غيره حيث أنّه كذب مع الله وملائكته الكاتبين وأنبيائه المقرّبين وعباده الصّالحين.

ومن هذا جاء في الحديث أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ وطلب منه أن يأمره بأنفع الأعمال فقال له رسول الله ﷺ اصدق ولا تكذب واعمل من المعاصي ما شئت، فاستعجب الرجل من هذا القول وقبله، فلما رجع قال إنّ النبي ﷺ لم ينهَ إلّا عن الكذب فأنا آتي فلانة وكانت امرأة جميلة؛ فلمّا مضى إلى بيتها ليزني بها تفكّر في نفسه وقال إذا خرجت من عندها ولقيني أحد وسألني أين كنت وما كنت تعمل؟ فإن صدقته في القول صار أمري عظيماً، وإن كذبت فقد نهيت عنه، فرجع إلى منزله، ثمّ طلب أن يفعل ذنباً آخر وفكّر مثل هذا فأقلع عن جميع المعاصي.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ من الكذب الخفي ما نواجه به ربّنا والمطّلع على سرائرنا وضمائرنا كلّ يوم، وأقلّه عشر مرّات؛ وذلك أنّا نقف بين يديه ونقول الحمد لك أيّها المربّي لنا الرحمن الرّحيم بنا؛ المالك لأمورنا في يوم الوفود عليك، فنحن نخصّك بالعبادة، ونخصّك بالاستعانة بك، فنحن لانعبد غيرك ولا نستعين إلّا بك؛ والعبادة هي الإطاعة والانقياد فانظر وتفكر وقل كيف أصدق في هذا المقال وأنا أُطيع غيره ممّن نهاني عن إطاعتهم والانقياد لهم؛ ومن جملتهم عدوّه وعدوّك الشّيطان، فالمصرّ منا على إطاعته وهم الأكثرون خصوصاً حال الصلاة كيف يكون صادقاً في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ومن جملة معبوديك نفسك الأمّارة بالقبائح التي لا تقصر عن الشيطان وهواك المردي لك؛ ومن الجملة أيضاً معبوديك من أهل الدّنيا كالسلطان والحاكم وعمّالهما وعبيدهما وعبيد عبيدهما وكلابهما ودوابهما وإمائهما ومن تتوهم انتسابه إليهما، فما أكثر ما جعلت لربّك من الشركاء والمعبودين، ولقد أحسن ابن عباس حيث قال في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل: ٥١] إنّه تعالى نهاك عن الاثنين وأنت اتّخذت الألوف فما أقلّ حياءك، ومن معبوديك أيضاً القصّاص عليك، كما قال عليه السلام من استمع إلى قائل فقد عبده؛ فإن كان يحدّث عن الله فقد عبدالله، وإن كان يحدث عن الشيطان فقد عبد الشيطان؛ والمراد بتحديثه عن الشيطان نقله الحكايات الكذب أو هجاء المؤمنين أو غيبتهم أو نحو ذلك، فما

تعارف في هذه الأعصار من نقل حكايات أهل القصص التي وضعوها كقصة رستم، وعنتر؛ وحمزة؛ وأشباهها فالسّامع لها عابد للشيطان، ولعلّك تظن أنّ العبادة إنّما هي الصلاة وأضرابها وهذا ظن غلط فإنّك قد سمعت قوله تعالى في شأن أهل الكتابين ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عليه السلام والله ما صلّوا لهم ولا صاموا لهم ولو دعوهم إليهما ما قبلوا ولكن أحلّوا لهم حراماً؛ وحرموا عليهم حلالاً فقبلوا أقوالهم، فمن ثمّ قال إنّهم أربابهم.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فقد جعل سبحانه إرادات النّفس وأُمنيّاتها الباطلة إلهاً، فأنت أيّها المصلّي إذا كان لك كلّ هؤلاء الآلهة والمعبودين كيف لم تجرؤ على مواجهة واحد منها بالكذب، وما تجرّأت إلّا على جنابه تعالى تقول لا أعبد إلّا أنت ولا أُطيع أحداً سواك، فكأنّك ظننت أنّ هذا أعجز من جميع آلهتك حتّى خصصته بالكذب عليه دون باقي آلهتك، ويجوز أنّ يكون الوجه فيه أنّك قصرت عبادتك الصادقة عليها، وذلك أنّها وان كانت آلهة متعددة الاّ أنها ترجع الى أصل واحد حتّى القصّاص الذي يقصّ عليك الأباطيل.

فقد روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله لمّا أتى بالقرآن معجزة وفيه القصص الماضية والإخبارات قال كفّار قريش إنّا نقدر على مثل هذا، وكان جماعة منهم يخرجون في التّجارات إلى بلاد العجم فسمعوهم يحكون عن عنتر وأمثاله؛ فكتبوا تلك القصص وعرّبوها وأتوا بها إلى مكّة ليعارضوا بها قصص القرآن، فنزل قوله تعالى ذامّاً لهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، فقد كانوا يبذلون الأموال لمن ينقل إليهم قصّة من تلك القصص الكاذبة ليفتنوا النّاس عن متابعة النبي صلى الله عليه وآله بأن هذا القرآن ليس بإعجاز للقدرة على الإتيان بمثله، وأنّى لهم ذلك.

وأمّا قولك: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] على طريق الحصر فأنت أكذب فيه من الأوّل، لأنّك إذا رجعت إلى وجدانك وحالاتك ترى أنّك تستعين غيره في كل أمورك؛ وتجعله سبحانه آخر من تستعين به، فإنّك إذا جبهت من عند المخلوقين وأيست من الاستعانة بهم بعدما التمستها رجعت وقلت الحكم لله نستعين بالله، وهذا أحد معاني قول مولانا زين العابدين عليه السلام في دعاء الصحيفة اللهمَّ يا منتهى مطلب الحاجات، ولو استعنت به أوّلاً كفاك مهمّاتك ولم يحوجك إلى أمثالك.

ونقل الثّقات إنّ محمود بن عمر الخوارزمي لما صنّف تفسيره الكشّاف حمله وأتى به إلى الغزالي ليمدّه بالألطاف والإنصاف، فلمّا جلس عنده ونقل له سبب

مجيئه إليه قال له الغزالي كيف فسّرت ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقال قلت إنّ تقديم المفعول يفيد الانحصار فقال إذاً أنت من علماء القشر، فرجع الخوارزمي نادماً على ما فعل؛ ولو تأمّلت بهذا الكذب الخفي لوجدته أضرّ بأحوالك من ذلك الكذب الجلي، وذلك إنّ هذا يمنعك من قبول الطاعات ومن التأهل للقيام على بساط المناجاة ويورثك الحسرة والندامة، ويوردك المهالك يوم القيامة، ولو أنصفت من نفسك لعلمت أنّك لو واجهت واحداً من الناس وقلت له أنا لا أتردّد إلّا إلى بيتك ولا لي صديق سواك مع علمك بأنّه يعلم أنّك تتردّد إلى كلّ أحد أكثر من تردّدك إلى بيته، ولك أصدقاء كثيرون سواه، لكنت عند نفسك خجلاً من هذا الكذب الذي واجهت به صديقك تستحيي أن تواجهه به مرّة أُخرى بعد مضيّ زمان طويل؛ وأنت ههنا إذا كان أوّل النهار قلت ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وما مضى من النهار إلّا أقلّه حتى جاء وقت الظهر فقمت بين يديه وقلت ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأنت قبل ذلك القول وبين هذين القولين رجعت في مهمّاتك إلى غيره واستعنت بعاجز مثلك على تمشيتها وما علمت أنّ أمورك كلها بيده سبحانه يمضيها على حسب إرادته ومشيئته ومن استعنت بهم فإنّهم عباد مسخّرون بتوفيقه تعالى لقضاء حوائجك ليس حالهم إلّا كحال قلم الكريم الذي كتب لك به النوال والعطاء، فشرعت تمدح القلم وتستعين به وتركت الاستعانة بذلك الرّجل الكريم، ما صدر هذا إلّا من جهل وقلّة تأمّل وقصر نظر في عميقات الأمور.

وفي الحديث القدسي إنّ الرجل إذا أعجلته الحاجة فخفّف من صلاته لتداركها قال الله سبحانه وتعالى انظروا يا ملائكتي إلى عبدي كيف خفف صلاته ليتدارك حوائجه أيظنّ أنّ قضاء حوائجه بيده، وإنّما قضاء حوائجه إليّ؛ وقد أوحى الله إلى الدنيا: اخدمي من خدمني؛ وفي الحديث إنّ السّارق كل السارق من سرق من صلاته، وذلك بتخفيفها وحذف شيء من واجباتها، وقد دخل رسول الله ﷺ المسجد فرأى رجلاً يصلّي ويستعجل في صلاته فقال نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا الرجل ليموتنّ على غير سنّتي.

وتفكّر أيضاً بأنّه إذا طلبك رجل من أخوانك لقضاء حاجة من الحاجات فقبلت التماسه، فأسرعت في الإتيان بها على الوجه الذي أرادها منك، ثمّ في أثنائها خطر على بالك إنّ لي بعض الحوائج، فشرعت في تمام تلك الحاجة على غير الوجه الذي أراده منك وهو بمرأى منك ومسمع أما كان ذلك الصديق يغضب منك ويعتب عليك، ويقول لك يا أخي هذه اللحظة الواحدة ما كنا نستحقها عندك ولو أرجعت إلينا

أغراضك وحوائجك لكنّا نقضيها لك أحسن من قضائك أنت لها، فقد فوّت حاجتك وحاجتنا، فأنت قد أغضبت صديقك وعطّلت حاجاتك، ما هذا إلّا سفه وقلّة رشد.

نور يكشف عن الربا وأحكامه ولواحقه

إعلم وفقك الله تعالى أنّ الله سبحانه قد رغّب في القرض وجعل ثوابه أزيد من ثواب التّصدق، وذلك أنّ الروايات جاءت أنّ الصدقة الدرهم منها بعشر، ودرهم القرض ثمانية عشر، وذلك أنّ درهم القرض يرجع إلى صاحبه فيقرضه مرة أخرى ويوسّع به على مؤمن آخر، ومن هنا جاءت الآيات والأخبار مؤكدة بتحريم الرّبا فقال سبحانه في سورة البقرة ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال رسول الله ﷺ الرّبا سبعونَ جزءاً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمّه في بيت الله الحرام؛ يا عليّ درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله الحرام، وقال بلفظ آخر للربا سبعون باباً أهونها عند الله كالذي ينكح أمّه، وقال عليه السلام كلّ رباء شرك، وقال عليه السلام كلّ ربا أعظم عند الله تعالى من سبعين زنية كلّها بذات محرم، وقال عليه السلام لعن الله الرّبا وآكله، ومؤكله؛ وكاتبه، وشاهديه، وقال أمير المؤمنين عليه السلام معاشر الناس الفقه ثمّ المتجر، والرّبا في هذه الدنيا أخفى من دبيب النّمل على الصفا وقال عليه السلام من لم يتفقّه في دينه ثمّ اتّجر ارتطم في الرّبا، ثمّ ارتطم؛ وهذا كلّه إنّما جاء من قبل طلب الإحسان وهو القرض، فيكون تحريم الرّبا سوطاً يسوق النّاس إلى القرض وتعاطيه.

وقال الصادق عليه السلام الرّبا رباءان: رباء يؤكل، ورباء لا يؤكل، فأمّا الرّباء الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب، أي الجزاء أفضل منها، فذلك الرّباء الذي يؤكل، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، وأما الذي لا يؤكل فهو الّذي نهى الله تعالى عنه، وأوعد عليه النّار. وقد تعارف عند بعض النّاس لدفع الرّبا بعض الحيل الشرعيّة ولا بأس به لقوله عليه السلام في جواب من سأل عن مثل هذا: نعم الشيء الفرار من الحرام إلى الحلال، خصوصاً من مثل هذا الحرام الذي قال فيه عليه السلام لعن الله الرّباء وآكله، ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، فشرك بينهم في الإثم حسماً لمادّة الفساد.

واعلم إنّ الرّبا يجري في أكثر ما يحتاج إليه الإنسان من الغلاّت والدّراهم وما

دخل تحت الكيل والوزن ويكون على طريق التفاضل، والزيادة الحكمية عندهم كالزيادة العينيّة في التحريم، وقد استثنوا من هذا الحكم جواز ابتياع درهم بدرهم مع اشتراط صياغة خاتم استناداً إلى ما رواه الشيخ عن أبي الصبّاح قال سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الرّجل يقول للصّائغ صغ لي هذا الخاتم، وأُبدل لك درهماً طازجاً بدرهم غلة، قال لا بأس، وقد عمل بها الشيخ رحمه الله في البيع المذكور وعدّاها إلى اشتراط غير الخاتم؛ وكذلك ابن إدريس إلّا أنّه نظر إلى أنّ الصياغة ليست زيادة عينيّة والممتنع في الرّبا هي خاصّة، قال شيخنا الشهيد قدس الله روحه وأجود ما نزلت عليه الرّواية أنّها تضمّنت إبدال درهم طازج بدرهم غلة مع شرط الصياغة من جانب الغلّة؛ ومع ذلك لا يتحقّق الزيادة لأن الطازج على ما ذكره بعض أهل اللغة والفقهاء الدرهم الخالص والغلّة غيره وهي المغشوش، وقد يطلق على المكسر ولكن هنا يتم مع التّفسير الأوّل لأنّ الزيادة الحكميّة مع المغشوش وهي تقابل بما زاد في المغشوش، هذا كلامه رحمه الله وقد تكلّمنا على إيضاح معنى هذا الحديث وعلى كلام أصحابنا هذا في شرحنا على تهذيب الحديث بما لا مزيد عليه، ولنقتصر هنا على بعضه فنقول:

إنّ هذه الرواية لا تصلح سنداً لما قالوه من الحكم الجزئي المخرج عن القاعدة الكلية بل القاعدة على حالها من تحريم الزيادة الحكمية مطلقاً؛ وذلك لوجوه:

الأوّل: إنّ ظاهر هذا الخبر كون مثل هذا قد وقع بلفظ التبديل وهو نوع مراضاة يتعاطاه الناس في معاملاتهم ومحاوراتهم فليس هو بيعاً حتى يجوز فيه مثل هذا.

الثاني: إنّ قوله أُبدل لك درهماً طازجاً بدرهم غلة ظاهر في أنّ الدرهم الطازج إنّما هو من مال الصائغ والدرهم الغلة من مال الرجل الذي يقول، وهذا كما يقال في العرف اكتب لي هذا الكتاب وأُبدل لك كتاب الشرائع بكتاب الإرشاد، فإنه صريح في أنّ كتاب الشرائع إنّما هو من مال الكاتب لا من مال القائل، وكتاب الإرشاد من مال القائل؛ وحينئذ فدرهم الغلة إنّما هو الدرهم العتيق المكسر لكنه بالوزن يزيد على الدرهم الطازج الذي هو معرب تازه[1] كما هو المتعارف في هذه

(١) قال ابن الأثير في النهاية: في حديث الشعبي قال لأبي الزناد تأتينا بهذه الأحاديث قسية وتأخذها منا طازجة. القسية الرديئة والطازجة الخالصة المنقاة وكأنه تعريب (تازه) بالفارسية وقريب منه في (المعرب) للجوا ليقي وقال الطازجة النقية الخالصة وهي إعراب (تازه) وفي مجمع البحرين في الحديث الدراهم الطازجة بالطاء غير المعجمة والزاء والجيم أي البيض الجيدة وكأنه معرب (تازه).

الأعصار وغيرها من أنّ الدّرهم العتيق يزيد بالوزن على الدراهم الجديدة وتفاوت الوزن هو الذي يدعوإلى تجديد الدراهم أو تغييرها عن هيئتها الأولى، وحينئذ فتفاوت الدرهم الطازج وهو كونه جديد الضرب رائجاً في المعاملات مرغوباً إليه يقابل تلك الزيادة العينية التي في الدرهم العتيق الذي هو درهم الغلة، فتكون الزيادة العينية بازاء الزيادة الحكميّة والدرهم مقابل الدرهم فلا تفاضل بينهما.

الثالث: إنّ المعهود المتعارف هو إنّ الدرهم الجديد إنّما هو عند الصائغ لا عند غيره فهو يريد أن يبدله بذلك الدرهم الثقيل الوزن، ويوضح هذا المعنى أنّ الشيخ رحمه الله في التهذيب قد روى خبراً قبل هذا من الصحيح، عن الحلبيّ قال سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الرجل يستقرض الدّراهم البيض عدداً ثمّ يعطي سوداً وزناً، وقد عرف أنها أثقل مما أخذ، وتطيب نفسه أن يجعل فضلها له، فقال لا بأس إذا لم يكن قد شرط له، لو وهب له كلها صلح له، فإنّ الظاهر أنّ المراد بالدراهم البيض هي الجديدة الطازجية والسود هي الغلة المقابلة لها، وقد صرح بأن السود أثقل وزناً منها وأنّها تعطى بدل القرض لأجل مقابلة الإحسان بالإحسان.

نور يكشف عن الكفر وعن حقيقة الشرك وأقسامه وتوابعه المتعلقة به

إعلم أنّ الكفر في اللّغة هو الستر ومنه قيل للّيل كافر لأنه يستر ما أظهره نور النهار، وقيل للكافر كافر لأنّه ستر ما أنعم الله تعالى عليه من المعارف الإلهيّة والأنوار الربّانيّة والنعم الجليّة والخفيّة، وأمّا في اصطلاح فقهائنا رضوان الله عليهم فالكافر من جحد ما علم من دين الإسلام ضرورة؛ كمن أنكر الصلاة أو الصوم أو الحجّ ونحوها أمّا من أنكر ما علم من دين الشيعة بالضرورة لا من دين الإسلام كتقديم أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة والفضيلة وتكفير من تخلّف محلّه فهو ليس بمؤمن لكنّه لا يخرج عندهم عن الإسلام الذي عليه المناكحات والطهارات وإحقان الدماء والأموال، وأما في اصطلاح أهل البيت عليهم السلام فالكفر يطلق على أمور.

روى الكليني طاب ثراه عن الزبيري عن أبي عبدالله عليه السلام قال قلت أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ، قال الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود، والجحود على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله تعالى، وكفر البراءة وكفر النعم.

فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالربوبيّة؛ وهو قول من يقول لا ربّ ولا جنّة ولا

نار؛ وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدّهريّة، وهم الذين يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبت ولا تحقيق لشيء ممّا يقولون، قال الله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] إنّ ذلك كما يقولون؛ وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] يعني بتوحيد الله فهذا أحد وجوه الكفر، وأمّا الوجه الآخر من الجحود على معرفة فهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقّ قد استقر (استيقن) عنده وقد قال الله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث: من الكفر كفر النعمة وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]؛ وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الوجه الرابع: من الكفر ترك ما أمر الله تعالى به وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥]، فكفرهم بترك ما أمر الله به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده؛ قال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

والوجه الخامس: من الكفر كفر البراءة، وذلك قوله تعالى يحكي قول إبراهيم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، يعني تبرّأنا منكم؛ وقال يذكر إبليس وتبرّؤه من أوليائه الإنس يوم القيامة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، يعني يتبرأ بعضكم من بعض.

إذا عرفت هذا ظهر لك معنى الكفر الواقع في الأخبار على فعل بعض المحرّمات

وترك بعض الواجبات، مثل ما ورد من أنّ تارك الحج كافر، وتارك الصلاة كافر، ومرتكب الغيبة كافر وتارك الزكاة كافر، إلى غير ذلك، وكلّها داخلة تحت هذه الأفراد المذكورة للكفر، فلا تظن أنّ الكفر له معنى واحد حتّى يشكل عليك الأمر بتلك الإطلاقات كما أشكل على بعض الأعلام، فتفصّى بحمل الترك على الترك من وجه الاستحلال وظاهر كثير من الأخبار يأباه.

وأمّا الشرك فهو على ثلاثة أقسام: شرك جلي وشرك خفيّ، وشرك أخفى؛ أمّا الشرك الجلي فهو ما ذهب إليه أهل الأوثان وعبّاد الأصنام أو الشمس والقمر وشيء من المخلوقات حيث عبدوها وسمّوها آلهة، وقالوا في العلة التي من أجلها ردوا كلامه صلى الله عليه وآله في الأمر بالتوحيد ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ثم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم لم ينكروا الصانع لكن لم يوحدوه، فهؤلاء وما يعبدون حصب جهنّم وحطبها، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقيل المراد بالحجارة الأصنام التي كانوا ينحتونها من الأحجار، كقوله عليه السلام المرء مع من أحبّ، ولو أنّ أحداً أحبّ حجراً حشره الله معه، فهم محشرون مع تلك الأحجار كما جاء في الرواية؛ وفي رواية أُخرى أنّ المراد بالحجارة هنا جبال من كبريت لا ضوء لنارها، وإنّما هو دخان أسود فيه رائحة الكبريت، وفي الحديث أنّه يخرج كل واحد من زبانية جهنّم وعلى عاتقه جبل من كبريت، فيأتي المحشر ويسوق جماعة من العصاة أمامه، فإذا قارب بهم شفير جهنّم وما هم فيها رمى ذلك الجبل فوقهم حتّى تتوقد النار عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وأمّا أوّل من وضع الأصنام وعبادتها فروي إنّ أولاد أوصياء إدريس عليه السلام قد كان أهل زمانهم يحبّونهم حبّاً شديداً، فلمّا ماتوا شقَّ ذلك على قومهم فجاءهم إبليس لعنه الله تعالى فقال أتّخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله، فأعدّ لهم أصناماً على مثالهم، فكانوا يعبدون الله عزّ وجلّ وينظرون إلى تلك الأصنام فلما جاء الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون الله عزّ وجلّ حتى هلك القرن ونشأ أولادهم، فأتى الشيطان إليهم وقال لهم إنّ آباءكم كانوا يعبدون هذه الأصنام، فعبدوها من دون الله عزّ وجلّ فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح: ٢٣] الآية[1].

---

(١) هذه الآية الشريفة في سورة نوح عليه السلام آية ٢٣ وبعدها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ =

وأمّا عبادة النّيران فقال الصادق عليه السلام إنّ قابيل لما رأى النار قد قبلت قربان هابيل قال له إبليس إنّ هابيل كان يعبد تلك النار، فقال قابيل لا أعبد النار التي عبدها هابيل ولكن أعبد ناراً أخرى وأُقرّب قرباناً لها فتقبل قرباني، فبنى بيت النار فقرب لها القربان ولم يكن له علم بربّه عزّ وجلّ ولم يرث منه ولده إلا عبادة النيران. وأمّا الشمس والقمر ففي الروايات أنّه يؤتى بهما في عرصات القيامة كثورين عقورين فيأمر الله بهما حتى يرميا في النار لمكان عبادة الناس لهما.

وأمّا الشّرك الخفيّ فقد تقدم في الرياء تحقيقه وأنّ من جملة أفراده الرّياء، وذلك أنّك شركت غير الله معه في عبادتك فهذا هو معنى الشرك بعينه بل هو أخس منه، وذلك أنّ أهل عبادة الأصنام قد عبدوا أموراً موجودة وأعياناً حاضرة أمامهم، وأمّا أنت في حال الرياء فقد عبدت أموراً موهومة تخيّلتها في قوّتك الوهميّة، وهو أنّي إذا أطلت الصلاة في حضور فلان فربّما أثنى عليّ وربما أوصلني إحسانه، وفي غالب الأوقات أنّه لا يحصل له ما تخيّله فلا يبقى له سوى تعب القوة المتخيّلة والقوة الوهميّة فإذن أهل عبادة الأصنام أعلم منك وأفهم، وأيضاً فإنّ أهل الأصنام قد أتوا إلى ملّة ودين وجدوا عليها آباءهم قد استحسنوها وزيّن لهم الشيطان أعمالهم حتى إنّهم كانوا يعجبون من خلاف الإشراك كما سمعت في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فهم يتعجبون منّا كيف نعبد إلهاً واحداً ونترك الآلهة المتعددة.

وبالجملة فهم يعبدون ما ثبت عندهم استحقاقه للعبادة أخذاً من أسلافهم، وأما أنت أيّها المرائي فقد نشأت على فطرة التوحيد وسمعت من آبائك أنّه لا يجوز أن يشرك مع الله غيره في العبادة وفهمت هذا المعنى واعتقدت حرمته ومع هذا أقبلت عليه بكلّك وصرفت إليه بمجامع لبّك، فأهل عبادة الأصنام جهّال وأنت أجهل منهم، حيث أنّهم عبدوا ما استحسنوا وأنت عبدت ما استقبحته وأيضاً فإنّ أهل

= [نوح: ٢٤] وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها ثم عبدتها العرب فيما بعد وقيل أنّ هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام فنشأ قوم بعدهم يأخذون أخذهم في العبادة فقال لهم إبليس لو صورتم صورهم كان انشط لكم واشوق إلى العبادة ففعلوا فنشأ بعدهم قوم فقال لهم إبليس أنّ الذين كانوا قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فمبدأ عبادة الأوثان كان ذلك الوقت.
انظر تفصيل ذلك في مجمع البيان للطبرسي ج ٥ ص ٣٦٤ ط صيدا والبرهان للبحراني ج٤ ص ٣٨٨ - ط طهران والدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٦٩ ط مصر.

الأصنام إنّما عبد كل جماعة منهم صنماً واحداً؛ كما روي أنّه كان في أعصار الجاهليّة لكلّ قبيلة صنم يعبدونه وقد كانت معلّقة في الكعبة مثل ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهم يحبّون ذلك الصنم ويعظمونه ولا يعظمون صنماً غيره، حتى إنّه نقل من محبّتهم لها الأعاجيب الغريبة والحكايات العجيبة، كما روي أنّ أهل الهند اتّخذوا بيت صنم ووضعوا في سقفه وفرشه وجدرانه الأربع حجر المقناطيس، ووضعوا فيما بينهنّ صنماً من حديد؛ فبقي معلّقاً بينهنّ لتجاذبهنّ له وكثر في أهل الهند محبّوه وعاشقوه، وكان يفتح لهم بابه في كل سنة مرة فيزدحمون إليه ويطلون أجسادهم بالشمع من القرن إلى القدم، فيجيء أحدهم ويجعل بين يديه شمع موقد بالنّار والنّاس في النظارة فعند رؤية الصّنم توقد النّار على رأسه فيحترق بالتّدريج من قرنه إلى قدمه وهو يصبر على عشق الصنم فيقتسم الناس رماده صرّة صرّة للتّبرك، لصدقه في دعوى محبّة الصنم، ويعلمون الكاذب بفراره وعدم صبره على النّار في سبيله فيقتلونه.

وأيضاً قد نقل لنا متواتراً في هذه الأعصار إنّ جماعة من أهل الهند ممّن يعبد النّار إذا مات الرّجل منهم أحرقوه في النّار، وعمدوا إلى زوجته وزيّنوها وحلّوها بأنواع الحلى والحلل وأتى بها أهلها وقومها إلى تلك النار فرمت بنفسها في تلك النّار حتّى لا تبقى بعد زوجها؛ وإن خافت من تلك النار قال أهلها إنّها ارتدت عن الدين وخافت من المعبود الذي هو النّار؛ وحينئذ فيحلّلونها على المسلمين وكلّ من حضر من المسلمين يأخذها منهم، فهم يحبّون النار هكذا. وأمّا أنت أيّها المرائي ففي يومك الواحد بل ساعتك الواحدة تعبد الجماعات المتكثرة، وذلك إنّ كل من توهمت في جانبه جلب نفع أو دفع ضرر أو ثناء أو توقير عكفت على إشراكه مع الله تعالى في العبادة (وأنت خ ل) ككثير عزّة يعشق كل جميلة يراها أو يسمع بها حتى عاب الشعراء وأهل العشق عليه ذلك فقالوا كثير ما هذا التقلب في الهوى.

وبالجملة فأهل الأصنام في عبادتها أوثق منك وأثبت قدماً فاعتبروا يا أُولي الأبصار وأيضاً فإنّ أهل الأصنام إنّما عبدوا آلهة ولم يستحيوا من إظهار عبادتها بل يفرحون بإظهارها وأما أنت فلو قيل لك أشركت في عبادة ربّك زيداً أو عمراً حلفت وأقسمت وبرأت نفسك ممّا نسب إليك، فأنت تعبد من لا تحبّ الانتساب إليه وهم يعبدون من يتمدّحون بالانتساب إليه، فمعبودهم على هذا أحسن من معبودك؛ وأيضاً إنّك قد عرفت إنّ أهل الأصنام إنّما يعبدونها لا لأنّها هي النافعة الضارّة بل لأنّها

تقرّبهم إلى الله تعالى الذي هو النافع الحقيقي وأنت أيّها المرائي قد عبدت غير الله سبحانه بزعمك أنّه النافع والمعطي ولا يخطر ببالك حالة الرّياء إلّا قصر ما طلبته من الحالات عليه؛ فمن هذا أيضاً صار عبّاد الأصنام أفهم منك وأكثر شعوراً.

وأمّا الشرك الأخفى فهو أمور: منها أن تغيّر شيئاً بالاعتقاد عمّا هو عليه وذلك أنّك قد عرفت أنّ الله سبحانه قد وضع كلّ شيء في محلّه ومقرّه فمن أتى يغيّر شيئاً وإن كان حقيراً كان مشركاً، وهذا معنى ما رواه بريد العجليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن أدنى ما يكون به العبد مشركاً، قال فقال من قال للنواة إنّها حصاة وللحصاة إنّها نواة ثم دان به، قال شيخنا البهائي رحمه الله تعالى لعلّ مراده عليه السلام من اعتقد شيئاً من الدّين ولم يكن كذلك في الواقع فهو أدنى الشرك ولو كان مثل اعتقاد أنّ النواة حصاة وأن الحصاة نواة ثم دان به؛ وقد دخل أبو حنيفة وأضرابه من فقهائهم تحت هذا النوع من الشرك على ما عرفت من أنّه يقول قال عليّ (كذا) وأنا أقول (كذا) لكن هذا من أفراد الشرك الجلي إلّا أنّه لما خفي حاله على أكثر الناس أدرجناه تحت الشرك الأخفى والخفي، ويدخل تحت هذا أيضاً من كذب متعمداً في الأحكام الشرعية مثل علماء السوء ومحدّثيهم الذين أكثروا الكذب على الله ورسوله فهم مشركون أيضاً، وكذلك من كذب من علماء الشيعة في المسائل الشرعية وتكلّم بلا وقوف ولا تثبّت وإنّما توهّمه أو تعمّده لئلا يقال إنّه جاهل، وكذلك من أفتى الناس وليس هو بأهل الفتوى[1] فإنّه والحال هذا قد نهي عن الخوض في الفتاوى، فإذا أفتى فقد أشرك من حيث لا يشعر، ومن هنا صار الشرك دقيقاً جدّاً.

ومنها الطاعة فإنك قد علمت إنّ الذي يجب طاعته هو الله سبحانه أو من أمر بطاعته مثل حججه عليهم السلام فمن أطاع غير من فرض الله طاعته فقد صار مشركاً لأنّه أشرك في طاعته؛ قال الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال يطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيشرك وقد دخل تحت هذا الفرد من الإشراك سائر مخالفينا من العامة وغيرهم؛ وذلك لأنّهم ألزموا

(١) ولذا يقال أنّ من ادعى الاجتهاد والأهلية للفتوى فإن كان ممن يحتمل في حقه ذلك حمل على الصحة ولم يفسق بذلك ولكن لا يجوز ترتيب الآثار بمجرد ذلك لعدم ثبوت أهليته للفتوى كأكثر المدعين للاجتهاد في هذا العصر التعيس والمترشحين للمرجعية في هذا الزمن المنحوس وأما إذا كان هذا المدعي للاجتهاد خالف الضرورة في دعواه فشارب الخمر خير منه.

أنفسهم طاعة الطواغيت والجوابيت[1] ومن أمر الله أن يكفروا به؛ فقد صاروا شركاء الله حيث أوجبوا ما لم يوجب وأشركوا فيه أيضاً من جهة أن من أوجب طاعته لم يوجبوها هم، ومن هنا روى عميرة عن أبي عبدالله عليه السلام قال سمعته يقول أُمر الناس بمعرفتنا والرّد إلينا والتسليم لنا، ثمّ قال وإن صاموا وصلّوا وشهدوا أن لا إله إلا الله وجعلوا في أنفسهم أن لا يردّوا إلينا كانوا بذلك من المشركين.

ومنها المعارضة والإنكار على الحكم الإلهيّة كما يصدر من عوام الناس كثيراً إمّا باللّسان أو بالقلب؛ وإليه الإشارة بقوله عليه السلام لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه النّبي صلى الله عليه وآله ألا صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وحينئذ فما يقوله جهّال الناس وعوامهم: لو أنّ الله أغناني لكان هو الأحسن أو لو أنّ الله فعل بزيد كذا وكذا لكان هو الأصلح ونحو ذلك من العبارات المشتملة بظاهرها على الاعتراض من باب الشرك وأحد أنواعه.

ومنها الإشراك معه في المحبة فإن أسباب المحبة كما سيأتي إنشاء الله تعالى كلّها

---

(١) وقد جعلوا الخائنين والظالمين والفساق والمرتكبين للكبائر من أُولي الأمر الذين أمر الله تعالى والعياذ بالله ـ بالإطاعة لهم والانقياد إليهم وقرن طاعتهم بطاعته قال الشيخ المراغي في تفسيره ما هذا لفظه: وأطيعوا أُولي الأمر وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة.
وقال أيضاً: أُولي الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء في الجيش والمصالح العامة كالتجار والصناع والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديري الصحف ورؤساء تحريرها - وطاعتهم حينئذ هي طاعة أولي الأمر (اهـ) انظر تفسير المراغي ج٥ ص ٧٢ - ٧٣ ط مصر والقارىء العزيز جد خبير أنّ أكثر هؤلاء الأشخاص من رؤساء الفجار وأذناب الاستعمار فكيف أمر الله تعالى بوجوب طاعتهم.
وقد زعم الشيخ المراغي كالإمام فخر الدين الرازي في تفسيره أنّ المراد من أُولي الأمر أهل الاجماع فإنّ الآية الشريفة تدل على عصمة أُولي الأمر وعصمتهم لا تحصل إلا باجماعهم ويرد هذا الزعم أنّ ظاهر الآية إفادة عصمة كل واحد من أولي الأمر لا مجموعهم لأن ظاهرها ايجاب طاعة كل واحد وأضف إلى ذلك أنّ العمل بمقتضى الإجماع ليس من باب الطاعة لهم لأن الاجماع من قبيل الخبر الحاكي كما فصل هذا المطلب بعض علمائنا في محله.

راجعة إليه فيجب أن يكون هو المحبوب لا غير ولا يكون في القلب غيره وهو بيته ومنزله كما سمعت في الحديث القدسي من قوله: لم تسعني سمائي ولا أرضي ولا عرشي ولا كرسيّي وإنّما وسعني قلب عبدي المؤمن. فلا يكون في هذا البيت إلّا هو أو من انتسب إليه وهو من أمر بودادهم مثل الأئمة الطاهرين والعلماء وأولاد الرجل وأقاربه ممّن أمر سبحانه بعطفهم والميل إليهم فمحبة هؤلاء راجعة إلى حبّه سبحانه كما جاء في الحديث، أما إذا تجاوز القدر المأمور به صار شركاً ومن هذا جاء في الكتب أنّ الله سبحانه إنّما غيّب الصدّيق عن أبيه يعقوب لمكان إفراطه في حبّه حتى إنّه أدخل البيت غير صاحبه وقد سئل الصادق عليه السلام عن العشق فقال تلك قلوب خلت من محبة الله فأذاقها الله حلاوة غيره.

وبالجملة فالإفراط في المحبة على القدر المأمور به يكون شركاً لأنّه قد أشرك مع الله غيره في الحب والوداد ومن هنا جاء الأمر منه سبحانه بخلع حبّ الدّنيا عن القلب وقد جاء في الرواية في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية، إنّ الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم أن يزور عبداً من عباده الصالحين فزاره فلمّا كلّمه قال له إنّ لله تعالى في الدّنيا عبداً يقال له إبراهيم اتّخذه خليلاً فقال إبراهيم وما علامة ذلك العبد؟ قال يحيي له الموتى، فوقع لإبراهيم أنّه هو فسأله أن يحيي له الموتى، قال أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي على الخلّة، ويقال أنّه أراد أن يكون له في ذلك معجزة كما كانت للرّسل وأنّ إبراهيم سأل ربّه عزّ وجلّ أن يحيي له الميّت فأمره الله عزّ وجلّ أن يميت لأجله الحيّ سواء بسواء وهو أنّه أمره بذبح ابنه اسماعيل وإنّ الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم بذبح أربعة من الطير: طاووساً ونسراً وديكاً وبطّاً، فالطاووس يريد به زينة الدّنيا؛ والنّسر يريد به الأمل الطويل، والبط يريد به الحرص؛ والديك يريد به الشهوة. ويقول عزّ وجلّ إنّ اردت أن يحيى قلبك وتطمئنّ معي فاخرج عن هذه الأشياء الأربعة فإذا كانت هذه الأشياء في قلب فإنه لا يطمئن معي. وروي عن العالم عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [طه: ١٢] إنّ المراد انزع حب قلبك عن أهلك فإنّ الزوجة تشبه بالنعل والنعل الآخر هم الأولاد فقد أُمر حالة اللقاء (لقائه خ ل) مع المحبوب الحقيقي بخلع ما سواه من الأحباب.

وأمّا إيضاح هذه الطيور الأربعة، فاعلم إنّ الطّاووس طائر معروف وهو يحبّ الزّهو بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه وعقده لذنبه كالطّاق لا سيّما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه وقيل أعجب الأمور أنّه مع حسنه يتشأّم به وقيل إنّ السبب فيه أنه دخل

إبليس إلى الجنّة فأخرج آدم منها[١] فصار سبباً لخلوّ الدّار من أهلها فلذا كره النّاس إقامته في الدّور.

وروي إنّ آدم عليه السلام لما غرس الكرمة جاء إبليس فذبح عليها طاووساً فشربت دمه فلمّا طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه؛ فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلمّا انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه فلهذا شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة؛ وذلك أنّه أول ما يشربها وتدب في أعضائه يزهو لونه ويحسن كما يحسن الطاووس وإذا جاء مبادىء السكر لعب وصفق ورقص كما يفعل القرد، وإذا قوي سكره جاء بصفة الأسد فيعبث ويهتزىء بما لا فائدة فيه ثم ينقعص كما ينقعص الخنزير ويطلب النوم ويخل عزم قوته.

وأما النسر فهو من أطول الطير عمراً يقال أنّه يعمر ألف سنة وسمي نسراً لأنه ينسر الشيء ويبتلعه، وعن الحسن عليه السلام أنّه يقول في صياحه عش ما شئت فإن الموت ملاقيك وزعم قوم إنّ الأنثى من هذا الصنف تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن وإنّما تبيض في الأماكن العالية الضاحية للشمس فيقوم حرّ الشمس للبيض مقام الحضن وهو حاد البصر يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ وكذلك حاسّة شمّه لكن قيل أنّه إذا شمّ الطيب مات لوقته وليس في سباع الطير أكبر جثة منه ومع هذا قالوا أنّه أقواها جناحاً حتى إنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد وإذا وقع على الجيفة وعليها عقبان تأخرن عنه وكل الجوارح تخافه، وإذا وقع على الجيفة وأكل منها امتلأ ولم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة، وهو أشدّ الطير حزناً على فراق إلفه وإذا فارق أحدهما الآخر مات حزناً وكمداً وفي الروايات عنه صلى الله عليه وآله إنّ النسر سيد الطيور، ومن هذا ذكروا في خواصه أنّ من حمل معه قلب النسر كان محبوباً ومهاباً مقضيّ الحاجة عند السلطان وغيره ولا يضره سبع أبداً.

وأمّا البطّ وحرصه على الماء وعلى التقاط الحبّ أينما كان فهو ظاهر مشهور. وأمّا الدّيك وشهوته خصوصاً للجماع فظاهر وذلك إنّه ربّما كان في المحلة الواسعة الكثيرة الدّجاج ديك فيكفي لكلّ تلك الدّجاج، ومن خصاله الحميدة إنّه لا يؤثر واحدة على واحدة وقد أمر صلى الله عليه وآله بأن يتعلّم النّاس من الديك خصالاً: الشجاعة

---

(١) قصة غير مذكورة في الروايات الصحيحة الإسلامية ولذا لا يعتمد عليها وكأنها من دس أهل الكتاب انظر ما ذكرناه في هذا الكتاب ج ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ في الهامش.

والغيرة والكرم وكثرة الجماع. ويعجبني نقل كلام ذكره شيخنا الشيخ بهاء الدّين قدس الله روحه وهو أنّ النفس الإنسانية واقعة بين القوة الشهوانية والقوة العاقلة فبالأولى تحرص على تناول اللذات البدنيّة البهيمية كالغذاء والسّفاد والتغالب وسائر اللّذات العاجلة الفانية وبالأخرى تحرص على تناول العلوم الحقيقيّة والخصال الحميدة المؤدّية إلى السعادات الباقية الابدية، وإلى هاتين القوتين أشار سبحانه بقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فإن جعلت الشهوة منقادة للعقل فقد فزت فوزاً عظيماً واهتديت صراطاً مستقيماً وإن سلّطت الشهوة على العقل وجعلته منقاداً لها ساعياً في استنباط الحيل المؤدية إلى مراداتها هلكت يقيناً وخسرت خسراناً مبيناً، واعلم أنّك نسخة مختصرة من العالم فيك بسائطه ومركباته ومادياته ومجرّداته بل أنت العالم الكبير بل الأكبر كما قال أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين عليه الصلاة والسلام:

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنّك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي ... بأسطاره يظهر المضمر

وما من شيء إلّا وأنت تشبهه من وجه لكنّ الغالب عليك أربعة أوصاف: الملكيّة والسبعية والبهيميّة والشيطانية؛ فمن حيث الملكية تتعاطى أفعال الملائكة من عبادة الله سبحانه وتعالى وطاعته والتقرّب إليه ومن حيث الغضب (السبعيّة خ) تتعاطى أفعال السّباع من العداوة والبغضاء والهجوم على النّاس بالضّرب والشّتم، ومن حيث الشهوة تتعاطى أفعال البهائم من الشره والشبق والحرص ومن حيث الشيطانيّة تتعاطى أفعال الشياطين فتستنبط وجوه الشرّ وتتوصّل إلى الأغراض بالمكر والحيل فكأن المجتمع في إهابك أيّها الإنسان ملك وكلب وخنزير وشيطان فالملك هو العبادة والكلب هو الغضب والخنزير هو الشهوة والشيطان هو المكر والحيل، فإن اشتغلت بجهاد هذه الثلاثة بالبصيرة النّافذة وكسرت شره الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب تنكسر سورة الشهوة وأذللت الكلب بتسليط الخنزير وجعلت الكل في مملكة العدل مقهورين تحت السياسة اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكلّ على الصراط المستقيم؛ وإن لم تجاهدهم قهروك واستخدموك فلا تزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر في تحصيل مطلوبات الخنزير ومرادات الكلب فتكون دائماً في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثر النّاس الذين همّتهم مصروفة إلى البطن والفرج ومناقشة الخلق ومعاداتهم والعجب منك أنّك تنكر على عبّاد الأصنام عبادتهم لها ولو كشف الغطاء عنك وكوشفت بحقيقة حالك ومثّل لك ما يمثل للمكاشفين إمّا في النوم أو في اليقظة لرأيت نفسك قائماً بين يدي خنزير مشمراً ذيلك في خدمته ساجداً له مرّة وراكعاً له أُخرى منتظراً لإشارته وأمره فمهما طلب الخنزير شيئاً من شهواته توجّهت على الفور إلى تحصيل مطلوبه وإحضار مشتهياته ولأبصرت نفسك جاثياً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً لما يلتمسه مدققاً الفكر في الحيل الموصلة إلى طاعته وأنت بذلك ساعٍ في ما يرضي الشيطان ويسره فإنّه هو الذي يهيّج الكلب والخنزير ويبعثهما على استخدامك؛ فأنت من هذا الوجه عابد للشيطان وجنوده ومندرج في المخاطبين المعاتبين يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده لئلا يكون ساعياً طول عمره في عبادة هؤلاء، فهذا غاية الظلم حيث صيّر المالك مملوكاً والسيّد عبداً والرئيس مرؤساً، إذ العقل هو المستحق للسّيادة والرّياسة والاستيلاء وهو قد سخره لخدمة هؤلاء وسلّطهم عليه وحكمهم فيه؛ قال بعض المفسّرين عند قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣] قد سخر لك الكون وما فيه لئلا يسخرك منه شيء وتكون مسخّراً لمن سخر لك الكل فإن جعلت نفسك مسخرة لما في الكون أسيرة للذات الفانية فقد جهلت فضل الله لديك وكفرت نعمته عليك إذ خلقك عبداً لنفسه حرّاً من الكلّ فاستعبدك الكلّ ولم تشتغل بعبودية الحق بحال - انتهى. وما أحسن قول رابعة العدوية:

لـك ألـف مـعـبـود مـطـاع أمـره   دون الإلـه وتـدّعـي الـتـوحـيـدا

ومن أفراد الشرك قول النّاس فيما تعارف بينهم لولا فلان هذه السنة أو هذا الشهر لمت أنا وأولادي أو لم أعش إلى هذا الوقت ونحو ذلك ممّا يؤدّي معناه وذلك إنّ هذا قول من غفل عن الله سبحانه وعن كونه هو الرّزاق وأنه هو الذي سخّر ذلك الرجل وهيأ له الأسباب التي يتوصّل بها إلى إحسانك فهو ليس إلا كالآلة في إيصال ذلك النفع إليك، فإن الله تعالى لو لم يعطه مالاً ولم يجعل في قلبه الشفقة عليك ولم يأمره بصلة أمثالك لما رأيت منه شيئاً من الإحسان وكذلك إذا لم يتكلّم بهذا الكلام لكنّه كان من عقيدته وممّا ارتكز في خياله فإنّه أيضاً من الشرك الأخفى

لأنّ هذا الاعتقاد الفاسد منه ليس إلّا كاعتقاد من عظم الأوثان وخضع لها لأنها التي توصل النّفع إليه وتدفع الضرر عنه.

وبالجملة فأنواع الشرك وأفراده أكثر من أن تحصى وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] متناول لأنواع الشرك وأفراده، فإن قلت إذا كان كل ما ذكرت من الشرك المنهي عنه لا ينفكّ أحد منّا من التلبّس بفرد عن أفراده إذا أعطيناه الإنصاف مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فكيف حالنا عند الورود على الله وكيف نرجو منه المغفرة مع ما أسمعنا من هذا الكلام وقطع آمالنا منه.

قلت وإن كان الحال على ما ذكرت من عدم الخلوّ من أحد أفراده لكنّ الله سبحانه قد جرت عادته الربانيّة بتوفيق المؤمن للتّوبة من ذلك الذنب والنّدامة عليه ومعرفته ولو بعد حين بأن المنعم الحقيقي ليس إلا هو تعالى شأنه؛ ومن ألطافه به عدم توفيق الناس في غالب الأوقات لقضاء حوائجه حتى يرجع إلى الله عند الإياس منهم ويلجأ إليه ويندم على ما أشرك به في جنب الله ويعرف أنّه ليس الملجأ إلّا إليه كما قال مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام يا كهفي حين تعييني المذاهب، يعني به التّرددات إلى الخلق والذّهاب إليهم فإذا أعيت عليه الحيل ولم ينتفع بتلك التّرددات اعترف بهذا المعنى.

وفي الحديث إنّ الله سبحانه يرمي عبده المؤمن بالنّعاس إذا أراد القيام للصلاة فيصبح وهو ماقت لنفسه زارٍ عليها وهو من ألطاف الله سبحانه لئلا يعجب بعمله؛ وحينئذ فالنوم خير له من العبادة فهو سبحانه الذي أنامه عن صلاة الليل لئلا يعجب بأعماله وهو الذي لم يوفق الناس للإحسان إليه حتى يكون مأيوساً منهم فيرجع إلى الله ويطلب ما طلب منه تعالى ويندم على الإقبال الذي صدر منه على الناس فانظر هنا كيف صار منع الإلطاف إلطافاً.

نور يكشف عن عقوق الوالدين وعما توعد عليه من العذاب وما يتبعه من قطيعة الرحم

اعلم أنّ الله تعالى قد أكثر في كتابه من الوصية بالوالدين حتى إنّه ذكره في سبع آيات:

الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

الثانية: قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثالثة: قوله سبحانه في سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الرابعة: قوله تعالى في سورة بني إسرائيل ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

الخامسة: قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

السادسة: قوله عز وجل من قائل في سورة لقمان ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

السابعة: قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾ [الأحقاف: ١٥]، فانظر إلى هذه الآيات كيف قرن فيها بين النهي عن الشرك وبين النهي عن عقوق الوالدين إشارة إلى أنّه في درجة الشرك في الخلود في العذاب.

ومن هذا قال ﷺ يقال للبار بوالديه اعمل ما شئت فإنّي سأغفر لك ويقال للعاقّ لوالديه اعمل ما شئت فإنّي لا أغفر لك، وفي هذا إشارة إلى أنّ البر بالوالدين لا يضر معه سيئة فكل ما عمل من السيئات تكفره تلك الحسنة وكذا في جانب العقوق فإن العاق كل ما عمل من خير لا ينفعه وهو متلبس بالعقوق لوالديه وذلك أنّه تعالى قرن رضاه برضاهما وعقوقه بعقوقهما، وفي الحديث إنّ ريح الجنّة ليشم من مسيرة خمسمائة عام ولا يشمه عاق الوالدين، وفي وصاياه ﷺ لعلي عليه السلام يا علي خلق الله عز وجل الجنّة من لبنتين لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل حيطانها الياقوت وسقفها الزبرجد وحصاها اللّؤلؤ وترابها الزعفران والمسك الأذفر ثم قال لها تكلّمي فقالت لا إله إلا الله الحيّ القيوم قد سعد من يدخلني قال الله جلّ جلاله وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ولا نمّام ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنّث ولا عشّار ولا قاطع رحم ولا قدريّ؛ والشرطي منسوب إلى الشّرط كصرد طائفة من أعوان الظالمين سمّوا بذلك لأنّهم علموا بعلامات يعرفون بها.

وقوله ولا عشّار المراد به من يأخذ العشر أو أقلّ أو أكثر من غير حقّ سواء أخذه في البلد أو الصحراء، وقوله ولا قاطع رحم سيأتي تحقيق الرحم ولكن من أقرب الأرحام الوالدين، وقوله ولا قدري المراد به الأشاعرة الذين ذهبوا إلى أن كل الأفعال مقدورة له سبحانه والعبد ليس له قدرة على شيء.

واعلم أنّ البر بالوالدين له فوائد في الدّنيا والآخرة والعقوق يبطلها؛ أمّا الدّنيا فمن فوائده أنّه يؤخّر الأجل ويزيد في العمر، والعقوق يقرب الأجل وفي الرواية أنّه ربّما كان قد بقي من عمر الإنسان ثلاث سنين ثم إنّه يحسن إلى والديه ويصل أرحامه فيؤخره الله إلى ثلاثين سنة وإنّ منهم من يبقى من عمره ثلاثون سنة ثمّ إنّه يقطع أرحامه أو يعق والديه فيمحو الله سبحانه الثلاثين ويثبت مكانها ثلاث سنين. وقال رسول الله ﷺ رأيت في المنام رجلاً قد أتاه ملك الموت لقبض روحه فجاء برّه بوالديه فمنعه منه.

وقال الصادق عليه السلام من أحب أن يخفّف الله عنه سكرات الموت فليكن لقرابته وصولاً وبوالديه باراً فإذا كان كذلك هوّن الله عليه سكرات الموت ولم يصبه في حياته فقر أبداً. وفي الرواية أنّه دخل النبي ﷺ على شابّ وهو في سكرات الموت وقد تعسّر عليه قبض الرّوح فقال ﷺ له يا فلان فأجابه فقال ما ترى قال أرى أسودين قد دخلا عليّ وهما واقفان أمامي فأنا خائف منهما فقال ﷺ ألهذا الشابّ أُمّ؟ فقيل نعم فأتت أمّه فقالت أنا فقال لها أراضية أنت عن ابنك هذا أم ساخطة عليه؟ فقالت بل أنا ساخطة عليه والآن رضيت عنه لأجلك فغشي على الشابّ فلمّا أفاق قال له ما رأيت قال رأيت يا رسول الله خرج الأسودان ودخل عليّ أبيضان وأنا فرحان برؤيتهما ثم إنّه مات من ساعته.

وفي حديث آخر إنّ رجلاً مات على عهده ﷺ ولمّا دفنوه لفظته الأرض ولم تقبله فقال ﷺ إنّ أُمّ هذا الرجل ساخطة عليه فأمرها بالرضاء عنه حتى قبلته الأرض.

وروي عن العسكري عليه السلام قال عاش نوح عليه السلام ألفين وخمسمائة سنة وكان يوماً في السفينة نائماً فهبّت ريح فكشفت عورته فضحك حام ويافث فزجرهما سام عليه السلام ونهاهما عن الضحك وكان كلّما غطى سام شيئاً تكشفه الريح كشفه حام ويافث فانتبه نوح عليه السلام فرآهم وهم يضحكون، فقال ما هذا؟ فأخبره سام بما كان فرفع نوح عليه السلام يده إلى السماء يدعو ويقول اللّهم غيّر ماء صلب حام حتّى لا يولد له إلا السودان اللّهم غيّر ماء صلب يافث فغيّر الله ماء صلبيهما فجميع السودان حيث كانوا

من حام وجميع التّرك والصقالبة ويأجوج ومأجوج والصين من يافث حيث كانوا وجميع البيض سواهم من سام وقال نوح عليه السلام لحام ويافث جعل الله ذريّتكما ملكاً لذرية سام إلى يوم القيامة لأنّه برّني وعققتماني فلا زالت سمة عقوقكما في ذريتكما ظاهرة وسمة البرّ في ذرية سام ظاهرة ما بقيت الدنيا.

وأما فوائده في الآخرة وهي السعادة كل السعادة قال الصادق عليه السلام بينا موسى بن عمران يناجي ربّه عزّ وجلّ إذ رأى رجلاً تحت ظلّ عرش الله فقال يا رب من هذا الذي قد أظلّه عرشك؟ فقال هذا كان باراً بوالديه ولم يمش بالنّميمة.

وأمّا العقوق فقال الصادق عليه السلام أدنى العقوق أُفّ ولو علم الله تعالى شيئاً أهون منه لنهى عنه وقال عليه السلام من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحدّ النظر إليهما وقال عليه السلام إنّ أبي عليه السلام نظر إلى ابن يمشي متكئاً على ذراع الأب قال فما كلّمه أبي عليه السلام مقتاً له حتى فارق الدّنيا. وروي عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] قال إن أضجراك فلا تقل لهما أُف ولا تنهرهما إن ضرباك قال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] قال إن ضرباك فقل لهما غفر الله لكما فذلك منك قول كريم ثم قال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] قال لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلّا برحمة لهما ورأفة ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تقدّم قدامهما.

وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال إنّ العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما ثم يموتان فلا يقضي عنهما دينهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عزّ وجلّ عاقاً وإنّه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بارّ بهما فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله عزّ وجلّ باراً. وقال عليه السلام ثلاث لم يجعل الله عزّ وجلّ للعبد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر وبر الوالدين برّين كانا أو فاجرين، وعن الزهري قال كان علي بن الحسين عليه السلام لا يأكل مع أمّه وكان أبرّ الناس بأمه فقيل له في ذلك، فقال أخاف أن آكل معها فتسبق عينها إلى شيء من الطعام وأنا لا أعلم فآكله فأكون قد عققتها.

وروى الشيخ عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال لمّا زوج علي بن الحسين عليه السلام أمّه مولاه وتزوّج هو مولاته كتب إليه عبد الملك بن مروان كتاباً يلومه فيه ويقول إنّك وضعت شرفك وحسبك، فكتب إليه علي بن الحسين عليه السلام إنّ الله

تعالى رفع بالإسلام كل خسيسة وأتمّ به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لوّم على مسلم وإنما اللوّم لوّم الجاهليّة وأما تزويج أمي فإنما أردت بذلك برّها فلمّا انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال لقد صنع علي بن الحسين أمرين ما كان يصنعهما أحد إلا اتّضع إلا علي بن الحسين عليه السلام فإنه بذلك ازداد شرفاً.

فإن قلت كيف يوطن الشيعي نفسه على أنّ أُمّ علي بن الحسين عليه السلام وهي شهربانو بنت يزدجرد ملك العجم بعد شهادة الحسين عليه السلام تزوّجت بمولى من الموالي إما معتق أو غير معتق وهل النفس تقبل مثل هذا وإن كان جائزاً في الشريعة، قلت قد روى الصدوق نور الله ضريحه عن الرضا عليه السلام أنّ شهربانو أُم علي بن الحسين عليه السلام [1] قد ماتت في نفاسها به وكانت للحسين عليه السلام أمة مدخولة فسلّمه

---

(١) أُم السجاد عليه السلام اسمها شاه زنان بنت يزدجرد وقيل شهربانويه والاعتماد على الأول فإنّ إليه ذهب الشيخ المفيد في الإرشاد والشيخ الطبرسي في كتابه إعلام الورى والشهيد ابن الفتال في الروضة وما روي عن الرضا سلام الله عليه في خبر وفاتها من أنها ماتت عند ولادة السجاد عليه السلام فعليه المعول كما ذكره المصنف رحمه الله وقصة كونها مدفونة في الري أسطورة لا مسحة لها من الواقع ولكن مما ينبغي لفت النظر إليه هو أنّه ذكر في بعض الكتب المعتبرة أنّ شهربانويه كانت حاضرة في وقعة الطف الفظيعة ـ تلك الكارثة الفجيعة ـ وهذا دليل على عدم كون شهربانويه أم السجاد عليه السلام بل أُمه عليه السلام اسمها شاه زنان كما ذكرنا وقد ماتت في نفاسها به وصرح به أيضاً ابن أبي الثلج البغدادي المتوفى (٣٢٥هـ) في تاريخ الأئمة انظر ص ١٥ ط قم.
قال العلاّمة الأمين العاملي رحمه الله في كتابه لواعج الأشجان ما هذا لفظه: (وخرج غلام من خباء من أخبية الحسين عليه السلام وفي اذنيه درتان فأخذ بعود من عيدانه وهو مذعور فجعل يلتفت يميناً وشمالاً وقرطاه يتذبذبان فحمل عليه هانىء بن ثبيت الحضرمي فضربه بالسيف فقتله فصارت أمه شهربانويه تنظر إليه ولا تتكلم كالمدهوشة (اهـ) انظر ص ١٨٠ ط ٣ صيدا.
ويوجد قريب من هذا المضمون في بعض كتب السير والمقاتل أيضاً والذي يظهر بعد البحث وإمعان النظر في كتب السير والتواريخ أنّ في أسراء الفرس الذين جاؤوا إلى المدينة من بنات يزدجرد ثلاث فتيات تزوج واحدة منهن عبدالله بن عمر فأولدها سالماً والأُخرى محمد بن أبي بكر فاولدها القاسم والثالثة الحسين عليه السلام اولدها السجاد وهي عليها السلام شاه زنان ماتت عند ولادة السجاد عليه السلام ولم تحضر وقعة الطف والمظنون قوياً أنّ شهربانويه التي كانت في كربلاء هي زوجة محمد بن أبي بكر وقد تزوجها الحسين بعد وفاته وهي التي رمت نفسها في الفرات بعد قتل سيد الشهداء عليه السلام ولعلها فعلت ذلك - إنّ صحت القضية ـ خوفاً من الاسارة وطمع يزيد لعنه الله في تزويجها عناداً وعداوة للحسين وغير خفي على الباحث الخبير أنّ ما ذكره الشيخ المفيد رحمه الله بقوله:
(أمه شاه زنان بنت يزدجرد بن شهريار بن كسرى ويقال أنّ اسمها شهربانويه وكان أمير =

إليها وكانت هي التي تولّت تربيته وكان يقول لها أمّي ويحترمها ذلك الاحترام وهي التي زوجها مولاه والمراد به واحد من شيعته وخواصّه لإطلاق المولى عليه أيضاً، وقد روى التصريح به في حديث آخر. وفي بعض الروايات أنّها ألقت نفسها في الفرات في وقت شهادة الحسين عليه السلام خوفاً من يزيد لأنّه كان يكره العجم، وقيل إنّ علي بن الحسين عليه السلام أركبها جملاً في تلك الواقعة الهائلة وقال لها كوني على ظهره أين مضى فقيل أنّه مضى بها إلى الري والآن فيه بقعة يزورها الناس ويقولون هذا قبر أمّ عليّ بن الحسين عليه السلام ولكن الاعتماد على ما روي عن الرضا عليه السلام.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ حقوق الأم أعظم عند الله تعالى من حقوق الأب ولهذا أفردها سبحانه في الآيتين الأخيرتين بما به تستحق توقير التعظيم بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، وبقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ومن هذا جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال له رجل يا رسول الله من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال أمّك قال ثم من؟ قال أمّك قال ثم من قال أبوك ذكر الأم مرّتين وفي رواية أخرى ثلاثاً قال بعض العلماء هذا يدلّ على أنّ للأُمّ ثلثي برّ الابن على الرواية الأولى أو ثلاثة أرباعه على الرواية الثانية وللأب إما الثلث أو الربع وينبغي أن يحقق الإنسان أنّه مهما بالغ في برّهما وخدمتهما فهو لا يكون قد أتى بحقهما، كما روي أنّ رجلاً أتى إلى الصادق عليه السلام فقال له إني خدمت أبويّ حتى كبر سنهما فصرت أخدمهما كما تخدم الأطفال فهل أتيت بحقهما؟ فقال عليه السلام لا، وذلك أنّهما خدماك وهما يحبّان بقاءك وأنت تخدمهما وتكره بقاءهما. ولكن روي عن سدير الصيرفي قال قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام هل يجزي الولد والده؟ قال ليس له جزاء إلا في خصلتين أن يكون الوالد مملوكاً فيشتريه فيعتقه أو يكون عليه دين فيقضيه عنه.

بقي الكلام في تحقيق الوالدين اللذين ورد في تلك الآيات الأمر ببرّهما وطاعتهما فنقول إنّ الذي ورد في الأخبار عنهم عليهم السلام إطلاقهما على معانٍ ثلاثة:

الأول: إنّ المراد بالوالدين النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام قال صلى الله عليه وآله أنا وعليّ أبوا هذه

= المؤمنين عليه السلام ولى حريث بن جابر الحنفي جانباً من المشرق فبعث إليه ابنتي يزدجرد بن شهريار بن كسرى الخ) لا يخلو من تأمل فان المتحقق من كتب السير أنّ هذه الواقعة كانت في خلافة عمر لا في زمان الدولة الحقة العلوية.

انظر الإرشاد ص ٢٧٠ ط تبريز وإعلام الورى ص ٢٥١ ط طهران وروضة الواعظين ص ٢٤٢ ط قم وتحفة العالم لآل بحر العلوم ج ٢ ص ٤ ط النجف.

الأمة ونحن الوالدان المأمور ببرّنا في آيات الكتاب وذلك أنّ الأبوين سببان في إيجاد الولد وأمّا هما عليهما السلام فهما السببان الأعظمان كما قال تعالى في الحديث القدسي: لولاك لما خلقت الافلاك، فهما السببان في إيجاد العالمين فيكون مدخليّتهما في وجود الابن أعظم من مدخليّة الأب في وجود الابن ومن هذا كان صلى الله عليه وآله هو أب المؤمنين وزوجاته أمهاتهم.

وفي الروايات الغريبة أنّ علياً عليه السلام صعد على منبر الكوفة فقال ألفاظاً معناها أنّ المراد بالوالدين في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أنا ورسول الله؛ فقام رجل من أهل المسجد فقال له يابن أبي طالب سحرت أهل الحجاز وأتيت تسحر أهل العراق بتأويلك القرآن فرمقه عليه السلام بطرفه فإذا هو قد صار غراباً أبقع فطار من بين القوم ووقع على حائط المسجد يزعق والناس ينظرون إليه فقال بعضهم لبعض قد بلغ من سحر ابن أبيطالب أنّه يمسخ الرجال والله لئن لم تعاجلوه بالقتل لصنع بكم ما صنع بصاحبكم وكان عدة القوم ثلاثين ألفاً، فتعاقدوا على أنّه إذا جاء إلى صلاة الجمعة وفرغ من الخطبة ونزل وسجد نبادر إليه بسيوفنا كلها فنضربه بها حتى لا يعرف له قاتل. فلما أتى يوم الجمعة تقلدوا بسيوفهم وأتوا إلى المسجد، فلمّا سجد في الركعة الأولى قبض كل واحد منهم قائم سيفه ليخرجه من جفنه، فما أتى في أيديهم سوى قبضات السيوف، فلما فرغوا من الصلاة قام عليه السلام وتخطّى القوم وأتى إلى منزله، فنظروا وإذا سيوفهم ليس إلّا القبضة والجفن ولم يروا حديدة السيف فتعجبوا.

وكان بعض مواليه عليه السلام معهم، قال فأتيته عليه السلام في بيته وحكيت له كيد القوم وتسويلهم. وما جرى عليهم من فقد سيوفهم، فقال لي عليه السلام إذا كان غداً فتعال إلينا أول النهار. فأتيته في الغد، فقال لي اخرج إلى ظهر الكوفة حتى تبلغ إلى موضع كذا وكذا فإذا وصلت إليه ترى قافلة مقبلة يقدمها رجل على بغلة، فتقدّم عليه وقل له إنّ أمير المؤمنين أرسلني إليك وهو يقول سلّم إليّ هذه القافلة وارجع سالماً، فلمّا بلغت إلى ذلك الموضع رأيت ذلك الرجل يقدم القافلة فقلت له ما قال لي؛ فقال هذه القافلة خذها إليه ورجع. فأتيت بالقافلة إليه عليه السلام فطرحت تلك الأحمال عنده ولم أدر ما فيها.

فقال عليه السلام ادعُ لي فلاناً يعني جماعة من شيعته ومواليه فدعوتهم فلمّا أتوا إليه قال أخرج ما في هذه الحمول، فلمّا خليتها فإذا حدائد السيوف، فعددتها فإذا هي ثلاثون ألفاً، فقسّمها بين مواليه وشيعته وخرجوا لبيعها في الأسواق وباعوها على

أولئك القوم فعرفوها واشتروها بأغلى ثمن، فأتيت إليه وقلت له يا أمير المؤمنين ما هذه السيوف فقال هي سيوفهم، وذلك أنهم لمّا أرادوا لمكر أرسل الله إليهم ثلاثين ألفاً من الملائكة فأخذ كل ملك بسيف واحد من القوم وجمعوها وأتوا بها مع ذلك الرجل الذي رأيته:

هذا المناقب لا قعبان من لبن شيبت بماء فصارت بعد أبوالا

فأين هذا من الرجل العالم الذي يقول كلّ النّاس أفقه من عمر حتّى المخدّرات تحت الحجال وصاحبه الّذي يقول إنّ لي شيطاناً يعتريني فإذا ملت فعدّلوني، وبالجملة فالأبوان هما عليهما السلام فمن برهما استحقّ ثواب الأبرار، ومن عقّهما كان من أهل العقوق ومن قدَّم على أمير المؤمنين عليه السلام من لم يستحق التقديم كان من أهل العقوق.

الثاني: إنّ المراد بالأب من علم الإنسان العلوم الدينية فإنه قد هداه وأنقذه من النار، فهو قد أحيا قلبه ونوّره بأنوار المعارف الإلهيّة وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، قال من أنقذها من ضلالة إلى هدى، وهذا شأن المعلم فهو الأب الثاني لأنه كان سبباً في حياته الباقية والأب سبب في حياته الفانية؛ وحينئذ فيجب عليه أن يبرّه فإنَّ عقه بواحد من أنواع العقوق كان من أهل الذنوب والآثام.

وكان في إصفهان رجل عالم من مجتهدينا رأيناه وقرأنا عليه وقد كان في أول تحصيله يقرأ عند مجتهد آخر فلما نشأ ذلك التلميذ أنكر قراءته على ذلك الشيخ، ولم يقر له بالفضل؛ فبلغ الأستاذ قوله فدعا عليه وقال اللهم اسلبه كل ما قرأ عندي وأخذه منّي، فسلبه الله الحافظة بعدما كان مشهوراً بالحفظ فصار لا يحفظ مسألة على خاطره، بل لا بدّ له في كل مسألة من مراجعة كتبه ومؤلفاته وهو الآن موجود في إصفهان(١) ونحن نحمد الله على توفيقه لنا لبرّ المشايخ والقيام بوظائف خدمتهم والاستغفار لهم أحياءً وأمواتاً ورضاهم عنّا.

---

(١) ومن الخلق السيىء هو السؤال عن الأستاذ على سبيل التعنت وقد سمعت عن سيدي الوالد الماجد قدس الله سره وعن سائر مشايخنا وأساتذتنا العظام أنّ رجلاً فاضلاً مشهوراً في مدينة العلم النجف الأشرف كان له إلمام بالفحص والتتبع عن العبارات المعضلة والمطالب الغامضة وسؤال حلها عن الشيخ الإمام العالم الرباني الشيخ محمد حسن المامقاني النجفي التبريزي المرجع الأعلى للشيعة الإمامية في الاقطار الإسلامية المتوفى (١٣٢٣هـ.ق) وكان يسأل حل=

وأما تلاميذنا فمنهم من آذانا غاية الإيذاء، وعقنا نهاية العقوق، فنحن نقول اللهمَّ قابل إساءته إلينا بالإحسان، وقابل عقوقه لنا ببرّك به؛ ووفقه لكلّ خير بحق محمد وآله الطاهرين، ولا تستبعد ما جرى على ذلك الفاضل من سلب الله سبحانه ما منحه من المسائل فإنّه قد روي عنه عليه السلام أنّ العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه، ولا ريب أنّ البرّ للمعلم من أعظم الأعمال وأقواها ، فحيث لم يقم به ارتحل عنه العلم ارتحالاً بعيداً.

الثالث: إنّ المراد بهما هذا الأبوان وإن علوا، فالجدّ أب وإن علا وكذا الجدّة وكما يجب على الولد البرّ بوالديه فكذلك يجب على الوالدين البرّ بأولادهما، قال عليه السلام يلزم الآباء من العقوق لأولادهم ما يلزم الأولاد من العقوق لآباءهم، وقال عليه السلام لعن الله والدين حملا ولدهما على عقوقهما، فينبغي للآباء أن يحسنوا إلى الأولاد وأن لا يفضّلوا بعضهم على بعض لأنّه يوجب العقوق والتعادي بين الأولاد كما هو المشاهد في هذه الأعصار، وممّا يتعلق بالأولاد من مسائل الفقه تأكيداً لحقوق الأبوين تحريم السفر المباح بغير إذنهما، وكذا السفر المندوب؛ وأمّا لو كان واجباً كالسفر لطلب العلم فإن أمكن تحصيله عندهم كتحصيله في السفر فلا يجوز حينئذ إلا بإذنهما؛ وإن لم يمكن مطلقاً أو أمكن على وجه ناقص جاز السفر مطلقاً. والمراد بالعلم الذي يجب له السفر الواجب علم الكلام والفقه والحديث والتفسير أما غيره كحكمة الأبدان وحكمة الفلاسفة والنجوم ونحوها فلا يجوز له السفر إلا بإذنهما.

وأمّا مقدمات العلوم الواجبة كعلم العربية ونحوه فالظاهر جواز السفر له أيضاً بغير إذنهما كالعلم الواجب، وذلك لأن علم النحو أو نحوه قد صار جزءاً من العلم الواجب لشدة توقّفه عليه، وإن من كان لا اطلاع له على علوم العربية لم يحصل

= تلك العبارات والمطالب عن الشيخ رحمه الله في حشد من الناس وفي محافل العلماء والطلاب ومجالسهم ولم يكن قصده من عمله هذا إلا إساءة الأدب والتعنت وتعجيز الشيخ رحمه الله الذي هو البحر المواج بأنواع العلوم الإسلامية والمشهور في حل العبارات المشكلة والمطالب العلمية الغامضة والقاموس الناطق في بيان معضلات اللغة، والعلماء عرفوا نية هذا الشخص ونهاه اصدقاؤه عن هذا العمل ونصحوه وزجروه وهو لم ينزجر ولم يقبل وأصر على هذه الصفة الخبيثة ولم تطل أيامه وقصر عمره وانقضت مدته وابتلي بمرض صعب العلاج في مدة يوم وليلة ومات في أيام شبابه وأوائل نبوغه وأوانه ولم يشك أحد أنّه لم يكن هذا الأمر إلا بسبب إساءة الأدب مع الشيخ قدس سره.

العلوم الواجبة على وجه يكمل الانتفاع بتحصيله؛ ومنه أيضاً ما قاله بعض الأعلام من أنّه يجب طاعتهما في كل فعل وإن كان شبهة، فلو أمراه بالأكل معهما من مال يعتقده شبهة الأكل وجب له أكله، لأنّ طاعتهما واجبة، وترك الشبهة مستحبة، ولو وجهاه إلى فعل وقد حضرت الصلاة فليؤخّر الصلاة وليطعهما لما قلناه، ويجوز لهما منعه عن صلاة الجماعة ولكن لا مطلقاً بل إذا شق عليهما مخالفته كالسّعي في ظلمة الليل إلى العشاء والصبح، وكالسّعي في الأوقات الحارّة والباردة.

ومنه أيضاً ما قاله جماعة من الأصحاب وهو أنهما لو دعواه في الصلاة النافلة قطعها، لما صحّ عن رسول الله ﷺ أنّ امرأة نادت ابنها وهو في صومعةٍ، فقالت يا جريح فقال اللهمَّ أُمي وصلاتي؛ فقالت لا تموت حتى تنظر في وجوه المومسات، وفي بعض الروايات أنه ﷺ قال لو كان جريح فقيهاً لعلم أنّ إجابة أمّه أفضل من صلاته[1]، ومنه أيضاً ترك الصوم ندباً إلا بإذن الأب ولم أقف على نصّ في الأمّ.

ومنه أيضاً ترك اليمين والعهد إلّا بإذنه أيضاً ما لم يكن في فعل واجب أو ترك محرم؛ ولم أقف في النّذر على نص خاص إلا أن يقال هو يمين يدخل في النهي عن اليمين إلّا بإذنه.

بقي الكلام في تحقيق الرحم المأمور بصلته في الكتاب والسنّة، والكلام هنا يقع في أمور:

الأول: ما الرحم؟ قال أكثر علمائنا المراد به المعروف بنسبه وإن بعد، وإن كان بعضه آكد من بعض ذكراً أو أنثى، وقصر بعض العامّة له على من يحرم نكاحهم لا وجه له مع ما ورد في الروايات وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، فعن عليّ عليه السلام أنها نزلت في بني أمية، وهو يدل على تسمية القرابة المتباعدة رحماً، وقد روي في حديث أنه ﷺ لما عرج إلى السماء رأى رحماً معلّقة بالعرش تشكو من رحمها، فسألت كم بينها وبينها من القرابة؟ فقيل إنها تلتقي معها بعد سبعين أباً، والظاهر أنّ مثل هذا من باب التأكيد ومن باب الاستحباب.

الثاني: بمن الصلة؟ قال ﷺ صلوا أرحامكم ولو بالسلام، ففيه تنبيه على أنّ السلام صلة؛ ولا ريب أنّه مع فقر بعض الأرحام (وهم العمود) أنّ يجب الصلة

---

(١) عوالي اللآلي ج ١ ص ٤٤٢.

بالمال ويستحب لباقي الأقارب ويتأكّد في الوارث وهو قدر النفقة، ومع الغني فبالهدية في بعض الأحيان بنفسه أو برسوله، وأعظم الصّلة ما كان بالنّفس، وفيه أخبار كثيرة، ثم بدفع الضرر عنها، ثم بجلب النفع إليها؛ ثم بصلة من يجب نفقته وإن لم يكن رحماً للواصل كزوجة الأب والأخ ومولاه وأدناها السلام بنفسه؛ ثم برسوله، والدعاء بظهر الغيب والثناء في المحضر.

الثالث: ما الصلة التي يخرج بها عن القطيعة؟ والجواب: المرجع في ذلك إلى العرف لأنّه ليس حقيقة شرعية ولا لغوية، وهو يختلف باختلاف العادات وبعد المنازل وقربها.

الرابع: هل الصلة واجبة أو مستحبة؟ قال شيخنا الشهيد قدس الله روحه إنها تنقسم إلى الواجب وهو ما يخرج به عن القطيعة، فإن قطيعة الرحم معصية بل قيل هي من الكبائر والمستحب ما زاد على ذلك.

نور في حب الدنيا وأسبابه وعلاماته

إعلم وفقك الله أنّنا قد أسلفنا لك بيان الدنيا التي قال فيها الأنبياء عليهم السلام حبّها رأس كلّ خطيئة، وأنّ المراد بها الحالة التي تبعدك عن جناب مولاك وإن كانت الصلاة وسائر الطاعات، فإنّها إذا وقعت لا بقصد الإخلاص كانت رياء يقصد بها التقرب إلى المخلوقين فيكون من أفراد الدّنيا، وأنّ المال وإن كثر إذا قصد به التوسعة على الأخوان كان من أهم المطالب الأُخروية؛ وكذلك الجاه والاعتبار فإنّه قد يطلب لقضاء حوائج المؤمنين الذي عرفت أنّ قضاء حاجة واحدة منها أفضل عند الله من عشر طوافات بالبيت مع أنّ ثواب كل طواف يكتب له ستة آلاف حسنة، ويمحى عنه ستة آلاف سيئة، ويرفع له ستة آلاف درجة، وليس من ذنب يصدر من ابن آدم إلّا كان منتهياً إلى حب الدنيا ومسبباً عنه.

روى الكليني طاب ثراه عن محمد بن مسلم بن عبيدالله[1] قال سأل عليبن الحسين عليه السلام أيّ الأعمال أفضل عند الله تعالى؟ قال ما من عمل بعد معرفة الله تعالى ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من بغض الدّنيا، وإنّ لذلك شعباً كثيرة

(١) هو الزهري المدني المعروف بابن شهاب واسم جده (عبيد الله) فما في أكثر النسخ المطبوعة من هذا الكتاب (عبدالله) لا وجه له وفي النسخة المخطوطة كما اثبتناهـ راجع إلى ترجمته في تنقيح المقال وابن خلكان وسائر الكتب الرجالية.

وللمعاصي شعباً، فأول ما عصي الله تعالى به الكبر وهي معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، ثم الحرص وهي معصية آدم وحوّاء حين قال الله تعالى لهما: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، فأخذا ما لا حاجة لهما إليه، فدخل ذلك على ذرّيتهما إلى يوم القيامة وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة له إليه، ثم الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء، وحب الدّنيا، وحب الرياسة، وحب الراحة، وحب الكلام وحب العلوّ والثروة فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في حب الدنيا، فقالت الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك حب الدنيا رأس كل خطيئة؛ والدّنيا دنياءان: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة.

وبالجملة فهي سبب لكلّ المعاصي، قال الصادق عليه السلام إنّ الشيطان يدير ابن آدم في كل شيء فإذا أعياه جثم له[1] عند المال فأخذ بربقته[2]. وأمّا جمع المال بقصد التوسعة على العيال والأخوان وإنّ كان هذا كما عرفت ليس من أمور الدّنيا إلّا أنّ الأولى أن يقتصر على هذه النيّة، ففي الحديث إنّ المؤمن إذا قال إن آتاني الله مالاً أفعل كذا وكذا من أمور الخير أعطاه الله ثواب ما نواه وإن لم يعطه المال ليفعله، أمّا إذا وجد بالسعي وحصل ذلك المال فهو فيه على أخطار:

منها أنّ المال الكثير قلّما يجتمع من حلال كما قال الصادق عليه السلام ما اجتمعت عشرة آلاف من حلال قطّ، ومنها أنّه عند اجتماعها كثيراً ما يعرض له إهمال الحقوق الواجبة كما قال عليه السلام لا تتعرّضوا لجمع الأموال فإنّه كلّما كثرت الأموال كثرت الحقوق بها؛ وإخراج الحقوق عسر جداً لما روي عنه عليه السلام أنّ درهم الصدقة يفكّ بين لحيي سبعمائة شيطان كلهم يعضون عليه بأضراسهم، ومن ذا الذي يكون له من قوّة الإيمان ما يقابلهم إلّا القليل.

وروي أنّ رجلاً عابداً كان جالساً مع العبّاد فقرأ أحدهم هذا الحديث، فقال ذلك العابد أنا هذه الساعة أمضي إلى منزلي وأتصدق بصدقة وأرى كيف الشياطين تمنعني، فخرج مبادراً إلى المنزل فدخله وأتى إلى الحنطة وبسط عباءه فأخذ بها حنطة يتصدّق بها فرأته زوجته فقالت له أين تريد بهذه الحنطة ونحن في هذه السّنة

(١) جثم: الرجل أو الطائر أو الحيوان: تلبّد بالأرض. كناية عن الترصّد والمكر.
(٢) الربقة: العروة في الحبل. وفي الكافي باب حب الدنيا والحرص عليها ح ٤: برقبته.

المجدبة؟ لعلّك تريد أن تهلك أولادك جوعاً، فسوّلت له الأباطيل حتّى ندم ورمى بالحنطة، وأتى إلى أصحابه فقالوا له لعلّك تصدّقت بشيء ولعلّ الشياطين لم يحضروك، فقال إنّ الشياطين لم يحضروا ولكن كانت أمّهم حاضرة، فقامت مقامهم في المنع يعني به زوجته، ولا شك في أنّ الواحدة منهن تعادل آلافاً من الشياطين، ومن هنا قال ﷺ شاوروهن وخالفوهن، وكان هو ﷺ يفعل مثل ذلك؛ وفي الحديث أنّه ما أيس الشيطان من بني آدم إلّا أتاهم من قبل النساء وهن من أعظم فخوخه ومصائده، وقد بيّنا سابقاً أنّ كل فتنة وقعت في العالم فإنّما جاءت من قبلهنّ، وذلك أنّ الفتنة الأولى وهي أكل آدم من الشجرة وإخراجه إلى الأرض إنّما جاء من قبل حوّاء لأنّ آدم لمّا لم يقبل وساوس الشيطان وسوس إلى حوّاء فجاءت إلى آدم فكلمته في أمر الأكل من الشجرة حتى حملته عليه، وأما الفتنة الأخيرة التي نشأ منها خراب العالم وهي غصب خلافة أمير المؤمنين عليه السلام واستظهارهم واتّفاقهم على عداوته فإنّما جاءت من قبل عائشة وعداوتها وحسدها لفاطمة عليها السلام بسبب أنّه ﷺ كان يظهر المحبة لها ولولديها فغارت من هذا عائشة وأضمرت العداوة لها ثم أظهرتها، فتخطّت تلك العداوة من النساء إلى الرجال فبغض علياً عليه السلام أبو بكر وعمر ففعلا ما فعلا وفعلت عائشة بعدهما ما فعلت.

ومنها أنّه ربّما تسبب بجمع الأموال إلى إهلاك نفسه ابتداءً قبل الظفر بمطلوبه منه، كما روي أنّ المسيح عليه السلام خرج يوماً إلى البريّة ومعه ثلاثة من أصحابه، فلمّا توسّعوا في البرية رأوا لبنة ذهب مطروحة في الطريق، فقال عيسى عليه السلام هذا الذي أهلك من كان قبلكم إيّاكم ومحبّة هذا، فمضوا عنها فما مضى ساعة حتّى قال واحد منهم يا روح الله ائذن لي في الرجوع إلى البلد فإنّي أجد الألم، فأذن له فأتى إلى تلك اللّبنة ليأخذها فجلس عندها.

فقال الثاني يا روح الله ائذن لي في الرجوع فأذن له وكذلك الثّالث، فاجتمعوا عند تلك اللّبنة ليأخذوها فاتّفقوا على أخذها، فقالوا نحن جياع فليمض واحد منا إلى البلد ليشتري لنا طعاماً حتّى ندخل البلد، فمضى واحد فأتى إلى السوق واشترى طعاماً فقال في نفسه إنّي أجعل فوقه سمّاً فيأكلاه فيموتا فتبقى تلك اللبنة الذهب لي وحدي فوضع في الطعام سمّاً، وأمّا الآخران فتعاقدا على أن يقتلاه ويأخذا اللبنة، فلمّا جاء بالطعام بادرا إليه وقتلاه وجلسا يأكلان الطعام فما أكلا قليلاً حتّى ماتا فصاروا كلّهم أمواتاً عند تلك اللبنة، فلمّا رجع عيسى عليه السلام مرّ على تلك اللّبنة فرأى أصحابه أمواتاً، فعلم أنّ تلك اللّبنة هي التي قتلتهم، فدعا الله سبحانه فأحياهم

لأجله فقال لهم أما قلت لكم إنّ هذا هو الذي أهلك من كان قبلكم فتركوا اللّبنة ومضوا.

وحكي أنّ رجلاً عارفاً سافر وحده ومعه كيس من الدّراهم، فلمّا توسّع في البريّة توهم من حمل تلك الدّراهم وخاف على نفسه القتل فأخذ بالكيس ورماه ومشى على فراغ بال واطمئنان خاطر، وقد كان رجل يمشي في ذلك الطريق على أثره فوجد ذلك الكيس فرفعه وحمله معه فلحق بذلك العارف، فسأله وقال يا أخي أهذا الطّريق آمن أم لا؟ فقال له العارف إن كان الذي رميته أنا رفعته أنت فهو غير آمن وإن كان تركته فالطريق آمن؛ وكثيراً ما رأينا رجالاً ركبوا البحار وخاطروا بالأنفس وتحمّلوا مشاق السفر الطويل وصرفوا أكثر أعمارهم في تحصيل الأموال فلمّا حصّلوها ورجعوا إلى بلادهم عجل عليهم الموت قبل الوصول إليها بيوم أو يومين أو أقل فأكلها بعده أعداؤه إما زوج امرأته أو نحوه، وربما حصل من تلك الأموال النّدامتان، أمّا ندامة الدّنيا فبخروجه من تلك الأموال ومفارقته لها عند الموت وكذلك في حال الحياة أيضاً فإنّ صاحب المال تعبان القلب من وجوه كثيرة.

وقد كان لنا أخ صالح فسافر إلى بلاد الهند وأتى معه بما يقرب من ألفي درهم فأتى إلينا ونحن في شيراز في المدرسة المنصورية في عشر الستين بعد الألف فأخذنا له حجرة في المدرسة وبقي معنا ووضع تلك الدراهم معه في الحجرة؛ وكان من خفيف نومه أنّ كلّ من يمشي في صحن المدرسة هو يستيقظ من نومه خوفاً عليها، وكنا نخرج معه من المدرسة إلى البساتين أو نحوها ونأتي إليه قبل الخروج حتى يجعل القفل العظيم على الحجرة ونحن معه فإذا انتهينا إلى البستان وجلسنا قام ذلك الشيخ فنقول له أين؟ فيقول إلى المدرسة أخاف أن أكون قد نسيت حجرتي من غير قفل. فنقول له إنّا قد رأيناك قفلتها فلم يقبل منّا، وهذا كان حاله مدّة من الزمان فلمّا أنفقها من يده صرنا نجيء إليه وهو نائم وندقّ الباب دقا عنيفاً فما يستيقظ، وصار يترك الحجرة هكذا من غير قفل، فعلمنا أنّ الدراهم خرجت من يده وكان الحال على ما علمناه.

وأمّا النّدامة الأُخروية فقال عليه السلام ويل لمن رأى حسناته في ميزان غيره وذلك أنّه يتعب باله في جمع المال ولا ينفقه في سبيل الله فتأتي بعده من يتصدّق به ويصل المؤمنين فيكون ثوابه يوم القيامة في ميزان غيره، فينظر إليه من جمع المال وينظر إلى دراهمه في ميزان غيره، فيا لها حسرة عظمى وشقاوة كبرى، وإن أنفقها الوارث في

غير حقّها عوقب عليها وكان لذلك الرّجل الذي جمعها ولم ينفقها في ما أُمر به حظّ وافر من عذابها.

وقد كان في زماننا رجل صالح وكان في خدمة سلطان الهند خرم شاه، وكان مداخله من الأموال في كل سنة تقرب من أربعمائة ألف دينار وكان ينفقها في سبيل الله، فسمع السلطان بذلك فطلبه يوماً وقال له يا فلان ينبغي للإنسان أن يكون له حظ من حبّ المال، وأنا سمعت بأنّك ما تحب المال، فقال ذلك الرجل أيّها السلطان والله إنّي لحريص على حب المال وما أحد من خواصّك أحرص منّي، وذلك أنّي أريد أن آخذ كل أموالي معي ولا أُبقي منها شيئاً، والنّاس يريدون يبقونها بعدهم فأي حريص أحرص منّي، فقال له صدقت؛ ومن هذا كلّه والخوف منه مال الأولياء إلى إرادة الفقر، فقال عليه السلام إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وفي الروايات أنّ عيسى عليه السلام لما رفعه الله إلى السَّماء الرّابعة زارته الملائكة فوجدوا عليه قميصاً مرقّعاً برقع كثيرة فضجّوا وقالوا إلهنا ليس يساوي عبدك عيسى عندك ثوباً صحيحاً؟ فنودوا أن فتّشوا عيسى، ففتّشوه فوجدوا في قميصه إبرة يرقع بها ما يخترق منه، فقال تعالى فوعزّتي وجلالي لولا إبرته لرفعته إلى السماء السابعة، وفي الإنجيل أنّ عيسى عليه السلام قال اللّهم ارزقني غدوة رغيفاً من شعير، وعشيّة رغيفاً من شعير، ولا ترزقني فوق ذلك فأطغى.

وقال الصادق عليه السلام إنّ الله عزّ وجلّ ليعتذر إلى عبده المحوج كان في الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه فيقول وعزتي وجلالي ما أفقرتك لهوان كان بك عليّ فارفع هذا الغطاء فانظر ما عوّضتك عن الدنيا، فيكشف له عن بصره فينظر ما عوّضه الله عزّ وجلّ عن الدنيا فيقول ما ضرّ بي يا ربّ ما زويت عني مع ما عوّضتني؛ وإلى هذا الحديث وأمثاله نظر العقلاء فاختاروا بيع هذه الدنيا الدنيّة بما عند الله سبحانه.

روى هشام بن الحكم أنّ رجلاً من أهل الجبل أتى أبا عبدالله عليه السلام ومعه عشرة آلاف درهم وقال له اشتر لي داراً أنزلها إذا قدمت وعيالي ثم مضى إلى مكّة، فلما حجّ وانصرف أنزله الصّادق عليه السلام في داره، وقال اشتريت لك داراً بالفردوس الأعلى، حدّها الأول إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، والثاني إلى عليّ عليه السلام؛ والثالث إلى الحسن عليه السلام والرابع إلى الحسين عليه السلام وكتبت الصكّ به، فلمّا سمع الرجل بذلك قال رضيت؛ ففرق الصادق عليه السلام تلك الدّنانير على أولاد الحسن والحسين عليهما السلام

وانصرف الرجل، فلمّا وصل إلى منزله اعتلّ علّة الموت، فلمّا حضرته الوفاة جمع أهل بيته وحلفهم أن يجعلوا الصكّ معه في قبره ففعلوا ذلك؛ فلمّا أصبحوا وغدوا إلى قبره وجدوا الصكّ على ظهر قبره وعلى ظهره: وفى لي وليّ الله جعفر بن محمد بما وعدني.

ورأيت في كتاب غوالي اللآلي حديثاً وهو أنّ رجلاً غنياً أراد المسير إلى مكة فهيّأ لها ما يحتاج إليه المسافر فركب يوماً في بعض حوائجه، فمرّ بطريق ورأى امرأة علويّة قد أقبلت إلى دجاجة ميتة منبوذة في الطريق لتأخذها.

فقال لها هذه ميتة فلم تأخذيها؟ قالت الحاجة تضطرّ الإنسان إلى هذا، فأخذها معه إلى المنزل ودفع إليها كل ما هيّأه للسفر وترك الحج في تلك السنة، فلمّا رجع الحاج مضى إليهم ليزورهم وكل مَن دخل عليه قال له أحدهم رأيناك يا فلان بعرفات، ويقول الآخر رأيناك بالمشعر، وهكذا فتعجّب الرجل فأتى إلى الإمام عليه السلام وحكى له فقال نعم إنّ الله سبحانه أرسل ملكاً على صورتك ليحجّ عنك؛ وهو ذا يحجّ عنك في كلّ سنة، فانظر كيف فاز بثواب الصدقة والحجّ.

وينبغي للإنسان أن يقدم أمور آخرته على أمور دنياه فإنّك قد تحققت أنّ في جمع الأموال الأخطار الكثيرة؛ حكي عن بعض الصالحين أنّه سئل عن توبته، فقال إنّي كنت رجلاً دهقاناً فاجتمع عليّ أشغال ليلة من اللّيالي كنت أحتاج إلى أن أسقي زرعاً، وكنت حملت حنطة إلى الطّاحون، فوثب حماري وضل فقلت إن اشتغلت بطلب الحمار فاتني سقي الزرع؛ وإن اشتغلت بالسّقي ضاع الطحن والحمار؛ وكان ذلك ليلة الجمعة وبين قريتي والجامع مسافة بعيدة، فقلت أترك هذه الأمور كلّها وأمضي إلى صلاة الجمعة، فمضيت وصلّيت فلما انصرفت ومررت بالزّرع فإذا هو قد سقي، فقلت من سقاه؟ فقيل إنّ جارك أراد أن يسقي زرعه فغلبته عيناه وانبثق السكر[1] فدخل الماء زرعك، فلما وافيت باب الدار إذا أنا بالحمار على المعلف؛ فقلت من ردّ هذا الحمار؟ فقالوا صال عليه الذئب فالتجأ إلى البيت، فلمّا دخلت الدار إذا أنا بالدقيق موضوع هناك، فقلت كيف سبب هذا؟ فقالوا إنّ الطحّان طحن هذا بالغلط فلمّا علم أنّه لك ردّه إلى منزلك؛ فقلت ما أصدق ما قيل من كان لله كان الله له، ومن أصلح لله أمراً أصلح الله أموره.

(١) انبثق السكر: انكسر. سكر النهر: جعل له سداً

وينبغي للعاقل أن يتفكّر في الأمثال التي ضربها عليه السلام للدّنيا، منها ما رواه الصدوق رحمه الله بإسناده إلى الحارث الأعور قال بينا أنا أسير مع أمير المؤمنين عليه السلام في الحيرة إذ نحن بديرانيّ يضرب النّاقوس، قال فقال علي بن أبي طالب عليه السلام يا حارث أتدري ما يقول هذا الناقوس؟ قلت الله ورسوله وابن عمّ رسوله أعلم، قال إنّه يضرب مثل الدنيا وخرابها ويقول: لا إله إلا الله حقّاً حقّاً صدقاً صدقاً؛ إنّ الدّنيا قد غرّتنا وشغلتنا واستهوتنا واستغوتنا، يابن الدنيا مهلاً مهلاً، يابن الدنيا دقاً دقاً، يابن الدنيا جمعاً جمعاً تفنى الدنيا قرناً قرناً، ما من يوم يمضي عنّا إلّا أوهى[1] منّا ركنا قد ضيّعنا داراً تبقى واستوطنا داراً تفنى لسنا ندري ما فرّطنا إلا لو قد متنا، قال الحارث يا أمير المؤمنين النصارى يعلمون ذلك؟ قال لو علموا ذلك لما اتّخذوا المسيح إلهاً من دون الله.

قال فذهبت إلى الديراني فقلت له بحق المسيح لمّا ضربت بالنّاقوس على الجهة التي تضربها، قال فأخذ يضرب وأنا أقول حرفاً حرفاً حتّى إذا بلغ إلى موضع قوله إلا لو قد متنا فقال بحق نبيّكم من أخبركم بهذا؟ فقلت الرجل الذي كان معنا أمس، قال وهل بينه وبين النبي من قرابة، قلت هو ابن عمّه، قال بحق نبيّكم أسمع هذا من نبيّكم قال قلت نعم، فأسلم ثمّ قال لي والله إنّي وجدت في التوراة أنّه يكون في آخر الأنبياء نبيّ وهو يفسّر ما يقول الناقوس.

ومنها قول الباقر عليه السلام مثل الحريص على الدّنيا كمثل دودة القزّ كلّما ازدادت على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً. فانظر إلى حسن هذا المثال بل حال الإنسان أسوأ من حال دودة القز وذلك أنّ دودة القزّ إن ماتت غمّاً في الذي نسجته على نفسها لكنها لا تموت بالكلية ولهذا إذا بقيت في القزّ مدّة مديدة تحرّكت في بطن القزة وقرضت وخرجت منها بصورة طائر حسن الصورة وما ذلك إلّا لأنّها جهدت في خراب ما نسجت ولا تموت في بطن القزّة إلّا إذا وضعت القزّة في الشمس الحارة؛ وأمّا الإنسان إذا نسج على نفسه بمتاع غرور الدّنيا تعذر عليه الخروج فيبقى في المجلس الضيّق إلى أن تأتيه شمس القيامة فتحرقه.

ومنها قول الصادق عليه السلام إنّ في كتاب عليّ عليه السلام إنّما مثل الدّنيا كمثل الحيّة ما ألين مسّها وفي جوفها السمّ الناقع، يحذرها العاقل ويهوي إليها الصّبيّ الجاهل.

---

(١) أوهى إيهاء فلاناً: أضعفه جعله واهياً: وفي بعض النسخ: (أوهن) وهنه يهنه وهناً وأوهنه- أضعفه.

وهذا المثل كالأول وذلك أنّ الصبيّ إنّما ينظر إلى ظاهرها وفي ظاهرها من النقوش والخطوط فيهوي إليها الصبيّ بل الحيّة خير من الدّنيا وذلك أنّها وإن كان في جوفها السّم الناقع الضّار لكن يخرج منها خرزة سوداء مدوّرة تنفع للسع الحيّات، وذلك أنّها توضع على موضع اللدغة فتجذب السم وتقلعه من البدن، فهي نافعة من هذه الجهة مع أنّها إنما تضرّ من آذاها.

حكى لي ثقة من أصدقائي أنّه كان عندهم حيّة في البيت فكان عندها فراخ؛ قال فأردنا أن ننظر إليها يوماً؛ فلمّا خرجت بادرنا إلى فراخها فوضعناها تحت قدر وخرجنا من البيت، فلمّا أتت إلى فراخها فلم ترها عمدت إلى البيت وجالته على الفراخ فلم تجدها، فلمّا أيست منها أتت إلى لبن في البيت فدخلت فيه وشربت منه وقاءته حتى صار أصفر من السمّ، وخرجت من البيت فعمدنا إلى فراخها ووضعناها في موضعها فأتت مرّة أُخرى، فلما رأتها أتت إلى ذلك اللّبن ودخلت فيه وخرجت عنه فوضعت نفسها على التّراب ودخلت على اللّبن، وهكذا حتى صار ذلك اللّبن مثل لون التّراب ومضت عنه حتى لا نشربه؛ وأمّا الدنيا فهي تلسع كلّ أحد.

ومنها قوله عليه السلام الدنيا كمثل ماء البحر كلّما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله. ومنها قوله عليه السلام الدنيا كمثل البيت قد انخفض سقفه فكلّ من دخل إليه لا بدّ وأن يطأطىء رأسه ومتى رفعه شجّه السقف، والداخل إلى الدنيا حاله هكذا بل هو أسوأ حالاً.

ومنها ما نقله الصدوق طاب ثراه عن بعض الحكماء في تشبيه اغترار الإنسان بالدنيا وغفلته عن الموت والأهوال وانهماكه في لذات الدنيا الممزوجة بالكدورات بشخص مدلّى في بئر مشدود وسطه بحبل؛ وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجّه إليه منتظر سقوطه فاتح فاه لالتقاطه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات، وذلك الشخص مع أنّه يشاهد ذلك الثعبان ويرى انقراض الحبل آناً فآناً قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر وامتزج بترابه واجتمع عليه زنابير كثيرة وهو مشغول بلطعه منهمك فيه ملتذّ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير عليه قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك غير ملتفت إلى ما فوقه وما تحته، فالبئر هو الدنيا، والحبل هو العمر والثّعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للأعمار، والعسل المختلط بالتّراب هو لذّات الدّنيا الممزوجة بالكدورات والآلام، والزنابير

هم أبناء الدّنيا المتزاحمون عليها؛ وهذا المثل كالأمثال السابقة في الانطباق على الممثل له.

وبالجملة فالعاقل من تفكّر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام فإنّه كان عارفاً بداء الدّنيا ودوائها، ومن ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة إذا صلّى العشاء الآخرة ينادي ثلاث مرّات حتى يسمع أهل المسجد: أيّها النّاس تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرّحيل فما التعرج على الدّنيا بعد النداء فيها بالرحيل، تجهزوا رحمكم الله وانتقلوا بأفضل ما بحضرتكم من الزاد وهو التقوى، واعلموا أنّ طريقكم إلى المعاد وممرّكم على الصراط، والهول الأعظم أمامكم وعلى طريقكم عقبة كؤود ومنازل مهولة مخوفة لا بدّ لكم من الممرّ عليها والوقوف بها، فإمّا برحمة من الله فنجاة من هولها وعظم خطرها وفظاعة منظرها ومخبرها، وإما بهلكة ليس لها بعدها انجبار، وأي مثل للدنيا أعظم من أمثاله سبحانه وله الأمثال العليا، قال في سورة الحديد ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله ما لي وللدنيا إنّما مثلي والدنيا كمثل راكب قال (من القيلولة) في ظلّ شجرة في يوم صائف ثمّ راح وتركها.

وفي وصية لقمان لابنه على ما قال الصّادق عليه السلام: يا بني إنّ الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير؛ فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصّبر. ومن أجل هذا ورد الحثّ على التفكر لأنّه يؤدّي إلى مقت الدنيا والرّغبة عنها، وروى الحسن الصّيقل قال سألت أبا عبدالله عليه السلام عمّا يروي الناس: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت كيف يتفكّر؟ قال يمرّ بالخربة أو بالدار فيقول أين ساكنوك أين بانوك ما لك لا تتكلّمين. وقال الرضا عليه السلام ليس العبادة بكثرة الصلاة والصوم إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ، وذلك أنّ بالتفكر يقصر الأمل فإذا قصر الأمل كثر العمل، وأقوى أسباب حب الدنيا والميل إليها إنّما يجيء من جهة طول الأمل فإنّ الأمل يزيد على العمر بكثير.

روي عن ابن مسعود قال خطّ النّبي صلى الله عليه وآله مربّعاً وخطّ خطّاً في الوسط خارجاً منه

وخطّ خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط، فقال هذا الإنسان وهذا أجله محيط به وهذا الخطّ الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصّغار الأغراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وهذه صورته.

الإنسان	الأمل
↑ ↑ ↑ ↑ ↑ ↑ ↑ الأغراض	

وأمّا من قصر أمله في الدّنيا فهي لا تغرّه، روي أنّ عيسى عليه السلام صعد جبلاً فرأى شخصاً يعبدالله تعالى في حرّ الشمس، فقال له لم لا تستظلّ؟ فقال يا نبيّ الله إنّي سمعت من الأنبياء أنّي لا أعيش أكثَر من سبعمائة سنة فلم أجد من عقلي أن أشتغل بالبناء فقال عليه السلام إنّي لأُخبرك بما يعجبك، قال فماذا؟ قال يكون في آخر الزّمان قوم لا ينتهي عمر أحدهم إلى أكثر من مائة سنة وهم يبنون الدّور والقصور ويتّخذون الحدائق والبساتين ويأملون أمل عمر ألف سنة؛ قال الشيخ فوالله إني لو أدركت زمانهم لجعلت عمري في سجدة واحدة، ثمّ قال لعيسى عليه السلام ادخل هذا الكهف حتى ترى عجباً فدخل فرأى سريراً من حجر وعليه ميّت وعلى رأسه لوح من حجر مكتوب عليه أنا فلان الملك أنا الّذي عمرت ألف سنة، وبنيت ألف مدينة، وتزوّجت بألف بكر، وهزمت ألف عسكر ثم كان مصيري إلى هذا فاعتبروا يا أُولي الألباب.

وفي الحديث أنّ سليمان عليه السلام مرّ على رجل يعمل بمسحاته فوقف قربه فقال اللّهمّ انزع من قلبه آمال الدنيا، فنزعها الله سبحانه فألقى الرجل مسحاته وجلس، ثمّ قال بعد ساعة اللّهمّ ألقِ في قلبه الأمل، فقام إلى مسحاته وحرث، فتقدّم إليه سليمان عليه السلام وقال له يا عبدالله كيف جلست ثم قمت؟ قال قد فكرت أنّ هذا الذي أحرثه لعلّي لا أبقى إلى أوانه فلمَ أزرعه فجلست؛ ثمّ فكرّت بأن الإنسان لا بدّ له من خير يعيش به في الدنيا ثم قمت إلى مسحاتي.

ومن أعظم أسبابه أيضاً حبّ الأولاد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقد كان رجل يقول عند أمير المؤمنين عليه السلام اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتن، فقال عليه السلام لا تقل هذا فإنّ أولادك من الفتن وتلا هذه الآية، ولكن قل

اللهم إنّي أعوذ بك من مضلات الفتن؛ وفي الرواية إنّ النّبي ﷺ كان يوماً يخطب على المنبر فجاء الحسنان عليهما السلام وعليهما ثياب جديدة، فعثر الحسين عليه السلام في ذيل ثوبه فلمّا رآه النّبي ﷺ قطع الخطبة وسقط عليهما وحملهما وأجلسهما معه فوق المنبر، وقال صدق الله حيث قال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]؛ والله لمّا رأيت الحسين عثر بطرف ثوبه لم أملك نفسي حتى وقعت عليه.

وأسباب الميل إلى الدنيا أكثر من أن تحصى ودواء الكل واحد وهو التفكّر في فنائها وسرعة زوالها وتقلب أحوالها، فمن عجائب تقلبها أنّ رجلاً من الخلفاء العباسيّة جعلوه خليفة يوماً واحداً وقد عزلوه في اليوم الآخر وأخذوا ما عنده فاحتاج ذلك اليوم إلى أن يقف على باب المسجد ويتكفّف الناس، وكان يقول لهم ارحموا من كان بالأمس أميركم واليوم سائلكم؛ وكل ما نال فيها المؤمن من المراتب فهي سجنه بالنّظر إلى ما أُعدّ له في الجنان، فالميل إلى مثل هذا لا يكون عن رأي سديد؛ روي أنّه خرج الحسن عليه السلام من داره في حلّة فاخرة وبزّة طاهرة ثم ركب بغلة فارهة غير قطوف وصار مكتنفاً من حاشيته وحاشيته بصفوف، فعرض له في طريقه من محاويج اليهود رجل قد أنهكته العلة وارتكبته الذلة، فاستوقف الحسن عليه السلام وقال يابن رسول الله أنصفني، فقال عليه السلام في أيّ شيء؟ فقال جدّك يقول الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر وأنت مؤمن وأنا كافر فما أرى الدنيا إلا جنة تتنعّم بها وتستلذّ بها وما أراها إلّا سجناً لي قد أهلكني ضرّها وأتلفني فقرها، فلمّا سمع الحسن عليه السلام كلامه أوضح لليهودي خطأ ظنه، وقال يا شيخ لو نظرت إلى ما أُعدّ لي وللمؤمنين في الدّار الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت لعلمت أنّي قبل انتقالي إليه في هذه الدنيا في سجن ضنك مع ما أنا فيه؛ ولو نظرت إلى ما أعدّ الله لك ولكل كافر في الدار الآخرة من سعير نار الجحيم ونكال العذاب المقيم لرأيت أنّك قبل مصيرك إليه الآن في نعمة واسعة وجنّة جامعة؛ وما أحسن قول الشّاعر:

يا خاطب الدنيا الدنيّة إنّها ... شرك الرّدى وقرارة الأكدار
دنيا إذا ما أضحكت في يومها ... أبكت غداً تعساً لها من دار
غاراتها لا تنقضي وأسيرها ... لا يفتدى بعظائم الأخطار

وقول الآخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركم حسن ابتسامي ... فقولي مضحك والفعل مبكي

والدنيا إمّا مأخوذة من الدناءة وهي الخسّة أو من الدّنوّ وهو القرب لقربها بالنّظر إلى الآخرة، وهذا المعنى الثاني هو الذي حمل الناس على مساوىء الأعمال حيث زعموا أنّها نقد والآخرة نسيئة وقدّموا النّقد على النّسيئة ولم ينظروا إلى قول الخبير أمير المؤمنين عليه السلام: لو كانت الدنيا ذهباً والآخرة خزفاً لاخترت خزف الآخرة على ذهب الدنيا لأنّه خزف باقٍ وذهب الدنيا فانٍ، فكيف والآخرة ذهب باقٍ والدنيا خزف فانٍ.

ورأيت في كتاب تفسير إنّ ملكاً من ملوك اليونان استعمل على ملبسه جارية أدّبها بعض الحكماء فألبسته يوماً ثيابه وأرته المرآة فرأى في لحيته شعرة بيضاء، فاستدعى بالمقراض فقصّها، فأخذتها الأمة فقبّلتها ووضعتها عال (قال) وأصغت أذنها إليها فقال الملك لأيّ شيء تصغين إليها؟ فقالت إنّي أسمع هذه المبتلاة تفقد كرامة قرب الملك تقول قولاً عجباً، قال وما هو؟ قالت ما يجترىء لساني على النطق به، قال قولي آمنة ما لزمت الحكمة، فقالت إنها تقول أيّها الملك المسلّط إلى أمد قريب إنّي خفت بطشك بي فلم أظهر حتى عهدت إلى بناتي أن يأخذن بثاري، وكأنّك بهنّ قد خرجن عليك فإمّا أن يعجلن الفتك بك وإمّا أن ينقصن شهوتك وقوتك وصحتك حتى تجد الموت، فقال اكتبي كلامك فكتبته فبقي يتدبر فنبذ ملكه وخرج سائحاً قال الشّاعر:

يا ويح من فقد الشباب وغيّرت ... منه مفارق رأسه بخضاب

يرجو عمارة وجهه بخضابه ... ومصير كل عمارة لخراب

إنّي وجدت أجلّ كل رزيّة ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

ومن أسباب الدنيا والميل إليها النساء وإطاعتهنّ، روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل رأى في المنام أنّه خيّر ثلاث دعوات مستجابات بأن يصرفها حيث يشاء، فشاور امرأته في محل الصرف فرأت أن يصرف واحدة منها في حسنها وجمالها ليزيد حسن المعاشرة بينهما، فصرفها في ذلك فصارت جميلة فيما بين بني إسرائيل فاشتهر أمرها إلى أن غصبها ملك ظالم، فدعا الرجل غيرة بأن يصيّرها الله تعالى على صورة كلب فصارت كلباً أسود وجاءت إلى زوجها وتضرّعت إليه مدة حتى رق قلبه ودعا بأن يصيّرها الله تعالى على صورتها الأولى، فصارت الدعوات الثلاث فيها، وهي كما كانت بشؤم المشاورة معها.

وحكي إنّ خسرو الملك أتى إليه رجل بسمكة كبيرة فأمر له بأربعة آلاف درهم؛

فقالت شيرين فكيف تصنع إذا احتقر من أعطيته شيئاً من حشمك وقال أعطاني ما أعطى الصيّاد أو أقل، فقال خسرو الملك إنّ الرجوع عن الهبة قبيح خصوصاً من الملوك؛ فقالت شيرين التدبير أن تدعوه، وتقول له هذه السمكة ذكر أم أنثى فإن قال ذكر فتقول إنّما أردت أنثى، وإن قال أنثى فتقول له إنّما أردت ذكراً، فاستدعاه فسأله عن ذلك، فقال أيّها الملك إنها خنثى لا ذكر ولا أنثى فاستحسن جوابه وأمر له بأربعة آلاف درهم أُخرى، فلمّا تسلم الصياد ثمانية آلاف درهم من الخزان ورجع سقط منها في الطريق درهم فاشتغل بأخذه، فقالت شيرين للملك انظر إلى خسّته وغلبة حرصه، فاستدعاه وسأله عن غرضه في اشتغاله بأخذ الدّرهم الساقط فقال أيّها الملك كان عليه اسمك وحكمك فخفت أن يطأه أحد برجله غافلاً عنه؛ فاستحسن أيضاً جوابه وأمر له بأربعة آلاف درهم أُخرى، وذهب الصيّاد باثني عشر ألف درهم، وأمر الملك منادياً ينادي ألا من دبّر أمره برأي النساء خسر درهماً أو درهمين، والعجب أنّ بعض المذنبين قد أيس من رحمة الله وباع حظّه الأوفر بهذه الدنيا الدنيّة.

روى الصدوق طاب ثراه بإسناده إلى البزاز قال كان بيني وبين حميد بن قحطبة الدوسي[1] معاملة فرحلت إليه في بعض الأيّام فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم أُغيّرها وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر، فلمّا دخلت عليه رأيته في بيت يجري فيه الماء، فسلّمت عليه وجلست، فأتى بطشت وإبريق فغسل يديه ثمّ أمرني فغسلت يدي، وأُحضرت المائدة وذهب عنّي أني صائم وأني في شهر رمضان فأمسكت يدي، فقال حميد ما لك لا تأكل؟ ثم ذكرت فقلت أيّها الأمير هذا شهر رمضان ولست بمريض ولا بي علّة توجب الإفطار وإنّي لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى، فقلت له بعدما فرغ من طعامه ما يبكيك أيّها الأمير؟ قال أنفذ إليّ هارون الرّشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل أن أجب، فلمّا دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً مسلولاً وبين يديه خادم واقف، فلمّا قمت بين يديه رفع رأسه إليّ فقال لي كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت بالنّفس والمال، فأطرق ثم أذن لي بالانصراف فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إليّ وقال أجب

---

(١) هو حميد بن قحطبة الطائي الطوسي. في بعض النسخ المطبوعة (الدوسي) وفي بعضها وكذا في المخطوطة (الطوسي) وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام أيضاً (الطائي الطوسي) وفي بعض المواضع حُمَيْد بالتصغير.

أمير المؤمنين، فقلت في نفسي إنا لله وإنّا إليه راجعون أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وأنّه لما رآني استحيا مني فعدت إلى بين يديه فرفع رأسه إليّ فقال كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت بالنّفس والمال والأهل والولد، فتبسّم ضاحكاً ثم أذن لي بالانصراف فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد إليّ الرسول فقال أجب أمير المؤمنين، فحضرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إلي فقال كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت بالنّفس والمال والأهل والولد والدين، فضحك ثم قال لي خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم، قال فتناول الخادم السيف وناولني إياه وجاء بي إلى بيت بابه مغلق ففتحه فإذا فيه بئر في وسطه وثلاث بيوت أبوابها مغلقة ففتح باباً منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشّعور والذّوائب، شيوخ وكهول وشبّان مقيّدون.

فقال إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء وكانوا كلّهم علويّة من ولد عليّ وفاطمة عليهما السلام، فجعل يخرج إلي واحداً بعد واحد فأضرب عنقه حتى أتيت على آخرهم ثمّ رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر، ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد عليّ وفاطمة عليهما السلام مقيّدون، فقال لي إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء أيضاً فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتى أتيت على آخرهم؛ ثمّ فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد عليّ وفاطمة عليهما السلام مقيّدون عليهم الشّعور والذّوائب، فقال إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء أيضاً فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه فيرمي به في تلك البئر حتّى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم وبقي شيخ منهم عليه شعر، فقال تبّاً لك يا مشؤوم أيّ عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم عليّ وفاطمة عليهما السلام، فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي فنظر إليّ الخادم مغضباً وزبرني فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمى به في تلك البئر، فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله فما ينفعني صومي وصلاتي وأنا لا أشك أنّي مخلّد في النار، قال الصدوق طاب ثراه وللمنصور مثل هذه الفعلة في ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله.

أقول هذا الرجل وإن أفرط وتعدّى الحدّ في فعلته هذه من قتل هذه الذريّة الطاهرة إلّا أنّه ما كان ينبغي له الإياس من رحمة الله بل كان يجب عليه الندامة ومداومة الاستغفار والذكر لعل الله يرضي عنه خصومه كما جاء في الرواية أنّ امرأة قتلت ولدها ثم ندمت فأتت إلى النّبي صلى الله عليه وآله نادمة على فعلها طالبة للتوبة،

فقال ﷺ : لو قتلت في يومك سبعين نبياً ثمّ ندمت على ما فعلت وعرف الله منك التوبة لتاب عليك ورحمك؛ نعم مثل هؤلاء الجماعة لا يوفّق منهم للتوبة إلّا القليل، ألا ترى إلى الوحشي وهو قاتل الحمزة لما ظهرت منه إمارات التوبة والندامة قبل الله توبته، وقال ﷺ : حمزة وقاتله في الجنة؛ والشيطان مع ما هو عليه من الضلال لم ييأس من الرحمة(١).

كما جاء في الرواية عن الصادق عليه السلام قال إنّ امرأة من الجنّ يقال لها عفراء وكانت تنتاب النّبي ﷺ فتسمع من كلامه فتأتي صالحي الجنّ فيسلمون على يديها، وفقدها النّبي ﷺ وسأل عنها جبرائيل عليه السلام فقال إنّها زارت أختاً لها تحبّها في الله تعالى؛ فقال عليه السلام طوبى للمتحابّين في الله إنّ الله تبارك وتعالى خلق في الجنّة عموداً من ياقوتة حمراء عليها سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف غرفة خلقها الله عزّ وجلّ للمتحابين في الله؛ وجاءت عفراء فقال لها النّبي ﷺ يا عفراء أين كنت؟ فقالت زرت أختاً لي، فقال طوبى للمتحابين في الله والمتزايرين يا عفراء أيّ شيء رأيت؟ قالت رأيت عجائب كثيرة، قال فأعجب ما رأيت؟ قالت رأيت إبليس في البحر الأخضر على صخرة بيضاء ماداً يديه إلى السماء وهو يقول إلهي إذا بررت قسمك وأدخلتني نار جهنم فأسألك بحق محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا خلصتني منها وحشرتني معهم؛ فقلت يا حارث ما هذه الأسماء التي تدعوه بها؟ فقال رأيتها على ساق العرش من قبل أن يخلق الله عزّ وجلّ آدم بسبعة آلاف سنة فعلمت أنّها اكرم الخلق على الله فأنا أسأله بحقهم، فقال النّبي ﷺ والله لو أقسم أهل الأرض بهذه الأسماء لأجابهم الله تعالى.

فإن قلت ما فائدة دعاء الشيطان هذا مع أنّه من الخالدين في النّار والعذاب؛ قلت يجوز لأجل هذا الدعاء أن ينقله الله تعالى في طبقات النّار من طبقة حارة إلى ما هو أخفّ منها فيكون قد خلصه من تلك النّار التي كان فيها، فإنّ للنّار سبع طبقات ولكل طبقة أنواع وأهوال من العذاب؛ ويجوز أن يخلّصه الله سبحانه من النّار لحظة

---

(١) روى الكليني رحمه الله في الكافي باسناده مضمراً أنّه قال اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها وهو قوله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فمن أحبه الله لم يعذبه، الحديث.
ولكن هذا الرجل كما ذكره المصنف رحمه الله لم يوفق للتوبة وطبع على قلبه وجاءه اليأس من رحمة الله بسبب تلك الجناية التي أوردها على الذرية الطيبة واليأس من روح الله تعالى من الكبائر الموبقة.

ثم يعود إليها مخلّداً فيها، ويجوز أن يكون المراد من أهل الأرض في قوله ﷺ لو أقسم أهل الأرض، من كان له قابليّة استجابة الدعاء ممن اتصف بالإيمان والإسلام.

والأحسن هو أن يقال إنّ الكلام على ظاهره من أنّ كل من دعا الله من أهل الأرض بهذه الأسماء أجابه الله تعالى سواء كان الداعي مؤمناً أو كافراً أو شيطاناً لكن إجابة الدعاء عبارة عن الجزاء الذي يكون بإزائه سواء كان ذلك المدعو به أو غيره، والشيطان وغيره إذا دعوا الله سبحانه بهذه الأسماء جازاهم الله سبحانه عليه إمّا في الدنيا بتوسعتها ونحوه، وإمّا في الآخرة بتخفيف عذاب ونحوه، فيصدق من هذا أن الله تعالى أجابهم على الدّعاء.

وفي الأخبار المعتبرة إنّ رجلاً عصى الله تعالى وقتل تسعة وتسعين رجلاً بغير حق فلمّا مضت عليه مدة ندم وقال أريد التوبة فأتى إلى رجل عابد وحكى له ما صنع من القتل وقال أريد التوبة، فقال له ذلك العابد لا توبة لك وحالك على هذا، فلمّا قال له هذا الكلام عمد الرجل إلى ذلك العابد فقتله فبقي مدة، ثمّ أتى إلى رجل عالم فقال له إنّي قتلت مائة فهل لي من توبة؟ فقال نعم اقصد أرض كذا فإنّ فيها نبيّاً أو عالماً فأمضِ إليه وتب على يديه، فمضى عليه فلمّا كان في عرض الطريق أتى أجله فأتته لقبض روحه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فتنازعتا في قبض روحه فقالت ملائكة الرحمة نحن نقبض روحه لأنّه قصد أرض التوبة، وقالت ملائكة العذاب نحن نقبض روحه لأنّه لم يتب بعد، فأوحى الله تعالى إليهم أن اذرعوا الأرض وانظروا إلى أي أرض هو أقرب، فلمّا مسحوا الأرض وجدوه إلى أرض التوبة أقرب بذراع أو بشبر فتبادرت إليه ملائكة الرحمة فقبضوا روحه. وفي خبر آخر إنّ الملائكة لما قصدوا إلى مساحة أرض التوبة فطويت بعدما كانت أبعد من تلك الأرض وهذا حاله مع المذنبين.

وبالجملة فكل بلاء الإنسان ومصائبه إنّما هو من الدنيا والميل إليها حتى أنّه سئل بعض العارفين عن الطريق إلى الله تعالى فقال خطوتان وقد وصلت خطوة على النّفس وخطوة على الدنيا، فسمع بعض أهل العرفان هذا الكلام فقال طوّل ما قصّر الله بل خطوة على النّفس وقد وصلت لأنّ الدنيا تصير حجاباً للعبد بواسطة النّفس وهو تعالى الستّار على عبده.

روي إنّ بعض الأنبياء سرق له حمار فقال إلهي أنا نبيّك سرق حماري فأطلعني

عليه، فأوحى الله تعالى إنّ الرجل الذي سرق حمارك سألني أن أستره وأنا لا أردّه ولا أردّك فخذ منّي حماراً آخر حتى لا يفتضح ذلك الرجل. وبالجملة فاستقصاء الكلام في الدنيا وتقلّباتها وأحوالها يحتاج إلى تأليف كتاب منفرد؛ نعم إنّ من جملة الدنيا وأسباب الميل إليها لذّاتها فلا بأس بذكرها في نور على حدة.

نور في لذات الدنيا بأنواعها

وبيان أنّه لا لذّة في الدّنيا وأنّ ما فيها من اللّذات إنّما هو دفع آفة بآفة أُخرى.

اعلم أنّ الدّنيا كما عرفت بيت ضيّق مظلم قد اجتمعت فيه أنواع المخلوقات وأصنافها ففيه الحيّات والعقارب والسّباع والذئاب الضّواري وكلّها قد قصدت ابن آدم وهو معها في ذلك البيت الضيّق وهو يراها قاصدة إليه، وقد وضع أمامه شيء من الخبز ليأكله، فيأكل وينظر إلى ما معه في ذلك المنزل الضيّق من الأفاعي والسّباع والعقارب وهي جوعانة وليس لها شيء تأكله سوى لحوم ابن آدم، فالإنسان من الجوع يأكل ما أمامه من الخبز لكنّه ينظر ما معه من السّباع في حال أكله مترقّباً حيناً بعد حين لوصولها إليه وإهلاكها إياه، فمن كان هذا حاله كيف يلتذّ بأكل أم بشرب أم بنكاح أم بلباس، ولو فتحت عيني قلبك الذي تبصر به لوجدت حالك في الدنيا هو هذا بل أنت أسوأ حالاً، أمّا العقارب فهم أقاربك الذين منهم من يتمنّى موتك للميراث، ومنهم من يريده حسداً لك حيث فضّلت عليهم إمّا بأمور دنيويّة أو أُخرويّة، ومنهم من يريد يتزوّج بزوجتك بعدك إلى غير ذلك من الأغراض؛ ويا ليتهم مثل العقارب فإنّ الأغلب في العقرب وأشباهه أنه إنّما يلدغ إذا أُوذي وتعدى الإنسان عليه مع إنّ لدغته تبرأ في يوم واحد وأمّا الأقارب وما يصل إليك في كل يوم من أنواع لسعهم وأذيّتهم فهو مما لا غاية له ولا نهاية لأمده إلى الموت.

وأمّا الحيّات فهم أخوانك الذين قال فيهم أمير المؤمنين إنّهم جواسيس العيوب ومن الحيّات أيضاً شياطين الجنّ والإنس الذين صرفوا لياليهم وأيّامهم في الفكر لإرادة مخادعتك وإضلالك وإلقائك إلى حيات جهنّم وأفاعيها التي ورد في الخبر لو أنّ حيّة منها ظهرت إلى الدنيا ونفخت فيها لما بقي فيها شجر ولا مدر ولا جبل إلّا ذاب من سمّها.

وأما السّباع فهي مصائب الدّنيا ودواهيها الحادثة يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة ونفساً بعد نفس كالهموم والأحزان والأمراض وفقد الأحبّة الذي جعله أمير

المؤمنين عليه السلام عديلاً ليوم القيامة فقال لولا هول المطّلع وفراق الأحبة لأردنا الموت، وأهول من هذا كلّه تذكّر الموت ومما بعده من الأهوال فإنّي لا أظن أحداً كان في لذّة وذكر الموت ثم تمّت له اللذّة.

حكى صاحب نزهة الأبرار أنّ الرشيد زخرف مجلسه يوماً وبالغ فيه وصنع طعاماً كثيراً ثم وجّه إلى أبي العتاهية فأتاه فقال له صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدّنيا فأنشأ يقول:

عش ما بدا لك سالماً في ظلّ شاهقة القصور

فقال أحسنت فقال:

يسعى إليك ما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور

قال حسن أيضاً ثمّ ماذا فقال:

فإذا النفوس تقعقعت[1] في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت إلّا في غرور

فبكى هارون الرشيد، فقال الفضل بن يحيى بعث إليك أمير المؤمنين لتسرّه فأحزنته، فقال هارون الرشيد دعه فإنّه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى، ولذا قال صلى الله عليه وآله أكثروا ذكر هادم اللذّات. وحكي أنّ الحجاج كان عنده جاريتان جميلتان وكان معجباً بهما مولعاً بعشقهما، فقال إنّ النّاس يقولون ما تمّ فرح لأحد إلى اللّيل وها أنا ذا غداً أجلس بمجلس الطرب إلى اللّيل، فلمّا كان الغد هيّأ في مجلسه أحسن ما يكون وتخلّى عن النّاس بخواصه وتلك الجواري، فلمّا مضى بعض النّهار أمر بالشراب فشرب هو ومن كان في ذلك المجلس وشربت جارية من تلك الجواري فاختنقت بالشّراب وماتت من ساعتها فبكى عليها بكاء كثيراً ومضى عامة ذلك اليوم بالحزن، فكان يوم سروره يوم عزائه ومصيبته

إذا عرفت هذا كلّه فاعلم أنّ اللّذات الواقعة في هذه الدّنيا ثلاث: الأولى اللّذة الحسيّة وهي قضاء الشهوتين: البطن والفرج وتوابعها؛ وهذه اللّذة أدون اللّذات الثّلاث وأحقرها، الثانية اللّذة الخياليّة وهي الحاصلة من الاستعلاء والرياسة ونحوهما، الثالثة اللّذة العقليّة وهي الحاصلة بسبب معرفة الأشياء والوقوف على

(١) تقعقع اضطرب وتحرك، صوّت عند التحرك.

حقائقها ووجه الحصر أنّ الإنسان أوّل ما يحسّ ويشعر باللّذة الأولى لظهورها في بادىء الرأي، ثمّ إذا توغل فيها وقضى وطره منها سمت نفسه إلى المرتبة الثانية وهي حب الرياسة ونفوذ الأمر والنّهي، فإذا توغّل فيها ورزق الوقوف على ما فيها من الآفات والبليّات ترقى منها إلى الثالثة وهي العالية الحاصلة من إدراك حقائق الأشياء كما هي بقدر الطّاقة البشريّة فلنتكلّم في كل واحدة من هذه اللّذات وما تشتمل عليه ليظهر لك ما ذكرناه في عنوان النّور.

القسم الأول: الكلام في اللّذة الحسيّة اعلم أنّ مطالب الخلق من الأحوال المخصوصة (المحسوسة) محصورة في نوعين أحدهما دفع الألم والثاني تحصيل اللّذة، أما دفع الألم الحسّي فقد توصّلوا إليه بطرق أحدها لبس الثّياب وذلك لأنّ جلد الإنسان لطيف يتأثّر من الحرّ والبرد فاحتاج في دفع هذا الألم إلى لبس الثّياب وبالحقيقة لبس الثّوب ضرر لأنّه إتعاب للبدن لكن لبس الثوب يدفع مضرة أعلى من هذه المضرة كما عرفت، فهو من باب دفع الضّرر بالضّرر، ومثاله ما حكي أنّ بعض الناس دخل على إبراهيم بن سيّار النّظام المتكلّم فرأى في يده قدحاً من الدّواء المرّ فسأله عن حاله فأنشد:

أصبحت في دار بليّات أدفع آفات بآفات

وثانيها: بناء الدّور والمساكن والمقصود منه أنّ الإنسان خلق في ممرّ الآفات، فإذا كان بغير بيت خاف على نفسه وماله وولده ومن يعنوه فإذا بنى البيت أمن من تلك الآفات، وأما الذي يترتّب على بناء البيت من التعب وبذل ماء الوجه ومعاداة الجيران والتّوصّل منه إلى إعانة الظالمين فظاهر فهذا أيضاً من باب دفع آفة بآفة فلا لذّة فيه.

فإن قلت قد يكون مع الإنسان من الثياب ما يدفع الحرّ والبرد فيتأنّق في لبس الثّياب الفاخرة تحصيلاً للّذة لا لدفع الألم، وكذا القول في البيوت وبنائها فلا يكون من باب دفع الآلام، قلت إذا تأمّلت حقّ التأمّل ترى هذا أيضاً من ذاك وذلك لأن لبس الثّوب الفاخر إنّما يكون بعد منازعة النّفس وطلبها إياه وتشوّقها عليه وتعبها في طلبه فيكون هذا ألماً نفسانياً يدفع بتلك الثّياب الفاخرة، ومن ثمّ لو لبس الأغنياء الثّوب الفاخر لمن هو أدنى منهم لم يلتذّوا عند لبسه، وكذا في جانب المأكل والمسكن والمنكح وما ذاك إلّا لأنّ نفوسهم لم تطلبه منهم ولم تنازعهم على تحصيله، ومن ثمّ لمّا كانت ملاذ الجنّة تحصل بمجرّد الخطور في البال من غير مجاذبة مع النّفس فتكون لذة محضة لا دفع ألم حسّي ونفسي.

وأمّا الطّرق الموصلة إلى تحصيل اللّذات فهي قضاء شهوة البطن وقضاء شهوة الفرج، وقبل أن نبيّن ما فيها من الدّناءة والخسّة والإهانة والتّشبّه بالبهائم نذكر مقدّمة: وهي إنّ البلغاء والأكابر إذا أرادوا الخوض في تحقير الدنيا يرجع حاصل كلامهم إلى أمور:

الأول: أنّها فانية فيجب على العاقل اجتنابها، فهو إشارة إلى أنّها في نفسها لذيذة وطيّبة لكنها فانية.

الثاني: قولهم إنّ طيّباتها ممزوجة بالآلام وراحتها بالكدورات، وهذا أيضاً كالأول إشارة إلى أنّ فيها لذات طيّبة لكن المانع للعاقل من ارتكابها ذلك المزج.

الثالث: قولهم إنّ الأراذل من النّاس مشاركون الأفاضل في هذه اللّذات والراحات بل يزيدون عليهم فيها أضعافاً كثيرة حتى أنّ العقلاء قد تحيّروا في هذا فقالوا:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصيّر العالم النّحرير زنديقا

والإنصاف أنّ صاحب هذا البيت وأمثاله لم يتفكّروا في صنع الله تعالى ولم يدروا إنّ الأرزاق على قسمين: قسم منها ما هو رزق للرّوح كالعلوم والمعارف، وقسم منها ما هو رزق للبدن كالمآكل والملابس والمناكح، فمن رزق من الأوّل حرم من الثاني وكذا العكس؛ فمن أرادهما معاً كان عديم الإنصاف، ولو نظرت إلى جاهل جمع من الأموال ما لا يحصى وأراد أن يبدلك ماله بعلمك حتى يكون لك جهله وحماقته لما رضيت ولما قبلت وإذا كان الحال على هذا المنوال فلا ينبغي أن يصير العالم النّحرير زنديقاً.

وبالجملة فقول الأكابر ذلك يدل على أنّ حالات الدّنيا وإن كانت لذّات لكن يجب تركها لرذالة الشّركاء ودناءتهم، وأمّا الحكماء فإنّهم قالوا إنّ هذه الأحوال ليست في أنفسها سعادات ولا خيرات بل هي أحوال خسيسة ومطالب دنيئة في ذواتها، وإذا كان الأمر كذلك فيكون الكلام دائراً على أمرين: أحدهما أنّ تلك الأحوال خسيسة في نفسها، وثانيها أنّها وإن كانت أحوالاً شريفة إلّا أنّه يلزمها لوازم مكروهة، أمّا بيان الأمر الأوّل فيجيء على أنواع:

النّوع الأول: أنّا رأينا الإنسان كلّما كثر جوعه كان التذاذه بالأكل أتمّ؛ وكلّما كان عهده بالوقاع أطول كان التذاذه أيضاً به أكمل؛ ولا شكّ أنّ الجوع والاحتياج إلى الوقاع ألمان شديدان فلمّا رأينا أنّه كلّما كانت هذه الآلام أشدّ كان دفعها ألذ

وأطيب غلب على الظّن أنّه لا معنى لهذه اللّذات والرّاحات إلّا مجرّد دفع تلك الآلام السابقة، ألا ترى أنّ من جلس في الحمّام الحار وغلب استيلاء الحرارة عليه فإذا فتح الباب ودخل عليه نسيم بارد فإنّ الإنسان يستلذّ ذلك الهواء البارد استلذاذاً في الغاية وما ذلك إلّا لأنّه عظم تألّمه بسبب الهواء الحارّ في الحمّام، فلمّا وصل إليه النسيم البارد زالت عنه تلك الحرارة المؤلمة فعلم منه أنّه لا حاصل لتلك اللّذات الحسّيّة إلّا دفع تلك الآلام، فيدل على أنّ هذه الأحوال التي يتخيّل أنّها لذات في أنفسها ليست لذات بل لا حاصل لها سوى دفع تلك الآلام(١).

الثاني: إنّ من المعلوم بالبديهة أنّه كلّما كان شهوة الفوز بالشيء أقوى وأكمل كانت اللّذة الحاصلة بسبب وجدانه أقوى وأكمل، فإن لم تحصل تلك الشهوة لم تحصل اللّذة بوجدانه، ألا ترى أنّ من رمى قلادة الدّر إلى الكلب والعظم إلى الإنسان فإنّه لم تحصل اللّذة لواحد منهما، وإذا عكس حصلت اللّذة فثبت أنّه كلّما كانت الحاجة إلى الشيء أشدّ كان الفوز به ألذّ، فثبت أنّ مقدار اللّذة الحاصلة في الحال مساوية لمقدار المضرة الحاصلة بسبب الاحتياج إليه في الماضي، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ تتقابل اللّذة الحاصلة في الحال بالألم الحاصل في الماضي وإذا تقابلا تساقطا فصار كأنّه لم يوجد.

---

(١) لا يخفى على القارىء الكريم أنّه قد تعرض صدر المتألهين قدس سره لهذا المطلب في الأسفار في فصل حقيقة الألم واللذة ولكنه زيفه وأبطله وقال: أما سبب هذا الظن فذلك من باب أخذ ما بالعرض مكان ما بالذات وذلك لأن اللذة لا تحصل إلا بادراك فهذه اللذات الحسية لا تتم إلا بادراكات حسية والإدراك الحسي سيما اللمسي منه لا يكون إلا بانفعال الآلة عن ورود الضد وإذا استقرت الكيفية الواردة لم يحصل انفعال فلم يحصل شعور فلا تحصل لذة لمسية وغيرها إلا عند تبدل الحال الغير الطبيعي فلأجل ذلك ظن أنّ اللذة نفسها هي ذلك الانفعال ثم قال قدس سره: وأما بيان بطلان هذا الظن فلأن الإنسان قد يستلذ من النظر إلى الصور الحسنة التي لم يكن عالماً بوجودها مشتاقاً إليها سابقاً حتى يقال بأن النظر إليها يدفع ضرر الاشتياق وألم الفراق وكذلك ربما يدرك مسألة علمية من غير طلب وشوق إليها ولا تعب فكري في تحصيلها كما في عقيب انحلال الشبهات المشكلة التي قد تعب في حلها حتى يقال بأن الاستلذاذ لها لأجل زوال أذى الانزعاج الفكري وكذلك إذا أُعطي له مال عظيم أو منصب جليل لم يكن متوقعاً له ولا طالباً لحصوله حتى يقال بأن حصول هذه الأمور يدفع ألم الطلب والشوق مع أنّ كل هذه الأمور لذيذة فبطل هذا المذهب (اهـ) وإن شئت تفصيل اللذات وتفضيل بعضها على بعض وأن كلاً من اللذة والألم ينقسم بحسب القوة المدركة إلى العقلي والوهمي والخيالي والحسي على نحو التحقيق العلمي راجع إلى الأسفار.

الثالث: في بيان أنّ هذه اللّذات الحسيّة خسيسة جدّاً وذلك أنّها بأسرها لا تحصل إلّا بواسطة مخامرة رطوبات عفنة مستقذرة؛ أمّا لذّة الأكل فالأمر فيها ظاهر لأنّ الإنسان لا يلتذّ بالطّعام إلّا إذا وضعه في فمه ولا شك أنّ ذلك الطعام يمتزج بريق الفم ويختلط به وهو في نفسه شيء مستقذر، والدّليل عليه أنّ تلك اللّقمة الممضوغة لو سقطت من الفم فإنّ الإنسان يستقذرها ولا يمكنه أن يردّها إلى فمه، وذلك يدل على أنّ اللّذة الحاصلة من الطعام لا تحصل إلّا عند انعجان ذلك الطعام واختلاط أجزائه بتلك الرطوبات المستقذرة فهذا يدل على أنّ العاقل إنّما يقدم على الأكل لا لأنه يعدّه سعادة وبهجة بل لأجل أنّه خلق محتاجاً إليه ولولا احتاج إليه لما قدم عليه، وقد أنشد عبد القاهر النّحوي هذا البيت:

لولا قضاء جرى نزّهت أنملتي عن أن تلمّ بمأكول ومشروب

وأمّا لذّة الجماع فخساستها أظهر من أن تحتاج إلى البيان، والدليل عليه أنّ أخسّ أعضاء الإنسان هذه الأعضاء المخصوصة ولذلك سترها الناس تحت الثّياب وإن أظهروا غيرها وهذه الأعضاء لا تفيد اللّذة إلّا عند المماسة والتّلطّخ بتلك الرّطوبات المتولّدة في داخل الأعضاء وتمام اللّذة إنّما يحصل بانفصال النّطفة وهي أيضاً رطوبة عفنة فلا تكون من جنس الخيرات والسعادات بل يكون الإنسان كالمضطرّ إليها فإذا دفع تلك الآلام والأوجاع استراح فيظنّ أنّها خيرات ولذّات وليس كذلك، ولذلك ترى الإنسان إذا فرغ من الجماع أخذه فتور البدن وضعف القوّة وندم على ما فعل، وكان رجل من الظرفاء يقول لو حصل عندي الشاهدان العادلان عند فراغي من الجماع لطلّقت زوجتي للكراهة الحاصلة لي بعد قضاء الوطر منها.

الرابع: في خساسة تلك الأحوال. إنّ العقلاء إذا رأوا رجلاً أكولاً ذمّوه ونسبوه إلى طبيعة الحيوانات، أمّا إذا قلل الأكل والشّرب عظّموه ونسبوه إلى طبيعة الملائكة.

الخامس: إنّ اللّذة الحاصلة عند الأكل لذّة ضعيفة جدّاً وكمالها إنّما يحصل في اللّقمة الأولى والثانية عند حصول الجوع الشديد فإذا فتر الجوع فاتت الرّغبة فضعف الالتذاذ بالأكل، فثبت أنّ زمان حصول هذه اللّذة زمان قليل، ولذا ترى الناس يقولون إنّ الله تعالى رفع اللّذة عن أطعمة الأغنياء وودعها في أطعمة الفقراء وذلك أنّ الأغنياء لا يشتدّ جوعهم فلا يلتذّون بالطّعام بخلاف الفقراء.

السادس: إنّ هذه اللّذات حقيرة جداً وذلك لأن اللّذات الجسمانية المرغوب فيها كثيرة جدّاً والحاصل منها ليس إلّا القليل، وذلك يوجب التّعب الشّديد وذلك لأنّ الإنسان يبصر بعينه جميع ما في المبصرات وإذا أبصر شيئاً فقد يميل طبعه إليه فيصير ذلك سبباً لاشتداد رغبته في تحصيله؛ وكذلك القول في القوة السامعة فإنّها تسمع أشياءَ كثيرة تميل إليها وتتألّم من سماع القبيح.

وبالجملة فالقلب بمنزلة المرآة المنصوبة على جدار وكان ذلك الجدار ممرّاً لأكثر موجودات هذا العالم وكلّما مرّ به شيء ظهر من ذلك الشيء فيه أثر، فإن كان موافقاً مال طبعه إليه فإن لم يقدر على تحصيله تألّم قلبه، فثبت بهذا الطريق أنّ قلبه لا بدّ وأن يكون أبداً مستغرقاً في الهموم والآلام، وأمّا الفرح فإنّما يحصل إذا حصل المطلوب ودفع المكروه وذلك قليل في جنب كثير، فثبت أنّ الغالب على هذا العالم هو الهموم والأحزان، وأمّا اللّذة فقليلة جدّاً ومن المعلوم أنّ النادر في جنب الراجح كالمعدوم بالنسبة إلى الموجود، والذي يؤيّد هذا ويؤكّده ما روي عنه عليه السلام أنّه رأى جابر بن عبدالله وقد تنفّس الصعداء فقال يا جابر علام تنفّسك أعلى الدنيا؟ فقال جابر نعم، فقال يا جابر ملاذ الدنيا سبعة: المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمركوب والمشموم والمسموع، فألذّ المأكولات العسل وهو من فضل الذّباب؛ وأجلّ المشروب الماء وكفى بإباحته وسياحته على وجه الأرض، وأعلى الملبوسات الديباج وهو من لعاب دودة، وأعلى المنكوحات النساء وهو مبال في مبال؛ وإنّما يراد أحسن ما في المرأة لأقبح ما فيها. وأعلى المركوبات الخيل وهن قواتل، وأجلّ المشمومات المسك وهو دم من سرّة دابّة وأجلّ المسموعات الغناء والتّرنّم وهو إثم، فما هذه صفته كيف يتنافس عليه؛ قال جابر بن عبدالله: فوالله ما خطرت الدنيا بعد على قلبي.

القسم الثاني: الكلام في اللّذات الخياليّة وهي لذّة الرياسة ونحوها ويدل على خسّتها أمور:

الأول: إنّ كل أحد يحب أن يكون هو الرئيس للغير وأن يكون كلّ من سواه تحت قدرته وتحت تصرفه وحكمه، وذلك لأنّ كون الإنسان قادراً على الغير نافذ التصرّف فيه صفة كمال وصفة الكمال محبوبة لذواتها، وكونه مقدوراً للغير ومحلاً لتصرف الغير صفة نقص وصفة النّقص مبغوضة لذاتها، فثبت أنّ طبع كلّ أحد يحمله على أن يكون هو الرئيس لغيره وهو المتصرف في غيره، وأن يمنع غيره من أن يكون

رئيساً حاكماً عليه، وإذا كان كذلك فالسّاعي في تحصيل الرّياسة لذلك الإنسان المعيّن ليس إلّا ذلك الإنسان، وأمّا كل من سواه فإنّهم يسعون في إبطال تلك الرياسة وفي إعدامها وإذا كان كذلك فذلك الإنسان الواحد هو السّاعي في حصول تلك الرياسة؛ وأمّا جميع أهل المشرق والمغرب فكلّهم يسعون في إبطالها ودفعها وإعدامها، والمطلوب الذي يقل الساعي في تحصيله ويكثر السّاعي في إبطاله يكون صعب الحصول جدّاً، وكل ما كان كذلك كان السّعي في طلبه منشأً للهموم والأحزان وكان العقل مانعاً من طلبه وحاكماً بوجوب الاحتراز عنه.

وأمّا أعوان السّلاطين وأشباههم فهم إنّما يحبّون الرياسة للسلطان إذا علموا تعذّر الوصول إليها مع إنّ سعيهم إنّما هو في نفع أنفسهم ولأجل طلب الرياسة على غيره.

الثاني: إنّ الرياسة لا تقف على حدّ فقبل الوصول إليها هو في ألم طلبها فإذا فاز بها يكون في ألم طلب الزيادة عليها حتى ينصرف (يصرف ظ) عمره في ألم الطلب كما هو المشاهد من أحوال الحكّام والسّلاطين.

الثالث: إنّ الشّيء كلّما كان ألذّ كانت الرغبة في تحصيله أشد وكانت الرغبة في إزالة العوائق عنها أشدّ وحصول الرياسة للغير من أشدّ الأشياء عائقاً عن حصولها فكانت الرغبة في إبطال ذلك العائق أعظم الرغبات، فثبت أنّ كلّ من رغب في تحصيل الرياسة فقد رغب النّاس في قتله وقوي ميلهم إلى إفنائه وإبطاله؛ ومن شاهد أحوال الأمراء والملوك عرف أنّ الأمر هكذا، لكن من العلوم أنّ الحياة أصل لجميع النّعم والرياسة فضيلة زائدة؛ فكلّما كان السّعي في طلب هذه الفضيلة الزائدة يوجب السّعي في إبطال الأصل كان باطلاً لأنّ كلّ فرع أفضى إلى بطلان الأصل كان باطلاً.

الرابع: إنّ الإنسان إمّا أن يكون أفضل من غيره أو مساوياً له أو أقلّ حالاً منه فإنّ كان أفضل من غيره فكونه أفضل حالة مكروهة لذلك الغير فذلك الغير يسعى بكلّ ما يقدر عليه في إبطال تلك الفضيلة عن الراجح، فإن كان ذلك الرّجحان بصفة قابلة للزوال مثل كونه ملكاً حاكماً فالأعداء يسعون في إبطالها وإزالتها بأقصى ما يقدرون عليه، وإن كان ذلك الرّجحان بصفة لا يمكن إزالتها مثل العلم فههنا للأعداء طريقان:

أحدهما: أنّهم إن أمكنهم إخفاء تلك الفضيلة بطريق من الطّرق فعلوه، وذلك بإلقاء الشّبهات في كلامه وتشويش دلائله.

والثاني: أنّهم إن عجزوا عنه نسبوه إلى أنواع القبائح ليصير اتصافه بتلك القبائح والفضائح مانعاً من حصول صفة الكمال له والتّجربة تدلّ على أنّ الرجل الكامل لا بدّ وأن يكون مبتلى بهذه الأحوال.

وأمّا إن كان مساوياً لغيره فالوحدانيّة صفة كمال وصفة الكمال محبوبة لذاتها والشركة صفة نقص والنّقص مكروه لذاته، وإذا ثبت هذا فالشركاء يسعون بأقصى الوجوه في إبطال الشركة وإظهار أنّه أفضل وأكمل من ذلك الشخص الذي يعتقد فيه كونه شريكاً له، وذلك السّعي يكون تارة بإلقاء الشبهات في كونه موصوفاً بتلك الفضيلة التي فيها وقعت الشركة، وتارة بادعاء كونه موصوفاً بصفة من صفات القبح والنّقصان ليصير ذلك مانعاً من كون ذلك الغير شريكاً له في الفضيلة، وأمّا إذا كان أدون حالاً من غيره فهذا الشّخص لا يلتفت إليه بل الأطباء قالوا إنّه متى صار عضو من الأعضاء ضعيفاً فإنّ الأعضاء القوية ترسل إليه جميع الفضلات.

الخامس: إنّ الإنسان إمّا أن يكون في الألم أو في اللّذة أو يكون خالياً عنهما؛ فإن كان في الألم والمضرّة فلا شك أنّه حالة منفرة مكروهة، وإن كان في الخير واللّذة فلا شكّ أنّه عالم بأنّ أحوال هذه الدّنيا غير باقية بل هي سريعة الزّوال مشرفة على الانقراض والانقضاء فكلما كانت الحالة التي يكون الإنسان فيها ألذّ وأطيب كان خوف الزوال أشدّ إيلاماً للقلب وأعظم تأثيراً في هذا المعنى، وأمّا إن كان الإنسان خالياً عن الألم واللّذة فإنّه يكون كالمعطّل الباطل وهذه الحالة مكروهة، وهذا الوجه مجرب عند العقلاء وأشارت إليه الشعراء حتى إنّ بعضهم طلب أيّام الفراق وكره أيّام الوصال لعدم دوام حالات الزمان وأموره.

السادس: إنّ شعور الإنسان بالكيفيّات المحسوسة إنّما يكون حال حدوثها له أمّا حال بقائها فلا شعور بها فاللذات الحاصلة من هذه المحسوسات لا تحصل إلا في حال الشعور بها وحال حصول الشعور بها ليس إلّا حال حدوثها، ينتج أنّ الالتذاذ بهذه المحسوسات لا يحصل إلّا حال حدوثها فإذا لم يحصل الالتذاذ في حال البقاء والطّبع طالب اللذة صار طالباً لشيء آخر فعلى هذا لو أنّ الإنسان ملك خزائن الأرض كلّها فالتذاذه بها لا يكون إلّا حال حدوثها ثم عند الفراغ يطلب شيئاً آخر ويحاول تحصيل الزيادة وبسبب ذلك الطّلب والحرص يحصل في قلبه ألم الشوق ومضرة الطلب، فثبت أنّ هذا البلاء ممّا لا سبيل إلى دفعه.

السابع: إنّ الإنسان إذا فتح باب الحرص على نفسه فقد ينتهي ذلك إلى أن يصير

طالباً للجمع بين الضدّين ومثاله أنّ القدرة صفة كمال وهي محبوبة بالذات والاستغناء عن الغير صفة كمال فتكون محبوبة بالذات، إذا عرفت هذا فنقول: إنّ الرجل إذا مال طبعه إلى السخاوة والجود فهذه السخاوة من حيث إنّها تدلّ على أنّ قلبه غير ملتفت إلى حبّ المال صارت كأنّها مطلوبة ومن حيث إنّها تقتضي خروج المال من يده وخروج المال عن اليد يوجب نقصاناً في القدرة الحاصلة بسبب المال والنّقصان في القدرة مكروه صارت السخاوة من هذه الجهة مكروهة منفرة وجميع الخلق موصوفون بهذه البليّة، ولأجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم يحبون الجود والسخاوة، ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب ذلك المال يبغضونه، فلهذا السبب بقي كل الخلق في موقف المعارضة والتّرجيح، فمنهم من ترجّح عنده ذلك الجانب فيبذل المال، ومنهم من ترجّح عنده الجانب الثاني فيمنع، ومنهم من بلغ في الجهالة إلى حيث يريد الجمع بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاوة والمروّة والكرم طمعاً منه في أنّه ربما فاز لهذا المعنى بالمدح والثناء ثمّ إنّه عند حضور الوقت لا يفي به فحينئذ يقع في الفضائح، وإذا تأمّلت أحوال أهل الدنيا علمت أنّهم بأسرهم داخلون تحت البلاء المتولّد من هذه القضيّة، إمّا في الكثير منه أو القليل.

الثامن: إنّ الإنسان إمّا أن يسدّ باب الإنعام على الغير وإمّا أن لا يسدّه وفي كلّ واحد من هذين الطرفين آفات كثيرة، أما آفات القسم الأول فأمور:

أولها: إنّ كل من اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والنفع أبغضوه، وكل من صار بغيضاً عند الكل فوصول الآفة إليه أسرع من كل شيء.

وثانيها: إنّ النّاس إذا عرفوا منه تلك الصفة بغضوه ولم يلتفتوا إليه، وكل من علم من النّاس أنّهم إنّما ينظرون إليه بعين المقت والإزراء فإنّه يضيق قلبه وتتألّم روحه.

وثالثها: أنّه إذا لم يظهر منه خير صار كالجماد وكالعدم وهذه حالة منفرة جداً.

وأمّا القسم الثاني فآفاته كثيرة أيضاً منها أنّ إيصال الخير إلى الكلّ محال فلا بدّ من إيصاله إلى البعض دون البعض وذلك يصيره سبباً للعداوة الشديدة فإنّه يقول له لم منعتني خيرك وأوصلته إلى غيري، ومنها أنّ الذي وصل إليه الخير مرّة يلتذّ بذلك الخير والالتذاذ سبب للطلب فيبقى أبداً طامعاً في ذلك الرجل وإيصال الخير إليه في كل حين وساعة متعذر فيصير ذلك سبباً للعداوة الشديدة، ولهذا قيل اتّق شرّ من

أحسنت إليه، ومنها أنّ المقدار الذي وصل إليه من الخير يصير معتاداً بالوفاء ويصير كالأمر المستحق فيقع في قلبه طلب الزيادة عليه فيصير ذلك سبباً قوياً في العداوة، فثبت أنّ على التقديرين أعني باب سدّ الخيرات وفتحها لا يسلم الإنسان عن الضرر، وللإشارة إلى هذه الأحوال قال ﷺ لقريش لا تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم.

التاسع: إنّ الإنسان إمّا أن يتورع عن جميع الخلق ويعتزل عنهم وإمّا أن يخالطهم ويصاحبهم وعلى كلا التقديرين فالضرر لازم، أمّا الأول فلأن الإنسان مدنيّ الطبع وما لم يجتمع مع الجمع العظيم فإن مصالحه لا تنتظم. وأما الثاني ففي معاشرة النّاس ارتكاب الغيبة والنميمة والرّياء وسائر أسباب مهالك الدارين.

العاشر: إنّ الإنسان إمّا أن يعيش في الدنيا خالياً عن الزوجة والولد أو معهما وكلّ واحد من القسمين سبب لحصول الآفات والبليّات، أمّا مع الزوجة والولد فلا يحتاج إلى البيان؛ أمّا الزوجة وهي كما قال سبحانه لإبراهيم عليه السلام إنّ مثلها كالضلع الأعوج فدعه على إعوجاجه واستمتع به مع أنّ الأفعى التي تكون مع الإنسان تلدغه ساعة بعد ساعة أسهل وأخف على الإنسان من امرأة السوء، وقال بعضهم إنّه لا امرأة في الدنيا إلّا وهي امرأة سوء لكنهن يتفاوتن في مراتب السوء؛ ونقل أخلاقهنّ وذمائم أفعالهنّ يحوج إلى تأليف عشرة آلاف كتاب بل أزيد.

وأمّا الولد فإن كان جيّداً كان خوف موته ينغص (ينقض خ) جميع الطيبات، وإن كان رديئاً تألم القلب عند حياته تألماً يزيد على كلّ الآلام والآفات، ومن ذلك روي أنّ علياً عليه السلام رأى رجلاً ومعه ولده فقال لا تحبّه فإنّه إن عاش كدَّك وإن مات هدَّك[1]. وإن كان خالياً عنهما فمشقته ظاهرة أيضاً.

الحادي عشر: إنّ هذه الحياة هل هي طيبة لذيذة في نفسها أو ليست كذلك؛ والقسم الأول باطل لأنّ الشيء الطيب المستلذ كلما كانت مشاهدته أكثر كان الالتذاذ به أقوى وأكمل فكان يجب أن يكون الإنسان الفارغ عن كل الأعمال والأقوال المراقب لمرور الساعات والأوقات عليه حال كونه حيّاً يعظم التذاذه لذلك لأنّه على هذا التقدير يشاهد اللذيذ المشتهى وهذا باطل لأن المعطّل عن كل الأعمال يضيق قلبه ولا يمكنه تحمل ذلك، ولذلك صار الملوك يشغلون أنفسهم

(١) هدَّ هدّاً البناء: هدمه.

بالصّيد واللّعب حذراً من التعطيل وكذا غيرهم، وإمّا أن لا تكون الحياة لذيذة في نفسها فهذا أيضاً باطل وذلك لأنّ كلّ حيوان يكره الموت ويفرّ منه وإذا تخيّل نزول الموت به دفعه على أقوى الوجوه.

الثاني عشر: إنّ الإنسان إمّا أن يكون رئيساً على الغير أو لا يكون وفي كل واحد من القسمين أنواع من الآفات؛ أما القسم الأول فنقول إنّ الرياسة إنّما تكون لذيذة إذا كانت أحوال الخدم واقعة على وفق إرادة الرئيس وكلّما كان عدد الخدم أكثر كانت إرادات الرئيس أكثر، وكلما كانت الإرادات أكثر كانت الآلام الحاصلة بسبب فوت تلك المرادات أكثر لكن من المعلوم أنّ حصول المرادات الجسمانية أبداً كالممتنع لأنّ أجسام هذا العالم مبنيّة على التغيّر والتبدّل وسرعة الانقضاء فإنّها كالزّئبق تتبدل من حال إلى حال؛ فثبت أنّه كلما كانت الرياسة أكثر وأعظم كانت الحسرات والزفرات والغموم والهموم أقوى وأكثر.

وأمّا القسم الثاني وهو أن لا يكون رئيساً فهو إمّا أن يكون معطلاً محروماً وإمّا أن يكون خادماً ضعيفاً وكلاهما منفران.

الثالث عشر: إنّ حصول الرياسة إمّا أن يكون مع العدل أو يكون مع الظّلم وكلاهما منفران، أمّا مع العدل فهو متعذر لأنّه يقتضي تسليم الرياسة إلى من هو الأحقّ بها، وأمّا مع الظلم فهو موجب لتحقير الدنيا وعذاب الآخرة.

الرابع عشر: إنّه لا يمكن إجراء الرياسة على الظاهر إلّا مع الكذب والتزوير فإنّ الرئيس الكامل لو شافه كل أحد بأنك لا تستحق عندي إلا القدر الفلاني من التعظيم وأنّك دون فلان وفلان لتشوّشت رياسته واختلّت ولايته بل لا بدّ وأن يقول لأكثر أصحابه إنّك أفضل الناس وأكمل أصحابي علي وعليك اعتمادي وهو يعلم أنّ كل هذا القول زور وبهتان.

الخامس عشر: إنّ الرياسة لا تحصل إلّا بالاتفاق الكثير وهو لا يمكن إلّا بالمال الكثير ولا ريب في أنّ تحصيله شاق فلو لم يكن للرئيس من المشاق إلّا تعلّق قلبه بتحصيل الأموال الكثيرة وصونها عن اللصوص والسراق لكفى ذلك تعباً ومشقّة فكيف وأنّه يحتاج إلى تحصيل تلك الأموال من غير حلّها فيستحقّ اللعن، وكل من أعطاه منها شيئاً يستقله بالنظر إلى ما يتوقع منه؛ فيستحق منه الطعن فتكون حاله دائرة بين اللّعن والطعن.

السادس عشر: إنّ هذا الرئيس إما أن يكون حسن المعاشرة طيب الخلق غير

مهيب، أو يكون هناك مهيباً معظماً، أما الأول فبأنّه اختلط معهم لم يحتشموه ولم يبق له في قلوبهم وقع ولا ينقادون له، وهذا من أسباب زوال الملك، وأما الثاني فإنّهم إذا خافوه ربما قصدوا قتله فلا بدّ له حينئذ من التوسط بين الحالتين وهو غير معلوم ومقداره غير مضبوط، فربما وقع الغلط من الرئيس في موارده فمن ثم يكون الرئيس دائماً في مقام الخوف.

السابع عشر: إنّ ذلك الرئيس إمّا أن يساوي بين جميع أصحابه في العطيّة أو يفضل بعضهم على بعض وفي كليهما زوال الرياسة كما لا يخفى.

الثامن عشر: حقيقة الرياسة أنّ ذلك الرجل يلتزم بإصلاح جميع مهمات الخلق وعقل الإنسان لا يفي بإصلاح مصالح نفسه فكيف يفي بإصلاح مهمات الخلق العظيم.

القسم الثالث: في اللّذات العقلية الحاصلة بسبب العلوم. اعلم أنّ العلوم إمّا عقلية وإمّا وضعية، فأمّا العلوم الوضعية فلا ينتفع بها إلا بسبب مصالح الحياة الجسمانية، والتبع لا يكون أكمل من الأصل لما قد سبق من خساسة الحياة الجسمانية ومن هنا ترى أنّ أكثر العلوم التي ترى الخلق مقبلين عليها علوم خسيسة فإنّه لا فائدة فيها إلا إعانة المصالح الدنيوية، وأمّا العلوم العقلية وهي إمّا أن تكون مطلوبة لذاتها أو لغيرها الثاني كالمنطق وشرفه مرتب على شرف ذلك الغير، والأول هو معرفة إلاله وهو أشرف العلوم ولكن من ذا الّذي أتى عتبة تلك الحضرة العليّة ومن ذا الذي شم رائحة تلك الحديقة الزاهرة فحاصل العقول كلّها ظنون وخيالات ومنتهى الأمر أوهام وحسبانات.

قال الرازي هذه الأشياء المسمّاة بالبراهين لو كانت في أنفسها براهين لكان كل من سمعها ووقف عليها وجب أن يقبلها وأن لا ينكرها أصلاً، وحيث نرى أنّ الذي يسميه أحد الخصمين برهاناً فإنّ الخصم الثاني يسمعه ويعرفه ولا يفيد له ظناً ضعيفاً علمنا أنّ هذه الأشياء ليست في أنفسها براهين بل هي مقدمات ضعيفة انضافت العصبية والمحبة إليها فتخيل بعضهم كونه برهاناً مع أنّ الأمر في نفسه ليس كذلك؛ وأيضاً فالمشبّه يحتجّ على القول بالتّشبيه بحجة ويزعم أنّ تلك الحجة أفادته الجزم واليقين، فإمّا أن يقال إنّ كل واحدة من هاتين الحجتين صحيحة فحينئذ يلزم صدق النقيضين وهو باطل، وإمّا أن يقال إحداهما صحيحة والأُخرى فاسدة إلّا أنّه متى كان الأمر كذلك كانت مقدمة واحدة من مقدمات تلك الحجة باطلة في نفسها مع أنّ

الذي تمسك بتلك الحجة جزم بصحة تلك المقدمة ابتداءً فهذا يدل على أنّ العقل يجزم بصحة الفاسدة جزماً ابتداء فإذا كان الأمر كذلك كان العقل غير مقبول القول في البديهيّات، وإذا كان كذلك فحينئذ تنسدّ جميع الدلائل.

فإن قالوا العقل إنّما جزم بصحة ذلك الفاسد لشبهة متقدمة، فنقول قد حصل في تلك الشبهة المتقدمة مقدمة فاسدة، فإن كان ذلك لشبهة أُخرى لزم التسلسل، وإن كان ابتداءً فقد توجّه الطّعن، وأيضاً فإنّا نرى الدلائل القوية في بعض المسائل العقلية متعارضة مثل مسألة الجوهر الفرد؛ فإنا نقول كل متحيّز فإنّ يمينه غير يساره وكل ما كان كذلك فهو منقسم، ينتج أنّ كل متحيّز منقسم ثم نقول الآن الحاضر غير منقسم وإلاّ لم يكن كلّه حاضراً بل بعضه، وإذا كان غير منقسم كان أول عدمه في آن آخر متصل بآن وجوده فلزم تتالي الآنات ويلزم منه كون الجسم مركّباً من أجزاء لا تتجزأ، فهذان الدليلان متعارضان ولا نجد جواباً شافياً عن أحدهما، ونعلم أنّ أحد الكلامين مشتمل على مقدمة باطلة وقد جزم العقل بصحتها أبداً فصار العقل مطعوناً فيه.

ثمّ أخذ في تفصيل هذه الوجوه بكلام طويل فظهر من هذا كلّه أنّ اللّذات الحسيّة خسيسة واللّذات الخيالية مستحقرة، وأما اللّذات العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها والقرب منها والتعلّق بها[1] على أنّا نقول إنّ المناقضة في الاستدلال وفي تعارض الدليلين العقليّين يكون موجوداً بالنّسبة إلى الشخص الواحد، فإنّا إذا نظرنا في تحصيل مجهول رتّبنا له مقدمات نزعم أنّها بديهيّة؛ فلمّا نظرنا في تلك المقدمات وحصل عقيب ذلك النظر اعتقاد سمّينا ذلك الاعتقاد علماً، ثم ينكشف لنا بعده بطلان ذلك الاعتقاد وفساده مع ترتب ذلك الاعتقاد على المقدمات التي كانت

---

(١) والعجب أنّ المصنف رحمه الله مع انكاره على أكثر أصحابنا تبعية الفلاسفة على زعمه كما سيأتي وقد تبعهم في انكارهم اللذات في الدنيا وأنها ليست إلا دفع آلام وليست تبعيته منهم إلا مقدمة لانكار العقليات كما سيأتي في كلماته والعجب أنّه تبع الإمام الرازي أيضاً في تشكيكاته في البديهيات وفي البراهين العقلية وتبعه في ذلك صاحب الحدائق وما ذكره الرازي توهمات ومغالطات فلو ارخينا عنان القلم نحو ردها وبيان تلك التوهمات لطال الكلام ولذا حبسنا القلم على مضض قال أستاذنا الإمام كاشف الغطاء قدس سره: العقول هي الحجة الكبرى للخالق على المخلوق وللمخلوق على الخالق وهي ثابتة في كل زمان ومكان وفي عامة الشرائع والأديان ـ ذكره رحمه الله في جملة كلام له في كتابه (الجنة المأوى) الذي شرعنا بجمع مواده وترتيبه وتبويبه امتثالاً لأمره بذلك قبل وفاته بزمن يسير على ما شرحنا تفصيل ذلك في مقدمته ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لطبعه ونشره في القريب العاجل إن شاء الله تعالى.

بزعمنا بديهيّة، فعلم من هذا أنّ حال غيرنا في الاستدلال مثل حالنا، والغلط الذي عرض لنا يعرض لغيرنا فكيف يحصل لنا الجزم من تلك الحجج والبراهين. إذا عرفت هذا كلّه فاعلم أنّ ههنا بحث شريف حقّقناه في شرحنا على تهذيب الحديث ولا بأس بالإشارة هنا أيضاً إلى مجمله[١] وحاصله أنّ أكثر الاصحاب قد تبعوا جماعة من مخالفينا من أهل الرّأي والقياس ومن أهل علم الطبيعة والفلاسفة وغيرهم من الذين اعتمدوا على العقول واستدلالاتها وطرحوا ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام حيث لم يأتِ على وفق عقولهم، حتى إنّه نقل أنّ عيسى عليه السلام لمّا دعا أفلاطون[٢]

(١) كل ما ذكره المصنف رحمه الله في هذا المقام مبني على مذاقه الأخباري وما ذهب إليه من مسلك الجمود وتحامله على الأصحاب رضي الله عنهم أنهم تبعوا جماعة من مخالفينا من أهل الرأي والقياس والفلاسفة جرأة عظيمة وتجاسر على كبراء الدين والملة وعزل للعقل عن سلطانه كما في بعض المذاهب الفاسدة حيث لا يرون للعقل وقعاً.
والعجب أنّ الأخباريين لا ينكرون إدراك العقل للحسن والقبح كالأشاعرة ولكن ينكرون إطاعة العقل ووجوب متابعته وهذا أمر غير معقول لأن امتثال الأوامر اللفظية لا يجب إلا بحكم العقل. وما ذكره من تعارض الدليلين العقليين أو العقلي والنقلي إلى آخر ما ذكره فقد حقق الشيخ الإمام الأنصاري رحمه الله هذه المباحث في الرسائل فراجع.
وأما ما ذكره المحقق الخراساني رحمه الله في الكفاية من إنّ ما نسب إلى الأخباريين أنّه لا اعتبار عندهم بمقدمات عقلية نسبة كاذبة وأن كلماتهم إما في مقام منع قاعدة الملازمة بين حكم العقل والشرع وإما في مقام عدم جواز الاعتماد على المقدمات العقلية لأنها لا تفيد إلا الظن فهو ادعاء يمكن صحته بالنسبة إلى بعض كلمات السيد الصدر والمحدث الاسترآبادي رحمه الله وأما بالنسبة إلى كلمات المصنف رحمه الله والمحدث البحراني رحمه الله في مقدمات الحدائق حيث نقل في المقدمة العاشرة كلام المصنف رحمه الله من هذا الكتاب فغير صحيح(انظر الحدائق ج١ ص ١٢٧ ط النجف) فإنّ كلماتهما ظاهرة فيما نسبه الشيخ الإمام الأنصاري رحمه الله في الرسائل إلى الاخباريين من أنّه لا اعتبار عندهم بمقدمات عقلية فلاحظ تجد صدق ما قلناه.
وأضف إلى ذلك إنّ قاعدة الملازمة محققة وكلمات الأخباريين وآراءهم في هذه المباحث مختلفة وتفصيل الكلام في أصول الفقه وأما ما ذكره المصنف رحمه الله من الطعن على مسائل الأصول فكلام شعري لا نطيل البحث بدحضه مع وضوح المطلب في هذا العصر في محله.

(٢) وولد افلاطون الفيلسوف (يلاطن)، في سنة (٤٣٠) قبل الميلاد وتوفي سنة (٣٤٨) أو (٣٤٧) قبل الميلاد فكيف يمكن وقوع تلك القصة بينه وبين المسيح عليه السلام والعجب من هؤلاء الاخباريين كيف يعتمدون على هذه القصص الواهية التي لم يعلم مستندها.
ورأيت في بعض المواضع من مصنفات المحدثين نسبة هذه القصة إلى جالينوس وهو ولد سنة (١٣١) من الميلاد وتوفي سنة (٢٠٠) بعد الميلاد وقال المسعودي (كان جالينوس بعد =

إلى التصديق بما جاء به أجاب بأنّ عيسى رسول إلى ضعفاء العقول وأمّا أنا وأمثالي فلسنا نحتاج في المعرفة إلى إرسال الأنبياء، والحاصل أنّهم ما اعتمدوا في شيء من أمورهم إلّا على العقل فتابعهم بعض أصحابنا وإن لم يعترفوا بالمتابعة؛ فقالوا إنّه إذا تعارض الدليل العقلي والنقلي طرحنا النقلي أو تأولناه إلى ما يرجع إلى العقل، ومن هنا تراهم في مسائل الأصول يذهبون إلى أشياء كثيرة قد قامت الدلائل النقليّة على خلافها لوجود ما تخيّلوا أنّه دليل عقلي كقولهم بنفي الإحباط في العمل تعويلاً على ما ذكروه في محله من مقدمات لا تفيد ظناً فضلاً عن العلم، وسنذكرها إن شاء الله تعالى في أنوار القيامة مع وجود الدلائل من الكتاب والسنّة على أنّ الإحباط الذي هو الموازنة بين الأعمال وإسقاط المتقابلين وإبقاء الرّجحان حق لا شك فيه ولا ريب يعتريه؛ ومثل قولهم إنّ النّبي ﷺ لم يحصل له الإسهاء من الله تعالى في صلاة قطّ تعويلاً على ما قالوه من أنّه لو جاز منه السهو في الصلاة لجاز عليه في الأحكام مع وجود الدلائل الكثيرة من الأحاديث الصحاح والحسان والموثّقات والضعفاء والمجاهيل[1] على حصول مثل هذا الإسهاء، وعلل في تلك الروايات بأنّه رحمة للأُمة لئلا يعير الناس بعضهم بعضاً بالسّهو، وسنحقق هذه المسألة في نور من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى إلى غير ذلك من مسائل الأصول.

= المسيح عليه السلام بنحو مئتي سنة) - وقيل ظهر أمره في سنة (٢٥٠) بعد الميلاد فلا شك أنّه كان بعد المسيح عليه السلام وقول بعض أنّه كان معاصراً معه عليه السلام غير صحيح انظر مطرح الأنظار لفيلسوف الدولة التبريزي رحمه الله ج١ ص ٢١٢ و٣٢٠ وقاموس الاعلام ج ٢ ص ١٠٠٤ وج ٣ ص ١٧٥٦ ط تركية وغيرها.

(١) الأحاديث التي أشار إليها المصنف رحمه الله لا يمكن التعويل عليها لمخالفتها لاجماع الشيعة الإمامية بل لضرورة مذهبهم مع شذوذ تلك الأخبار وموافقتها لمذاهب العامة ومخالفتها للآيات القرآنية والأخبار الصحيحة الدالة على نفي السهو والشك والنسيان عن النبي ﷺ والإمام عليه السلام مضافاً إلى الوجوه الكثيرة الدالة على بطلان هذا القول ولا مجال في المقام لذكرها منها أنّه لو جاز السهو على النبي ﷺ لزم نقض الغرض فإنّه لم يوثق بشيء من أقوال النبي ﷺ وأفعاله مطلقاً، ليت شعري أنّ المصنف رحمه الله كيف يعول على تلك الأخبار الدالة على سهو النبي ﷺ المحمولة على التقية ولكن يترك الأخبار الصحيحة الدالة على نفي السهو الموافقة لدلائل العقل.

ونعم ما قال بعض الأكابر رحمه الله عند قول الشيخ الصدوق رحمه الله : أول درجة الغلو نفي السهو عن النبي ﷺ ما هذا لفظه: أول درجة انكار النبوة إثبات السهو على النبي ﷺ، انظر كم فرق بين النظرين؟

وأمّا مسائل الفروع فمدارهم على طرح الدّلائل النّقليّة والقول بما أدّت إليه الاستحسانات العقليّة، وإذا عملوا بالدلائل النّقليّة يذكرون أولاً الدلائل العقليّة ثم يجعلون دليل النّقل مؤيداً لها وعاضداً إيّاها، فيكون المدار والأصل إنّما هو العقل وهذا منظور فيه لأنّا نسألهم عن معنى الدّليل الذي جعلوه أصلاً في الأصولين وفي الفروع فنقول إن أردتم به ما كان مقبولاً عند عامّة العقول فلا يثبت ولا يبقى لكم دليل عقليّ، وذلك كما تحقّقت من أنّ العقول مختلفة في مراتب الإدراك وليس لها حدّ تقف عنده، فمن ثم ترى كلاً من اللاحقين يتكلّم على دلائل السابقين وينقضه ويأتي بدلائل أُخرى على ما ذهب إليه، ولذلك لا ترى دليلاً واحداً مقبولاً عند عامّة العقلاء والأفاضل وإن كان المطلوب متحداً؛ فإنّ جماعة من المحقّقين قد اعترفوا بأنّه لم يتمّ دليل من الدّلائل على إثبات الواجب، وذلك إنّ الدّلائل التي ذكروها مبنيّة على بطلان التّسلسل ولم يتمّ برهان على بطلانه[1] فإذا لم يتمّ دليل على هذا المطلب الجليل الذي توجّهت إلى الاستدلال عليه كافّة الخلائق فكيف يتمّ على غيره ممّا توجّهت إليه آحاد المحقّقين وإن كان المراد به ما كان مقبولاً بزعم المستدل به واعتقاده فلا يجوز لنا تكفير الحكماء والزنادقة ولا تفسيق المعتزلة والأشاعرة ولا الطعن على من ذهب إلى مذهب يخالف ما نحن عليه، وذلك أنّ أهل كل مذهب استندوا في تقوية ذلك المذهب إلى دلائل كثيرة من العقل وكانت مقبولة في عقولهم معلومة لهم ولم يعارضها سوى دلائل العقل لأهل القول الآخر أو دلائل النّقل وكلاهما لا يصلح للمعارضة على ما قلتم لأنّ الدليل النّقلي يجب إمّا تأويله أو طرحه ودليل العقل لهذا الشخص لا يكون حجة على غيره لأنّ عنده مثله ويجب عليه العمل بذاك، مع أنّ الأصحاب رضوان الله عليهم ذهبوا إلى تكفير الفلاسفة ومن يحذو حذوهم وتفسيق أكثر طوائف الإسلام، وما ذاك إلا لأنهم لم يقبلوا منهم تلك الدلائل ولم يعدّوها من دلائل العقل.

---

(١) ليت شعري أي برهان لم يتم على بطلان التسلسل؟ فلو فرضنا أنّه لم يتم دليل عقلي على إثبات الواجب فبأي دليل يستدل المصنف رحمه الله وأمثاله على إثبات الصانع والحق إنّ كلمات المصنف رحمه الله في المقام بأسرها في غاية السقوط.
ولا يخفى على القارىء العزيز أنّ طريقة الأخباريين من علمائنا مأخوذة من مسلك الظاهريين من حشويّة العامة كما هو غير خفي على من لاحظ آراءهم وقد دحض شبهاتهم الوحيد البهبهاني رحمه الله في مصنفاته الممتعة والشيخ الأكبر كاشف الغطاء رحمه الله أيضاً في تصانيفه الثمينة ولا سيما في كتابه (الحق المبين) المطبوع فراجع.

فإن قلت فعلى ما ذكرت من عدم الاعتماد على الدليل العقلي فلا يكون معتبراً بوجه من الوجوه، قلت بل الدّليل العقلي ينبغي تقسيمه إلى أقسام ثلاثة:

الأول: ما كان بديهيّاً ظاهراً في البداهة ولا يعارضه آخر مثل الواحد نصف الاثنين وما في درجته من البديهيّات.

الثاني: ما كان دليلاً عقليّاً عارضه نقلي إلّا أنّ ذلك العقليّ قد تعاضد مع نقلي آخر فهذا أيضاً يترجّح على الدليل النقلي عند التعارض ولكن التعارض في الحقيقة إنّما هو بين النقليّات، وذلك كما دل الدليل العقلي على أنه تعالى ليس في مكان، ودلّ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، على المكان ظاهراً فيجب ترجيح ذلك العقلي لتأيّده بالنّقليّات الدالّة على أنّه تعالى منزه عن الكون والمكان.

الثالث: ما تعارض فيه محض العقل والنّقل من غير تأيّد بالنّقل فهذا لا نرجّح فيه العقل بل نعمل بالنّقل ولا تستغرب مثل هذا فإنّه مدلول الأخبار الصحيحة الصريحة فيه، وذلك أنّهم عليهم السلام قد نهوا عن الاعتماد على العقول لأنّها ضعيفة لا تدرك الأحكام ولا عللها وما حصل محققو أصحابنا رضوان الله عليهم دلائلهم العقليّة إلّا بسبب ورود النّقل بمضمونها فأيّدوا النقل بذلك الدليل لكنّهم في كثير من المواضع يهملون مثل هذا ويعوّلون على العقل ويطرحون النقل لأجله، والحاصل أنّ لذات الدّنيا هذه كلها خيالات، ولذا قال الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أنّ جمعنا فيه قيل وقال
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال

فهذه أحوال لذّات الدنيا المحلّلة وأمّا لذّاتها المحرمة فعليها عقاب الدارين.

وأمّا الزّنا فقد تقدّم بعض أحواله، وروي عن الباقر عليه السلام أنّه قال لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السّارق وهو مؤمن، ومعناه في حديث آخر أنّ روح الإيمان تفارقه ما دام على بطن المرأة فإذا قام من بطنها رجعت إليه؛ وأمّا وباله الراجع إليه فهو أنّ الزّاني على ما روي أنّه لا يزني إلّا وقد زني به أو يزنى به وإن زنى بأولاد النّاس ولاط بهم زني بأولاده وليط بهم، وإن زنى بنساء الناس زني بامرأته.

روي أنّه كان في زمن داود عليه السلام رجل فاسق؛ فأتى يوماً إلى امرأة فجبرها على الزّنا فلمّا قعد على بطنها أُلهمت تلك المرأة أن قالت له أنت تزني بي وفي هذه السّاعة رجل يزني بامرأتك، فقام ومضى إلى بيته فرأى رجلاً يزني بامرأته فأخذه إلى داود عليه السلام وحكى له أنّه كان يزني بامرأته فأوحى الله تعالى إليه يا داود قل له كما تدين تدان:

كما يدين الفتى يوماً يدان به من يزرع الثّوم لم يحصده ريحانا

وذلك كلّه مع النّدامة التي تلحقه بعد الفراغ من الزنا إن كان له شيء من الإيمان.

وأمّا الخمر وما ورد فيه من الوعيد في الكتاب والسنّة فهو كثير حتى إنّ الله تعالى قرن الخمر بعبادة الصّنم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] وفي الحديث إنّ شارب الخمر كعابد الوثن؛ وقال عليه السلام لعن الله الخمر وغارسها وساقيها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه ومشتريها وبائعها وآكل ثمنها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام لو أنّ قطرة من الخمر قطرت في بئر ونزح ماء من ذلك البئر وسقي به أرض فأنبتت حشيشاً ويبس ذلك الحشيش، ثمّ إنّ شاة رعت من ذلك الحشيش فاختلط فيه قطيع غنم واشتبهت ثمّ ذبحت تلك الشياه كلّها لم آكل من لحومها شيئاً وقال عليه السلام لا تجالسوا شارب الخمر ولا تزوّجوه ولا تزوّجوا إليه، وإن مرض فلا تعودوه وان مات فلا تشيّعوه، وإنّ شارب الخمر يجيء يوم القيامة مسودّاً وجهه مزرقة عيناه، مائلاً شدقه سائلاً لعابه، دالعاً لسانه من قفاه.

وقال صلى الله عليه وآله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر، وقد روي أيضاً تحريم النظر إلى الخمر، ولكونه من الخبائث المحرّمة ورد عنه عليه السلام أنّ من ترك شرب الخمر لغير وجه الله تعالى بل حفظاً لبدنه أو عرضه سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم، مع أنّ الذنوب لا يثاب عليها تاركها إلّا إذا كان التّرك لوجه الله تعالى.

واعلم أنّه على ما يحكي عنه شاربوه من أنّ فيه النّتن والعفونة، وأنّ الجرعة منه إذا وصلت إلى الحلقوم وانتهت إلى الجوف تكون كجرّة السكّين من الحلق إلى الجوف لو كان حلالاً لما شربه أحد مع هذه الأوصاف التي عدّوها فيه؛ لكن الشيطان يقوي عزائم أوليائه، مع ما روي من قوله عليه السلام من بات سكراناً بات عروساً للشيطان فمن كان الشيطان يلوط به فيا سوء حاله ويا حزن باله.

وأمّا السرقة فالمهانة المرتبة عليها ظاهرة، حتى إنّ اليد التي قيمتها خمسمأة دينار قد أذلّها الله سبحانه في باب السرقة حتى إنّه أمر بقطعها بربع الدينار، فقال المعري شعراً[١]، معترضاً به على الحكمة الإلهيّة وذلك أنّه قيل فيه الزّندقة:

يد بخمس مئين عسجد فديت ما بالها قطعت في ربع دينار

فأجابه المرتضى طيّب الله ثراه:

حراسة النفس (عز الأمانة خ) اغلاها وأرخصها

خيانة المال (ذل الخيانة خ) فافهم حكمة الباري

وحكي أنّ رجلاً أُخرج من السجن في رجله قيد وهو يسأل الناس، فقال لإنسان أعطني كسرة خبز، فقال لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك، وأمثال هذه المعاصي هي فخوخ[٢] الشيطان ومصائده.

كما روي أنّ إبليس كان يأتي الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم إلى أن بعث الله المسيح يتحدّث عندهم ويسائلهم ولم يكن بأحد منهم أشدّ أُنساً منه بيحيى بن زكريا عليه السلام فقال له يحيى يا أبا مرة أُحب أن تعرض عَليّ مصائدك وفخوخك التي تصايد (تصطاد خ) بها بني آدم، فقال له إبليس حبّاً وكرامة وواعده لغد، فلمّا أصبح يحيى عليه السلام قعد في بيته ينتظر الموعد وأغلق عليه اغلاقاً فما شعر حتى أتى إليه من خوخة[٣] كانت في بيته، فإذا وجهه صورة وجه القردة، وجسده على صورة الخنزير؛ وإذا عيناه مشقوقتان طولاً وفمه مشقوق طولاً، وإذا أسنانه عظم واحد بلا ذقن ولا لحية، وله أربعة أيد: يدان في صدره، ويدان في منكبه وإذا عراقيبه[٤] قوادمه وأصابعه خلفه

---

(١) أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان المعري ولد بمعرة النعمان في عام (٣٦٣هـ) وتوفي عام (٤٤٩) والبيت الأول كما صرح هو نفسه في كتابه (لزوم ما لا يلزم) هو هذا البيت:

تناقض ما لنا إلا السكوت به وأن نعوذ بمولانا من النار

ثم يقول:

يد بخمس مئين الخ فما في بعض الكتب أنّ البيت الأول هو قوله:

يد بخمس الخ لا وجه لهـ انظر لزوم ما لا يلزم ج ١ ص ٣٩١ ط ٢ مصر سنة (١٣٤٨هـ. ق).

(٢) الفخ آلة يصاد بها جمع فخاخ وفخوخ ويقال: وثب فلان من فخ الشيطان أي تاب.

(٣) الخوخة كوة تؤدي الضوء إلى البيت. الباب الصغير في الباب الكبير.

(٤) العرقوب عصب غليظ فوق العقب. ج عراقيب.

وعليه قباء وقد شدّ وسطه بمنطقة فيها خيوط معلّقة بين أحمر وأصفر وأخضر وجميع الألوان، وإذا بيده جرس عظيم وعلى رأسه بيضة، وإذا في البيضة حديدة معلّقة شبيهة بالكلّاب، فلمّا تأمّله يحيى عليه السلام قال له ما هذه المنطقة التّي في وسطك؟ فقال هذه المجوسيّة التي سننتها وزيّنتها لهم، فقال له ما هذه الخيوط الألوان؟ قال هذه أصباغ النساء لا تزال المرأة تصبغ الصّبغ حتى تقع مع لونها فيفتتن الناس بها، فقال له فما هذا الجرس الذي بيدك؟ قال مجمع كل لذّة من طنبور وبربط ومعزفة وطبل وناي وصرناي؛ وإنّ القوم ليجلسون على شرابهم فلا يستلذّونه فأُحّرك الجرس فيما بينهم فإذا سمعوه استخفهم الطرب، فمن بين من يرقص، ومن يفرقع أصابعه ومن بين من يشقّ ثيابه.

فقال وأيّ الأشياء أقرّ لعينك؟ قال النساء هنّ فخوخي ومصائدي فإنّي إذا اجتمعت عليّ دعوات الصالحين ولعناتهم صرت إلى النساء فطاب نفسي بهنّ فقال له يحيى عليه السلام فما هذه البيضة التي على رأسك؟ قال بها أتوقّى دعوات المؤمنين، قال فما هذه الحديدة التي أرى فيها؟ قال بهذه أقلب قلوب الصالحين، قال يحيى عليه السلام فهل ظفرت بي ساعة قطّ؟ قال لا ولكن فيك خصلة تعجبني، قال يحيى فما هي؟ قال أنت رجل أكول فإذا أفطرت أكلت وشبعت فيمنعك ذلك من بعض صلاتك وقيامك باللّيل؛ قال يحيى عليه السلام فإنّي أُعطي الله عهداً أنّي لا أشبع من الطعام حتى ألقاه، قال له إبليس وأنا أُعطي الله عهداً أني لا أنصح مسلماً حتى ألقاه. ثم خرج فما عاد إليه بعد ذلك، فهذه فخوخه.

وأمّا دواء جراحاته فروى الفضل بن شاذان في تفسير مولانا الحسن العسكري عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا فاذكروا يا أُمّة محمّد محمّداً وآله عند نوائبكم وشدائدكم لينصر الله به ملائكتكم على الشياطين الذين يقصدونكم؛ فإنّ كلّ واحد منكم معه ملك عن يمينه يكتب حسناته، وملك عن يساره يكتب سيّئاته، ومعه شيطانان من عند إبليس يغويانه، فمن يجد منكم وسواساً في قلبه وذكر وقال لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين خنس[1] الشيطانان فأتيا إلى إبليس فشكواه وقالا له قد أعيانا أمره فامددنا بالمردة، فلا يزال يمدّهما بألف مارد، فيأتونه فكلّما راموه وذكر الله وصلى على محمّد وآله الطّيبين لم

(١) خنس عنه تأخر وتنحى وانقبض.

يجدوا عليه طريقاً ولا منفذاً قالوا لإبليس ليس له غير أنّك تباشره بجنودك فتغلبه وتغويه، فيقصده إبليس بجنوده؛ فيقول الله تعالى للملائكة هذا إبليس قد قصد عبدي فلاناً أو أمتي فلانة بجنوده فقابلوه، فيقابلهم بإزاء كلّ شيطان رجيم منهم مائة ألف ملك وهم على أفراس من نار بأيديهم سيوف من نار ورماح من نار وقسي ونشاشيب وسكاكين وأسلحتهم من نار، فلا يزالون يخرجونهم ويقتلونهم بها ويأسرون إبليس فيضعون عليه الأسلحة، فيقول يا رب وعدك وعدك قد أجّلتني إلى يوم الوقت المعلوم، فيقول الله عزّوجلّ للملائكة وعدته لا أميته ولم أعده أن لا أسلّط عليه السّلاح والعذاب والآلام اشتفوا منه ضرباً بأسلحتكم فإنّي لا أميته؛ فيثخنونه بالجراحات ثمّ يدعونه فلا يزال سخين العين على نفسه وأولاده المقتلين (المتقدّمين خ) ولا يندمل شيء من جراحاته إلّا بسماع أصوات المشركين بكفرهم، وإن بقي على طاعة الله وذكره والصلاة على محمد وآله بقي على إبليس تلك الجراحات، وإن زال العبد عن ذلك وانهمك في مخالفة الله عزّوجلّ ومعاصيه اندملت جراحات ابليس، ثم قوي على ذلك العبد حتى يلجمه ويسرجه على ظهره ويركبه ثم ينزل عنه ويقول ظهره لنا الآن متى أردنا نركبه، وهذا الملعون قد تصدّى لإضلال المؤمنين في بلدانهم قبل خلقهم.

روى الصدوق رحمه الله باسناده قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لمّا أسري بي إلى السّماء حملني جبرائيل عليه السلام على كتفه الأيمن فنظرت إلى بقعة بأرض الجبل حمراء أحسن لوناً من الزعفران، وأطيب ريحاً من المسك، فإذا فيها شيخ على رأسه برنس، فقلت لجبرائيل ما هذه البقعة الحمراء؟ قال بقعة شيعتك وشيعة وصيّك عليّ؛ فقلت من الشيخ صاحب البرنس؟ قال إبليس، قلت فما يريد منهم، قال يريد أن يصدّهم عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ويدعوهم إلى الفسق والفجور، فقلت يا جبرائيل أهوِ بنا إليهم، فأهوى بنا إليهم أسرع من البرق الخاطف، فقلت قم يا ملعون فشارك أعداءهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم فإنّ شيعتي وشيعة علي ليس لك عليهم سلطان فسمّيت تلك البلاد قم لذلك.

وقوله صلى الله عليه وآله ليس لك عليهم سلطان يعني به التّسلّط الذي يخرجهم به من الإيمان إلى الكفر كما هو حاله مع غيرهم، وأمّا إيقاعهم في المعاصي فلا يقال له سلطان وذلك لأنّهم يتداركونه بأمور كثيرة.

كما روي أنّ رجلاً أتى الصادق عليه السلام فقال له إنّ جماعة من مواليك وشيعتك قد

انهمكوا في المعاصي فما حالهم في القيامة؟ فقال عليه السلام يتوبون بعد المعصية فيغفر الله لهم، فقال ربّما لم يتوبوا، فقال إنّ الله سبحانه يبتليهم بالأوجاع والأمراض ونقص من الأموال والأولاد ليكون كفّارة لذنوبهم، فقال الرجل ربّما لم يبتلوا بهذه، فقال لعلّهم يبتلون بسلطان جائر يؤذيهم فيكون كفّارة لذنوبهم، فقال ربّما لم يكن ذلك قال عليه السلام فإن لم يكن ذلك ابتلوا بجار يؤذيهم فيكون كفارة لذنوبهم، قال ربّما لم يكن ذلك. قال إن لم يكن ذلك فقد يبتلون بامرأة سوء تؤذيهم فيكون إيذاء تلك الزّوجة كفارة لذنوبهم، فقال ربّما لم يكن ذلك فغضب عليه السلام، فقال إذا لم يكن واحد من هذا كلّه أدركتهم شفاعتنا وينجيهم من أهوال القيامة رغماً على أنفك.

أقول ما أدري ما يقول الناظر في هذه المكفّرات للذنوب من أنّ أيّها أعظم مصيبة على الإنسان، قال بعض المحققين أشدّ هؤلاء هو زوجة السوء أخت الشيطان وأمّه، ولمّا أتى جبرائيل عليه السلام إلى لوط لعذاب أمته وصنعت امرأة لوط ما صنعت من إخبار فسّاق أمّته بأن عند لوط ضيفان، قال جبرائيل له يا لوط أنت نبيّ فكيف تكون هذه امرأتك؟ فقال له لوط عليه السلام يا جبرائيل إنّ الله سبحانه أوحى إليّ أن يا لوط لا بدّ لكلّ واحد من أوليائي من شخص يؤذيه في الدنيا لرفع درجاته في الجنّة فاختر من شئت، فاخترت أن يكون المؤذي لي زوجتي، واختياره عليه السلام لها إشارة إلى ما قلناه من أنّها أعظم مصيبة من كل المصائب ولهذا اختارها لوط عليه السلام لأنّ الأنبياء لا يختارون إلّا ما كان أكثر ثواباً وأشقّ وأشدّ من غيره فلو كان هناك مصيبة أو هائلة تعادلها لطلبها لوط عليه السلام، وهكذا وقع مثل هذا لنوح عليه السلام حتى ضرب الله سبحانه مثل تلك المرأتين في القرآن إشارة إلى هاتين المرأتين وهما زوجتا نبيّنا صلى الله عليه وآله فقد صنعتا صنعاً يزيد على صنع المرأتين الأوليين، لقوله صلى الله عليه وآله يجري في هذه الأُمة ما جرى في الأُمم السابقة حذو النعل بالنّعل والقذّة بالقذّة.

وفي الروايات عن عليّ عليه السلام قال كنت جالساً عند الكعبة فإذا شيخ محدودب، فقال يا رسول الله ادعُ لي بالمغفرة، فقال النّبي صلى الله عليه وآله خاب سعيك يا شيخ وضلّ عملك قال عليّ عليه السلام فلمّا ولّى قلت يا رسول الله من هذا؟ قال إبليس لعنه الله، فعدوت خلفه حتّى لحقته وصرعته إلى الأرض وجلست على صدره، ووضعت يدي على حلقه لأخنقه، فقال لي لا تفعل يا أبا الحسن فإنّي من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، والله يا عليّ لأُحبّك جداً وما أبغضك أحد إلّا شركت أباه في أمّه فصار ولد زنا، فضحكت وخلّيت سبيله. هذا كان دأب الشيطان في التّردد إلى الأنبياء عليهم السلام وسؤالاتهم.

روى الصدوق قدس الله روحه بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال إنّ إبليس قال لعيسى بن مريم عليه السلام أيقدر ربّك على أن يدخل الأرض بيضة لا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة؟ فقال عيسى عليه السلام ويلك إنّ الله لا يوصف بالعجز ومن أقدر ممّن يلطف الأرض ويعظم البيضة. وهذا الحديث يبيّن معنى الحديث الّذي رواه الكليني رحمه الله عن محمّد بن إسحاق قال إنّ عبدالله الدّيصاني سأل هشام بن الحكم فقال له ألك ربّ؟ فقال بلى؛ قال أقادر هو؟ قال نعم قادر قاهر، قال يقدر أن يدخل الدنيا كلها البيضة لا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا؟ قال هشام النظرة فقال له قد أنظرتك حولاً؛ ثم خرج عنه فركب هشام إلى أبي عبدالله عليه السلام فاستأذن عليه فإذن له، فقال له يابن رسول الله أتاني عبدالله الديصاني بمسألة ليس المعول فيها إلا على الله وعليك؛ فقال له أبو عبدالله عليه السلام عمّاذا سألك قال فقال لي كيت وكيت، فقال أبو عبدالله عليه السلام يا هشام كم حواسّك؟ قال خمس قال قال أيّها أصغر قال الناظر؛ قال وكم قدر الناظر؟ قال مثل العدسة أو أقلّ منها، فقال يا هشام فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بما ترى؟ فقال أرى سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وبراري وجبالاً وانهاراً، فقال له أبو عبدالله عليه السلام إنّ الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقل منها قادر أن يدخل الدنيا كلها البيضة لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة، فأكبّ هشام عليه وقبّل رأسه ورجليه وقال حسبي يابن رسول الله وانصرف إلى منزله. وبمضمون الحديث الأول روى عن الصادق عليه السلام قال قيل لأمير المؤمنين عليه السلام هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة، قال إنّ الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذي سألت لا يكون.

وروى البزنطي عن الرضا عليه السلام قال سأله رجل هل يقدر ربّك أن يجعل السماوات والأرض وما بينهما في بيضة؟ فقال نعم وفي أصغر من البيضة؛ وقد جعلها في عينك وهي أقل من البيضة لأنّك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما ولو شاء لأعماك عنها.

أقول حديث عيسى وحديث أمير المؤمنين عليه السلام يدلاّن على أنّ مثل هذا لا يكون وهذا لا يقدح في القدرة الكاملة، وذلك أنّه محال في نفسه فلا حظّ له من الشيئيّة التي اتّصف سبحانه بأنّه على كل شيء قدير، وقد قرّر المحقّقون أنّ شرط صدور الأثر قدرة الفاعل وقابليّة الأثر للصدور والأمور المحالة لا قابليّة لها فالنّقص إنّما هو فيها لا في القدرة لأنّ الأثر ما لم يكن ممكناً لم يدخل في حيّز الوجود، ألا ترى أنّه تعالى لم يتّصف بالقدرة على خلق الشريك لعدم قابلية الشريك لأن يدخل في

عالم الموجودات وكذلك أنّه تعالى لا يكذب ولا يظلم وليس هو لعدم القدرة بل لعدم قابليّتها للصدور فهذا محال بالنظر إلى الغير وما نحن فيه محال بالنظر إلى نفسه وإلى هذا أشار عيسى بن مريم عليه السلام بقوله ومن أقدر ممّن يلطف الأرض، ويعني أنّ تلطيف الأرض وترقيقها حتى تدخل في البيضة وإن كان أمراً عظيماً لكنّه لمّا اتّصف بالإمكان جرى تحت القدرة الكاملة(١) وأمّا حديث الصادق والرضا عليهما السلام فيمكن حملهما على وجوه:

الأول: إنّ الأئمّة عليهم السلام قد أوتوا جوامع الكلم وتكليم الناس على قدر عقولهم وإجابة السائل بما يرضيه ومصلحة الأحوال؛ ولمّا كان صلاح الحال والوقت اقتضى الجواب الإقناعي لأنّه يرضي الخصم ويكسر شبهته أجابا عليهما السلام به، ولو قالا لا يكون ما سألت لبقي السائل على عناده كما هو المعتاد في هذه الأعصار.

الثاني: إنّ الديصاني سأل عن الإدخال من غير التفات إلى إدخال عين الكبير أو صورته، فأجابا عليهما السلام بأنّ لهذا النحو من الإدخال مصداقاً وهو إدخال الصورة المحسوسة المقدّرة بالمقدار الكبير بنحو الوجود الظلّي في الحاسة؛ ولا استحالة فيه إذ كون الصورة الكبيرة فيها بالوجود الظلّي لا يوجب اتّصافها بالمقدار الكبير، ولما كان منظور السائل ما يشمل هذا النحو من الإدخال لم يقل بعدما سمع الجواب مرادي الإدخال العيني.

الثالث: ما قيل إنّ المراد أنّ من قدر على هذا الإدخال قدر على ذلك الإدخال لأنّه من بابه فيكون حكاية العدسة من باب التنظير وهو بعيد لعدم موافقته لحديثي عيسى وأمير المؤمنين عليهما السلام إلّا بارتكاب تكلّف في معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام والذي سألت لا يكون بأنّ يكون بمعنى يوجد، يعني أنّ الذي سألت عنه وإن كان ممكناً لكنّه لا يوجد إذ ليس كل ممكن يدخل في حيز الوجود لما عرفت. وهذه المسألة تسمّى المسألة الشيطانيّة وذلك أنّ الشيطان أوّل من اخترعها لامتحان الانبياء عليهم السلام، وحاشا حجج الله سبحانه عن العجز والإفحام، مع أنّه قد حصل له من هذا السؤال ما أعمى عينه وذلك أنّه ورد في الرواية أنّ الشيطان أول ما سأل بها إدريس عليه السلام فأتى إليه وهو يخيط في مسجد الكوفة(٢) وقال له يا إدريس أيقدر ربّك

(١) ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب بحثاً شريفاً حول هذه المسألة وذكرنا ما هو التحقيق فيها انظر ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠٣ من هذا الكتاب.

(٢) في النسخ المطبوعة (مجلس الكوفة) والصحيح: (مسجد الكوفة) كما في النسخة المخطوطة.

أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تكبر البيضة وتصغر الدنيا؟ فقال له إدريس عليه السلام أدن مني حتى أجيبك، فلما دنا منه أهوى بالإبرة التي يخيط بها إلى عينه فعورها؛ قال ربّي قادر على هذا فصار الشيطان أعور من ذلك اليوم، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولعنة الله على كل عدو من الأعداء إلى يوم الدين بحق محمد وآله الغرّ الميامين الطيبين الطاهرين. هذا تمام الكلام في الجزء الأول ولنذكر المنجيات وتوابعها بأنوار أُخرى والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

هذا آخر المجلد الأول من الكتاب ويليه المجلد الثاني على حسب تجزئة السيد المصنف رحمه الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول العبد المذنب الجاني نعمت الله الحسيني الجزائري: هذا المجلد الثاني من كتاب الأنوار النّعمانية شرعنا في تأليفه بعد الفراغ من المجلد الأوّل ونرجو من الله سبحانه أن يوفّقنا لإتمامه وأن يجعله ذخيرة لإكرامه بحقّ محمد وآله الطّاهرين.

نور في التوبة وما يتعلق بها من الأحكام والمعارف

اعلم أنّ الله سبحانه قد مدح التوّابين في كتابه العزيز في آيات كثيرة وكفى بها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فلا درجة أعظم من محبة الله تعالى؛ وذلك أنّها أقصى الدرجات والأنبياء والأولياء إنّما هي غاية سعيهم لا غيرها من الجنّة ومراتبها؛ فإنّ الجنّة وما أُعدّ فيها من النعيم إنّما هي مقاصد التجّار وغاياتهم وإلاّ فأهل الهمم العالية والمطالب الغالية إنّما يطلبون محبته ورضاه.

روي عنه صلى الله عليه وآله قال بكى شعيب من حبّ الله عزّ وجلّ حتّى عمي فرد الله عزّ وجلّ عليه بصره، ثم بكى حتّى عمي فرد الله عزّ وجلّ عليه بصره، ثمّ بكى حتى عمي فردّ الله عزّ وجلّ عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى الله إليه يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؛ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أحررتك (أجرتك خ) وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك، قال إلهي وسيدي أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً

إلى جنّتك ولكن عقد حبّك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه أمّا إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران.

قال الصدوق طاب ثراه يعني بذلك لا أزال أبكي أو أراك قد قبلتني حبيباً، ولا يخفى أنّ ما قاله رحمه الله إنّ كان قد وجده في حديث فلا بأس به وإلاّ فلا يحتاج إلى صرف الكلام عن ظاهره لأنّ معناه لا اقطع البكاء إلى أن أراك بعد الموت، وحاصله إلى أن أموت وذلك أنّ لقاء الله سبحانه إنّما يكون بعد الموت، والظاهر أنّ الذي حمله رحمه الله على هذا التأويل هو قول شعيب عليه السلام: أو أراك فإن الرؤية ممتنعة عليه سبحانه ولكن هذا المجاز مشهور وقد وقع في القرآن والسنّة كثيراً قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: كيف أعبد ربّاً لم أره.

وبالجملة فالمحبة إنّما هي نهاية الدرجات وقد منحها سبحانه للتّائبين، وقال الصادق عليه السلام لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثور فصرخ صرخة بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه، فقالوا يا سيّدنا لم دعوتنا؟ قال نزلت هذه الآية فمن لها؛ قال عفريت من الشّيطان أنا لها بكذا وكذا، قال لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك، قال لست لها، قال الوسواس الخنّاس أنا لها، قال بماذا؟ قال أعدهم وأُمنّيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أُنسيهم الاستغفار، فقال أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة، وقد عرفت أنّ الله تعالى يحب المؤمن المفتن التوّاب، وقال عليه السلام ويل لمن غلبت آحاده عشراته، وذلك أنّ الواحدة من الحسنات بعشر وواحدة السيّئات بواحدة.

وقال عليه السلام لا تأتون يوم القيامة إلّا وتحت كل ذنب استغفار يكون مكتوباً في صحائف أعمالكم، وقال الإمام أبو عبدالله جعفر الصادق عليه السلام إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه في الدّنيا والآخرة، فقلت وكيف يستر عليه؟ قال ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه أن اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض أن اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب. وعنه عليه السلام: ما من عبد مؤمن مذنب إلا أجّله الله عزّ وجلّ سبع ساعات من النهار، فإن هو تاب لم يكتب عليه شيء، وإن هو لم

يفعل كتب عليه سيئة، فأتاه عبّاد البصري فقال له بلغنا أنّك قلت ما من عبد يذنب ذنباً إلّا أجّله الله سبع ساعات من النهار، فقال ليس هكذا قلت، ولكن قلت ما من مؤمن وكذلك كان قولي، وفي خبر آخر إنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، ولو لم يكن في التوبة إلا سروره سبحانه لكفى بها فضلاً وشرفاً على سائر الأعمال.

روي عنه ﷺ أنّه قال الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويّة[1] مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحرّ والعطش وما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فرجع ووضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته.

وتحقيق الكلام في التوبة يتمّ ببيان أمور: الأول في وجوبها على العبد وفي وجوب قبولها عليه تعالى، أمّا الوجوب على العبد سمعاً فهو مجمع عليه، وإنّما الخلاف في وجوبها عقلاً، فأثبته المعتزلة وهو الحق لأنّه دفع ضرر وهو واجب عقلاً، ولأنّ الندم على القبيح من مقتضيات العقل الصحيح، وذهب جماعة إلى وجوبها عن الصغائر سمعاً لا عقلاً، ولعلّهم نظروا إلى ظاهر قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؛ فإذا كانت السيّئات مكفرة فلا يترتب عليها ضرر يجب دفعه ولكن حكاية الندم على القبيح تعمّ القسمين.

وأما الوجوب الفوري فعليه المعتزلة وأصحابنا الإماميّة، وذلك لأنّ المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان فإن كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السّموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإن كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ على سبيل الفور تلافياً لبدن المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلّا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها ليتدارك النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواته العذاب المقيم، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر احتيال

(١) أي البرية.

الأطباء ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك وعظ الواعظين، ويدخل في قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]، ولا يغرّنّك إطلاق لفظ المؤمن على هذا فإنّ نيران الذنوب إذا أكلت الفروع أكلت الأصل لأنّه لا استمرار لبقاء الأصل بدون الفرع، ومن سوّف التوبة يكون على خطرين:

الأول: أن يعاجله الأجل فلا يبقى له وقت تدارك التوبة، كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[1]، قال بعض المفسرين إنّ المحتضر يقول عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب إليه وأتزود صالحاً، فيقول فنيت الأيّام، فيقول أخّرني ساعة؛ فيقول فنيت السّاعات، فيغلق عنه باب التوبة ويغرغر بروحه إلى النار ويتجرّع غصّة اليأس وحسرة الندامة، وربّما عدل به شياطين العديلة ومن ثمّ استحب تلقين المحتضر كلمات الفرج لتطرد عنه شياطين العديلة التي تعدله عن الإيمان إلى الكفر.

الثاني: أن تتراكم الذنوب على قلبه إلى أن تصير طبعاً فلا يقبل المحو، فإنّ كل معصية يفعلها الإنسان يحصل منها ظلمة في قلبه فإذا تراكمت اسودّ القلب، وعبّر عنه بالقلب المنكوس والقلب الأسود.

كما روي عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال كان أبي

---

(١) هذه الجملة الشريفة من فقرات الآية المباركة المذكورة في سورة المنافقين حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] انظر مجمع البيان ج ٥ ص ٢٩٥ ط صيدا.
قال الطبرسي رحمه الله في كتابه جوامع الجامع: ﴿مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ من للتبعيض أي انفقوا الواجب منه قبل أن يأتي أحدكم الموت فيرى دلائله ويتعذر عليه الانفاق ويتحسر على المنع ويفقد ما كان متمكناً منه: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ أي هلا أخرت موتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمان قليل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فاتصدق وقرىء ﴿وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠] عطفاً على محل فأصدق وكأنه قيل إن أخرتني أصدق وأكن وقرىء وأكون على اللفظ وعن ابن عباس تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا يقبل توبة ولا ينفع عمل وعنه ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكى وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها وقيل نزلت في مانعي الزكاة (اهـ).
انظر جوامع الجامع المطبوع في سنة (١٣٢١هـ) على الحجر بايران وقد قيّض الله تعالى في هذه الآونة الأخيرة بعض الأخيار من تجار بلدنا العزيز (تبريز) لطبع هذا التفسير النفيس بحلة رائعة وطبعة أنيقة ووفقنا لتحقيقه وتصحيحه ونسأله تعالى أن يوفقنا لاتمامه وإكماله بحق النبي صلى الله عليه وآله.

يقول ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة؛ إنّ القلب ليواقع الخطيئة فلا يزال به حتى يغلب عليه فيصير أعلاه أسفله، فإذا آل أمره إلى هذا الحال صارت ذنوبه مزيّنة في نظره فلا يرغب في التوبة بل ربما زادت في تلك المعاصي، ومن هذا ذهب جماعة من المسلمين إلى أنّه لو أخّر التوبة ساعة واحدة حصل له إثم آخر يجب التوبة منه أيضاً، ففي ساعتين أربع ذنوب وهكذا فيكون عليه في اليوم الواحد آلاف من الذنوب.

وأمّا وجوب قبول التوبة عليه سبحانه بحيث لو عاقب على الذنب بعد التوبة كان ظالماً، أو هو تفضّل يفعله سبحانه كرماً منه ورحمة بعباده فيه خلاف، فالمعتزلة على الأول، والأشاعرة على الثاني؛ وإليه ذهب الطّوسي والعلاّمة وتوقف فيه صاحب التّجريد وظاهر الأخبار وكلام الأئمة الطاهرين عليهم السلام يدلّ على الثاني سيّما كلام مولانا زين العابدين عليه السلام في السادس عشر من أدعية الصحيفة: يا إلهي لو بكيت إليك حتّى تسقط أشفار عيني، وانتحبت حتّى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشر قدماي؛ وركعت لك حتى ينخلع صلبي، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاي، وأكلت تراب الأرض طول عمري وشربت ماء الرّماد آخر دهري وذكرتك في خلال ذلك حتى يكلّ لساني ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء إستحياءً منك ما استوجبت بذلك محو سيّئة واحدة من سيّئاتي، وأمثال هذا.

وقد استدلّوا على وجوب القبول بأنّ السيّد إذا أبق عبده شهراً مثلاً ثمّ رجع نادماً كمال النّدم متأسّفاً على ما وقع منه عازماً أن لا يعود أبداً ثم إنّ المولى لم يقبل توبته بل كان مصراً على عقابه فإنّ العقلاء يذمّونه، وأجيب عنه بأنّ السيّد لو قرر معه أنّه متى أبق مدّة كذا عاقبه العقاب الفلاني فإنّه إذا رجع وعاقبه السيد ذلك العقاب الذي قرره معه فإنّه لا يستحق بذلك الذم من العقلاء، وما نحن فيه من هذا القبيل.

وفيه نظر وذلك أنّ الذي نحن فيه هو أنّ السيد إذا قال عند الناس وكتب إلى العبد الآبق بأنّك إذا رجعت عليك الأمان ولا أُعاقبك على هذا الإباق لأن أسباب الإباق ودواعيه كانت موجودة في الدار والبلاد، فإذا رجع ذلك العبد وبعد رجوعه عذّبه المولى لعدّه العقلاء من المذمومين وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنّه سبحانه قد أكثر من الكلام على قبول التوبة وعلى إسقاط الذنب عندها، والأولى في الاستدلال أن يقع على هذا النمط وكأنّه مراد المستدل وإن لم يصرح به.

الأمر الثاني: في حقيقة التوبة، وقد اختلفت فيها الأخبار والأقوال؛ أمّا الأخبار

فمنها ما روي عن الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال إنّ السّنة لكثير؛ من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال إنّ الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال إنّ يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته.

ومنها ما رواه السيّد الرضي في نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ قائلاً قال بحضرته: أستغفر الله فقال له عليه السلام ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ إنّ الاستغفار درجة العليّين وهو اسم واقع على ستّة معان: أوّلها النّدم على ما مضى، الثاني العزم على ترك العود إليه أبداً؛ الثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، الرابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها؛ الخامس أن تعمد إلى اللّحم الذي نبت على السّحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، السادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية.

ومنها ما رواه الكليني طاب ثراه بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال ما من مؤمن يفارق في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم بديع السمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلّي على محمد وآل محمد وأن يتوب عليّ، إلّا غفر الله عزّ وجلّ له؛ ولا خير فيمن يقارف في يوم أكثر من أربعين كبيرة؛ ومنها ما روي في الأخبار من أنّ التوبة هي الندم على ما سلف والعزم على أن لا يعود، إلى غير ذلك من الأخبار.

وأمّا الأقوال فمنها ما قيل إنّ التوبة ذوبان الحشا لما سبق من الفحشاء، ومنها أنّها نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب، ومنها ما قيل إنّها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء؛ ومنها ما قيل إنّها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ومنها ما قيل إنّها رجوع الآبق عن الجرم السابق، والكلام الجامع في هذا الباب ما قاله صاحب الإحياء وهو أنّ التوبة لا تحصل إلّا بحصول أمور ثلاثة:

أولها: معرفة ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد ومحبوبه وسموماً قاتلة لمن يباشرها، فإذا عرف ذلك وتيقّنه حصل له من ذلك حالة ثانية هي التألّم لفوات المحبوب والتأسّف من فعل الذنوب، وهذا التألّم والتأسّف هو المعبّر عنه بالنّدم، وإذا غلب هذا الألم حصل له حالة ثالثة هي القصد إلى أمور ثلاثة لها تعلّق بالحال

والاستقبال والماضي فالمتعلّق بالحال هو ترك ما هو مقيم عليه من الذنوب؛ والمتعلّق بالاستقبال هو العزم على عدم العود إليها إلى آخر العمر؛ والمتعلّق بالماضي تلافي ما يمكن تلافيه من قضاء الفوائت والخروج من المظالم. فهذه الثلاثة أعني المعرفة والندم والقصد إلى المذكورات أمور مترتبة في الحصول وقد يطلق على مجموعها اسم التوبة، وكثيراً ما يطلق على الثاني أعني الندم وحده ويجعل المعرفة مقدمة لها وذلك القصد ثمرة متأخّرة عنها وقد يطلق على مجموع الندم والعزم، انتهى.

أقول: ومن هنا اختلفت الأخبار والأقوال وللاختلاف وجه ألطف وأدق من هذا وهو أنّ للتّوبة درجات ومراتب وفوائد مختلفة فأقلّ درجاتها إحباط العذاب المترتب على ذلك الذنب، وهذا هو المراد من التوبة قبل المعاينة الواقعة في الحديث الأول، وأعلى درجاتها وفوائدها إسقاط العقاب والفوز بأعلى الكرامات مع الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين والعباد الصالحين، وهذا لا يكون بمجرد التوبة قبل المعاينة بل لا بد فيه من إتعاب البدن وإعماله في الأعمال، وهذا هو التوبة التي قالها أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث نهج البلاغة وعليها يحمل ما ورد عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال التّائب إذا لم يستبن عليه أثر التوبة فليس بتائب، يرضي الخصماء ويعيد الصلوات ويتواضع بين الخلائق، ويقي نفسه عن الشهوات ويهزل رقبته بصيام النهار، ويصفر لونه بقيام اللّيل، ويخمص بطنه بقلّة الأكل، ويقوّس ظهره من مخافة النّار ويذيب عظامه شوقاً إلى الجنّة، ويرق قلبه من هول ملك الموت، ويجفّف جلده على بدنه بتفكّر الآخرة، فهذا أثر التوبة فإذا رأيتم العبد على هذه الصفة فهو تائب ناصح لنفسه.

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال جاءت امرأة إلى النّبي صلى الله عليه وآله فقالت يا نبيّ الله امرأة قتلت ولدها هل من توبة؟ فقال لها والذي نفس محمّد بيده لو أنّها قتلت سبعين نبيّاً ثمّ تابت وندمت ويعرف الله من قلبها أنّها لا ترجع إلى المعصية أبداً لقبل الله توبتها وعفا عنها، فإنّ باب التّوبة مفتوح ما بين المشرق والمغرب وإنّ التّائب كمن لا ذنب له.

وأمّا أوسط درجاتها وفوائدها فهي كثيرة متفاوتة فمن تاب قبل موته بسنة وتلافى في تلك السنة مساوىء أعماله وأقبل على ما يوجب تصحيح آماله كان له من الدرجة أعلى ممّن تاب قبل موته بشهر؛ وكذا من تاب قبل موته بشهر بالنّسبة إلى من تاب

قبل موته بجمعة؛ وهكذا. ومقصودهم عليهم السلام ترغيب الخلائق في التوبة وبيان أنّ التوبة مقبولة في كل حين إلّا أن يغرغر بروحه وتعاين الموت وأسبابه، فإنّ الأمور تصير عندها ضرورية وتكون حينئذ ملجأة إلى التوبة، فمن هذا أُغلق عنها بابها.

قال بعض المفسرين ومن لطف الله بالعباد أن أمر قابض الأرواح بالابتداء في نزعها من أصابع الرجلين ثم يصعد شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى الصدر ثمّ ينتهي إلى الحلق ليتمكن في هذه المهلة من الإقبال بالقلب على الله والوصيّة والتّوبة ما لم يعاين والاستحلال وذكر الله سبحانه فيخرج روحه وذكر الله على لسانه فيرجى بذلك حسن خاتمته وفّقنا الله وإياكم للتّوبة.

فإن قلت ذكرت أنّ النّدم وهو تألّم القلب إما هو التّوبة أو أعظم أجزائها، وهذا التألّم لا يكون بالاختيار فكيف يوصف بالوجوب، قلت إنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب والتفكّر فيما يترتب على ذلك الذنب من العقاب، فكلما تفكر وحقق العلم زادت نيران قلبه واشتعلت، وتحقيق هذا العلم وزيادة التفكر أمران اختياريّان فمن هذا وصف التألّم بالوجوب لمكان الاختيار في أسبابه، فصار الحاصل هو أنّ العاقل التائب ينبغي أن تكون توبته ممّا يوجب المقامات العالية، بل ذكر بعض المحقّقين أنّ التوبة واجبة في الأوقات على جميع الأشخاص، وذلك أنّ الإنسان لا يخلو عن اتباع الشهوات وكل شهوة فعلها يرتفع منها ظلمة إلى القلب كما يرتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة؛ فإن تراكمت ظلمة الشهوات، صارت رينا كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وإذا تراكم الرين صار طبعاً على القلب كالخبث على وجه المرآة، ولا يكفي في إزالة اتباع، (انطباع خ) تلك الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بدّ من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصورة في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام أتبع السيّئة الحسنة تمحها. فإذن لا يستغني العبد في حال من الأحوال عن محو آثار السيّئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضادّها وهذا الواجب ليس من باب الواجب الشرعي الذي يلزم من وجوبه في كل الأوقات تعطيل المعايش والمكاسب وخراب الدّنيا، بل هو الواجب بالمعنى الثاني وهو الوجوب الشرطي كما يقال الوضوء واجب لصلاة

النافلة، يعني لا يمكن التوصّل إلى فعل النافلة إلا به، فكذا ما نحن فيه، وهو أنّه لا يمكن التوصّل إلى درجات المقربين إلا به فمن أرادها توصّل إلى تحصيلها به، ومن رضي لنفسه بالدرجات الناقصة كان كمن اقتصر على الصلاة الواجبة وترك النافلة؛ فليس عليه عذاب وإنّما حرم من جزيل الثواب.

وللنّظر إلى هذا رفض الأولياء ملاذّ الدنيا بالكلّية، حتى إنّه روي أنّ عيسى عليه السلام توسّد في منامه حجراً فجاء إليه الشيطان فقال له أما كنت تركت الدنيا للآخرة، فقال نعم وما الذي حدث؟ قال توسّدك بهذا الحجر تنعّم بالدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؛ فرمى عيسى عليه السلام الحجر ووضع رأسه على الأرض؛ فكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم مع أنّه يعلم أنّه ليس واجباً؛ وكذلك نبيّنا صلى الله عليه وآله لما ثني له الكساء الذي ينام عليه فلما أصبح قال إنّ هذا منعني عن المبادرة إلى القيام للعبادة.

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبكِ العاقل فيما بقي من عمره إلّا على فوت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يجزيه ذلك إلى الممات، فكيف من يشتغل فيما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؛ وذلك أنّ العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بكى على ضياعها، فإن صار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه أشدّ، وكل ساعة من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها ولا بدل عنها؛ فإذا ضيّعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً. روي أنّ ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنّه قد بقي من عمره ساعة، وأنّه لا يستأخر عنها فيبدو للعبد من الأسف ما لو كانت له الدنيا كلها لخرج منها على أن يضمّ إلى الساعة ساعة أُخرى يتدارك تفريطه فيها فلا يجد إليه سبيلاً، وهو أول ما يظهر من معاني قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

وإلى ما ذكرنا من الدرجات أشار ذو النّون المصري حيث قال إنّ لله عزّ وجلّ عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندماً وحزناً فجنّوا من غير جنون وتبلّدوا من غير عيّ ولا بكم، وإنّهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله عزّ وجلّ ورسوله؛ ثم شربوا بكأس الصّفاء فورثوا الصبر على طول البلاء تولّهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم في حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلّم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلى حتى أناخوا في

رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع، وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة؛ وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العزّ والكرامة؛ فانظر رحمك الله إلى غاية التوبة وأنّها أيّ غاية.

وفي كتاب الشيخ ورام إنّ ذا النّون المصري قال مررت ببعض الأطبّاء وحوله جماعة من النساء والرجال بأيديهم قوارير الماء وهو يصف لكل واحد منهم ما يوافقه فدنوت منه فسلّمت عليه فرد علي السلام؛ فقلت له صف لي دواء الذنوب يرحمك الله، فأطرق إلى الأرض ساعة وكان الطبيب عاقلاً ثم رفع رأسه، فقال يا فتى إن أنا وصفت لك تفهم؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى، فقال لي خذ عروق الفقر وورق الصبر؛ وإهليلج الخشوع وإبليلج التواضع، ألقِ الجميع في هاون التوبة ثم اسحقه بدستج التقوى، ثم ألقه في طنجير التوفيق وصب عليه من ماء الخوف، وأوقد تحته نار المحبة وحركه باصطام الحكمة حتى يرغي؛ ثم أفرغه في جام الرضا وروّحه بمروحة الحمد حتى يبرد، ثم أفرغه في قدح المناجاة ثم أمزجه بماء التوكّل وحركه بملعقة الاستغفار، ثم اشربه وتمضمض بعده بماء الورع؛ فإذا أنت فعلت هذا فإنّك لا تعود إلى ذنب أبداً.

وهذه التوبة هي التي أشار إليها رسول الله ﷺ في ذلك الحديث فقال ﷺ يا أباذر: إنّ العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنّة، قيل كيف ذلك يا رسول الله؟ قال يكون [ذلك الذنب] نصب عينيه تائباً فارّاً منه حتى يدخل الجنة. وروي أنّه كان في بني اسرائيل شاب عبدالله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال إلهي أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول أجبتنا فأجبناك؛ وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك.

واعلم أنّ التّائبين العالمين هم الفائزون، وذلك أنّ الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: الهالكون، والمعذّبون، والنّاجون، والفائزون، ومثاله من الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم من الهالكين، ويعذّب بعضهم فلا يقتلهم فهم من المعذبين، ويخلّي بعضهم فهم النّاجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلّا بالاستحقاق فلا يقتل إلّا معانداً له في الملك ولا يعذّب إلّا من قصر في خدمته مع الاعتراف

بملكه، ولا يخلّي إلّا معترفاً له بالدولة لكنّه لم يخدمه ليخلع عليه، ولا يخلع إلّا على من خدمه، وكل واحدة من هذه الدرجات الأربع متفاوتة وذلك لتفاوت أنواع العذاب والفوز:

الرتبة الأولى: الهلاك، وهم الآيسون من الرحمة الصادرة منه سبحانه، وهم المعاندون المكذّبون.

الرتبة الثانية: المعذبون وهذه رتبة من تحلّى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه وهو أنّه قد تابع هواه وشهواته وإراداته.

الرتبة الثالثة: النّاجون وهي السّلامة دون السعادة ولعل هذه الرتبة هي رتبة المجانين والبلهاء ونحوهم.

الرابعة: الفائزون وهم العارفون العاملون فهؤلاء هم السابقون وهم الذين كان قصدهم هو سبحانه لا جنّة ولا خلاصاً من نار، ولذلك قيل لرابعة العدويّة كيف رغبتك في الجنّة فقالت الجار ثمّ الدار.

الأمر الثالث: في قبول التوبة للتجزؤ كأن يتوب عن ذنب ولم يتب عن ذنب. فقال بعضهم إنّ هذه التّوبة غير مقبولة وذلك أنّ التّوبة عن الذنب إنّما تصح لقبح ذلك الذنب وقبح الذنوب كلّها علّة مشتركة بينها، فمن تاب عن ذنب وهو مرتكب غيره يكون كالكاشف عن أنّ التّوبة عن ذلك الذنب لا لقبحه بل لعلّة أُخرى؛ وأيضاً فإنّ الله سبحانه قد مدح التوّابين وقال إنّه يحبّهم ومن أحبّه الله سبحانه لم يعذّبه؛ ومن ارتكابه للذّنوب الأُخر يستحق التّعذيب والعفو غير واجب.

وقال بعض الأعلام بقبول مثل هذه التوبة ولعلّه الظاهر من الآيات والأخبار وحسن الاعتبار، والتحقيق أن نقول قول من قال إنّ التّوبة لا يصلح تجزؤها إن عنى به أنّ ترك بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فهذا خطأ لأنّ كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب كما أنّ قلتها سبب لقلّته؛ ونقول لمن قال يصحّ إن أردت به أنّ التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة والفوز كان هذا أيضاً خطأ فإنّ الفوز كما عرفت إنّما يكون بترك الجميع، ويقال في دليل من قال لا يصح وهو أن التوبة عبارة عن النّدم والمعاصي كلّها أوجاع وآلام فلا معنى لتوجّعه من ألم دون ألم فإنّ العلّة شاملة لهما، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدّنين دون الآخر؛ فإن استحال ذلك من حيث إنّ المعصية في الخمرين واحدة وإنّما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث هي مخالفة

لأمر واحدة، فيقال على هذا إنّ التّوبة عن بعض الذنوب إمّا أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة.

أمّا الأول فممكن من جهة علمه بأشدّية عذابها، كمن جنى على ابن السلطان وعلى دابّته فإنّه يعلم أنّ الأول أشدّ جرماً فيخاف منه أكثر، وقد كثر التائبون في الأعصار وليس أحد معصوماً من الذنوب سوى أهل العصمة عليهم السلام.

وأمّا الثاني فهو ممكن أيضاً لأنّ لذّة نفسه في الكبيرة أشدّ من خوفه منها؛ وأمّا الصغائر فليس له لذّة نفس فيها فيكون خوفه منها أكثر من لذّته بها.

وأما الثالث فجائز أيضاً لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشدّ من بعض وأغلظ عند الله تعالى.

الأمر الرابع: في أسباب عظم الصغيرة وهي تكون بأمور:

الأول: الإصرار ولذلك قال صلى الله عليه وآله لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار، فكبيرة واحدة أرجى للعفو من صغيرة تداوم عليها، ومثال ذلك قطرات الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صبّ عليه دفعة واحدة لم يؤثر لأنّ الصغيرة كلّما دامت عظمت في إظلام القلب، والكبيرة قلّما يتصور الإتيان بها من دون صغائر تكتنفها فإنّ الزاني قلّما يزني بغتة بل يحتاج إلى المراودة وباقي المقدّمات.

الثاني: استصغار الذنب فإنّه إذا استعظمه صغر عند الله وإذا استصغره عظم عند الله لأنّ استعظامه يدل على كراهية القلب له فلا يتأثر منه، واستصغاره يدلّ على شدّة الألفة به وهو يوجب تأثر القلب به.

الثالث: السرور بالصغيرة فإنّها تكبر عند ذلك كما يقول القائل رأيتني كيف خجلت فلاناً أو كيف نفقت عليه الكاسد؛ لأنّه ينبغي أن يكون في حزن من غلبة الشيطان عليه.

الرابع: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله له ولا يدري أنّه إنّما أُمهل مقتاً له ليزداد إثماً، فيظنّ أنّ تمكينه من المعاصي عناية من الله عزّ وجلّ به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور.

الخامس: إظهار الذنب فإنّ هذا منه خيانة (جناية خ) على ستر الله الذي أسدله عليه وتحريك لرغبة السامعين في ذلك الذنب؛ فهما جنايتان انضمّتا إلى جناية، فإن أضيف إليه حمل الغير على ذلك الفعل كان له أربع جنايات، وفي الحديث كلّ

الناس معافى إلّا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح ويكشف ستر الله ويتحدّث به، وذلك لأنّ من صفاته ستر القبيح.

السادس: أن يكون المذنب عالماً مقتدى به فإنّه قد يموت العالم ويبقى شرّه، قال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلّة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق.

بقي الكلام في موجبات الإصرار على الذنوب وفي مزيلاته. إعلم أنّ موجباته أربعة: أولها أنّ العقاب الموعود غائب ليس بحاضر والنّفس جبلت على عدم التأثّر بالأجل وهذا لا يكون إلّا من ضعف الإيمان، الثاني أنّ اللّذات الباعثة على الذنوب لذّاتها ناجزة وهي آخذة بالمخنق وقد قوي واستولى بسبب الاعتياد، والعادة طبيعة خامسة؛ والتورّع عن العاجل إلى الآجل شديد على النّفس كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

وفي الرواية أنّه تعالى خلق النّار فقال لجبرائيل اذهب فانظر إليها؛ فذهب فنظر إليها فقال وعزّتك خشيت ألاّ يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنّة فقال لجبرائيل إذهب فانظر إليها؛ فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلّا دخلها، فحفّها بالمكاره فقال لجبرائيل اذهب فانظر إليها؛ فذهب فنظر إليها فقال وعزّتك خشيت أن لا يدخلها أحد، فإذن كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخراً سببان في الاسترسال.

الثالث: أنّه ما من مؤمن مذنب إلّا والغالب على عزمه التوبة وتكفير السيّئات بالحسنات، وطول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف التوبة والتّكفير فمن حيث رجائه توفيق التّوبة ربّما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: إنّ المؤمن يعتقد أنّ عفو الله تعالى مباح للمذنبين فيذنب اعتماداً عليه.

وأمّا علاج هذه الأمور الأربعة ومزيلها فهو الفكر في كل واحد منها، أمّا الأول فبأن تتفكّر وتقول إنّ ما هو آت يأتي وما أقرب غداً للنّاظرين والموت أقرب منه، والمتأخّر إذا وقع صار ناجزاً؛ ويفكّر أنّه في الدنيا يركب البحار ويقطع القفار لأجل الربح الذي يظن حصوله واحتياجه إليه، ولو أخبره طبيب نصرانيّ بضرر الماء البارد لتركه خوفاً من الموت مع أنّ ألمه لحظة واحدة فكيف لا يقلع عن الذنب بإخبار الأنبياء عليهم السلام أنّ ألمه يبقى أبد الآباد، وكل يوم من الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيّام الدنيا وبهذا التفكّر يعالج اللذة الغالبة عليه ويقول إذا لم أقدر على ترك هذه

اللّذات الفانية في هذه الأيام القلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد، وإذا كنت لا أقدر على مفارقة زخارف الدنيا مع كدورتها فكيف أصبر على مفارقة النّعيم.

وأما تسويف التوبة فعلاجه بالفكر في أنّ أكثر صياح أهل النار من التسويف لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعلّه لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر عليه في هذا الحال، فليت شعري فهل عجز في الحال إلّا لغلبة الشهوة والشهوة لا تفارقه بل تقوى كل يوم وهو يضعف، فإذا كان وقت قوته وضعفها لا يقدر عليها فكيف يقدر عليها إذا انعكس عليه الأمر فيكون مثاله مثل من احتاج إلى قلع شجرة صغيرة لا تنقلع إلّا بمشقّة شديدة فقال أُؤخّرها ثم أعود إليها وهو يعلم أنّها كلّما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما زاد عمره ضعفت قوّته فلا حماقة أعظم من حماقته.

وأمّا انتظار عفو الله فعلاجه الفكر في أنّ العفو ليس بواجب على الله فهو كمن أنفق جميع ماله وترك نفسه وعياله فقراء فينتظر أنّ الله سيطلعه على كنز من الكنوز في أرض خربة وهذا أيضاً حماقة.

وما أحسن كلاماً وقع إلينا من سيّدنا المرتضى نور الله ضريحه، وحاصلة الاعتراض على الإنسان بأنّه إذا أذنب ذنباً يقول نرجو عفو الله فيعتمد على العفو مع أنّه تعالى لم يوجبه على نفسه، والذي أوجبه على نفسه وهو إيصال الرزق لم يصدّق الله فيه ولم يعتمد عليه، فيطلبه في البراري والبحار وهو تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ فهو سبحانه قد ضمن إيصال الرزق إلى كلّ واحد فكيف لا تعتمد عليه فيما ضمنه لك واعتمدت عليه فيما لم يوجبه على نفسه؛ ولو ضمن لك ألف دينار رجل نصراني له بعض الاعتبار بين التجار كنت تصدقه وتعتمد على ضمانه فكيف لا تعتمد على ضمان من له خزائن السمٰوات والأرض ما هذا إلا سفه وجهل.

فإن قيل هذا موقوف على الفكر فما بال القلوب هجرت الفكر وما علاج القلوب لردّها إليه، قلنا المانع لها منه أمران أحدهما أنّ الفكر في مقدمات الآخرة لداعٍ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التّفرّج والاستراحة.

وثانيهما أنّ الفكر مشغول بلذّات الدنيا في كل حين فصار عقله مسخراً لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته، وأمّا علاجهما فبأن يقول لقلبه إذا تألّمت من الفكر في أمور الآخرة فكيف لا تخاف من الألم على ورودها عليك ومواقعتها لك ونظير هذه التفكّرات.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ الإصرار إمّا فعليّ وهو المداومة على نوع واحد من الصغائر بلا توبة أو الإكثار من جنس الصغائر بلا توبة، وإمّا حكمي وهو العزم على فعل الصغيرة بعد الفراغ منها، أمّا من فعل الصغيرة ولم يخطر بباله بعدها توبة ولا عزم على فعلها فالظاهر أنّه غير مصرّ، ولعله مما تكفّره الأعمال الصالحة من الوضوء والصلاة والصيام كما ورد في الأخبار.

الأمر الخامس: الذنب إن لم يستتبع أمراً آخر يلزم الإتيان به كفى الندم والعزم على عدم العود إليه أبداً كلبس الحرير وإن تبعه أمر آخر من حقوق الله أو الناس وجب ذلك الأمر أيضاً كالعتق في الكفارة وقضاء الفوائت، وإن كان حدّاً فهو مخيّر بين أن يتوب عنه بينه وبين ربّه وهو الأولى وبين أن يقرّ به عند حاكم الشرع ليقيم عليه الحد.

وأمّا حقوق الناس المالية فيجب تبرئة الذمّة منها بقدر الإمكان، فإن مات صاحب الحق وجب الدفع إلى ورثته في جميع الطبقات، وإن بقي إلى يوم القيامة ففيه أقوال ثلاثة: الأول أنّه لآخر وارث ولو بالعموم كالإمام، الثاني أنّه ينتقل إلى الله سبحانه الثالث أنّه لصاحبه الأول وهذا هو الأصح، لما روي في الصحيح عن عمر بن يزيد عن الصادق عليه السلام قال إذا كان للرّجل على الرّجل دين فمطله حتى مات ثمّ صالح ورثته على شيء فالذي أخذ الورثة لهم وما بقي فهو للميت يستوفيه منه في الآخرة وإن هو لم يصالحهم على شيء حتى مات ولم يقض عنه فهو للميت يأخذه منه.

وأمّا حقوق النّاس الغير المالي فإن كان إضلالاً وجب الإرشاد، وإن كان قصاصاً وجب إعلام المستحق له وتمكينه من استيفائه فيقول أنا الذي قتلت أباك مثلاً فإن شئت فاعف عني، وإن كان حدّاً كما في القذف فإن كان المستحق له عالماً بصدور ما يوجبه وجب التمكين أيضاً وإن كان جاهلاً به ففي وجوب الإعلام خلاف ينشأ من أنّه حق آدمي فلا يسقط إلا بإسقاطه؛ ومن كون الإعلام تجديداً للأذى وتنبيهاً على ما يوجب البغضاء، وكلام المحقق الطوسي وتلميذه العلاّمة يعطي عدم وجوب الإعلام في هذه الصورة وهذه المذكورات من قضاء الفوائت وأداء الحقوق والتمكين من القصاص والحد لا دخل لها في حقيقة التّوبة وإنّما هي واجبات برأسها والتوبة صحيحة بدونها لكنّها تصير بها أكمل وأتم.

خاتمة هذا البحث في التوبة المؤقتة والتّوبة المجملة، وأما الأولى فهو كأن يتوب عن الذنوب سنة، وفي صحّتها خلاف والأولى عدم الصحة لأنّك قد تحقّقت أنّ

العزم على العود في المستقبل دائماً من أجزائها وهذا مناف له، وأمّا الثانية فكأن يتوب عن الذنوب على الإجمال وهو ذاكر للتفصيل فقد توقّف في صحتها الخواجا نصير الدين الطّوسي، والقول بالصّحة غير بعيد لعدم قيام الدليل على وجوب التفصيل.

نور في الحب ودرجاته وعلاماته وتوابعه وما يتعلق بذلك

إعلم أيدك الله سبحانه أنّ لفظ الحب ممّا قد اشتهر في الكتاب والسنّة وعلى ألسنة النّاس، وقد وصف الله تعالى به نفسه فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة، قال أبو رزين العقيلي يا رسول الله ما الإيمان؟ قال أن يكون الله ورسول الله أحبّ إليك ممّا سواهما.

وفي حديث آخر لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما وقال ﷺ أحبّوا الله كما يغذوكم به من نعمة وأحبّوني لحب الله، وروي أنّ رجلاً قال يا رسول الله إني أحبّك، فقال عليه السلام إستعد للفقر، فقال إنّي أحبّ الله، فقال استعدّ للبلاء. والحب هو ميل الطبع إلى الشيء الملتذ فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمّي عشقاً، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فإذا قوي سمّي مقتاً، وحيث إنّ الحب مقول بالاشتراك بين حب الله سبحانه وبين حب النّاس لمحبوبهم مع أنّ محلّهما واحد وهو القلب فلا بأس بالإشارة إلى بيان مراتبه وتطبيق كل مرتبة من مراتب حب الناس على مراتب حب الله تعالى، لما اشتهر من قولهم المجاز قنطرة الحقيقة؛ ولأن الألفة بهذه المراتب مألوفة لأكثر النّاس بخلاف مراتب حبّه تعالى فإنها ليست مأنوسة إلّا لمن ارتضاه الله تعالى.

فاعلم أولاً أنّ الحب على ما عرفه بعضهم هو إيثار المحبوب على سائر المصحوب وقيل هو ميلك إليه بكلّيتك وإيثارك له على نفسك وموافقتك له سراً وجهراً، وقيل المحبة محو المحبّ بصفاته وإيثار المحبوب بذاته، وقيل هي هتك الأستار وكشف الأسرار وقيل هو محو الأشباح وذوب الأرواح، وفي بعض الكتب القديمة الحب سرّ روحاني يهوي من عالم الغيب إلى القلب، ولذلك سمّي هوى، من هوى يهوي إذا سقط، ويسمّى بالحب لوصوله إلى حبّة القلب التي هي منبع الحياة؛ وإذا اتّصل بها سرى مع الحياة في جميع أجزاء البدن وأثبت في كل جزء صورة المحبوب.

كما حكي عن الحلاّج أنّه لما قطعت أطرافه كتب في مواقع الدم الله الله قال هو:

ما قدّ لي عضو ولا مفصل إلاّ وفيه لكم ذكر

وهكذا حكي عن زليخا أنّها افتصدت فارتسم من دمها على الأرض يوسف يوسف وأمّا ما اشتهر من قولهم: المجاز قنطرة الحقيقة فقد أشار إليه الشيخ كمال الدين عبد الرزاق في شرح منازل السائرين حيث قال العشق النظيف أقوى في تلطيف السرّ، والإعداد للعشق الحقيقي فإنه يجعل الهموم هماً واحداً ويقطع توزع الخاطر وتفرّقه، ويلذّذ خدمة المحبوب ويسهل التّعب والمشقّة في طاعته، بخلاف العشق المنبعث من غلبة سلطان الشهوة فإنّه وسواس وسعي في تحصيل لذّات النّفس، وعلى هذين النوعين يبنى مدح العشق الصوري وذمّه في كلام بعض العرفاء من الحكماء.

وهذه التعاريف كلّها حقّ وتكثّرها إنّما جاء من جهة تعدّد مراتبه ودرجاته، وهي على تكثّرها قد حصرت في خمسة: أولها الاستحسان وهو يتولّد من النّظر والسّماع ولا يزال يقوى بطول التّفكّر في محاسن المحبوب وصفاته الجميلة، وثانيها المودّة وهي الميل إليه والألفة بشخصه والإئتلاف الروحاني معه، وثالثها الخلّة وهي تمكّن محبّة المحبوب من قلب المحبّ واستكشاف سرائره.

ورابعها: العشق وهو الإفراط في المحبة حتى لا يخلو العاشق من تخيّل المعشوق وذكره لا يغيب عن خاطره فعند ذلك تشتغل النّفس عن استخدام القوة الشهوانيّة والنّفسانيّة فتمتنع عن الطّعام والشّراب لعدم الشهوة ومن النوم لاستضرار الدماغ، وخامسها الوله وهو أن لا يوجد في قلب العاشق غير صورة المعشوق ولا ترضى نفسه إلّا به.

أمّا المرتبة الأولى فأهلها كثيرون وهي أكثر، وأمّا الدرجة الثانية فهي مشتملة على الائتلاف الروحاني، وقد تقدم في أنوار الملكوت أنّ الله سبحانه لمّا خلق الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة أوقعت بينها الموافقة والمنافرة في عالم الأرواح، ولمّا قدمت إلى هذا العالم وحلّت منازل الأبدان واشتغلت بتعمير هذا المنزل نسيت ما وقع منها في قديم الزمان وسوالف الأيّام فلا تذكر محبوبها من غيره لكنها إذا رأته في هذا العالم انعكست أشعتها العلميّة وتحرّكت نحو تلك الألفة القديمة ومالت إليه؛ حتى أنّ الرائي إذا رأى رجلاً لم يره في هذا العالم أصلاً يميل إليه من ساعته ويظنّ أنّه رآه ويقول أين رأيت هذا الرجل وهو لم يره إلّا في عالم

الأرواح، وهذا هو الذي أراده ﷺ من قوله الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

وهذه المرتبة إن وقعت في محبّات النّاس، أو محبّات أهل الله يرى الإنسان نفسه غير مختار في تحصيلها وذلك أنّها تحصّل نفسها قبل تحصيلك إيّاها؛ نعم زيادتها قوّة وضعفاً ربّما كان للإنسان فيه اختيار بسبب طول المعاشرة والاطلاع على ما يوجب مزيد الألفة والوداد.

ومن هذه محبّة الإماميّة لأهل البيت عليهم السلام [1] فإنّ الإنسان إذا أعطى الإنصاف من نفسه وفكّر علم أنّ حبّهم ممّا تداخل القلوب والعروق؛ وامتزج باللّحم حتّى لم يبق فيه اختيار لأحد منهم، فإنّك ترى الطفل إذا نشأ وعرف نفسه أُلهم من جانب الله سبحانه الميل إلى أهل البيت وحبّهم ولعن مبغضيهم وإن لم يذكر له أبوه وأمّه مثل هذا فإن قلت لا يثاب المرء إلا على ما كان له فيه اختيار، وذلك أنّ حبّهم مأمور به

(١) مودة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم من ضروريات الدين وقد نص القرآن الكريم بوجوب مودتهم وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] ولذا كفر من بلغ في العداوة لأهل البيت عليهم السلام حد النصب لارتكابه خلاف ما هو المعلوم من دين الإسلام ثبوته ضرورة فيكون كافراً والأخبار بوجوب مودة أهل البيت عليهم السلام متواترة فعن العلاّمة التقي المجلسي الأول رحمه الله في شرحه على الزيارة الجامعة عند قوله عليه السلام: وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة ولكم المودة الواجبة ما هذا لفظه: والأخبار بوجوب المودة متواترة وأقل مراتبها أن يكونوا أحب إلينا من أنفسنا وأقصاها العشق(اهـ).
وقال بعض الشارحين: قوله: وأقصاها العشق فإنّ هذا الأقصى اقصى صوفي إذ لا معنى للعشق إلا الجنون الشيطاني لا الجنون الإلهي كما زعموا فإنّ الله تعالى لا ينسب إليه الجنون إلخ.
قال بعض العارفين بعد نقل كلامه ولا استعجاب من جنابه في أمثال ما أورده على المجلسي رحمه الله وأضرابه فإنّه ليس خبيراً باصطلاح المعقول ولا بصيراً بالمنقول وقال قوله: لا الجنون الإلهي (اه) أشار بذلك إلى قول بعض المحققين حيث قال: العشق جنون إلهي وكأنه نظر إلى ظاهر اللفظ وزعم أنّ الجنون هو خلاف العقل ولا بأس به فإنّه عري عن اصطلاح كل قوم وما سمع كلامهم بأن الجنون فنون والفنون جنون ولنعم ما قاله الحسن الدهلوي في بعض غزلياته:

مرد نهٔ گرهمه دل خون نه	لاف محبت چه زنی چون نه
باتوچه ضايع كنم افسون عشق	مرده دلى قابل افسون نه
بوالهوسى گفت بليلى نظير	رو كه چنين قابل وموزون نه
ليلى ازين حال بخنديد وگفت	باتو چگويم كه تو مجنون نه
اى حسن أحوال تو ديگر شده است	آنچه تو اول بدى اكنون نه (اهـ)

في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فيكون داخلاً في الأحكام، وقد تقرر أنّ ما لم يدخل تحت الاختيار من الأفعال الكسبيّة لا يكون داخلاً في الأحكام الخمسة ولا يثاب عليه فاعله؛ قلت الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: بناء على ما عرفت من قدم التّخالف والتّوالف وأنّه كان في عالم الأرواح وكان هناك كمال الاختيار، وقد اشتمل ذلك العالم على أنواع التّكاليف من دخول نار أوقدها الله سبحانه، وأمر الفريقين بدخولها فدخلها أهل اليمين وهم نحن، فصارت عليهم برداً وسلاماً، وأبى أهل الشمال وهم مخالفونا وقالوا لا طاقة لنا بدخولها فقال تعالى إلى ناري ولا أُبالي، وحينئذ فحبّنا لهم عليهم السلام في هذا العالم تعارف وتجديد لما وقع في العالم الأول وهو عالم الاختيار فيرجع إلى الاختيار.

الثاني: إنّ سببه اختياري وهو تحقيق أحوالهم والاطلاع على بعض محاسنهم وما آتاهم الله تعالى من درجات الكمال فيدخل تحت الاختيار لدخول سببه كما تقدّم في ندم التّوبة.

الثالث: إنّ الله سبحانه إذا فطر المؤمن على جبلّة من الخير وأنشأه عليها لعلمه بأنّه أهل لها تفضّل عليه بالّثواب، فيكون من باب الثواب التّفضّلي لا الاستحقاقي، فإن الإنسان إذا فكّر في أكثر الصفات يرى أنّ الجبلة أو الفطرة لها مدخل عظيم فيها؛ وأنّه ليس بمجرد الاختيار، ولا نقول إنّ الكلّ هكذا بل نقول إنّ أصل صفات الخير ومبادئها من نعمه سبحانه التي نشأ الخلق عليها؛ وأمّا كمالها وفروعاتها فمن اختياره وسعيه وأما محبة أهل الله من المؤمنين والصلحاء فهو وإن لم يدخل تحت الاختيار أيضاً إلّا أنّ أسبابه ودواعيه مما حصّلها بسعيه وكدّه بسبب الإيمان وارتكابه الأعمال، وأنّه جعل نفسه من جنس الصالحين والجنس إلى الجنس أميل.

وأمّا الدرجة الثالثة وهي الخلّة فإنّما يحصل التمكّن الذي فيها من مصادفته الخالي وذلك أنّ القلب حصن البدن فمن دخله ملك ممالك البدن وجرت على أوامره ونواهيه جميع جنوده وعساكره وهي الأعضاء والدّواعي والإرادات، فإذا كان ذلك الحصن خالياً ودخله سلطان من غير احتياج إلى معركة وحرب كان تمكّنه فيه أكثر، ومال إلى إحداث الآثار فيه لظنّه أنّه بيته ومنزله، ولا يدخل إليه ما يعارضه وينازعه فيه، ومن ذلك ترى الحبّ إذا وقع في أيّام الشّباب ووقت الطفوليّة يكون تمكّنه في القلوب أشدّ وأعظم ممّا وقع في وقت آخر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى وصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وذلك أنّ القلب مكان ضيق لا يسع الأغيار والأضداد، ولأنّه لرقته ولطافته لا تتعارض فيه المتعاندات.

قد صيغ قلبي على مقدار حبّكم فما لغير هواكم فيه متّسع

وهذه الدّرجة في الحب الحقيقي هي درجة الخليل عليه السلام وبه سمّي الخليل مأخوذ من الخلال كأنّ المحبوب قد تداخل في خلال الحبيب وأعماق بدنه، وذلك أنّ الخليل عليه السلام لما خيف عليه من النمرود فمضت به أمّه إلى كهف جبل وألقته في مغارته، وصارت تختلف إليه في كلّ أربعين يوماً وربّما كان أزيد، وكان الله سبحانه هو الذي تولّى تربيته؛ فلمّا نشأ رأى أنّه لا أحد متكفّل به سواه تعالى فلم يشغل قلبه بحب الآباء والأمهات لاجتنابهم له وبعدهم عنه فكان قلباً خالياً قد صادف ذلك الهوى فتمكن فيه، وكذا وقع مثل هذا لنبيّنا صلى الله عليه وآله حيث أنّه تعالى أوقعه في اليتم ونشأ ولم ير له مربّياً سواه تعالى فصغر على الحبّ وكبر عليه[1] ولم يجعل سبحانه لأحد من أبويه حقاً عليه، فمن هذا سلبه أبويه من صغره كما ورد في الروايات.

---

(١) اشتغل رسول الله صلى الله عليه وآله منذ بلوغه بعبادة الله تعالى وإطاعته وكان يصوم ويصلي ويعمل بشريعة نفسه دون شريعة من تقدمه من الأنبياء عليهم السلام فإنّه كان عالماً بالكتاب والإيمان منذ أوحى الله تعالى إليه روح القدس وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. والمراد من الروح في هذه الآية الشريفة هو روح القدس وهو غير جبرائيل، كما يستفاد ذلك من أخبار أهل البيت عليهم السلام لا من قول السدي وقتادة والضحاك وعكرمة الناصبي الخارجي وأضرابهم من المنحرفين عن أهل البيت عليهم السلام وقد نقلوا في كتب التفاسير من هؤلاء الرجال أقوالاً في تفسير هذه الآية الشريفة لا يعبأ بها ولا يعتمد عليها أصلاً.

وقد ألقى الله تعالى روح القدس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لا يفارقه يسدده من عند الله وهو مع الأئمة عليهم السلام وعن أبي جعفر عليه السلام قال لقد أنزل الله عزّ وجلّ ذلك الروح على نبيه وما صعد إلى السماء منذ أنزل وإنه لفينا. وفي معناها روايات أُخرى.

فليتأمل القارىء الكريم في قوله عليه السلام وإنه لفينا، فإنّ هذا الروح فيهم لا يفارقهم كسائر الأرواح التي ألقاها الله تعالى إليهم فإنّ المستفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السلام إنّ فيهم خمسة أرواح منها روح القدس انظر إلى الجوامع الحديثية للإمامية من الكافي وتفسير البرهان وغيرها وتأمل في الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية حتى تجد صدق ما قلناه ويستفاد منها أنهم عليهم السلام بروح القدس علموا الأشياء وعرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى وبه تكلم عيسى في =

وأما المرتبة الرابعة وهي العشق فاشتقاقه من العشقة وهو نبت يلتف على الشجرة من أصلها إلى فرعها، فهو محيط بها كما أنّ العشق محيط بمجامع القلب، وأمّا اشتغال النفس بهذه المرتبة عن قواها الشهوانية وعن النوم فإنّما جاء من فرط نار المحبّة الكامنة في القلب الشاغلة له عمّا عداه، حتى إنّه في هذه الحالة ربّما اشتغل قلبه وحسّه عن آلام البدن وأوجاعه.

= المهد صبياً انظر إلى قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠]: والتأييد بروح القدس هو السبب المهيّىء له لتكليم الناس في المهد ولذلك وصل قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ من غير أن يفصله بالعطف على الجملة السابقة اشعاراً بأن التأييد والتكليم معاً أمر واحد مؤلف من سبب ومسبب انظر إلى تفسير الميزان (ج ٦ ص ٢٣٦) لابن خالنا العلاّمة أدام الله أيامه.

ولا يصح أن يكون المراد من الروح في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] هو جبرائيل فإنّه واسطة الوحي وما هو الموحى بواسطة جبرائيل إلى رسول الله أو بغير وساطته غير جبرائيل فيستفاد من هذه الآية الشريفة أنّ رسول الله ﷺ كان عالماً بالكتاب والإيمان منذ ألقى الله تعالى إليه روح القدس ولولا روح القدس ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان كما كان كذلك قبل أن يخلقه الله تعالى ويوجده ويحدثه ويلقي إليه روح القدس ويعلمه الكتاب ولكن منذ أن خلقه الله تعالى وألقى إليه روح القدس - وأول ما خلق الله هو نوره ﷺ - صار عالماً بالكتاب والإيمان كما كان عيسى عليه السلام نبياً وآتاه الله الكتاب والنبوة وهو في المهد كما هو ظاهر القرآن الكريم وصريح أخبار أهل البيت عليهم السلام وكذلك كان نبينا ﷺ وهو أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين باجماع المسلمين وضرورة الدين.

وللإمام فخر الدين الرازي كلمة في كتابه: (معالم أصول الدين) لا بأس بنقلها في المقام قال ما هذا لفظه: الحق أنّ محمداً ﷺ قبل نزول الوحي ما كان على شرع أحد من الأنبياء عليهم السلام وذلك لأن الشرائع السابقة على شرع عيسى عليه الصلاة والسلام صارت منسوخة بشرع عيسى عليه السلام وأما شريعة عيسى عليه السلام فقد صارت منقطعة بسبب أنّ الناقلين عندهم النصارى وهم كفار بسبب القول بالتثليث فلا يكون نقلهم حجة وأما الذين بقوا على شريعة عيسى عليه السلام مع البراءة من التثليث فهم قليلون فلا يكون نقلهم حجة وإذا كان كذلك ثبت أنّ محمداً ﷺ ما كان قبل النبوة على شريعة أحد (اهـ).

انظر هامش ص ١١١ من نقد المحصل (تلخيص المحصل) ط مصر (١٣٢٣هـ) قوله: قبل النبوة. الأحسن أنّ يقال قبل الرسالة والبعثة وفي كلامه مواضع للنظر اعرضنا عن الإشارة إليها خوف الإطالة.

وقد تعرض لهذا المطلب أعني مسألة عمل رسول الله ﷺ في عباداته قبل البعثة المحقق القمي رحمه الله في القوانين في أواخر المجلد الأول فلاحظ ولكنه لم يتعرض لما ذكره الشيخ الطوسي رحمه الله في العدة كما نقلنا كلام الشيخ رحمه الله سابقاً انظر ص ٢٧ من هذا الكتاب ج ٣.

حكى شيخنا البهائي طاب ثراه في حاشية العالية على تفسير القاضي أنّ رجلاً يهودياً كان عنده جارية وكان مفرطاً في حبها ومتعشّقاً لها؛ فمرضت يوماً واحتاجت إلى طبخ طعام لمكان المرض، فوضع القدر فلما قرب اشتواء الطعام احتاج إلى سوطه، فأخذ المغرفة وشرع يسوطه فكان هو يسوط الطعام والجارية تئن، فلما سمع أنينها اشتغل قلبه بها فوقعت المغرفة من يده وصار يسوط القدر بيده ولم يحسّ به حتى تساقط لحم يده فلمّا سكنت من الأنين ورجع إليه عقله رأى أنّه كان يسوط القدر بيده؛ ومثل هذه الحالة قد كانت في الحب الحقيقي، وذلك أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كانت النّصال تلج في بدنه من الحروب كان الجرّاح يخرجها منه إذا اشتغل بالصلاة لعدم إحساسه بها ذلك الوقت لاشتغال قلبه بعالم القدس ومالك (ملك خ) الجبروت[1].

ورأيت في عشر السبعين بعد الألف لمّا كنت بشيراز رجلاً عرياناً والنّاس خلفه في حوش عمارة السيّد أحمد بن موسى الكاظم عليه السلام، فرأيته وفي كل واحدة من يديه سكّين وهو يضرب بهما صدره ويقطع بهما لحم بدنه ودماؤه تجري فسألت عن حاله فقالوا أنّه كان يهوى شخصاً وقد أشخصه أهله إلى بعض البلدان فما يدري أين ذهب، وهكذا كانت عشّاق الله سبحانه، فقد ورد في الأخبار أنّ العبّاد من بني إسرائيل إذا بلغوا في العبادة عمد العابد منهم إلى سلسلة من الحديد وأخرجها من ترقوته وشدّ نفسه بها إلى أحد أساطين المسجد لئلاّ يخرج من منزل حبيبه إلى غيره، وفي هذه المرتبة أيضاً من جهة ألف النفس بصورة المحبوب قد يرى غيره بصورته لأنّه لا صورة في خياله غير صورة محبوبه.

حكى لي أوثق مشايخي بأصفهان ليلة من اللّيالي أنّه قد كان له صديق وقد كان يهوى صاحباً له، فاتفق إنّ أهله أرسلوه ببضاعة إلى بلدة ببهبهان؛ فلمّا مضت أيّام له لم يملك الصبر عنه فسافر إلى تلك البلدة؛ فحكى أنّه لما دخل بهبهان كانت ليلة الجمعة وكان الناس يخرجون إلى قبور موتاهم لزيارتهم؛ قال فرأيت مجمعاً من النّاس فجلست معهم حتى أسأل عن أحوال ذلك الصاحب وأهتدي إلى منزله؛ ثمّ أخذت في تخيّل صورته فنظرت إلى يدي وإذا هي بصورة يده، وإلى أعضائي كلّها

---

(١) هذه القضية مشهورة بين الشيعة في حق أمير المؤمنين سلام الله عليه كما صرح بشهرتها بينهم العلاّمة الكاشاني رحمه الله في كتابه النفيس المحجة البيضاء في القسم المخطوط منه الموجود في مكتبتنا والمطبوع الآن في مؤسسة الأعلمي - لبنان.

فما رأيت شيئاً من أعضائي وجوارحي إلّا وهي على صورة أعضائه فغرقت في بحر التعجّب، فلمّا دخلت البلد وسألت عنه قيل لي إنّه في مجمع من الناس مجتمعين في بيت رجل للضيافة فدخلت عليهم ونظرت إليه فرأيته في تلك الصورة التّي رأيت نفسي عليها؛ فلمّا شاهدت من نفسي هذا الحال رجعت إلى أصفهان؛ وهذه الحكاية كان الشيخ أدام الله أيّام سلامته إذا تذاكرنا مذاهب الصوفيّة وقولهم بالحلول والاتّحاد وهو أنّ الله سبحانه يحلّ بكلّ المخلوقات يكذّبهم ويقول إنّ مثل هذا الاتحاد الخيالي ممكن؛ ولبعض أصحابنا:

علمت لمذهب التّوحيد حقّاً وكنت أُبطل رأي الاتّحاد
إلى أن بنت يا روحي بروحي وشخصك يا فؤادي في فؤادي

وهذا أيضاً من الاتّحادات الشّعريّة الخياليّة، وأظنّ أنّ الشعرين المشهورين بالإشكال من هذا الباب وهما هذان:

رأت قمر السّماء فذكّرتني ليالي وصلنا بالرّقمتين
كلانا ناظر قمراً ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

يعني أنّنا اتّحدنا في ذلك الوقت فصارت عيني عينها وعينها عيني؛ وذلك من المبالغات الشّعريّة أو من التّصورات الخياليّة، وقد ذكر له أهل تلك الصناعة وجوهاً كثيرة حتى إنّ بعضهم قد صنف فيه مقدمة وذكر له سبعين معنى تقريباً، ولنذكر بعض ما قالوه وهو معان:

أولها: إنّ معناه أنّها أي المحبوبة كانت تنظر إلى القمر الحقيقي في السماء وأنا أنظر إلى القمر المجازي الذي هو وجهها بأنّه قمر حقيقي لأنّ عينها تنظر إلى القمر الحقيقي فأنا نظرت إلى وجهها بعينها الناظرة إلى القمر الحقيقي؛ بمعنى أنّي اعتقدت أنّها القمر الحقيقي، ثم قال ورأت بعيني يعني أنّها رأت القمر الحقيقي بعيني أي نظرت إليه بأنّه قمر مجازاً وأنّه في الواقع حقيقي لأنّها نظرت بعيني وأنا أنظر إليه على أنّه مجاز بالنّسبة إليها ولا يخفى ما في هذا الوجه من التّكلّف.

وثانيها: ما قاله الوالي تغمّده الله برحمته[1] وكان عالماً شاعراً أديباً صالحاً عفيفاً

---

(١) قال العالم المتتبع الخبير المولى عبدالله الافندي التبريزي ثم الاصفهاني رحمه الله في رياض العلماء ما نصه: اظن أنّ أكثر فوائد كتب السيد نعمة الله الشوشتري المعاصر قدس سره مأخوذة من تصانيف هذا السيد الوالي (اهـ).

عابداً وكان حاكماً على بلاد العرب كالحويزة وما والاها، وقد كنّا نحن بشوشتر فكان كل سنة يرسل إلينا المكاتيب والرسائل ويرغبنا ويحثّنا على الوصول إلى حضرته وقد أبطأنا عليه بعض المرّات؛ فكتب إلينا مكتوباً وهذه الأبيات من جملته:

يا أخا بشرنا تأخّرت عنا ... قد أسأنا ببعد عهدك ظنّا
كم تمنّيت لي صديقاً صدوقاً ... فإذا أنت ذلك المتمنّى
فبغصن الصبا لما تثنّى ... وبعد الصّبا وإن بان عنّا
كن جوابي لكي تردّ شبابي ... لا تقل للرّسول كان وكنّا

وقد أكثر من المصنّفات في فنون العلوم كان يحفظ من القصائد مع كبر سنه ما لا يعدّ لأنّه كان يحفظ أكثر الدّواوين على خاطره، وله ديوان نفيس وما كنّا نسمع في مجلسه شيئاً سوى روى جدّنا عن جبرائيل عن الباري؛ وقد انتقل إلى جوار الله ورحمته سنة الثامنة[1] والخمسين بعد الألف؛ وجلس في الملك بعده ابنه الكبير وفّقه الله تعالى والاسم الشّريف لذلك المرحوم هو السيّد علي خان بن السيّد خلف بن السيّد مطلب الذي أسلمت الكفار على أيديهم واستبصرت المخالفون في أعصار دولتهم.

نسب كان عليه من شمس الضحى نورا ... ومن فلق الصّباح عمودا

وحاصل المعنى بتوقّفه على البيتين وهو أنّها رأت قمراً في السّماء ببهجة واستحسان فأذكرتني ليالي كنت أواصلها بالرقمتين لما كانت مساعدة بالوصل وتنظر إليّ بتوجّه وتودّد، ثم قال كلانا ناظر قمراً وهو القمر الحقيقي ولكن رأيت بعينها في هذه الحالة التي هي معرضة عنّا وصادّة فيه، ورأت بعيني في حال نظري إليها باستحسان وتوجّه فأنا أنظر إلى القمر الحقيقي معرضاً عنه إذ طلبتي غيره، وهي تنظر إليه بتوجّه منها إذ مطلبها النّظر إليه.

وثالثها: كون معناه أنّ الرجل إذا نظر إلى الشيء ينظر إليه شزراً[2] والمرأة إذا نظرت تنظر فتوراً لمكان الحياء والخجل، ولكن هنا لمّا نظرت إلى القمر الحقيقي نظرت شزراً لعدم حيائها منه، وهو لمّا نظر إلى القمر المجازي وهو وجهها نظر إليها بحياء وفتور، فقد صار وصف كلّ واحد منهما للآخر.

---

(١) في النسخة المخطوطة: الثانية.
(٢) الشزر بالفتح فالسكون نظر الغضبان بمؤخر العينين يقال نظر إليه شزراً أي نظر غضب.

ورابعها: أنّها نظرت إلى قمر السماء ونظرت أنا إلى قمر وجهها فأنا نظرت إلى قمر كالقمر الذي رأته هي بعينها، يعني أنّ وجهها قد صار قمراً حقيقياً، فأنا أنظر بعينها يعني مثل الذي تنظره عينها وهو القمر الحقيقي؛ وهي تنظر إلى قمر حقيقي بعيني، أي بالعين التي نظرت بها إلى القمر الذي هو وجهها، وقيل فيه معان كثيرة.

ونظير هذا في مراتب الحقيقة ما روي عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال في حديث الإسراء إنّ عبدي ليتقرّب إليّ بالنّوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت عينه الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به؛ ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته. ولقد هلك جماعة من الصوفيّة في هذا الحديث حيث حملوه على ظاهره؛ فذهبوا منه إلى الاتحاد المعروف بينهم، وهذا كفر منهم وإلحاد في ذات الله، ومعناه الذي يمكن ايصاله إلى الأفهام هو أنّ العبد إذا تقرب إلى الله عزّ وجلّ تقرّب الله إليه أيضاً، كما قال من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذرعاً، ومن تقرب إليّ ذرعاً تقربت إليه باعاً، فإذا وقعت المقاربة منحه الله الألطاف الإلهيّة حتى لا يكون عاملاً إلّا بما كان موافقاً لرضاه فهو سبحانه الذي يتصرّف في أعضائه وجوارحه ويجريها في مجاري طاعاته وإراداته، فهو الذي يسمعه وهو الذي ينصب عينيه لمشاهدة آثاره وعالم ملكوته، وهو تعالى الذي ينطق لسانه بكلماته وعباراته إلى غير ذلك.

وهذه المرتبة تسمّى عند السالكين الفناء في الله وسيأتي تحقيقها إن شاء الله تعالى عند تحقيق مراتب السلوك، وإلى ما ذكرنا يشير كلام سيّد السّالكين مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانيّة بل قلعتها بقوّة ربّانيّة، وذلك أنّه عليه السلام قد أفنى قوّته البشريّة في الطاعات والعبادات فأعطاه تعالى قوة ربانيّة بها قدر على ما تعجز عنه قوة البشر، ومن هذا قال عليه السلام عرفت الله بفسخ العزائم، وقال أيضاً إنّ قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبهما كيف شاء.

ومن نظائر ما سبق في عالم الشهود ما ذكره ابن الجوزي في تاريخه: قال لمّا تزوجت ليلى جاء المجنون إلى زوجها وهو يصطلي في يوم شاتٍ فوقف وقال له:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبّلت فاها
وهل رفّت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة في نداها

فقال اللّهم إذ حلّفتني فنعم، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشيّاً عليه، فسقط الجمر مع لحم راحتيه وتوفي سنة سبعين من الهجرة.

وحكى بعض الثّقات قال اجتزت في بعض أسفاري بحيّ بني عذرة، فنزلت في بعض بيوته، فرأيت جارية قد أُلبست من الجمال حلية الكمال فأعجبني حسنها وكلامها، فخرجت في بعض الأيام أدور في الحيّ وإذا أنا بشاب حسن الوجه وعليه أثر الوجد وأضعف من الهلال وأنحف من الخلال، وهو يوقد ناراً تحت قدر ويردّد أبياتاً ودموعه تجري على خدّيه؛ فممّا حفظت منه قوله:

فلا عنك لي صبر ولا فيك حيلة ... ولا عنك لي بدّ ولا عنك مهرب
ولي ألف باب قد عرفت طريقها ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب
فلو كان لي قلبان عشت بواحد ... وأفردت قلباً في هواك يعذّب

فسألت عن الشّاب وشأنه، فقيل يهوى الجارية التي أنت نازل في بيتها وهي محتجبة عنه منذ أعوام، قال فرجعت إلى البيت وذكرت لها ما رأيت، فقالت ذاك ابن عمّي، فقلت لها يا هذه للضيف حرمة فنشدتك بالله إلّا ما متّعته بالنظر إليك في يومك هذا، فقالت صلاح حاله في أن لا يراني، قال فحسبت أنّ إمتناعها ظنّة منها، فما زلت أُقسم عليها حتى أظهرت القبول وهي متكرّهة، فقلت لها أنجزي وعدك الآن فداك أبي وأمّي؛ فقالت تقدّمني فإنّي ناهضة إثرك؛ فأسرعت نحو الغلام وقلت له أبشر بحضور من تريد فإنها مقبلة نحوك الآن، فبينما أنا أتكلّم معه إذ خرجت من خبائها مقبلة تجرّ أذيالها وقد اثارت الريح غبار أقدامها حتى ستر الغبار شخصها، فقلت للشابّ ها هي قد أقبلت؛ فلما نظر الغبار صعق وخر على النّار لوجهه فما أقعدته حتى أخذت النار من صدره ووجهه، فرجعت الجارية وهي تقول من لا يطيق مشاهدة غبار نعالنا كيف يطيق مشاهدة جمالنا.

ونظير هذه في عالم الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية، ونقل في كتاب مصارع العشّاق أنّ كثير عزّة قال أعجب وألذّ ما مر عليّ في حب عزّة أنّه كان معه ركب يريدون الحجّ، وقد اتّفق أنّ في ذلك الركب عزّة مع زوجها وكان كثير لا يعلم بهما، فبينما هو ذات يوم في الطريق قاعد يبري وإذا عزّة واقفة على رأسه فطار لبّه لما نظر إليها وصار يبري أصابعه بالشّفرة والدّم يسيل من يده وهو لا يحس به، وكان زوجها باعثها تشتري سمناً فأظهرت عزّة لكثير أنّها تريد سمناً وكان عنده ظرف، فقام وصب لها في الإناء فامتلأ وفاض ووقع على الأرض، فلما نظرت عزّة إلى الدّم يسيل من أصابعه قطعت قطعة من مقنعتها وعصبت بها يده ومضت إلى زوجها فرآها على حالة منكرة، فسألها

فأخفت عليه حالها حتى ألحّ عليها فأخبرته بما كان، فقبضها من يدها وأوجعها وأتى بها إلى قدام كثير، وقال لها اشتميه وسبّيه حتى أسمع فقابلت كثيراً وأخذت في شتمه وسبّه وزوجها يسمع فقال كثير:

يكلّفها الخنزير شتمي وما بها هوائي ولكن الكميل استدلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزّة من أعراضنا ما استحلّت

ومن النظائر في عالم الحقيقة أنّ رجلاً كان ورده يا الله، فكان يقولها كل أوقاته فلمّا قتل جرى دمه على الأرض مكتوباً فيه يا الله يا الله أينما جرى، وما ذلك إلا لاختلاط محبّته تعالى وممازجتها بلحمه ودمه، وفي عالم الشهود قد نقل أيضاً مثله وهي أنّ زليخا قد احتجمت يوماً فلما وقع الدّم على الأرض كان مكتوباً فيه يوسف يوسف أينما سال.

وحكي أيضاً في التفاسير أنّها غضبت على يوسف عليه السلام يوماً فأمرت خادمها بأن يضربه أسواطاً وهي تسمع صوت السوط، فكان الخادم يوقع الأسواط على الأرض ويضرب الأرض وهي تسمع فخطر بخاطر الخادم أن يضربه سوطاً واحداً حتى يرى الأثر على بدنه فلا تكذبه زليخا في ضرب الأسواط، فضربه سوطاً فخرجت زليخا من خدرها وصاحت به كفّ عن الضّرب فهذا السوط الذي ضربته الآن قد وقع ألمه في قلبي وكأنّك ضربتي أنا لا يوسف؛ فأمّنت على الخادم فحكى لها كيفيّة الضرب وأنّه كان على الأرض إلّا ذلك السوط.

وقد سبق أنّ زليخا قعدت يوماً على ممرّ يوسف فلمّا أخبرتها جاريتها بدنوّه منها قالت يا يوسف بحق الذي أعزّك وأذلّني أن تقف ساعة ولا تغيب عنّي، فقال يا زليخا أين مالك وجمالك؟ قالت ذهبا في سبيلك، فقال وأين عيناك؟ فقالت ذهبتا بالبكاء على فراقك؛ فقال وأين عشقك؟ قالت في صدري كما كان، قال فأين برهانك؟ قالت ناولني سوطك، فناولها إيّاه فتأوّهت ونفخت فيه فاحترق السوط من نفسها، فألقاه يوسف من يده وصرف عنان الفرس فراراً؛ فقالت يا يوسف إنّك بدعوى الرجوليّة لم تكن مثل المرأة فإنّي حفظت تلك النّار في صدري منذ أربعين سنة ولم أنهزم كانهزامك.

ومن أحكام هذه المرتبة في عالم الشهود ما ذكره شرّاح كتاب المعنى عند ذكره في بحث لو الشرطيّة قول الهذلي:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض سبسب

لظلّ صدى صوتي وإن كنت رمّة　　لصوت صدا ليلى يهشّ ويطرب

والأصداء جمع صدى وهو الذي يجيبك مثل صوتك في الجبال، والرّمس تراب القبر، والسبسب المفازة، والرمة العظام البالية، ثم نقل بعد هذا قول توبة:

ولو أنّ ليلى الأخيليّة سلّمت　　عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقى　　إليها صدى من جانب القبر صائح

والصّفائح الحجار العراض تكون على القبر، وزقى أي صاح؛ قال الشرّاح ذكر صاحب كتاب الجليس والأنيس قال مرّت ليلى الأخيليّة ومعها زوجها قرب قبر توبة، فقال لها يا ليلى هذا قبر توبة فسلّمي عليه، قالت وما تريد منه قال أريد تكذيبه أليس هو الذي يقول ولو أنّ ليلى الأخيليّة- الشّعر، فلا والله ما برحت حتّى تسلّمي عليه، فقالت السلام عليك يا توبة ألست القائل ولو أنّ ليلى الأخيليّة سلّمت فأين ما قلت؟ فإذا طائر كان هناك فخرج من القبر حتى ضرب بصدرها فشهقت شهقة فماتت، فدفنت إلى جانب قبره فنبتت على قبره شجرة؛ وعلى قبرها شجرة فطالتا فالتفّتا[1] فانظر إلى فرط المحبّة كيف أثر فيهما وسرى منهما إلى شجرتيهما حتى تلاقتا، والظاهر أنّ تلاقيهما عياناً يشعر بتلاقي روحي أهل الحبّ بياناً وما ذلك إلّا لأنّ عشقهما كان عفيفاً، ومن هذا الباب قول المجنون:

ولو وقفت ليلى بقبري وقد عفت　　معالمه واستفتحت بسلام
لحنّت إليها بالتّحيّة رمّتي　　ورنّت بترجيع السلام عظامي

ولذا نقل عنه ﷺ أنّه قال من عشق فعفّ فمات دخل الجنّة، وفي كتاب رياض النّعيم عن إبراهيم بن نفطويه النحوي قال دخلت على محمد بن داود الاصفهاني صاحب المذهب في مرضه الذي مات فيه، فقلت كيف تجدك؟ فقال حب من تعلم أورثني ما ترى قلت ما منعك منه مع القدرة عليه، فقال الاستمتاع على وجهين النظر المباح واللّذة المحظورة، وأمّا النظر المباح فقد منعني منها ما بلغني عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنّه قال من عشق وكتم وعفّ غفر الله له وأدخله الجنّة[2] قال ثمّ إنّه أنشدني أبياتاً لنفسه فلمّا انتهى إلى قوله:

---

(١) هل لهذه القصص العجيبة حقيقة؟ أو أنها من الأساطير؟ والله العالم.

(٢) الظاهر أنّ الخبر مروي من طرق العامة وفي بعض الكتب ما هذا لفظه: من عشق فعف وكتم فمات مات شهيداً. وعن بعض العامة أنّ في سنده سويد بن سعيد وقد انكر الحفاظ عليه وعن =

إن يكن عيب خده من عذار له فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له أنت تنفي القياس في الفقه وتثبته في الشعر، فقال غلبة الهوى وملكة النفوس دعوا إليه، قال ومات في ليلته.

وحكى بعض الصّلحاء قال رأيت الغزالي في البريّة وعليه مرقعة وبيده ركوة وعصا، فقلت أيّها الإمام ليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا؟ فنظر إلي نظر الإزراء وقال لمّا بزغ بدر السعادة من فلك الإرادة وجنحت شمس الأصول إلى مغارب الوصول:

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

ولذا نقل عنه ﷺ أنّه قال من عشق فعفّ فمات دخل الجنة، وحكي عن العشّاق السبعة مثل ذلك، ذكر جامع ديوان المجنون أنّه دخل يوماً على ليلى وكان يحاكيها فأتى زوجها فعمدت إلى المجنون وأدخلته تحت ثيابها وجلست، فلمّا خرج زوجها أخرجته من تحت الثّياب فقالت له ما رأيت تحت الثياب؛ قال وحقّك دخلت أعمى وخرجت أعمى؛ وقد كان غمض عينيه حتى لا ينظر إلى بدنها، وهذا أيضاً علامة دوام الحب وإلاّ فالحبّ إذا نكح فسد.

وقد شاهدنا من ارتكب أعظم المشاقّ في باب العشق والمحبّة ولكن ذكر حكاياتهم يفضي إلى تطويل الكتاب، وقد ذكر بعض أهل التّاريخ أنّ كثير عزّة كان رافضيّاً وكان خلفاء بني أميّة يعرفون ذلك منه؛ دخل على عبدالملك بن مروان يوماً فقال نشدتك بحق عليّ بن أبي طالب هل رأيت أعشق منك؟

فقال نعم بينما أسير في بعض الفلوات إذا أنا برجل قد نصب حبائله؛ فقلت ما أجلسك هنا؟ قال أهلكني وأهلي الجوع فنصبت حبائلي لأُصيب لهم ولنفسي ما يكفينا يومنا هذا، فقلت أرأيت إن أقمت فأصبت صيداً تجعل لي جزءاً، قال نعم، فبينما نحن كذلك إذ وقعت عليه ظبية فخرجنا مبتدرين فأسرع إليها فحلّها وأطلقها، فقلت له ما حملك على هذا؟ قال دخلني عليها رقّة لشبهها بليلى وأنشأ يقول:

= الشيخ محيي الدين النووي أنّه عمل بمضمونه وعد في باب الشهيد الذي لا غسل له من مات بسبب العشق مطلقاً كتم أم لا وقال بعض مشايخ الصوفية من الإمامية: وهذا الخبر وإن نوقش في طريقه إلا أنّه منجبر بعمل الفريقين (اهـ) والقارىء الكريم جد خبير بما في كلامهما من الغرابة وأن كل ما نقلناه عنهما من الأوهام السخيفة.

أيا شبه ليلى لا تراعي فأنّني   لك اليوم من وحشيّة لصديق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها   لأنت لليلى لو عرفت عتيق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها   ولكن عظم الساق منك دقيق

ولمّا أسرعت في العدو جعل يقول:

إذهبي في كلاءة الرحمن   أنت منّي في ذمّة وأمان
لا تخافي من أن تهاجي بسوء   ما تغنّى الحمام في الأغصان

أقول: ونظير هذا في عالم الحقيقة إنّ الرجل الذي كان يضحك منه فرعون لما تشبه بموسى عليه السلام في الملبس ودخل على فرعون يقلّد على موسى في أقواله وأفعاله وقد غضب منه موسى؛ ولمّا أغرق الله فرعون وجنوده وكان فيهم ذلك الرّجل فلم يغرقه الله سبحانه، فقال موسى يا رب إنّ هذا الرجل أغاظني فلمَ لم تغرقه؟ فقال يا موسى إنّه تشبّه بك في الثياب والكلام فأنجيته لما تشبّه بأحبابي.

وحكى بعض الثّقات أنّه كان رجل يهوى ابن واحد من السلاطين قد سمّاه فأفرط في حبه ومنعه عن أشغاله؛ فترك معاشه وجعل نفسه سقّاء في باب بيت السلطان حتّى يراه كلّما خرج فبقي على هذا مدّة، ثمّ إنّ بعض خواصّ ذلك الولد أخبره عن حال ذلك الرجل وإفراطه في عشقه؛ فقال ذلك الولد أظنّ ذلك الرجل كاذباً في دعواه، فقالوا اختبره إن أردت تصديق مقاله، ثم إنّه ركب يوماً وخرج إلى الصيد وأمر ذلك الرجل أن يجيء معه إلى الصحراء فلما بلغ إلى محل الصيد رمى سهماً وقال لذلك الرجل إمض إلى هذا السهم وانظر أين وقع فاجلس عنده، فمضى الرجل إلى السّهم وأخذه وقبّله وجلس منتظراً لولد السّلطان، فرجع معه خواصه إلى البلد ولم يخرج بعد إلى تلك الصحراء حتى مضى أربعون سنة[1] فاتّفق أنّه خرج يوماً إلى تلك الصّحراء فرأى رجلاً قد أخذه العمر وهو جالس وبيده سهم، فسأله عن حاله فقصّ قصّته فعرفه ابن السّلطان فقال له تعرفني؟ فنظر الرجل إليه فقال أعرفك وأنا مقيم على ما أمرتني به ولا أحول عنه إلى الموت قضاء لأمرك لما كنت حبيباً؛ فأراد منه المجيء إلى البلد فلم يقبل فبقي وكان هناك قبره.

---

(١) كيف بقي ذلك الرجل في الصحراء حتى مضت أربعون سنة والله العالم فهذه القصة من القصص التي لا يمكن الركون إليها.

ونظير في عالم الحقيقة ما رواه الصدوق بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال إنّ إسماعيل الذي قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه، فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه فأتاه ملك الموت، فقال إنّ الله عزّ وجلّ بعثني إليك فمرني بما شئت؛ فقال لي أُسوة بما يصنع بالحسين عليه السلام ؛ وقد وعد رجلاً على ضحوة فاشتدّت الشمس عليه، فقال أصحابه يا رسول الله لو أنّك تحولت إلى الظلّ، قال قد وعدته إلى ههنا وإن لم يجىء كان منه المحشر، وفي خبر آخر أنّه وعد رجلاً فجلس له حولاً ينتظره فإنّ انتظاره عليه السلام إنّماء جاء من قبل الأمر به من جهة ذلك المحبوب الحقيقي فهو تعظيم له في الحقيقة لا لذلك الرجل.

فإن قلت إذا آل الأمر إلى مرتبة العشق والمحبّة أفيجوز أن يكون في ذلك الحصن أعني القلب غيره سبحانه؟ قلت نعم ولكن ذلك الغير يكون أعوانه وأتباعه وأحبابه فيصدق أن ليس في ذلك الحصن غيره كما يصدق أن ليس غير السلطان في الحصن الظّاهري، مع أنّ السّلطان وحده لا يجوز أن يكون فيه وحده بدون الأتباع والأعوان والجنود؛ نعم ليس فيه ما يعارض ذلك السّلطان ولا يكون مناسباً له ويكون اجنبيّاً عنه وكذلك القلب فإنّه إذا كان فيه حبّ الله وحبّ من أحبّه الله صدق أنّه ليس في القلب حب غير الله لما عرفت، ومن هذا قال صلى الله عليه وآله في دعائه اللّهم ارزقني حبّك وحبّ ما يقربني إلى حبّك واجعله أحبّ إلي من الماء البارد.

وقد كان ذلك في أكثر أهل هذا العشق فإنّهم كانوا يحنّون إلى من له أدنى نسبة إلى محبوبهم كالدّيار والمنازل والأقارب والجيران حتى كلاب الحيّ:

رأى المجنون في البيداء كلباً ... فجرّ له من الإحسان ذيلا
فلاموه على ما صار منه ... وقالوا لم أنلت الكلب نيلا
فقال لهم دعوني إنّ عيني ... رأته مرّة في حيّ ليلى

وكذلك الدّيار فإنّ ما قرب من دار الحبيب يكون عندهم كداره:

لا تقولوا دارها بشرقي نجد ... كلّ نجد للعامريّة دار

وقول الرّضي رحمه الله:

عارضا بي ركب الحجاز أسائله ... متى عهدهم بأيّام جمع
واستملا حديث من سكن الخيف ... ولا تكتباها إلّا بدمعي

فـاتـنـي أن أرى الـدّيـار بـطـرفـي فـلـعـلّـي أرى الـدّيـار بـسـمـعـي(١)

وكما أنّ السلطان المستقرّ في الحصن يحتاج في بقائه في ذلك الحصن إلى الماء والزّاد واللّباس وسائر ما يحتاج إليه في المعاش فكذلك القلب؛ فإنّ ابن آدم قد خلق أجوف يحتاج إلى المأكل والمشرب إلى غير ذلك مما يحفظ البدن، ولا يهتمّ الإنسان في تحصيل شيء إلّا إذا أحبّه وعلم أنّ فيه مصلحة، فحينئذ فحبّ الزوجة والولد والمال والأقارب والأعوان إذا كان لغرض ديني لا ينافي حب الله تعالى بل يؤكّده ويقرّره، أما المال ففيه معاونة المحاويج والفقراء من أهل الله، وأمّا الزوجة فهي لباس الرّجل السّاتر له وبها يحصل له التّعفف عن ارتكاب المحرمات.

وأمّا الأولاد فالمصالح الأُخرويّة المترتبة على وجودهم أكثر من أن تحصى، روي أنّ نبيّاً من الأنبياء مرّ على قبر يعذّب صاحبه ثم مرّ عليه بعد مدّة فلم يكن يعذب فسأله أصحابه عن رفع العذاب عنه، فقال إنّه خلف ولداً فجاءت به أمّه إلى المعلّم؛ فلقّنه بسم الله الرحمن الرحيم فاستحى الله تعالى أن يعذّب رجلاً وابنه يقول بسم الله الرحمن الرحيم.

وأمّا الأقارب فهم من أعظم النّعم حتى لو كانوا أعداء، فإنّ الصادق عليه السلام قال أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح أي المعادي، وبالجملة فحبّ هؤلاء وأمثالهم لمثل هذه المصالح لا ينافي حبّ الله تعالى بل يجتمع معه ويكون معاوناً على بقائه واستمراره، روي أنه عليه السلام سأل عن رجل من الشّيعة فقالوا له يا رسول الله قد تخلّى عن الدنيّا وأقبل على العبادة، قال فمن أين يأكل؟ قالوا له أخ يعطيه؛ فقال إنّ ثواب ذلك الأخ أكثر من ثوابه مع عبادته، وهذا إشارة إلى ما ذكرناه، أمّا إذا أحبّ الولد لغرض دنيويّ وكذا المال ليتوسّل به إلى الأغراض الفاسدة فهذا ممّا لا يجتمع مع حب الله سبحانه.

فإن قلت فإذا أحبّ هذه المذكورات لا للغرض الأول ولا للغرض الثاني بل لأنّ الطبيعة البشريّة اقتضته فإنّك ترى أنّ الرجل يحب أطفاله وأقاربه ولا يخطر بخاطره شيء من الأغراض أفيكون مثل هذا مضاداً لحب الله سبحانه أم غير مضاد له.

قلت الحق أنّ مثل هذا لا يضادّه، وذلك أنّ مثل هذه المحبّات يكون بها بقاء النّوع الإنساني؛ ولولاها لما عطفت الأم على الولد وآثرته على نفسها ووقته الحرّ

(١) ديوان الشريف الرضي ج ١ ص ٥٠٠ ط الأعلمي.

والبرد وكذلك الرجل على ولده فتكون هذه المحبّات منه تعالى لانتظام النّوع وقد صرّحت بمثل هذه الأخبار، روي أنّ الله تعالى خلق المحبة على مائة جزء فقسم واحداً منها بين الخلق وبه يحب الرجل ولده والأمّ طفلها، وأبقى منها تسعة وتسعين جزءاً يرحم بها الخلائق يوم القيامة.

نعم الذي يجب هنا أن يجعل حب الله سبحانه سلطان ذلك الحصن، وهذه المحبّات من العساكر والإتباع لا أن يجعل واحدة منها هي الرئيس وتكون محبّته تعالى من التّوابع كما هو الموجود في أكثر النّاس، وإلى هذا الإشارة بما روي من أنّ الحسن عليه السلام قال يوماً لجدّه صلى الله عليه وآله أيجتمع محبّتان في قلب واحد؟ فقال لا يا بنيّ، فقال أتحب أبي؟ قال نعم، قال أفتحب أمي؟ قال نعم، قال أفتحب أخي؟ قال نعم، قال أفتحبّني أنا؟ قال نعم، قال أفتحب الله تعالى؟ قال نعم، قال الحسن عليه السلام فكيف اجتمعت هذه المحبّات كلّها وأنت قلت لا يجتمع محبّتان في قلب واحد؛ فقال صلى الله عليه وآله يا بنيّ إنّ حبّكم يرجع إلى حبّ الله تعالى في قطب القلب وحبّكم كالخطوط التي هي حوله، فهذا الحبّ كلّه واحد وتفصيله ما ذكرنا، وعلى هذا ينحلّ الاعتراض الذي أورده بعض القاصرين على قول الشاعر:

محى حبّها حب الأولى كن قبلها وحلّت محلاً لم يكن حل من قبل

ووجه الاعتراض بأنّه إذا كان حبّها قد محى حب من تقدمها على أنّ القلب كان محلاً لغيرها لكن حبّها أخرج ذلك الغير، فما معنى قوله وحلّت مكاناً لم يكن منزولاً قبلها؛ والجواب أنّ حبّ من كان قبلها كان محلّه أطراف القلب وجوانبه، ولما أتى هذا الحب أخرج تلك المحبات من كل الأطراف واستقرّ في وسط القلب الذي لم يكن محلاً لأحد قبله، وقد كانت الشعراء إذا أرادوا أن يدعوا على أحد كان اسوأ أدعيتهم عليه أن يكون مشغولاً بحبّ محبوب يكون ذلك المحبوب مشغولاً بحب غيره كما قال بعض الشعراء:

من قصر اللّيل إذا زرتني أشكو وتشكين من الطول
عدوّ عينيك وشانيهما أصبح مشغولاً بمشغول

فقوله إذا زرتني ظرف متعلّق بأشكو، ومعناه أنّك أيّتها المحبوبة إذا زرتني أشكو أنا من قصر اللّيل، وأنت تشكين من طوله، ثمّ دعا على من يبغض عينيها ويشنأهما بأنّه يصبح مشغولاً بمحبوب يكون ذلك المحبوب مشغولاً بغيره وليس أضرّ على العاشق من هذا لأنّه وإن قربت داره لكنّه غير نافع بعد أن لا يكون له وداد.

على أنّ قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

وقد يمّثلون مثل هذا الحبيب بما قال:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

وقال شيخنا الحويزي قدس الله روحه:

فلا تعجب لهجر من حبيب ... قريب الدار مرجوّ الوصال

فحكم الجملتين الفصل قطعاً ... وبينهما كمال الاتّصال

ونظير هذا في عالم الحقيقة شيء عجيب وهو أنّه سبحانه وله المثل الأعلى قد تحبّب إلينا بأنواع المحبّات ونحن مشغولون عنه في غيره من آلهتنا التي هي النفس والهوى والشهوات والإرادات حتى إنّه تأسّف على أحوالنا فقال: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، فهو قد تأسّف علينا تأسّف المحبّ على المحبوب كما يقول أحدنا إذا تأسّف على محبوب له قد أتى بما يحصل له منه الضّرر يا حسرتي على حبيبي فلان كيف أتى بهذا الفعل حتى حصل له منه ما حصل؛ وفي الحديث القدسي يابن آدم أتحبّب إليك بالإحسان وتتبغّض إليّ بالمعاصي، خيري إليك نازل وشرّك إليّ صاعد حتى كأنّ لك المنّة عليّ وأنا المحتاج إليك.

فإن قلت ذكرت أنّ صاحب هذه المرتبة يشتغل عن استعمال القوة الشّهوانيّة والقوة النّفسانيّة فما للأنبياء وأوصيائهم والأولياء ممّن حصّل هذه المنزلة لم يمنعوا أنفسهم عن القوّتين بل كانت القوة الشهوانيّة فيهم أكثر منها في غيرهم، فقد نقل أنّ سليمان عليه السلام كان يصحب معه على البساط ألف امرأة منكوحة منها سبعمائة من الإماء، وثلاثمائة من الحرائر، وقيل أنّه كان يطوف عليهن في ليلة، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وآله فقد مات عن تسع وقد أكثر من الزوجات؛ وكذلك الأئمّة صلوات الله عليهم؛ وأمّا القوّة الأُخرى فروي أنّ الحسن والصادق عليهما السلام وكذلك الرضا عليه السلام كانوا يتأنّقون في المأكل والملبس والمشرب مع أنّ تلك الدرجة لم يبلغ كمالها أحد سواهم، قلت هاتان اللذّتان الواقعتان في هذا العالم على قسمين:

القسم الأول ما نوقعه نحن منهما لداعي الشهوة المركبة في الأبدان ولأجل الالتذاذ وطلباً للأولاد والتّكاثر، ومن هنا ترى الزّاني لا يزني إلّا أن يكون على لذة منه، بل قيل إنّ الزنا ألذّ عند أهله من الحلال، وحكى صاحب الكشكول أنّ رجلاً

كانت له امرأة وكان يتركها ويمضي إلى الزنا فقالت له امرأته يوماً أيّها الرجل عندك حلال طيب فتدعه وتمضي إلى الزّنا؛ فقال لها أمّا قولك حلال فنعم وأما قولك طيب فلا، وفيه أيضاً أنّ رجلاً كان يلوط بالأولاد فعاتبته امرأته وقالت إنّ الذي تطلبه من الغلمان عندي أنا الفرد الأحسن، فقال نعم عندك منه الأحسن لكن الذي عندك له جار مؤذ وهو غير حسن فنحن نترك ما عندك لكراهة جاره، فانظر إلى هذا الرجل قبّحه الله كيف أجابها، ولعله صادق باعتقاده، وذلك لأنّ النّفس حريصة على ما منعت عنه مع معاونة الشياطين وتسويلاتهم وأين هؤلاء من جميل العاشق.

كما روي أنّ بثينة دخلت يوماً على عبد الملك بن مروان فقال يا بثينة ما أرى شيئاً ممّا كان يقول جميل، فقالت يا أمير المؤمنين إنّه كان يرنو إليّ بعينين ليستا في رأسك، قال فكيف صادفته في عفّته، قالت كما وصف نفسه:

لا والذي تسجد الجباه له ... ما لي بما دون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلّا الحديث والنظر

وعن أبي سهل الساعدي قال دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت، فقال لي أباسهل إنّ رجلاً يلقى الله ولم يسفك دماً حراماً ولم يشرب خمراً ولم يأت بفاحشة أترجو له، قلت أي والله فمن هو؟ قال إنّي لأرجو أن أكون ذلك، فذكرت بثينة فقال إنّي لفي آخر يوم من الدّنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدّثت نفسي بريبة قطّ.

وأمّا القليل منّا فربما ضمّوا إلى الدّواعي المذكورة سابقاً الاستنان بسنّة النبيّ ﷺ لما سمع فيه من مراتب المثوبات، روي أنّ سليمان عليه السلام مرّ يوماً بعصفور يقول لزوجته ادني منّي حتى أجامعك لعل الله يرزقنا ولداً ذكراً يذكر الله تعالى فإنّا كبرنا؛ فتعجّب سليمان عليه السلام وقال هذه النيّة خير من مملكتي.

وأمّا أحبّاؤه تعالى فهم إنما يأتون هذه الشهوات والمستلذات لا للدّواعي التي فينا بل لأنّه تعالى أمرهم باستعمالها؛ فهي وإن كانت لذيذة في الحس عندنا إلّا أنّ أعظم لذتها في المعنى عندهم؛ لأنّهم لا يستلذون إلا بما فيه رضى محبوبهم؛ ومن ثمّ لم يستلذوا من المحرمات استلذاذ غيرهم منّا، ومن هذا قال أمير المؤمنين عليه السلام لو أدخلتني نارك لم أقل إنّها نار، وأقول إنّها جنّتي لأنّ جنتي رضاك فأينما أنزلتني أعرف أنّ رضاك فيه:

وهجره أعظم من ناره ... ووصله أطيب من جنّته

وقال له سلمان الفارسيّ رضي الله عنه يا أمير المؤمنين أتحب الموت أم الحياة؟ فقال لا أُحبّ إلّا ما أحبّه لي مولاي، وأمّا طلب الجنان والخلاص من النيران فإنّما هو مقصد التجّار والعبيد كأمثالنا، وذلك لأنّ طلب النّعمة واللّذة يكون على وجوه ثلاثة أعلاها أن تكون لذّته بالمنعم لا بالنّعمة ولا بالإنعام، ومثاله من المشاهدات أنّ السلطان إذا أراد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان فيتصوّر أنّ لذة المنعم عليه وفرحه بالفرس على وجوه ثلاثة:

الأول: أن يفرح بالفرس من حيث إنّها مال، ولو وجدها في صحراء لكان يفرح بها ذلك الفرح فهذا فرح من لا حظّ له في السلطان.

الثاني: أن يفرح به لا من حيث إنّه فرس بل من حيث يستَدلّ به على عناية الملك وشفقته حتى لو أعطاها غير الملك لم يفرح بها أصلاً لعدم احتياجه إلى الفرس.

الثالث: أن يفرح به ويستلذ به ليركب ويخرج في خدمة الملك ويتحمّل مشقّة السّفر لينال بخدمته رتبة القرب منه فيرتقي إلى درجة الوزراء؛ ثم إنّه ليس يريد من الوزارة نفس الوزارة بل مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خيّر بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب. فهذه ثلاث درجات، فالأولى درجة الجهّال وأكثر النّاس الذين يفرحون بالأموال والنّعم لكونها أموالاً، ولا فرق عندهم في تحصيلها من يد نبيّ من الأنبياء أو مجوسيّ من المجوس، وأمّا الدّرجة الثانية فهي درجة الأحباب والأخلاّء الذين يفرحون بنعم الله ولذات الدنيا من حيث إنّه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه والنّزول في جواره.

وقد روي أنّ واحداً من الصحابة دخل على النّبي صلى الله عليه وآله فإذا هو شادّ حجراً على بطنه من الجوع؛ وهو مستلقٍ على قفاه لا يقدر على الجلوس وهو يقول: اللّهم إنّي أعوذ بك من نوم يضجع على الفراش ويشغلني عن طاعتك. فهم عليهم السلام إنّما يريدون الأكل ليقووا به على الطاعة والخدمة لمحبوبهم.

وأما المرتبة الخامسة وهي الوله والهيام وأن لا يكون في القلب والخيال سوى ذلك المعشوق فهذه آخر المراتب، وهذه آخر مراتب الخليل عليه السلام كما قال عليه السلام إنّما سمي إبراهيم لأنّه برّ فهام، يعني أنّه هام في الحب حتى انه لم يكن له شغل ولم يكن في قلبه أحد سوى ذلك الحبيب؛ وهذه درجة النّبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وهي التي أشار عليّ بن الحسين عليه السلام إلى طلبها بقوله وفرّغ قلبي لمحبّتك، يعني يكون فارغاً من محبّة كلّ أحد ويكون مقصوراً عليك وحدك، قال بعضم رأيت امرأة

مستقبلة البيت في غاية الضرّ والنحافة رافعة يديها تدعو، فقلت لها هل من حاجة؟ قالت حاجتي أن تنادي بالموقف بقولي:

تزوّد كلّ النّاس زاداً يقيهم ... وما لي زاد والسّلام على نفسي

ففعلت فإذا أنا بفتى منهوك؛ فقال أنا الزاد فمضيت معه إليها فما زادت على النظر والبكاء، ثم قالت له انصرف مصاحباً، فقلت ما علمت أنّ لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت أمسك أما علمت أنّ ركوب العار ودخول النار شديد.

قيل لأعرابي ما بلغ من حبك لفلانة؟ قال إنّي لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف فأجد من ذكرها رائحة المسك. وسأل الرّشيد رجلاً: ما أشدّ ما يكون من العشق؟ قال أن يكون ريح البصل منه أحبّ من ريح المسك من غيره.

عبدالله بن عجلان الهذلي أحد العشّاق المذكورين تزوّجت عشيقته فرأى أثر كفّها على ثوب زوجها فمات كمداً؛ وزار علي بن عبيدة الرّيحاني جارية كان يهواها وعنده إخوانه؛ فحان وقت الظهر فبادروا إلى الصلاة وهما يتحدّثان، فأطالا حتى كادت الصلاة تفوت، فقيل يا أباالحسن الصلاة، فقال رويدك حتى تزول الشمس، يعني تذهب المرأة. أبو العيناء: أضحكني بائع رمّان يقول وقعت من فوق جبال الهوى إلى بحار الحبّ طر طب، عشق رجل امرأة فقيل له ما بلغ من عشقك لها؟ قال كنت أرى القمر على سطحها أحسن منه على سطوح النّاس. ليلى العامريّة مع قيس:

لم يكن المجنون في حالة ... إلاّ وقد كنت كما كانا

لكنّه باح بسرّ الهوى ... وإنّني قد دنت كتمانا

وفي الرّواية أنّ سليمان عليه السلام رأى عصفوراً يقول لعصفورته لم تمنعيني نفسك ولو شئت أخذت قبّة سليمان بمنقاري فألقيتها في البحر؛ فتبسّم سليمان من كلامه، ثمّ دعا بهما فقال للعصفور أتطيق أن تفعل ذلك، فقال لا يا رسول الله ولكنّ المرء قد يزيّن نفسه ويعظّمها عند زوجته والمحبّ لا يلام على ما يقول، فقال سليمان عليه السلام للعصفورة لم تمنعيه من نفسك وهو يحبّك؟ فقالت يا نبيّ الله إنّه ليس محبّاً ولكنّه محبّ مدّع لأنّه يحبّ معي غيري، فأثّر كلام العصفورة في قلب سليمان عليه السلام وبكى بكاءً شديداً واحتجب عن النّاس أربعين يوماً يدعو الله أن يفرغ قلبه لمحبّته وأن لا يخالطها بمحبّة غيره، إذا تحقّقت هذا كلّه فاعلم أنّ أهل دعوى

محبة الله كثيرون والدعوى لاتصدق إلا بالشاهد والشواهد هنا وإن كانت كثيرة إلّا أنّ أظهرها وأقواها أمور ثلاثة:

الأول: النّحول والسّقم والذبول؛ لأنّها صفات العاشق سيّما العاشق الذي يكون من الوصال في شكّ ومن الحبيب على حذر؛ فإنّ نار الحب إذا اشتعلت بالقلب سرى تأثيرها إلى باقي الأعضاء لأنّها جنوده وتوابعه، والنّقص الدّاخل على السلطان يدخل على الرعيّة.

وروي أنّه قال رجل لسيّد العاشقين أمير المؤمنين عليه السلام ما بال وجهك تعلوه الأنوار وأنت على هذا الحسن والجمال، وغيرك من العبّاد وأهل الحب على حال عظيم من اصفرار الوجه ونحول البدن وضعف القوّة؛ فقال عليه السلام أولئك العبّاد والأحباب أحبّوا حبيباً وهم لا يعرفون حالهم عنده أراض عنهم أم غير راض، ولا يعلمون أنّه قبل خدمتهم أم لا؛ وأمّا أنا فقد عرفت حالي عنده، وأنّي راضٍ عنه وهو راضٍ عنّي، فصار خاطري مطمئنّاً فلا يصفر وجهي ولا ينحل بدني. وإن أردت وصف حال المحبّين فانظر في أحوال يحيى بن زكريّا عليه السلام تجد حالاً غريباً وطرزاً عجيباً.

روينا بالأسانيد الكثيرة عنه عليه السلام أنّه قال كان من زهد يحيى بن زكريا عليه السلام أنّه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والرّهبان عليهم مدارع الشعر وبرانس الصوف، وإذا هم قد خرقوا تراقيهم وتركوا فيها السّلاسل وشدّوها إلى سواري المسجد؛ فلمّا نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال يا أمّاه انسجي لي مدرعة من شعر. وبرنساً من صوف حتى آتي بيت المقدس فأعبد الله مع الأحبار والرّهبان، فقالت له أمّه حتى يأتي نبيّ الله فأؤامره في ذلك؛ فلمّا دخل زكريا عليه السلام أخبرته بمقالة يحيى؛ فقال له زكريّا يا بني ما يدعوك إلى هذا وإنّما أنت صبيّ صغير؟ فقال له يا أبه أما رأيت من هو أصغر سنّاً منّي قد ذاق الموت، قال بلى، ثمّ قال لأمّه انسجي له مدرعة من شعر وبرنساً من صوف؛ ففعلت فتدرّع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه، فأقبل يعبد الله عزّ وجلّ مع الأحبار حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه، فنظر يوماً إلى ما قد نحل من جسمه، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أتبكي ممّا قد نحل من جسمك؟ وعزّتي وجلالي لو اطّلعت إلى النّار اطّلاعة لتدرّعت مدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج، فبكى حتى أكلت الدّموع لحم خدّيه، ثم بدا للنّاظرين أضراسه فبلغ ذلك أمّه، فدخلت عليه وأقبل زكريّا واجتمع الأحبار والرهبان فأخبروه بذهاب لحم خدّيه، وقال ما شعرت بذلك.

فقال زكريّا ما يدعوك إلى هذا إنّما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرّ بك عيني، قال

أنت أمرتني بذلك يا أبه، قال ومتى ذلك يا بنيّ؟ قال ألست القائل إنّ بين الجنّة والنّار لعقبة لا يجوزها إلّا البكّاءون من خشية الله تعالى، قال نعم فجدَّ واجتهد فشأنك غير شأني، فقام يحيى فنفض مدرعته فأخذته أمّه فقالت أتأذن لي يا بنيّ أن أتّخذ لك قطعتي لبود تواريان أضراسك، وتنشفان دموعك، فقال لها شأنك، فاتّخذت له قطعتي لبود تواريان أضراسه وتنشفان دموعه، حتى ابتلّتا من دموع عينيه، فحسر عن ذراعيه ثمّ أخذهما فعصرهما فتحدّر الدموع من بين أصابعه، فنظر زكريّا إلى ابنه وإلى دموع عينيه فرفع رأسه إلى السماء فقال اللّهم هذا ابني وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الرّاحمين.

وكان زكريّا عليه السلام إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل يلتفت يميناً وشمالاً فإذا رأى يحيى لا يذكر جنّة ولا ناراً، فجلس ذات يوم يعظ بني إسرائيل وأقبل يحيى فلفّ رأسه بعباه وجلس في غمار النّاس والتفت زكريّا يميناً وشمالاً فلم ير يحيى، فأنشأ يقول حدّثني حبيبي جبرائيل عليه السلام عن الله عزّوجلّ أنّ في جهنّم جبلاً يقال له السّكران في أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان يغضب لغضب الرحمن تبارك وتعالى، في ذلك الوادي جبّ قامته مئة عام؛ في ذلك الجبّ توابيت من نار، في تلك التّوابيت صناديق من نار وسلاسل من نار وأغلال من نار؛ فرفع يحيى رأسه وقال وا غفلتاه عن السكران ثم أقبل هائماً على وجهه، فقام زكريّا عليه السلام من مجلسه فدخل على أمّ يحيى فقال يا أمّ يحيى اطلبي يحيى فإنّي أخاف أن لا نراه إلّا وقد ذاق الموت؛ فقامت وخرجت في طلبه حتى مرّت بفتيان من بني إسرائيل، فقالوا لها يا أمّ يحيى أين تريدين؟ قالت أريد أن أطلب ولدي يحيى ذكرت النار عنده فهام على وجهه، فمضت أم يحيى والفتية معها حتى مرّت براعي غنم، فقالت له يا راعي هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا، فقال لها لعلّك تطلبين يحيى بن زكريّا، قالت نعم ولدي ذكرت النّار بين يديه فهام على وجهه، فقال إنّي تركته الساعة على عقبة ثنيّة كذا وكذا ناقعاً قدميه في الماء رافعاً بصره إلى السماء يقول وعزّتك يا مولاي لا ذقت بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلتي منك، فأقبلت أمّه فلمّا رأته أمه دنت منه فأخذت برأسه ووضعته بين ثدييها وهي تناشده بالله أن ينطلق معها إلى المنزل، فانطلق معها حتى أتى المنزل.

فقالت له أم يحيى هل لك أن تخلع مدرعة الشعر وتلبس مدرعة الصوف فإنّه ألين ففعل وطبخت له عدساً فأكل واستلقى فنام فذهب به النّوم فلم يقم لصلاته؛ فنودي في منامه يا يحيى ابن زكريّا أردت داراً خيراً من داري وجواراً خيراً من جواري، فاستيقظ فقام، فقال يا ربّ أقلني عثرتي؛ إلهي فوعزّتك لا أستظلّ بظلّ سوى بيت

المقدس، وقال لأمّه ناوليني مدرعة الشعر، فتقدّمت أمّه فدفعت إليه المدرعة وتعلّقت به، فقال لها زكريّا يا أم يحيى دعيه فإنّ ولدي قد كشف له عن قناع قلبه ولن ينتفع بالعيش؛ فقام يحيى فلبس مدرعته ووضع البرنس على رأسه ثمّ أتى بيت المقدس فجعل يعبد الله عزّوجلّ مع الأحبار حتى كان من أمره ما كان.

أقول فهذا حال يحيى لأنّه كان محبّاً، وفي الرواية أنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم؟ قالوا الخوف من النّار، فقال حقّ على الله أن يؤمن الخائف، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً كأن على وجوههم المَرائي من النّور، فقال ما الذي بلغ بكم؟ قالوا نحبّ الله عزّوجلّ ، فقال أنتم المقرّبون أنتم المقربون، كيف لا وهذا مشاهد في العالم المجازي، فلقد شاهدنا من خلا قلبه من حب الله فأذاقه حبّ غيره نحيلاً ضعيفاً عديم القوّة.

وقد بالغ الشعراء كلّ مبالغة في وصف نحول العاشق، فقال بعضهم:

ولو أنّني علّقت في رجل نملة ... لسارت ولم تعلم بأنّي علقت
ولو نمت في عين البعوض معارضاً ... لما علمت في أي زاوية نمت
ولو وضعوني وسط حبّة خردل ... لبانت خوافيها الجميع ولا بنت

وقال أبو الطيّب:

كفى بجسمي نحولاً أنّني رجل ... لولا مخاطبتي إيّاك لم ترني

وقال الخبّاز البلدي:

كلّ الهوى صعب ولكنّني ... بليت بالأصعب من أصعبه
أنحلني الحبّ فلو زج بي ... في مقلة الوسنان لم ينتبه
وكان لي فيما مضى خاتم ... واليوم لو شئت تمنطقت به

وقد نسبوا هذه الأبيات للعلاّمة الحلّي طاب ثراه:

لي في محبّته شهود أربع ... وشهود كلّ قضيّة إثنان
خفقان قلبي واضطراب مفاصلي ... وشحوب[1] لوني واعتقال لساني

---

(١) شحب شحوباً لونه: تغير من جوع أو مرض أو نحوهما.

وفي أمالي الزجاج: أبو بكر بن شقير النّحوي قال أخبرنا أحمد بن عبيد قال خبّرت عن هشام بن عروة عن أبيه عن النّعمان بن بشير، قال بعثني عثمان أو معاوية على صدقات بني عذرة فصدقتهم وارتحلت عنهم، فلمّا ظننت أنّي قطعت بلادهم رفع لي بيت فقصدته، فإذا بفنائه شابّ مستلقٍ على قفاه لم يبق منه إلّا عظم على جلد، فلمّا أحسّ بي ترنّم بصوت ضعيف، وأنشأ يقول:

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعرّاف هجر إن هما شفياني
فقالوا نعم نشفي من الدّاء كلّه ... وقاما مع العوّاد يبتدراني
فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة إلّا وقد سقياني
فقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما ضمّت منك الضلوع يدان

ثم خفت فنظرت فإذا في صدر البيت عجوز؛ فقلت لها يا هذه اخرجي إلى هذا الفتى فإنّي أظنّه قد مات، فقالت وأنا أظن ذاك أيضاً والله ما سمعت له أنّة منذ سنة إلا اليوم فإنّه قال في أوّله:

من كان من أُمهاتي باكياً شجني ... فإنّني قد أراني اليوم مقبوضا
يسمعنينه فإنّي غير سامعه ... إذا علوت على الأعواد معروضا

ثمّ خرجت فإذا هو ميت فغسلته وكفنته وصلّيت عليه ودفنته، ثم قلت للعجوز من هذا؟ فقالت هذا قتيل الحبّ عروة بن خزام.

الثاني: من العلامات السّهر والقلق والاضطراب عند ذكره وأن لا يشتغل بغيره، أما السهر فلأنّه طريق العاشق من جهة نار الهجران وانتظاراً لوقت الوصال سيّما اللّيل السّتّار، وفي الحديث القدسي يا موسى كذب من زعم أنّه يحبّني وهو ينام طول ليله، أليس كلّ حبيب يحبّ الخلوة مع حبيبه، يابن عمران لو رأيت الذين يصلّون لي في الدّجى وقد مثلت نفسي بين أعينهم يخاطبوني وقد جللت عن المشاهدة؛ ويكلّموني وقد عززت عن الحضور! يابن عمران هب لي من عينك الدموع ومن قلبك الخشوع ثم ادعني في ظلم اللّيالي تجدني قريباً مجيباً. وسئل عليه السلام ما بال المتهجدين في الأسحار من أحسن الناس وجوهاً؟ قال لأنّهم خلوا بربّهم فكساهم من حلل أنواره، وذلك أنّك ترى القائمين في الأسحار على هيئة من الحسن المعنوي، وإن لم يكن فيهم هذا الحسن الظاهري وما ذلك إلا لتلك الخلوة مع الحبيب.

وفي الحديث القدسي يا أحمد ليس من قال إنّي أُحبّ الله تعالى أحبّني حتّى

يأخذ قوتاً ويلبس دوناً (درناً خ) وينام سجوداً ويطيل قعوداً، ويلزم صمتاً ويتوكّل عليّ ويبكي كثيراً، ويقلّ ضحكاً ويخالف هواه، ويتّخذ المسجد بيتاً والعلم صاحباً، والزهد جليساً، والعلماء أحباباً والفقراء رفقاء، ويطلب رضائي ويفرّ من سخطي ويهرب من المخلوقين هرباً، ويفرّ من المعاصي فراراً ويشتغل بذكري اشتغالاً فيكثر التسبيح دائماً ويكون بالوعد صادقاً وبالعهد وافياً، ويكون طاهراً وفي الصلاة زاكياً؛ وفي الفرائض مجتهداً وفيما عندي من الثواب راغباً، ومن عذابي راهباً مشفقاً ولأحبابي قريناً وجليساً.

وأما القلق والاضطراب فهي من لوازم العاشق إذا ذكر محبوبه كما قال عزّ من قائل في صفات أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وذلك أنّ العاشق تتحرّك نار وجده وتشب عند ذكر المعشوق وكذلك أكثر عروقه وأعضائه؛ ومن هذا استدلّ الطبيب الحاذق على معرفة المعشوق عند كتمان العاشق هواه، وقد وقع في قرب أعصارنا مثل هذا وهو أنّ شابّاً من أولاد الأكابر قد عشق امرأة في بعض بلاد الهند، واتّفق أنّ أباه أراد السفر إلى منزله في اصفهان فأتى بذلك الولد معه وقد كان ذلك الولد يكتم ذلك الحبّ، فلمّا وصلا إلى اصفهان زاد شوقه والتهبت نار فراقه وبقي يصفر وجهه وينحل بدنه يوماً فيوماً ولا يدري ما علّته حتى ضعف عن حركة المشي فبقي نائماً على الفراش؛ وقد أعيت الأطباء عن علاجه ومعرفة علّته فأتوا إليه بطبيب حاذق وتأمّله فقبض على نبضه وقال يا صبي مرضك من الشيء الفلاني أم من الشيء الفلاني، فجعل يعدّ عليه الأمراض حتى بلغ إلى العشق، فلمّا عدّه تحرك النبض حركة شديدة فعرف أنّ علّته العشق ثم شرع يعدّ له البلدان بأنّ معشوقك في البلد الفلاني أم في البلد الفلاني حتى ذكر تلك البلدة فتحرك النّبض أيضاً مثل تلك الحركة أيضاً، فأمر الطبيب بإحضار من يعرف أهل تلك البلدة فلمّا حضرت عدّ له نساء تلك البلدة وبناتها، فلمّا انتهى إلى تلك المرأة تحرك النّبض أشدّ من الحركتين الأوليين فعلم أنّ محبوبته تلك المرأة، فتوصّلوا إلى تحصيلها.

وأمّا في العالم الحقيقي فقد كان الخليل عليه السلام يسمع أزيز صدره عند ذكر الله على ميل، وكان صدره يغلي كغليان القدر، وأما عدم الاشتغال بغيره فهي عادة العاشقين، وأعمال الجوارح تظهر ما يجنّ القلب وذلك أنّ نار المحبة كامنة فيه، فإن وقعت نار محبة القلب في عود أو بخور فاحت رائحته على الأعضاء وعرف منها

ورود تلك النار الكامنة على ذلك الجسم الطيّب، وإن وقعت تلك النار في خرق بالية ظهرت رائحتها المنتنة من الأعضاء والجوارح لأنّها كما عرفت من خدمه وتوابعه فهي التي تظهر ما أضمره القلب كدموع العاشق، فإنّه إذا أراد كتمان الهوى نمّت عليه الدموع وأظهرت ما كتم:

كتمت الهوى في القلب حتى ختمته ... فباحت به العينان والدّمع مطرق

ومن كان ذا عشق وإن كان جاحداً ... فإن الهوى في عينه حين ينطق

ألا ترى أنّك لو جلست مع رجل لم تعرف حاله ولم تطلع على باطن أمره وما أجنّه في قلبه فإذا أردت أن تعرف فحاوره في أنواع المكالمَات وانظر ميله إلى أي نوع يتكلّم به فاعلم أنّ ما في قلبه هو حب ذلك الشيء؛ وذلك أنّك ترى أهل الدراهم والدّنانير لا يحبّون منك حديثاً إلّا إذا اشتمل على مقالتها وبيَّن أحوالها وما يترتب عليها من النّفع الدنيوي فتعلم من هذا أنّ محبوبه هو هذا لا غير؛ وكذلك أنواع العشق وهذه قاعدة يضطرّ على فعلها الإنسان حتى إنّه لو تكلّف إظهار غير محبوبه سبقه اللسان إليه ومالت الجوارح إلى خلاف ما تكلّفه، وهذا شأن حب العالمين، وما أحسن قول رابعة العدويّة في العالم الحقيقي:

أحبّك حبّين حبّ الهوى ... وحبّاً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حبّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمّن سواكا

وأمّا الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وينظر إلى هذا قول بعض العارفين إنّي أقول يا رب يا الله فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال، لأنّ النداء يكون من وراء حجاب؛ وهل رأيت جليساً ينادي جليسه، وقد أشار بعضهم إلى مثل هذا حيث قال:

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كان أحسده ... وصرت مولى الورى اذ صرت مولائي

تركت للنّاس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

وذلك أنّ لذة الذكر أعلى من كل لذة لأنّه من واردات القلوب؛ ولذّات القلب أعظم من لذّات الحواسّ في النّشأتين؛ لأن الجنّة معدن تمتّع الحواس، فأمّا القلب فلذته في لقاء الله فقط، ومثاله في أطوار الخلق في لذّاتهم ما نذكره، وهو أنّ الصبيّ

في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللّعب واللّهو حتى يكون ذلك عنده ألذّ من سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذّة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها؛ ثم يظهر له لذة الرياسة والعلوّ والتّكابر وهي آخر لذات الدنيا وأقواها كما قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ﴾ [الحديد: ٢٠] الآية، ثم بعد هذا يظهر له غريزة أُخرى يدرك بها لذّة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستقر معها جميع ما قبلها وكل متأخّر فهو أقوى، وهذا هو الأخير إذ يظهر حبّ اللّعب في سن التّمييز وحبّ النساء والزينة في سنّ البلوغ، وحبّ الرياسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين وهي الغاية العليا، وكما أنّ الصبي يضحك على من يترك اللّعب ويشتغل بملاعبة النّساء وطلب الرياسة، وكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى، والعارفون يقولون إن تسخروا منّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون، ولكن الإشتغال بمعرفة الله تعالى يقتضي أن لا يصدر منه شيء من المعاصي ولقد أحسن ابن المبارك في قوله حتى إنّ الصادق عليه السلام تمثّل به:

تعصي الإله وأنت تذكر حبّه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحب لمن يحب مطيع

وروي عن ذي النون المصري أنّه قال خرجت يوماً من وادي كنعان، فلما علوت الوادي فإذا أنا بسواد مقبل علي وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] ويبكي، فلما قرب إليّ فإذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت من أنت غير فزعة مني، فقلت رجل غريب، فقالت يا هذا هل توجد مع الله غربة، قال فبكيت من قولها فقالت ما الذي أبكاك، قلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت يرحمك الله الصادق لا يبكي؟ قالت لا، قلت ولم ذاك؟ قالت لأنّ البكاء راحة للقلب، قال ذو النون فبقيت والله متحيّراً من قولها.

أقول: ونظير هذا في عالم الشهود أنّ مجنون ليلى كان ربّما أتاها وخلى بها؛ فإذا جاء زوجها أدخلته تحت ثيابها لئلاّ يراه أحد فإذا أخرجته قالت له ما رأيت تحت الثّياب قال وحقّك إنّي دخلت أعمى وخرجت أعمى، وكان يغمض عينيه خوفاً من أن يقع نظره على بدنها فتبرد نار العشق، وهكذا كان أحوال العشّاق السّبعة، نعم روى الزّجاج في أماليه عن أبي عبدالله بن الملك النحوي قال حدثنا الزبير بن بكّار؛

قال روي أنّ عزّة دخلت على أُم البنين فقالت لها إن سألتك عن شيء تصدقيني؟ قالت نعم؛ قالت أقسمت عليك بأيّ شيء وعدت كثيراً حين يقول:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزّة ممطول تعنّى غريمها

قالت وعدته قبلة فمطلته سنة؛ فلما ألحّ بالتّقاضي هجرته؛ فضمني وإيّاه مضيق بعد حين فاستحيت منه فقلت حيّاك الله يا جمل (جميل خ) ولم أحيّه، فتبسم وأنشأ يقول:

حيّتك بعد الهجر وانصرفت فحيِّ ويحك من حيّاك يا جمل
ليت التحيّة كانت لي فأشكرها مكان يا جمل حيِّيت يا رجل

وهو على تقاضيه إلى الآن، قالت أُم البنين بالله إلّا قضيتها وعليّ إثمها.

أقول ما كان من كثير رحمه الله يجوز مثل هذا بل كان الواجب عليه ما فعل جميل من الصنع الجميل.

فإن قلت ذكرت أنّ من أفراط في المحبة شغل قلبه المحبوب وصار وقت الذكر له لا يخطر على خاطره إلّا ذلك الحبيب فكيف أحسّ أمير المؤمنين عليه السلام بسؤال السائل حتى تصدّق بالخاتم؛ مع أنّه عليه السلام كان لم يحس بألم إخراج النصال من بدنه إذا كان في الصلاة؛ قلت الذي ينافي الإقبال القلبي عن جنابه تعالى هو التذكر لأمور الدنيا والشغل بها، والتوجه إلى سؤال ذلك السائل لم يكن من ذلك الباب؛ وذلك أنّ السائل لمّا سأل ولم يجبه أحد، قال اللّهمَّ أشهدك أني سألت في مسجد نبيّك فلم يجبني أحد بشيء فانكسر خاطره فتدارك ذلك الانكسار بالإشارة إليه بالخاتم الذي كان سبباً لوصوله إلى اقتسام صفات الربوبيّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، فهو انتقال من عالم صفات الربوبية أعني تولّي الأمور العامة ورجوع اختيارها إليه، كما رجعت إلى الله تعالى ورسوله ولا رتبة أعلى منها سوى ما تفرّد به سبحانه من لوازم الإلهيّة.

بل روي في بعض الأخبار أنّ ذلك السائل كان ملكاً أرسله الله في صورة رجل سائل إلى مسجد النّبي صلى الله عليه وآله امتحاناً للصحابة بمثل هذا التكليف، بل روي أيضاً أنّ ذلك السائل كان جبرائيل عليه السلام، وروي أنّ أبابكر قال تصدقت بخواتيم كثيرة وأنا في الصلاة لينزل فيَّ ما نزل في عليّ بن أبي طالب فلم ينزل، ولقد أحسن ابن الجوزي في وصف هذا الحال منه عليه السلام:

يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته عن النديم ولا يلهو عن الكاس

أطاعه سكره حتى تمكن من　　فعل الصحاة فهذا أعظم الناس

وتقدم الإشارة إلى هذه؛ فإن قلت إذا كان هذا الحبيب سبحانه أحسن الأحبّاء وأبقاها وأقبلها وأزينها وأملحها وأكثرها ميلاً إلى العاشقين فلم هجرته العشاق؟ ولم أقبلوا على الفرار منه، وعلى ارتكاب خلاف أقواله(١) ؟قلت سببه أنّ القلوب التي هي معدن هذا السر العظيم قد ابتليت بأعظم الأمراض؛ والمريض إذا استولى عليه الألم، يجد في ذوقه الحلو مراً والطيب خبيثاً، ولا يجد الشيء على حاله إلّا إذا صح من ذلك الوجع.

ثم اعلم أنّ أمراض القلب كثيرة وأنواعها مختلفة كأمراض البدن بل أزيد وكل مرض يحتاج إلى دواء وليس على كل مريض الاحتماء من شيء ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص، ووزانه من الدين أنّ كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة، وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنّها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها في الدّين، ثمّ إلى العلم بكيفيّة التّوصّل إلى الصبر عنها، ثمّ إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها، فهذه علوم مخصوصة اختص بها أطبّاء الدين وهم العلماء ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك.

ولذلك وجب أن يتكفّل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلّة أو مشهد فيعلّم أهلها دينهم، وتميُّز ما يضرهم عمّا ينفعهم وما يشقيهم عمّا يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل منه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنّهم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون في أبوابهم في الابتداء ويطلبون واحداً بعد واحد للإرشاد، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أنّ الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرّفه غيره، وهذا فرض على العلماء كافّة وعلى السلاطين أن يرتّبوا في كل قرية وكل محلّة فقيهاً متديّناً يعلّم الناس دينهم، فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهالاً فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع.

روي عنه عليه السلام قال إنّ الله تعالى لم يأخذ على الجهال أن يتعلّموا حتى أخذ أولاً

---

(١) وفي الحديث أنّ الله تعالى إذا أحب عبداً ألقى محبته إلى الماء فلا يشربه أحد إلا أحبه وإذا ابغض عبداً ألقى بغضه في الماء فلا يشربه أحد إلا ابغضه، منه عفي عنه.

على العلماء أن يعلّموهم؛ فالدنيا دار مرضى إذ ليس في بطن الأرض إلّا ميت ولا على ظهرها إلّا سقيم، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، والعلماء أطباء والسلاطين قوّام دار المرضى وكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم سلّم إلى السلطان ليكف شره[١] كما يسلّم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيّم ليقيّده في السّلاسل والأغلال ويكف شره عن سائر الناس. وإنّما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لوجوه ثلاثة

أحدها: إنّ المريض به لا يدري أنّه مريض، **وثانيها**: أنّ مرض الأبدان عاقبته موت مشاهد تنفر الطّباع منه؛ وما بعد الموت غير مشاهد فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتّكال.

والثالث: وهو الداء العضال فقد الطبيب فإنّ الأطباء هم العلماء وقد مرضوا مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتّى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإساءة إليهم بما يزيدهم مرضاً، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم، فبهذا السبب عم الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء، وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل أكثر الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشّوا وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا؛ وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنّهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم سوى ما يستميل قلوب العوام إلى الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذّ في الأسماع وأخف على الطباع، فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي؛ ومزيد ثقة بفضل الله عزّ وجلّ، ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه.

فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادّي العلة، أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلّيّة فتنكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء

---

(١) كيف يكون حال الناس ولا سيما الجهال إذا صار السلاطين والقوام من أهل البدع والأهواء وصاروا من أسباب العار والشنار على الإسلام وأما الأطباء فصاروا مرضى ومن أهل الدنيا كما في زماننا هذا:

هرچه بگندد نمکش میزنند   وای از آنروز که بگندد نمک

ليعود إلى الاعتدال، وكذا المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب، فأمّا معالجة المغرور المنهمك في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء، وذلك من دأب الجهّال والأغبياء؛ فإذن فساد الأطبّاء هي المعضلة التي لا تقبل الدواء أصلاً أعاذنا الله وإيّاكم من الأمور المبعدة عن جناب الحق إنّه على ما يشاء قدير.

نور في الصبر وأقسامه ومحاله وفوائده وما يتعلق به من المناسبات

اعلم وفقك الله تعالى أنّ القرآن والحديث قد أكثرا من مدحه حتى أنّه سبحانه وصف الصّابرين بأوصاف؛ وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصّبر وجعلها ثمرة له فقال عزّوجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، إلى غير ذلك من الآيات، وقال الصادق عليه السلام الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان، وقال عليه السلام إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره، والبرّ مظل عليه؛ ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه.

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية؛ فمن صبر عند المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، وما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، وما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش، وقال الصادق عليه السلام إنّا صبّر وشيعتنا أصبر منا؛ قيل له كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟ قال لأنّا نصبر على ما نعلم وشيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون؛ وقال صلى الله عليه وآله الصبر نصف الإيمان، فإن قلت ما معنى كونه نصف الإيمان؟ قلت قد ذكر له الغزالي في إحيائه وجهين:

الأول: أنّ الإيمان يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للإيمان ركنان

أحدهما اليقين، والآخر الصبر، والمراد باليقين المعارف القطعيّة، والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين؛ إذ اليقين يعرّفه أنّ المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار، ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال من اقلّ ما أُوتيتم اليقين وعزيمة الصبر.

الوجه الثاني: أن يراد من الإيمان ما ينفع في الدنيا والآخرة أو يضر فيهما وله بالإضافة إلى ما يضرّه حال الصّبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشّكر، فيكون الشّكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما كان اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول؛ وبهذا النظر قال بعض الصحابة الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، ولما كان الصبر صبراً عن بواعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين باعث من حيث الشهوة، وباعث من جهة الغضب؛ والشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً من مقتضى الشهوة فقط وهو شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال ﷺ بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً فيكون الصوم بهذا الاعتبار وربع الإيمان.

واعلم أنّ محامد الأخلاق كلها ترجع إلى الصبر لكن له اسم بكل واحد من موارده، فإنّ كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمّي عفّة، وإن كان على احتمال مكروه اختلف أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصّبر ويضادّ الجزع، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ويضادّه البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضادّه الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضادّه السفه، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان سمي سعة الصدر ويضادّه الضجر والتبرّم وضيق الصّدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السرّ، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضادّه الحرص، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضادّه الشره، ومن جهة دخول هذه المحاسن في الصبر لما سئل ﷺ عن الإيمان قال هو الصبر لأنّه أكثر أعماله وأعزّها كما قال الحجّ عرفة، وقد جمع الله ذلك فسمّى الكلّ صبراً فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي المصيبة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي الفقر، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ أي المحاربة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧] وبعضهم ظنّ أنّ هذه أحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها نظراً إلى تعدّد الأسامي والصّواب ما عرفت.

وأمّا الموارد المحتاجة إلى الصبر فأنواع: **أولها**: ما يوافق الهوى وهو الصحة

والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتّساع الأسباب وجميع ملاّذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر عن هذه الأمور فإنّه إن لم يضبط نفسه عن الركون إليها والانهماك في الملاذّ المباحة أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان فإنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى والرجل كل الرجل من يصبر على العافية.

وثانيها: الطاعة والصبر عليها شديد لأنّ النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبيّة، ولذلك قيل ما من نفس إلّا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله أنا ربكم الأعلى ولكن فرعون وجد له مجالاً فأظهر إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلّا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه ونحوهما وإن كان ممتنعاً من إظهاره فإنّ امتعاضه وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلّا من إظهار الكبر ومنازعة الربوبيّة في رداء الكبرياء؛ فإذن العبوديّة شاقّة على النّفس مطلقاً.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة؛ ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره ذلك بسبب جميعهما كالحج والجهاد وهذه الأمور تحتاج الصبر قبل العمل وحاله وبعده، أمّا قبله فبأن يصبّر نفسه على تصحيح النيّة والإخلاص عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وهذا يحتاج إلى صبر شديد على ما تقدم في تحقيق النيّة وهو الذي قصر تعالى أمره عليه في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وأما حالة العمل فلئلاّ يغفل عن ذكر الله تعالى في أثناء عمله ويدوم على شروط العمل إلى آخره؛ وأما بعد الفراغ فيحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للرياء والسمعة وعن كل ما يحبط أجره.

وثالثها: المعاصي وما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وذلك أنّ المعاصي خصوصاً الكذب والغيبة مألوفة بالعادة فإنّ العادة طبيعة خامسة (خاصّة خ) وإذا انضافت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله عزّ وجلّ، وكلّما كان الذنب ألذّ على النّفس كان الصبر عنه أثقل كالصبر عن الغيبة واستحقار النفس فإنّ ظاهره غيبة وباطنه ثناء على النّفس، فللنّفس فيه شهوتان: نفي الغير وإثبات نفسه وبهما يتمّ له الربوبيّة التي في طبعه وهي ضدّ ما أُمر به من العبوديّة.

ورابعها: ما لا يرتبط هجومه باختياره كما لو أُوذي بفعل أو قول أو جني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة.

خامسها: ما لا يدخل تحت الاختيار أوله ولا آخره كالمصائب مثل موت الأعزّة

وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء، والصبر على هذا لا يخلو من إشكال، وحيث انتهى بنا الحال إلى هذا فلا بأس ببسط الكلام في هذا المقام.

فنقول إنّ شيخنا الشهيد الثاني نور الله ضريحه قد كتب رسالة وسمّاها مسكن الفؤاد عند فقد الأحبّة والأولاد، وقد نظمها على سلك غريب ونمط عجيب إلّا أنّها لا تخلو من بعض الزوائد(١) فأحببنا تحرير دلائلها وأن نضيف إليها ما سنح بالبال ونضيف إليها بعض الأخبار، فنقول اعلم أولاً أنّه قد ثبت أنّ العقل هو الآلة التي بها

---

(١) رسالة لطيفة شريفة ليس فيها بعض الزوائد وفرغ شيخنا الشهيد الثاني قدس سره من تأليفها سنة (٩٥٤هـ) وسبب تصنيفه لها كثرة ما توفي له من الأولاد بحيث لم يبق منهم أحد إلا الشيخ حسن صاحب المعالم العلاّمة المحقق الشهير وكان لا يثق بحياته وقد استشهد وهو ابن أربع سنين أو سبع سنين وهذه الرسالة مطبوعة سنة (١٣٤٢هـ) في النجف الأشرف.

وغير خفي على القارىء العزيز أنّ كل تصانيف هذا الإمام العلاّمة الفائز بدرجة الشهادة من جلائل الكتب ونفائس الآثار ولكن ليس منها رسالة صلاة الجمعة المنسوبة إليه فإنها ليست منه ولا يليق أن تنسب إليه وإن نسب تلك الرسالة إليه صاحب المدارك والسيد علي الصائغ تلميذه في شرح الإرشاد وغيرهما قال صاحب رياض العلماء: قد يقال أنه لم يثبت انتسابها إليه ولو ثبت فلعلها كانت في أوائل حاله ولم يكن ماهراً في الفقه ولذلك صرح في شرح اللمعة بخلافه ثم قال أما انتسابها إليه فقد اتضح من مطاوي هذه الترجمة ومن تصريح سبطه صاحب المدارك وتصريح غيره بذلك وأما كونها من أوائل تصنيفه فغلط واضح لأن تاريخ تأليفها ربيع الأول سنة (٩٦٢هـ) قبل شهادته بأربع سنين فهي من أواخر مؤلفاته (اهـ) وعلى فرض أنها من تصنيفه فقد صرح في الروضة التي هي آخر مصنفاته بعدم الوجوب العيني ويدل ذلك على انه قد عدل عما في تلك الرسالة وممن صرح بعدم كونها من تصنيفه هو المحقق القمي صاحب القوانين رحمه الله في كتابه: (مناهج الأحكام)ـ وقد رأيت النسخة المخطوطة من ذلك الأثر الخالد بخطه الشريف وقال ما هذا لفظه: (إن ما نسب إليهـ يعني الشهيد الثانيـ من الرسالة التي كتب في الوجوب العيني مع غاية التأكيد والتهديد ليس منه كما بالغ في ذلك شيخنا المحقق دام ظله وقال: إنّ ما فيه لا يليق أن ينسب إلى جاهل فضلاً عن مثل الشهيد رحمه الله (اهـ).

أقول: من صنف في الفقه مثل شرح اللمعة والمسالك لا يليق أن ينسب إليه تلك الرسالة ويحتمل أنّه رحمه الله صنف رسالة في صلاة الجمعة ولكن بعض المغرضين من القاصرين حرفها وزاد فيها بعض المطالب المخالفة للقواعد الفقهية ونسبها إليه واشتبه الأمر على سبطه وتلميذه فحسبا أنها من تصنيفه.

والحق في المقام مع المحقق القمي رحمه الله في نفي تلك الرسالة عنه ولا أقل فقد صارت نسبتها إليه مشكوكة فلا يمكن الركون إليها والاعتماد عليها.

عرف الله تعالى وصدق الرسل والتزم أحكام الشرائع، ومثله كالنّور في الظلمة يزيد وينقص، فينبغي لمن رزقه الله العقل أن يعمل بمقتضاه ويجعله حاكماً له وعليه ويراجعه فيما يرشده إليه فيكشف له الرضا بالقضاء سيّما بفراق الأحباب من وجوه كثيرة.

منها أنّه إذا نظر إلى عدله وحكمته وشفقته بخلقه أن أخرجهم من العدم إلى الوجود وفعل بهم ما هو الأصلح لهم في كل أفعاله، ولا شك أنّ الموت من جملة ذلك فيكون هو الأصلح بهم، فإن حدثتك نفسك مثل رعاع الناس إذا مات لهم ميّت قالوا إنّ الصلاح في بقائه، فلو كان قد بقي لربّى أطفاله ولقام بأمور عياله، وربّما قالوا إنّ موت هذا باعث إلى موت ذلك الفقير لأنّه كان يصله ويعطيه، وهذه الكلمات الواهية هي الشّرك الخفي على ما تقدّم بيانه، وإن تيقّن أنّه الصّلاح لكن لم تطمئن نفسه ولم تسكن روعته فهو الحمق الجليّ الناشىء عن الغفلة في شأن الحكمة القديمة، حتى روي أنّ العبد ليدعو الله أن يرحمه ويجيب دعاءه في أمثال ذلك؛ فيقول الله تعالى لملائكته كيف أرحمه من شيء به أرحمه.

ومنها أنّه إذا تدبّر في أحوال الرّسل وصدقهم فيما قالوا وسمع ما وعدوا به من الثّواب على كل فرد من أنواع المصائب سهل عليه موقعه، وعلم أنّ له في ذلك تمام السعادة، وينبغي أن يمثل العاقل أنّه لو دهمه أمر عظيم أو سبع أو حيّة وكان عنده أعزّ أولاده وكان بحضرته نبيّ من الأنبياء وأخبره إنّك إنّ افتديت به سلمت أنت وولدك، وإن لم تفعل عطبت ولا يعلم هل يعطب ولدك أم يسلم، أيشكّ عاقل أنّ الافتداء بالولد الذي يتحقق به سلامتهما هو عين المصلحة.

روي عن النّبي ﷺ أنّه قال لعثمان بن مظعون وقد مات ولده واشتدّ حزنه عليه يابن مظعون إنّ للجنّة ثمانية أبواب، وللنار سبعة أبواب أفما يسرّك أن لا تأتي باباً منها إلّا وجدت ابنك إلى جنبه آخذاً بحجزتك يستشفع لك إلى ربّك حتى يشفّعه الله تعالى.

ومنها أنّ الأغلب أنّ الولد إنّما يراد إمّا لنفع الدنيا أو الأُخرى، ومنفعته على تقدير موته معلومة وعلى تقدير بقائه موهومة، بل المظنون عدمها لأنّ الزمان قد هرم وشاب كما قيل:

أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهرم

وأجابه بعض مشايخنا:

هم على كلّ حال أدركوا هرماً ونحن جئناه بعد الشيب والعدم

وتأمّل أكثر الخلق هل تجد أحداً منهم نافعاً لأبويه إلّا القليل حتى إذا رأيت واحداً فعّد أُلوفاً بخلافه، فإلحاقك ولدك الواحد بالفرد النادر عين الغفلة؛ هذا إذا كنت تريد أن تجعله وليّاً صالحاً فكيف وأنت لا تريده إلّا ليرث منك البيت والبستان والصّخرة والميزان، فدعه من هذا الميراث الخسيس واجعله ممّن يرث الفردوس الأعلى في جوار أولاد الأنبياء عليهم السلام مربّىً إن كان صغيراً في حجر سارة حتى لو كان مرادك أن تورثه علمك وكتبك فاذكر أنّ ذلك لو تمّ لك فما وعدت من ثوابه أكثر من هذا.

قال الصادق عليه السلام ولد واحد يقدّمه الرّجل أفضل من سبعين ولداً يبقون بعده يدركون القائم عليه السلام؛ واعتبر المثل وهو أنّه قيل إنّ رجلاً فقيراً معه ولد عزيز عليه وعليه خلقان الثّياب قد أسكنه في خرب مقفرة ذات سباع وحيّات، فاطلع عليه رجل حكيم ذو ثروة وقصور عالية، فأرسل إليه بعض غلمانه رحمة له، وقال له إنّ سيدي يقول لك إنّي رحمتك من هذه الخربة ورحمت ولدك وقد تلطّفت عليك بهذا القصر، ينزل به ولدك ويوكّل عليك جارية كريمة تقوم بخدمته إلى أن تقضي أنت أغراضك وتجيء إليه وتسكن معه، فقال ذلك الرجل أنا لا أرضى بمفارقة ولدي لا لعدم وثوقي بمولاك بل أعتقد أنّه صادق ولكن طبعي اقتضى ذلك، وما أُريد أن أُخالفه. فما كنت أيّها السامع تقول هذا الرجل تعدّه من الأغبياء فلا تقع في خلق لا ترضاه لغيرك.

واعلم أنّ لسع الأفاعي وأعظم آفات الدنيا لا نسبة لها إلى أدنى هول من أهوال الآخرة، فما ظنك بتوبيخ يكون مقداره ألف سنة أو أضعافه، ومنها أنّه ينبغي أن يفكر في أنّ الجزع يشتمل على عدم الرضا بالقضاء، وفي ذلك التعرض لذمّ الله تعالى حيث قال: من لم يرضَ بقضائي ولم يصبر على بلائي فليعبد رباً سوائي، وقال موسى عليه السلام دلّني على أمر فيه رضاك، قال إنّ رضائي في رضائك بقضائي، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود تريد وأريد وإنّما يكون ما أريد فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثمّ لا يكون إلّا ما أريد.

ومنها أن ينظر صاحب المصيبة إلى أنّه في دار قد طبعت على الكدر والعناء وجبلت على المصائب والبلاء فما يقع فيها من ذلك فهو بموجب طبيعتها، وإن وقع خلاف ذلك فهو على خلاف العادة، وقد نزل على الأولياء من المحن والشّدائد ما

تعجز عن حمله الجبال وقال ﷺ أشدّ النّاس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل؛ كيف لا وهي سجن المؤمن وجنّة الكافر، ومتى حصل فيهم محبوب كانت آلامه تزيد على لذّاته بأضعاف مضاعفة، وأقلّ حسراته الفراق الذي يفتّ الأكباد، فكلّ ما نظرت في الدنيا أنّه شراب فهو سراب، وعماراتها وإن علت إلى خراب:

له ملك ينادي كلّ يوم لدوا للموت وابنوا للخراب

وفي الحديث إنّ عبادي يطلبون منّي ما لا أخلقه وهو الرّاحة في الدنيا، ويدَعون طلب ما خلقته وهو النعيم المقيم ولقد أحسن بعض الفضلاء حيث رثى ابنه:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلّف الأيّام ضدّ طباعها متطلّب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنّما تبني البناء على شفير هار

روي عن علي عليه السلام: إن صبرت جرى عليك القضاء وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القضاء وأنت مأزور، فاغتنم شبابك قبل هرمك وصحّتك قبل سقمك؛ واجعل الموت نصب عينيك واستعدّ له بصالح العمل؛ ودع الاشتغال بغيرك فإنّ الأمر يأتي إليك دونه وقال علي عليه السلام إنّ أشدّ ما أخاف عليكم خصلتان اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فإنّه يعدل عن الحق، وأما طول الأمل فإنّه يورث الحب للدنيا.

وأوحى الله سبحانه إلى بعض الصدّيقين: إنّ لي عباداً من عبادي يحبّوني وأُحبّهم ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم؛ فإن أخذت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتّك، قال يا رب وما علامتهم؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الشفيق غنمه، ويحنّون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب فإذا جنَّهم اللّيل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرّة وخلا كلّ بحبيبه، نصبوا لي أقدامهم، وفرشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي، وتملقوني بإنعامي، فبين صارخ وباكٍ وبين متأوّه وشاكٍ وبين قائم وقاعد؛ وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحمّلون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبّي، أول ما أُعطيهم ثلاثاً: اقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كما أُخبر عنهم، والثاني لو كانت السمٰوات والأرض وما فيهما من موازينهم لاستقللتها لهم، والثالث أُقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ إذا عرفت هذا فلنتكلّم الآن في أمور:

الأول: في بيان الأعواض الحاصلة من موت الأولاد وما يقرب من هذا المراد.
إعلم أنّ الله سبحانه عدل حكيم لا يليق بكمال ذاته أن ينزل بعبده المؤمن في دار الدنيا شيئاً من البلاء وإنّ قلّ ثمّ لا يعوّضه عنه ما يزيد عليه إذ لو لم يعطه شيئاً كان ظالماً، ولو عوّضه بقدره كان عابثاً؛ وقد تظافرت بذلك الأخبار النّبويّة ومنها (فيها خ) إنّ المؤمن لو يعلم ما أعدّ الله تعالى له على البلاء لتمنّى أنه في دار الدنيا قرض بالمقاريض، وروى هذا الحديث عن السلمي أزيد من ثلاثين صحابيّاً، روى الصدوق رحمه الله بإسناده إلى السّلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أيّما رجل قدّم ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث أو امرأة قدّمت ثلاثة أولاد فهم حجاب يسترونه من النار، والحنث بكسر الحاء الذنب والمراد لم يبلغوا السنّ الذي يكتب عليهم فيه الذنب.

وقال الصادق عليه السلام ولد واحد يقدّمه الرجل أفضل من سبعين يخلفونه من بعده كلّهم قد ركب الخيل وقاتل في سبيل الله تعالى وقال عليه السلام ثواب المؤمن من ولده الجنّة صبر أو لم يصبر، وقال عليه السلام ولد يقدّمه الرجل أفضل من سبعين ولداً يبقون بعده يدركون القائم عليه السلام؛ وقال صلى الله عليه وآله إنّ العبد إذا سبقت له من الله تعالى منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله تعالى في جسده أو في ماله أو في ولده ثمّ صبّره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عزّ وجلّ، وقال أيضاً خمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله؛ والولد الصالح يتوفّى للمرء المسلم فيحتسبه، أي يعدّه حسبة وكفاية عند الله عزّ وجلّ، وقال عليه السلام تزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأُمم حتى إنّ السّقط ليظلّ محبنطئاً على باب الجنّة، فيقال له ادخل فيقول لا أدخل حتى يدخل أبواي والسّقط مثلّث السين والكسر أكثر هو الذي يسقط من بطن أمّه قبل تمامه؛ ومحبنطئاً بالهمز وتركه وهو المتغضّب المستبطىء للشيء. وقال صلى الله عليه وآله سوداء ولود خير من حسناء لم تلد إنّي مكاثر بكم الأمم حتى إنّ السّقط ليظلّ محبنطئاً على باب الجنّة فيقال له ادخل الجنّة يقول أنا وأبواي؛ فيقول له وأنت وأبواك، وقال صلى الله عليه وآله النفساء يجرها ولدها يوم القيامة بسررها إلى الجنّة، النّفساء بضمّ النّون وفتح الفاء[1] المرأة إذا ولدت، والسرر بفتح السّين ما تقطعه القابلة من سرّة المولود التي هي موضع القطع، وكأنّه يريد الولد الذي لم تقطع سرّته، وقال صلى الله عليه وآله من قدّم من صلبه ذكراً لم يبلغ الحنث كان أفضل من أن يخلف من بعده

(١) وبفتح النون وسكون الفاء وبفتحها أيضاً.

مائة كلّهم يجاهدون في سبيل الله تعالى لا تسكن روعتهم إلى يوم القيامة، وقال أيضاً لأن أقدم سقطاً أحبّ إليّ من أن أُخلف مائة فارس كلّهم يقاتل في سبيل الله تعالى، وقال إذا كان يوم القيامة خرج ولدان المسلمين من الجنّة بأيديهم الشراب، قال فيقول النّاس لهم اسقونا اسقونا فيقولون أبوينا أبوينا.

وروي عنه ﷺ إذا كان يوم القيامة نودي في أطفال المسلمين أن اخرجوا من قبوركم فيخرجون من قبورهم، ثم ينادى فيهم أن امضوا إلى الجنّة زمراً فيقولون ربّنا ووالدينا معنا، ثمّ ينادي فيهم الثانية أن امضوا إلى الجنّة زمراً فيقولون ربّنا ووالدينا معنا فيقال في الثالثة أنّ امضوا إلى الجنّة زمراً فيقولون ربّنا ووالدينا معنا؛ فيقول في الرابعة ووالديكم معكم فيثوب (فيسرع خ) كلّ طفل إلى أبويه فيأخذون بأيديهم فيدخلون الجنّة، فهم أعرف بآبائهم وأمّهاتهم يومئذ من أولادكم الذين في بيوتكم. وعن أنس أنّ رجلاً كان يجيء بصبيّ له معه إلى رسول الله ﷺ وأنّه مات فاحتبس والده عن رسول الله ﷺ؛ فسأل عنه فقالوا له مات صبيّه الذي رأيته معه، فقال ﷺ هلاّ آذنتموني فقوموا إلى أخينا نعزّيه؛ فلما دخل إليه إذا الرجل حزين وبه كآبة، فقال يا رسول الله كنت أرجوه لكبر سنّي وضعفي، فقال رسول الله ﷺ أما يسرّك أن يكون يوم القيامة بإزائك يقال له ادخل الجنّة فيقول ربّ وأبواي ولا يزال يشفع حتى يشفع الله تعالى فيكم ويدخلكم جميعاً الجنّة.

وعن أنس أيضاً قال توفّي ابن لعثمان بن مظعون رضي الله عنه فاشتدّ حزنه عليه حتى اتّخذ في داره مسجداً يتعبّد فيه، فبلغ ذلك النّبي ﷺ فقال يا عثمان إنّ الله عزّ وجلّ لم يكتب علينا الرهبانيّة، إنّما رهبانيّة أمّتي الجهاد في سبيل الله تعالى يا عثمان بن مظعون إنّ للجنّة ثمانية أبواب وللنّار سبعة أبواب أفما يسرّك أن لا تأتي باباً منها إلّا وجدت ابنك إلى جنبه آخذاً بحجزتك يستشفع لك إلى ربّك عزّ وجلّ ، قال فقيل يا رسول الله ولنا في أفراطنا ما لعثمان؟ قال نعم لمن صبر منكم واحتسب. الحجزة بضمّ الحاء المهملة والزاء موضع شدّ الإزار، ثم قيل للإزار حجزة، وعن قرة بن إياس أنّ النّبي ﷺ كان يختلف إليه رجل من الأنصار مع ابن له فقال له رسول الله ﷺ ذات يوم يا فلان تحبّه؟ قال نعم يا رسول الله أُحبّك كما أُحبّه، ففقده النّبي ﷺ فقالوا يا رسول الله مات ابنه، فقال رسول الله ﷺ أولا ترضى أن لا تأتي يوم القيامة باباً من أبواب الجنّة إلّا جاء يسعى حتّى يفتحه لك؛ فقال رجل يا رسول الله له وحده أم لكلّنا؟ فقال بل لكلّكم.

وروى البيهقي أنّ النّبي ﷺ كان إذا جلس تحلق إليه نفر من أصحابه وفيهم

رجل له بنيّ صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه إلى أن هلك ذلك الصبيّ فامتنع الرجل من الحلقة أن يحضرها تذكراً له وحزناً عليه، قال ففقده النّبي ﷺ فقال ما لي لا أرى فلاناً؟ قالوا يا رسول الله بنيّه الذي رأيته هلك فمنعه الحزن عليه والذّكر له أن يحضر الحلقة فلقيه نبي الله ﷺ فسأله عن بنيّه فأخبره أنّه هلك، فعزاه وقال يا فلان أيّما كان أحبّ إليك أن تمتّع به عمرك أو لا تأتي غداً باباً من أبواب الجنّة إلّا وجدته قد سبقك إليه ففتحه لك، قال يا نبيّ الله لا بل أن يسبقني إلى باب الجنّة أحبّ إليّ قال فذاك لك، فقام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله أهذا لهذا خاصّة أم من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له؟ قال بل من هلك له طفل من المسلمين كان له ذلك.

وقال ﷺ إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم، فيقول ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة وسمّوه بيت الحمد. وعن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: من دفن ثلاثة فصبر عليهم واحتسب وجبت له الجنّة، فقالت أمّ أيمن واثنين؛ فقال من دفن اثنين فصبر عليهما واحتسبهما وجبت له الجنّة، فقالت أمّ أيمن وواحداً فسكت وأمسك؛ ثم قال يا أمّ أيمن من دفن واحداً فصبر عليه واحتسبه وجبت له الجنّة.

وعن ابن مسعود قال دخل النّبي ﷺ يعزّيها بابنها قال بلغني أنّك جزعت جزعاً شديداً، قالت وما يمنعني يا رسول الله وقد تركني عجوزاً رقوباً، فقال لها رسول الله ﷺ لست بالرّقوب إنّما الرقوب التي تتوفّى وليس لها فرط ولا يستطيع النّاس أن يعودون عليها من أفراطهم فتلك الرّقوب؛ والرّقوب بفتح الراء التي لا يولد لها ولد ولا يعيش لها هذا بحسب اللّغة وقد خصّه النبيّ ﷺ بما ذكر. وعن زيد بن أسلم قال مات ولد لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً كثيراً فأوحى الله تعالى إلى داود: ما كان يعدل هذا الولد عندك؟ قال يا ربّ كان يعدل هذا الولد عندي ملء الأرض ذهباً، قال فلك عندي يوم القيامة ملء الأرض ثواباً.

وعن داود بن أبي هند قال رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت وكأنّ النّاس يدعون إلى الحساب، قال فقرب إليّ الميزان فوضعت حسناتي في كفّة وسيّئاتي في كفّة فرجحت السيّئات على الحسنات، فبينا أنا مغموم إذ أُتيت بمنديل أو كالخرقة البيضاء، فوضعت مع حسناتي فرجحت فقيل لي تدري ما هذا؟ قلت لا، قال هذا سقط كان لك قلت فإنّه كان لي ابنة، فقيل لي ابنتك ليست لك لأنّك كنت تتمنّى

موتها. وعن أبي شوذب أنّ رجلاً كان له ابن صغير لم يبلغ الحلم فأرسل إلى قومه فقال إنّ لي إليكم حاجة قالوا ما هي؟ قال إنّي أريد أن أدعو على ابني هذا أن يقبضه الله وتؤمّنون على دعائي، فسألوه عن ذلك فأخبرهم أنّه رأى في نومه كأنّ النّاس قد جمعوا ليوم القيامة وأصابهم عطش شديد، فإذا الولدان قد خرجوا من الجنّة معهم الأباريق وفيهم ابن أخ له، فالتمس منه أن يسقني فأبى وقال يا عمّ إنّا لا نسقي إلّا الآباء فأحببت أنّ الله يجعل ولدي هذا فرطاً لي، فدعا وأمّنوا فلم يلبث الصّبي حتى مات.

وعن محمد بن خلف قال كان لإبراهيم الحربي ابن له أحد عشر سنة قد حفظ القرآن ولقّنه أبوه العلم فمات، فأتيته لأُعزّيه فقال لي كنت أشتهي موته، فقلت يا أبا إسحاق أنت عالم الدّنيا تقول مثل هذا في صبيّ قد أنجب وحفظ القرآن ولقنته الحديث والفقه، قال نعم ثمّ قال رأيت في النوم كأنّ القيامة قد قامت وكأنّ صبياناً بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس يسقونهم وكان اليوم يوم حرّ شديد، فقلت لأحدهم اسقني من هذا الماء، قال فنظر إليّ وقال لي لست أنت أبي، قلت فأيّ شيء أنتم؟ قال نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلّفنا آباءنا، فنستقبلهم فنسقيهم الماء، فلهذا تمنّيت موته.

وروى الغزالي في الإحياء أنّ بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج برهة من دهره فيأبى، قال فانتبه من نومه ذات يوم وقال زوّجوني فزوّجوه، فسئل عن ذلك فقال لعلّ الله تعالى يرزقني ولداً يقبضه فيكون لي مقدّمة في الآخرة، ثمّ قال رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت وكأنّي في جملة الخلائق في الموقف وبي من العطش ما كاد أن يقطع عنقي وكذلك الخلائق من شدة العطش والكرب، فنحن كذلك وإذا ولدان يتخلّلون الجمع، عليهم قناديل من نور وبأيديهم أباريق من فضّة وأكواب من ذهب وهم يسقون الواحد بعد الواحد؛ ويتخلّلون الجمع ويجاوزون أكثر النّاس، فمددت يدي إلى أحدهم فقلت اسقني فقد أجهدني العطش؛ فقال ليس لك فينا ولد إنّما نسقي آباءنا فقلت ومن أنتم؟ قالوا نحن من مات من أطفال المسلمين.

وحكى الشيخ أبو عبدالله في كتاب مصباح الظلام عن بعض الثّقات أنّ رجلاً أوصى بعض أصحابه ممن حجّ يقرأ سلامه لرسول الله ﷺ ويدفن رقعة مختومة له عند رأسه الشّريف، ففعل ذلك فلمّا رجع من حجه أكرمه الرجل وقال له جزاك الله خيراً لقد بلّغت الرسالة، فتعجّب المبلّغ من ذلك وقال له من أين علمت بتبليغها قبل

أن أُحدّثك فأنشأ يحدّثه؛ قال: لي أخ مات وترك ابناً صغيراً فربّيته وأحسنت تربيته ثم مات قبل أن يبلغ الحلم، فلمّا كان ذات ليلة رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت والحشر قد وقع والنّاس قد اشتدّ بهم العطش من شدّة الجهد وبيد ابن أخي ماء، فالتمست أن يسقيني فأبى وقال أبي أحق به منك، فعظم عليّ ذلك وانتبهت فزعاً، فلمّا أصبحت تصدّقت بجملة دنانير وسألت الله تعالى أن يرزقني ولداً ذكراً فرزقته، واتّفق سفرك فكتبت لك تلك الرّقعة ومضمونها التّوسّل بالنّبي ﷺ إلى الله عزّوجلّ في قبوله منّي رجاء أن أجده يوم الفزع الأكبر، فلم يلبث أن حمّ ومات وكان ذلك يوم وصولك فعلمت أنّك بلّغت الرسالة.

ومن كتاب النّوم والرؤيا لأبي صقر الموصلي حدّثني علي بن الحسين بن جعفر حدّثني أبي حدّثني بعض أصحابنا ممّن أثق به قال أتيت المدينة ليلاً فنمت في البقيع بين أربعة قبور عند قبر محفور، فرأيت في منامي أربعة أطفال قد خرجوا من تلك القبور وهم يقولون:

أنـعـم الله بـالـحـبـيـبـة عـيـنـا وبـمـسـراك يـا أُمـيـم إلـيـنـا

عجباً ما عجبت من ضغطة القبر ومـفـداك يـا أُمـيـم إلـيـنـا

فقلت إنّ لهذه الأبيات لشأناً وأقمت حتى طلعت الشّمس، فإذا جنازة قد أقبلت فقلت من هذه؟ قالوا امرأة من أهل المدينة؛ فقلت اسمها أميمة؟ قالوا نعم، قلت قدمت فرطاً؟ قالوا نعم أربعة أولاد فأخبرتهم الخبر، وأنشد بعض الأفاضل:

عـطـيّـتـه إذا أعـطـى سـروراً فـإن سـلـب الـذي أعـطـى أثـابـا

فـأيّ الـنـعـمـتـيـن أعـدّ فـضـلاً وأحـمـد عـنـد عـقـبـاهـا إيـابـا

أنـعـمـتـه الـتـي كـانـت سـروراً أم الأُخـرى الـتـي جـلـبـت ثـوابـا

الأمر الثاني: في الصّبر وقد عرفت معناه، وأمّا أقسامه فهي ثلاثة: أحدها صبر العوامّ وهو حبس النفس على وجه التجلّد وإظهار الثّبات في النّائبات لتكون حاله عند الناس مرضيّة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، وثانيها صبر الزهّاد والعبّاد وأهل التقوى لتوقع ثواب الآخرة، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وثالثها صبر العارفين فإنّ لبعضهم التذاذاً بالمكروه لتصوّرهم أنّ معبودهم خصّهم به من دون النّاس وصاروا ملحوظين بشريف نظره، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وهذا النوع يخصّ باسم الرضا، والأول لا ثواب عليه بل هو رياء محض، والصّبر عند الإطلاق يحمل على القسم الثاني.

وعن الحسن عليه السلام عن النّبي صلى الله عليه وآله قال إنّ في الجنّة شجرة يقال لها شجرة البلوى، يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا يرفع لهم ديوان ولا ينصب لهم ميزان يصب عليهم الأجر صبّاً وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله عزّ وجلّ إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً. وعنه صلى الله عليه وآله الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر والصبر عند الصدمة الأولى أعظم وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع بعد المصيبة جدّد الله له أجرها كيوم أُصيب بها، وسأل رجل النّبي صلى الله عليه وآله فقال ما يحبط الأجر في المصيبة؟ فقال تصفيق الرجل بيمينه على شماله، والصبر عند الصدمة الأولى فمن رضي فله الرّضى، ومن سخط فعليه السّخط.

وعن أمّ سلمة زوجة النّبي صلى الله عليه وآله قالت أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله قولاً سررت به؛ قال لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللّهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به؛ قالت أُم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفّي أبوسلمة استرجعت وقلت اللّهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منه؛ ثم رجعت إلى نفسي فقلت من أين يحصل خير من أبي سلمة فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أدبغ إهاباً، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم وحشوها ليف؛ فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت ما بي أن لا يكون بك الرّغبة ولكنّي امرأة فيَّ غيرة شديدة فأخاف ترى مني شيئاً يعذبني الله عليه، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ وأنا ذات عيال، فقال أمّا ما ذكرت من السنّ فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأمّا ما ذكرت من العيال فإنّما عيالك عيالي قالت فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وآله فتزوجها؛ فقالت أمّ سلمة[1] فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً

---

(١) أم سلمة أم المؤمنين اسمها هند بنت أبي أمية هي أفضل ازواج رسول الله صلى الله عليه وآله بعد خديجة أم المؤمنين سلام الله عليها.

مهاجرة جليلة ذات رأي وعقل وكمال وجمال هاجرت إلى الحبشة والمدينة ولها اخلاص =

منه رسول الله ﷺ (١).

وعن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام أنّ النّبي قال من أصابته مصيبة فقال إذا ذكرها إنّا لله وإنّا إليه راجعون جدّد الله له أجرها مثل ما كان له يوم أصابته وعن جابر بن عبد الله عن الباقر عليه السلام قال أشد الجزع الصّراخ بالويل والعويل ولطم الوجه وجزّ الشّعر، ومن أقام النّواحة فقد ترك الصّبر ومن صبر واسترجع وحمد الله جلّ ذكره فقد رضي بما صنع الله ووقع أجره على الله جل وعزّ ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأحبط الله عزّ وجلّ أجره. وعن موسى الكاظم عليه السلام قال ضرب الرجل على فخذه عند المصيبة إحباط أجره. وعن إسحاق بن عمار عن الصادق عليه السلام قال يا إسحاق لا تعدنّ مصيبة أعطيت عليها الصبر واستوجبت عليها من الله عزّ وجلّ الثّواب، إنّما المصيبة التي يحرم صاحبها أجرها وثوابها إذا لم يصبر عند نزولها.

الأمر الثالث: في نبذ من أحوال السلف عند موت أبنائهم وأحبائهم. قال أبوالأحوص دخلنا على ابن مسعود رحمه الله وعنده ثلاثة بنين له وهم غلمان كأنّهم الدنانير حسناً فجعلنا نتعجّب من حسنهم، فقال كأنّكم تغبطوني بهم، قلنا أي والله، بمثل هؤلاء يغبط المرء المسلم، فرفع رأسه إلى سقف بيت قصير قد عشش فيه الخطّاف، وباض؛ فقال والذي نفسي بيده لأن أكون نفضت يدي من تراب قبورهم أحبّ إليّ من أن أُسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه، يعني حرصاً على الثواب.

وكان عبدالله بن مسعود رحمه الله يقرىء الناس في المسجد جاثياً على ركبتيه إذ جاءت أمّ ولده بابن له يقال له محمّد، فقامت على باب المَسجد ثم أشارت له إلى أبيه،

= لأمير المؤمنين عليه السلام والصديقة الطاهرة عليها السلام والحسنين عليهما السلام ويستفاد جلالتها من الأخبار: انظر تنقيح المقال فصل ذكر النساء ص ٧٢ ولها مشاجرة مع عائشة في مكة حين ارادت محاربة أمير المؤمنين عليه السلام وعزمت على الخروج إلى وقعة الجمل وقالت فقد هتكت سدة بين رسول الله ﷺ وأُمته حجاب مضروب على حرمته فقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه وسكن الله من عقيراك فلا تصحريها الله من وراء هذه الأمة لو علم رسول الله ﷺ أنّ النساء يحتملن الجهاد عهد إليك أما علمت انه قد نهاك عن الفراطة في الدين فإنّ عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يرأب بهن إن انصدع وأُقسم لو قيل لي يا أم سلمة ادخلي الجنّة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجاباً ضربه عليَّ انظر إلى كلامها في اعلام النساء ج ٣ ص ١٦٠ وتوفيت أم سلمة رحمها الله سنة (٦٢) في خلافة يزيد لعنه الله على القول الصحيح.

(١) مسكن الفؤاد للشهيد الثاني ص ٤٨.

فأقبل فأفرج له القوم حتى جلس في حجره، ثمّ جعل يقول مرحباً بسميّ من هو خير منه، ويقبّله حتى يكاد يزدرد ريقه، ثمّ قال والله لموتك وموت إخوتك أهون عليّ من عدتكم من هذا الذّبان، فقيل له لم تتمنّى هذا؟ فقال اللّهمّ غفراً إنّكم تسألوني ولا أستطيع إلّا أن أُخبركم أُريد بذلك الخير، أما أنا فأُحرز أُجورهم وأتخوف عليهم سمعت رسول الله ﷺ يقول يأتي عليكم زمان يغبط الرجل بخفة الحال ما يغبط اليوم بكثرة المال والولد؛ وكان أبو ذر رضي الله عنه لا يعيش له ولد، فقيل له إنّك امرؤ لا يبقى لك ولد، فقال الحمد لله الذي يأخذهم من دار الدّنيا ويذخرهم في دار البقاء.

ومات لعبدالله بن عامر المازني رضي الله عنه في الطاعون الجارف سبع بنين في يوم واحد فقال إنّي مسلم مسلّم، وعن عبد الرحمن بن غنمة قال دخلنا على معاذ وهو قاعد عند رأس ابن له وهو يجود بنفسه، فما ملكنا أنفسنا أن ذرفت أعيننا وانتحب بعضنا؛ فزجره معاذ وقال مه فوالله لعلم الله برضاي لهذا أحبّ إلي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله ﷺ، فإنّي سمعته يقول من كان له ابن عليه عزيز وبه ضنين ومات فصبر على مصيبته واحتسبه أبدل الله الميت داراً خيراً من داره وقراراً خيراً من قراره وأبدل المصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرّضوان، فما برحنا حتى قضى الغلام حين أخذ المنادي لصلاة الظهر فرحنا نريد الصلاة فما جئنا إلّا وقد غسّله وكفّنه، وجاء رجل بسريره غير منتظر لشهود الأخوان ولجمع الجيران، فلمّا بلغنا ذلك تلاحقنا وقلنا يغفر الله لك يا أبا عبد الرحمن هلّا انتظرتنا حتى نفرغ من صلاتنا ونشهد ابن أخينا، فقال أُمرنا أن لا ننتظر موتانا ساعة ماتوا من ليل أو نهار؛ قال فنزل في القبر ونزل معه آخر فلمّا أراد الخروج ناولته بيدي لأنتشطه من القبر، فأبى وقال ما أدع ذلك لفضل قوتي ولكن أكره أن يرى الجاهل أنّ ذلك منّي جزع واسترخاء عند المصيبة، ثمّ أتى مجلسه ودعا بدهن فادهن وبكحل فاكتحل وببردة فلبسها وأكثر في يومه ذلك من التبسُّم ينوي به ما ينوي، ثمّ قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون، في الله خلف عن كلّ هالك وعزاء من كلّ مصيبة، ودرك لكل ما فات.

وروي أنّ قوماً كانوا عند علي بن الحسين عليه السلام فاستعجل خادم بشواء يشوى في التنّور، فأقبل مسرعاً فسقط من يده على ابن لعليّ بن الحسين عليه السلام، فأصاب رأسه فقتله فوثب عليّ بن الحسين عليه السلام فلمّا رأى ابنه ميّتاً قال للغلام أنت حرّ أما إنّك لم تتعمّده وأخذ في جهاز ابنه.

وعن الأحنف بن قيس قال تعلّموا الحلم والصّبر فإنّي تعلّمته: فقيل له ممّن؟ قال

من قيس بن عاصم، قيل وما بلغ من حلمه؟ قال كنّا قعوداً عنده إذ أُتي بابنه مقتولاً وبقاتله مكبولاً فما حلّ حبوته ولا قطع حديثه حتى فرغ، ثمّ التفت إلى قاتل ابنه فقال يابن أخي ما حملك على ما فعلت؟ قال غضبت، قال أوكلّما غضبت قتلت أهنت نفسك وعصيت ربّك وأقللت عددك، إذهب فقد أعتقتك؛ ثم التفت إلى بنيه فقال يا بنيّ اعمدوا إلى أخيكم غسّلوه وكفنوه فإذا فرغتم منه فأتوني به حتى أُصلّي عليه، فلمّا دفنوه قال إنّ أمّه ليست منكم وهي من قوم آخرين فلا أراها ترضى بما صنعتم فأعطوها ديته من مالي.

وقدم إلى بعض الخلفاء قوم من بني عبس فيهم رجل ضرير، فسأله عن عينيه؛ فقال بتّ ليلة في بطن واد ولم أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا سيل فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير بعير وصبيّ مولود وكان البعير صعباً فشرد فوضعت الصّبيّ واتّبعت البعير فلم أُجاوز إلّا قليلاً حتى سمعت صيحة ابني، فرجعت ورأس الذئب في بطنه وهو يأكله ولحقت البعير لأحبسه فبعجني رجلاً وذهب بعيني، فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا ولد ولا بصر. وقال أبو عليّ الرازي صحبت الفضل بن عبّاس ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسّماً إلّا يوم مات ابنه عليّ، فقلت له في ذلك فقال إنّ الله سبحانه أحبّ أمراً فأحببت ما أحبّ الله عزّ وجلّ .

وأُصيب عمرو بن كعب الهندي بتستر فكتموا أباه الخبر؛ ثم بلغه فلم يجزع؛ وقال الحمد لله الذي جعل من صلبي من أُصيب شهيداً؛ ثمّ استشهد له ابن بجرجان؛ فلمّا بلغه الخبر قال الحمد لله الذي توفّي منّي شهيداً.

وروى البيهقي أنّ عبدالله بن مطرف مات فخرج أبوه مطَرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا وقال يموت عبدالله وتخرج في ثياب حسنة مدهناً، قال أفأستكين لها وقد وعدني ربّي تبارك وتعالى عليها ثلاث خصال هي أحبّ إليّ من الدنيا كلها قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]، ودعا رجل من قريش أخواناً فجمعهم على طعام وضربت ابناً له دابّة بعضهم فمات، فأخفى ذلك عن القوم وقال لأهله لا أعلمن صاحت منكم صائحة وبكت باكية، وأقبل على إخوانه حتى فرغوا من طعامه؛ ثمّ أخذ في جهاز الصبيّ فلم يفجأهم إلّا بسريره، فارتاعوا وسألوه عن أمره فأخبرهم فعجبوا من صبره وكرمه.

وذكر أنّ رجلاً من اليمامة دفن ثلاثة رجال من ولده ثمّ احتبى فنادى قومه يتحدّث

كأن لم يفقد أحداً، فقيل له في ذلك؟ فقال ليسوا في الموت ببديع ولا أنا في المصيبة بأوحد؛ ولا جدوى للجزع فعلام تلوموني؟ وأسند أبو العبّاس مسروق عن الأوزاعي قال حدّثني بعض الحكماء قال خرجت وأنا أريد الرّباط حتى إذا كنت بعريش مصر إذ أنا بمظلّة وفيها رجل قد ذهبت عيناه واسترسلت يداه ورجلاه، وهو يقول لك الحمد سيّدي ومولاي اللّهمّ إنّي أحمدك حمداً يوافي محامد خلقك كفضلك على سائر خلقك إذ فضّلتني على كثير ممّن خلقت تفضيلاً، فقلت والله لأسألنّه، فدنوت وسلمت عليه، فردّ عليّ السلام فقلت له رحمك الله إنّي أسألك عن شيء أتخبرني به أم لا؟ فقال إن كان عندي منه علم أخبرتك به؛ فقلت رحمك الله على أيّ فضيلة من فضائله تشكره؟ فقال أوليس ترى ما قد صنع بي، قلت بلى؛ فقال والله لو أنّ الله تبارك وتعالى صبّ عليّ ناراً تحرقني، وأمر الجبال فدمرتني، وأمر البحار فغرقتني؛ وأمر الأرض فخسفت بي ما ازددت فيه سبحانه إلّا حبّاً، ولا ازددت له إلّا شكراً، وإنّ لي إليك حاجة أفتقضيها لي؟ فقلت نعم قل ما تشاء، فقال لي بنيّ كان يتعاهدني أوقات صلواتي ويطعمني عند إفطاري، وقد فقدته منذ أمس فانظر هل تجده لي، قال فقلت في نفسي إنّ في قضاء حاجته لقربة إلى الله عزّ وجلّ، وقمت وخرجت في طلبه حتى إذا صرت بين كثبان الرّمال إذا أنا بسبع قد افترس الغلام يأكله، فقلت إنّا لله وإنّا إليه راجعون كيف آتي هذا العبد الصالح بخبر ابنه؛ قال فأتيته فسلّمت عليه فقلت رحمك الله إن سألتك عن شيء أتخبرني به؟ فقال إن كان عندي منه علم أخبرتك؛ قال قلت أنت أكرم على الله تعالى وأقرب منزلة أو نبيّ الله أيوب عليه السلام، فقال بل أيّوب أكرم على الله تعالى منّي وأعظم عند الله تعالى منزلة منّي، فقلت إنّه ابتلاه الله فصبر حتى استوحش منه من كان يأنس به، وكان غرضاً لمرار الطريق، اعلم أنّ ابنك الذي أخبرتني به وسألتني أطلبه لك افترسه السبع؛ فأعظم الله أجرك، فقال الحمد لله الذي لم يجعل في قلبي حسرة من الدنيا؛ ثمّ شهق شهقة وسقط على وجهه فجلست ساعة ثمّ حرّكته فإذا هو ميّت؛ فقلت إنّا لله وإنّا إليه راجعون كيف أعمل في أمره؛ ومن يعينني على غسله وكفنه وحفر قبره ودفنه؛ فبينا أنا كذلك إذا أنا بركب يريدون الرّباط، فأشرت عليهم فأقبلوا نحوي حتى وقفوا عليّ، فقالوا ما أنت وما هذا؟ فأخبرتهم بقصّتي، فعقلوا رواحلهم وأعانوني حتى غسلناه بماء البحر وكفّناه بأثواب كانت معهم، وتقدّمت وصلّيت عليه مع الجماعة ودفناه في مظلّته وجلست عند قبره أُنساً به وأقرأ القرآن إلى أن مضى من اللّيل ساعات؛ فغفوت غفوة فرأيت صاحبي في أحسن صورة وأجمل زيّ في روضة

خضراء عليه ثياب خضر قائماً يتلو القرآن، فقلت له ألست صاحبي قال بلى، قلت فما الذي صيّرك إلى ما أرى؟ فقال اعلم أنني وردت مع الصّابرين لله عَزَّوَجَلَّ لم ينالوها إلّا بالصّبر [عند البلاء] والشّكر عند الرّخاء وانتبهت.

وروي بينما عمر بن عبدالعزيز ذات يوم جالس إذ أتاه ابنه عبدالملك، فقال الله الله في مظالم بني أبيك فلان وفلان وفلان فوالله لوددت أنّ القدور قد غلت بي وبك فيما يرضي الله وانطلق فأتبعه أبوه بصره وقال إنّي لأعرف خير أحواله، قالوا وما خير أحواله؟ قال أن يموت فأحتسبه، ولمّا دخل عليه أبوه في مرضه فقال كيف تجدك قال أجدني في الموت فاحتسبني يا أبه فإنّ ثواب الله عَزَّوَجَلَّ خير لك منّي، فقال والله يا بنيّ لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك؛ فقال ابنه لأن يكون ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكون ما أحبّ، فلمّا مات وقف على قبره وقال رحمك الله يا بنيّ لقد كنت ساراً مولداً وباراً ناشئاً وما أُحبّ أنّي دعوتك فأجبتني، ومات ابن له آخر قبل عبدالملك فجاء فقعد عندَ رأسه وكشف الثّوب عن وجهه وجعل ينظر إليه ويستدمع، فجاء ابنه عبدالملك فقال يا أبه ليشغلك ما أقبل من الموت عمّن هو في شغل حل لديك؛ فكأن قد لحقت ابنك وساويته تحت التّراب بوجهك فبكى عمر.

الأمر الرّابع: في صبر بعض النساء .روي عن معاوية بن قرّة قال كان أبو طلحة يحبّ ابنه حبّاً شديداً فمرض فخافت أمّ سليم على أبي طلحة الجزع حين قرب موت الابن، فبعثته إلى النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فلمّا خرج أبوطلحة من داره توفّي الولد فسجّته (فغطته خ) أمّ سليم بثوب وعزلته في ناحية من البيت؛ ثم تقدّمت إلي أهل بيتها وقالت لهم لا تخبروا أباطلحة بشيء ثمّ إنّها صنعت طعاماً ثمّ مسّت شيئاً من الطيب فجاء أبوطلحة من عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقال ما فعل ابني؟ فقالت له هدأت نفسه، ثمّ قال هل لنا ما نأكل؟ فقامت فقربت إليه الطّعام ثمّ تعرّضت له فوقع عليها فلمّا اطمأنّ قالت له يا أباطلحة أتغضب من وديعة كانت عندنا فرددناها إلى أهلها؟ فقال سبحان الله لا؛ فقالت ابنك كان عندنا وديعة فقبضه الله تعالى، فقال أبوطلحة فأنا أحق بالصّبر منك؛ ثمّ قام من مكانه فاغتسل وصلّى ركعتين ثم انطلق إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فأخبره بصنيعتها؛ فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بارك الله لكما في وقعتكما؛ ثمّ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الحمد لله الذي جعل في أُمّتي مثل صابرة بني إسرائيل، فقيل يا رسول الله ما كان من صبرها؟ فقال كان في بني إسرائيل امرأة وكان لها زوج ولها منه غلامان؛ فأمرها بطعام ليدعو عليه الناس، ففعلت واجتمع النّاس في داره فانطلق الغلامان يلعبان فوقعا في بئر كان في الدّار؛ فكرهت أن تنقص على زوجها الضّيافة؛

فأدخلتهما البيت وسجّتهما بثوب فلمّا فرغوا دخل زوجها فقال أين ابناي؟ قالت هما في البيت وإنّها كانت مسَّت بشيء من الطيب وتعرّضت للرجل حتى وقع عليها؛ ثمّ قال أين ابناي؟ قالت هما في البيت فناداهما أبوهما فخرجا يسعيان؛ فقالت المرأة سبحان الله والله لقد كانا ميّتين ولكن الله تعالى أحياهما بالصبر.

وروي في مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام يسأله يستسقي لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله تعالى إليه كيف أستجيب لهم وقد أظلّت عليهم ذنوبهم وسرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ يخرج حتى أستجيب له؛ فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينا موسى عليه السلام ذات يوم يمشي في طريق فإذا هم بعبد أسود بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله تعالى فسلّم عليه فقال ما اسمك؟ قال اسمي برخ، فقال أنت طلبتنا منذ حين، اخرج استسقِ لنا؛ فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك وما هذا من حلمك وما الذي بدا لك أنقضت عليك غيومك أم عاندت الرياح عن طاعتك؛ أم نفد ما عندك أم اشتدّ غضبك على المذنبين، ألست غفّاراً قبل خلق الخطّائين، خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنّك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؛ فما برح برخ حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر، فلمّا رجع برخ استقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيتني حين خاصمت ربي؟ كيف أنصفني؟

وعن أبي قدامة الشامي قال كنت أميراً على الجيش في بعض الغزوات، فدخلت بعض البلدان فدعوت الناس ورغبتهم في الجهاد وذكرت فضل الشهادة وما لأهلها، ثم تفرّق الناس وركبت فرسي إلى منزلي وإذا أنا بامرأة من أحسن الناس، تنادي يا أباقدامة فمضيت ولم أُجب، فقالت ما هكذا كان الصالحون؛ فوقفت فجاءت فدفعت إليّ رقعة مشدودة وانصرفت باكية، فنظرت في الرقعة فإذا فيها مكتوب أنت دعوتنا إلى الجهاد ورغبتنا في الثواب ولا قدرة لي على ذلك، فقطعت أحسن ما فيّ، وهما ضفيرتاي وأنفذتهما إليك لتجعلهما قيد فرسك لعلّ الله تعالى يرى شعري قيد فرسك في سبيله فيغفر لي، فلمّا كان صبيحة القتال فإذا بغلام بين يدي الصّفوف يقاتل حاسراً، فتقدّمت إليه فقلت يا فتى غلام غرّ راجل ولا آمن أن تجول الخيل فتطأك بأرجلها فارجع عن موضعك هذا؛ فقال أتأمرني بالرجوع وقد قال الله عزّ وجلّ :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقرأ الآية إلى آخرها فحملته على هجين[1] كان معي فقال يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم، فقلت هذا وقت قرض؟ فما زال يلحّ عليّ حتى قلت بشرط إن منَّ الله عليك بالشهادة أكون في شفاعتك، قال نعم، فأعطيته ثلاثة أسهم؛ فوضع سهماً في قوسه ورمى به فقتل رومياً، ثمّ رمى بالآخر فقتل رومياً، وقال السلام عليك يا أبا قدامة سلام مودّع، فجاءه سهم فوقع بين عينيه فوضع رأسه على قربوس سرجه، فتقدّمت إليه فقلت لا تنسها؛ فقال نعم ولكن لي إليك حاجة إذا دخلت المدينة فأت والدتي وسلّم خرجي إليها وأخبرها، فهي التي أعطتك شعرها لتقيد به فرسك، وسلّم عليها فهي العام الأول أُصيبت بوالدي وفي هذا العام بي، ثمّ مات فحفرت له ودفنته فلمّا هممت بالانصراف عن قبره قذفته الأرض فألقته على ظهرها، فقال أصحابه: غلام غرّ ولعلّه خرج بغير إذن أمّه فقلت إنّ الأرض لتقبل من هو شرّ من هذا!، فقمت وصلّيت ركعتين ودعوت الله تعالى فسمعت صوتاً يقول يا أبا قدامة اترك وليّ الله تعالى، فما برحت حتى نزلت عليه الطيور فأكلته؛ فلمّا أتيت المدينة ذهبت إلى دار والدته؛ فلمّا قرعت الباب خرجت أخته إليّ، فلمّا رأتني عادت إلى أمّها وقالت يا أمّاه هذا أبو قدامة وليس معه أخي وقد أُصبنا في العام الأول بأبي وفي هذا العام بأخي، فخرجت أمّه فقالت أمعزّياً أم مهنّياً؟ فقلت ما معنى هذا؟ قالت إن كان مات فعزّني؛ وإن كان قتل فهنّني، فقلت لا بل مات شهيداً، فقالت له علامة فهل رأيتها، قلت نعم لم تقبله الأرض ونزلت الطيور فأكلت لحمه وتركت عظامه فدفنتها فقالت الحمد لله؛ فسلّمت إليها الخرج ففتحته وأخرجت منه مسحاً وغلّاً من حديد؛ وقالت إنّه كان إذا جنّ اللّيل لبس هذا المسح وغلّ نفسه بهذا الغل وناجى مولاه، ونادى في مناجاته إلهي احشرني من حواصل الطيور، فاستجاب الله سبحانه دعاءه رحمه الله.

وقال أبان بن تغلب رحمه الله دخلت على امرأة وقد نزل بابنها الموت، فقامت إليه وغمضته وسجته، ثم قالت يا بنيّ ما الجزع فيما لا يزول وما البكاء فيما ينزل غداً يا بنيّ تذوق ما ذاق أبوك وستذوقه من بعدك أمّك، وإنّ أعظم الرّاحة لهذا الجسد النوم والنّوم أخو الموت فما عليك إن كنت نائماً على فراشك أو على غيره وإنّ غداً السؤال والجنة والنّار، فإن كنت من أهل الجنّة فما ضرك الموت، وإن كنت من أهل

---

(١) فرس وبرذونة هجين أي غير عتيق أو الهجين من الخيل الذي ولدته برذونة من حصان عربي جمع هجن وهواجن أيضاً.

النار فما تنفعك الحياة ولو كنت أطول الناس عمراً؛ والله يا بنيّ لولا أنّ الموت أشرف الأشياء لابن آدم لما أمات الله نبيّه ﷺ وأبقى عدوّه إبليس.

وعن المبرّد أنّه خرج إلى اليمن فنزل على امرأة لها مال كثير ورقيق وولد وحال حسنة فأقام عندها، فلمّا أراد الرّحيل قال ألك حاجة؟ قالت نعم كلّما نزلت هذه البلاد فانزل عليّ؛ ثمّ إنّه غاب أعواماً ثم نزل عليها فوجدها قد ذهب مالها ورقيقها ومات ولدها وباعت منزلها وهي مسرورة ضاحكة، فقال لها أتضحكين مع ما قد نزل بك؟ فقالت يا عبدالله كنت في حال النّعمة في أحزان كثيرة فعلمت أنّها من قلّة الشكر فأنا اليوم في هذه الحالة أضحك شكراً لله تعالى ما أعطاني من الصّبر.

وعن مسلم بن يسار قال قدمت البحرين فأضافتني امرأة لها بنون ورقيق ومال ويسار وكنت أراها محزونة فغبت عنها مدّة طويلة ثمّ أتيتها فلم أرَ ببابها إنساناً، فاستأذنت عليها فإذا هي ضاحكة مسرورة، فقلت لها ما شأنك؟ قالت إنّك لمّا غبت عنّا لم نرسل شيئاً في البحر إلّا غرق ولا في البرّ شيئاً إلّا عطب، وذهب الرقيق ومات البنون، فقلت لها يرحمك الله رأيتك محزونة في ذلك اليوم، فقالت نعم إنّي لمّا كنت فيما كنت فيه من سعة الدنيا خشيت أن يكون الله تعالى قد عجّل لي حسناتي في الدنيا فلمّا ذهب مالي وولدي ورقيقي رجوت أن يكون الله تعالى قد ذخر لي عنده شيئاً.

وروى البيهقي عن ذي النّون المصري قال كنت في الطّواف فإذا أنا بجاريتين قد أقبلتا وأنشأت إحداهما تقول:

صبرت وكان الصّبر خير مغبّة	وهل جزع منّي يجدي فأجزع
صبرت على ما لو تحمّل بعضه	جبال برضوى أصبحت تتصدّع
ملكت دموع العين ثمّ رددتها	إلى ناظري والعين في القلب تدمع

فقلت ممّن ذا يا جارية؟ فقالت من مصيبة نالتني لم تصب أحداً قط؛ قلت وما هي؟ قالت كان لي شبلان يلعبان أمامي وكان أبوهما ضحّى بكبشين؛ فقال أحدهما لأخيه يا أخي أُريك كيف ضحّى أبوك بكبشه؟ فقام وأخذ شفرة فنحره وهرب القاتل، فدخل أبوهما فقلت إنّ ابنك قتل أخاه وهرب، فخرج في طلبه فوجده قد افترسه السبع، فرجع الأب فمات في الطريق عطشاً وجوعاً.

الأمر الخامس: في الرضا. قد عرفت أنّه ثمرة المحبّة بل كلّ كمال فهو ثمرتها فإنّها لما كانت فرع المعرفة استلزم تصوّر رحمته رجاه وتصوّر هيبته الخشية، ومع

عدم الوصول إلى المطلوب الشوق، ومع الوصول الأنس، ومع إفراط الأنس الانبساط ومع مطالعة عنايته التوكّل، ومع استحسان ما يصدر عنه الرّضى، ومع تصوّر قصور نفسه في جنب كماله وكمال إحاطة محبوبه وقدرته عليه التسليم إليه، والرضى أعظم كل المراتب.

قال ﷺ إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أُمّتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعّمون كيف يشاؤون، فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب؟ فيقولون ما رأينا حساباً، فتقول هل جزتم الصّراط؟ فيقولون ما رأينا صراطاً، فتقول هل رأيتم جهنّم؟ فيقولون ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة من أمّة من أنتم؟ فيقولون من أُمّة محمّد ﷺ؛ فيقولون ناشدناكم الله تعالى حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون خصلتان كانتا فينا فبلّغنا الله تعالى هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون كنّا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير ممّا قسم لنا، فتقول الملائكة حقّ لكم هذا.

وفي بعض الأخبار أنّ نبيّاً قالت له أُمتّه سلْ لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنّا، فأوحى الله تعالى إليه قل لهم يرضون عنّي حتى أرضى عنهم، ونظيره ما روي عن نبيّنا ﷺ أنّه قال من أحبّ أن يعلم ما له عند الله عزّوجلّ فلينظر ما لله عزّوجلّ عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه؛ وفي أخبار داود عليه السلام ما لأوليائي والهمّ بالدنيا إنّ الهمّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إنّ محبّي (محبّتي خ) من أوليائي أن يكونوا روحانيّين لا يغتمّون.

وروي أنّ موسى عليه السلام قال يا ربّ دلّني على أمر فيه رضاك حتى أعمله؛ فأوحى الله تعالى إليه إنّ رضائي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، قال يا رب دلّني عليه قال فإنّ رضائي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة من نبيّ: أيّ ربّ أي خلقك أحبّ إليك؟ قال من إذا أخذت حبيبه سالمني، قال فأيّ خلق أنت عليه ساخط؟ قال من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي.

وروي أنّ جابر بن عبدالله الأنصاري رحمه الله ابتلي في آخر عمره بضعف الهرم والعجز فرآه محمد بن علي الباقر عليه السلام فسأله عن حاله، فقال أنا في حالة أُحبّ فيها الشّيخوخة على الشباب والمرض على الصحة والموت على الحياة، فقال الباقر عليه السلام أمّا أنا فإن جعلني الله شيخاً أُحب الشيخوخة؛ وإن جعلني شاباً أُحبّ الشيبوبة، وإن أمرضني أُحبّ المرض وإن شفاني أُحب الشفاء والصحة؛ وإن أماتني أحب الموت، وإن أبقاني أُحب البقاء، فلما سمع جابر هذا الكلام منه قبّل وجهه

وقال صدق رسول الله ﷺ، فإنّه قال ستدرك لي ولداً اسمه اسمي يبقر العلم بقراً كما يبقر الثور الأرض، ولذلك سمّي باقر علم الأولين والآخرين أي شاقه.

وروي (وورد خ) في الاسرائيليّات أنّ عابداً عبدالله تعالى دهراً طويلاً فرأى في المنام فلانة رفيقتك في الجنّة، فسأل عنها واستضافها ثلاثاً لينظر إلى عملها فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة ويظلّ صائماً وتظلّ مفطرة، فقال لها أما لك عمل غير ما رأيت؟ فقالت ما هو غير ما رأيت ولا أعرف غيره، فلم يزل يقول تذكري حتى قالت خصيلة واحدة هي إن كنت في شدّة لم أتمن أن أكون في رخاء؛ وإن كنت في مرض لم أتمنّ أن أكون في صحّة وإن كنت في الشّمس لم أتمنَّ أن أكون في الظّل، فوضع العابد يديه على رأسه وقال أهذه خصيلة، هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وأمّا درجات الرضا فثلاثة **الأولى**: أن ينظر إلى موقع البلاء والفعل الذي يقتضي الرضا ويدرك موقعه ويحسّ بألمه، ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له بعقله وإن كان كارهاً له بطبعه طلباً لثواب الله تعالى والفوز بالجنّة التي عرضها السمٰوات والأرض وقد أُعدت للمتقين، وهذا القسم من الرضا هو رضاء المتقين، ومثاله مثال من يلتمس الفصد والحجامة من الطبيب العالم بتفاصيل أمراضه وما فيه صلاحه فإنّه يدرك ألم ذلك الفعل إلّا أنّه راضٍ به وراغب فيه ومتقلّد من الفصاد منّة عظيمة، ومثله من يسافر في طلب الربح فإنّه يدرك مشقّة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر وجعله راضياً به، ومهما أصابه بليّة من الله تعالى وكان له يقين بأنّ ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبّه وشكر الله عليه.

الثانية: أن يدرك الألم كذلك ولكنّه أحبّ لكونه مراد محبوبه ورضاه، فإن غلب عليه الحب كان جميع مراده وهواه ما فيه رضاء محبوبه.

الثالثة: أن يبطل إحساسه بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحسّ ويصيبه جراحة ولا يدرك ألمه، مثاله الرّجل المحارب فإنّه في حال غضبه أو حال خوفه قد يصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة، وذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، والعشق من أعظم المشاغل؛ وكما يقوى حب الصور الجميلة الظاهرة المدركة بحاسة البصر كذلك يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة الربوبيّة وجلالها لا يقاس بها جلال؛ فمن انكشف له شيء منه فقد بهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحسّ بما يجري عليه.

كما روي أنّ امرأة عثرت فانقطع ظفرها فضحكت؛ فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إنّ لذّة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه، وكان بعضهم يعالج غيره من علّة فنزلت به فلم يعالج نفسه، فقيل له في ذلك فقال ضرب الحبيب لا يوجع.

ولمّا اشتّد البلاء على أيّوب عليه السلام ، قالت امرأته ألا تدعو ربّك فيكشف ما بك؟ فقال لها يا امرأة إنّي عشت في الملك والرّخاء سبعين سنة وأنا أريد أن أعيش مثلها في البلاء لعلّي كنت أدّيت شكر ما أنعم الله عليّ، وأولى بالبصر على ما أبلى. وروي أنّ يونس عليه السلام قال لجبرائيل عليه السلام دلّني على أعبد أهل الأرض، فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وهو يقول إلهي متّعتني بها ما شئت وسلبتني ما شئت، وأبقيت لي فيك الأمل يا برّ يا وصول.

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بالفالج قد تناثر لحمه من الجذام؛ وهو يقولِ الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلي به كثير من خلقه، فقال له عيسى عليه السلام يا هذا وأيّ شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك، فقال يا روح الله أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال له صدقت هات يدك فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه.

قال بعضهم قصدت عبادان في بدايتي فإذا أنا برجل أعمى مجذوم قد صرع، والنّمل تأكل لحمه فرفعت رأسه ووضعته في حجري، وأنا أردد الكلام، فلمّا أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربّي، فوحقّه لو قطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلّا حبّاً.

وروي عن بعضهم وكان قاسى المرض ستّين سنة؛ فلمّا اشتدّ حاله دخل عليه بنوه؛ فقالوا له أتريد أن تموت حتى تستريح ممّا أنت فيه، قال لا، قالوا فما تريد؟ قال ما لي ارادة إنّما أنا عبد وللسيّد الإرادة في عبده والحكم في أمره؛ وقيل اشتدّ المرض بفتح الموصلي وأصابه مع مرضه الفقر والجهد، فقال إلهي وسيّدي ابتليتني بالمرض والفقر فهذه فعالكم بالأنبياء والرسل، فكيف لي أن أؤدّي شكر ما أنعمت به عليّ. وقيل لرابعة العدويّة متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ فقالت إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنّعمة، وقيل لها يوماً كيف شوقك إلى الجنّة؟ فقالت الجار ثمّ الدار.

الأمر السادس: في البكاء. إعلم أنّ البكاء بمجرّده غير منافٍ للصبر ولا للرضا

بالقضاء وإنّما هو طبيعة بشريّة وجبلّة إنسانيّة، فلا حرج في إبرازها ما لم تشتمل على أحوال تؤذن بالسّخط وتذهب بالأجر، من شق الثّوب ولطم الوجه وضرب الفخذ وغيرها وأوّل من بكى آدم عليه السلام على ولده هابيل ورثاه بأبيات مشهورة قد تقدّمت وإن خفي شيء فلا يخفى حال يعقوب عليه السلام فإنّه بكى حتى ابيضّت عيناه.

وعن مولانا الصادق عليه السلام قال إنّ زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه أربعين سنة صائماً نهاره قائماً ليله؛ فإذا حضر الإفطار جاء غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه، فيقول كل يا مولاي، فيقول قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً؛ فلا يزال يكرّر ذلك حتّى يبلّ طعامه من دموعه؛ فلم يزل كذلك حتّى لحق بالله عزّ وجلّ .

وروي عن بعض مواليه أنّه قال برز يوماً إلى الصّحراء فتبعته، فوجدته قد سجد على أحجار خشنة؛ فوقفت وأنا أسمع شهيقه وبكاءه وأحصيت عليه ألف مرة وهو يقول: لا إله إلّا الله حقّاً حقّاً، لا إله إلّا الله تعبّداً ورقّاً، لا إله إلّا الله إيماناً وصدقاً، ثم رفع رأسه من سجوده وإنَّ (فإذا خ) لحيته ووجهه قد غمرا بالماء من دموع عينيه، فقلت يا سيّدي أما آن لحزنك أن ينقضي، ولبكائك أن يقلّ؟ فقال لي ويحك إنّ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبيّاً ابن نبيّ وله اثنى عشر ولداً فغيّب الله واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن واحدودب من الغمّ وذهب بصره من البكاء وابنه حيّ في دار الدنيا وأنا رأيت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين فكيف ينقضي حزني ويقلّ بكائي.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد عبد الرحمن بن عوف فأتى إبراهيم وهو يجود بنفسه؛ فوضعه في حجره فقال له يا بنيّ إنّي لا أملك لك من الله شيئاً، وذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن يا رسول الله تبكي أما أنت نهيتنا عن البكاء؟ فقال إنّما نهيت عن النوح وعن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لعب ولهو ومزامير شيطان؛ وصوت عند مصيبة خمش وجوه، وشقّ جيوب ورنّة شيطان إنّما هذه رحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحم، لولا أنّه أمر حقّ ووعد صدق وسبيل نائبة (ثابتة خ) وأنّ آخرنا سيلحق أوّلنا لحزنّا عليك حزناً أشدّ من هذا؛ وإنّا بك لمحزونون تبكي العين وتدمع القلب ولا نقول ما يسخط الرّب عزّ وجلّ .

وعن أبي أُمامة قال جاء رجل إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله حين توفّي ابنه وعيناه تدمعان فقال يا نبيّ الله على هذا السّخل، والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لقد دفنت اثني عشر ولداً في

الجاهليّة كلّهم أشبّ منه أدسّه في التّراب[١] فقال النّبيّ ﷺ فماذا إن كانت الرّحمة ذهبت منك؛ يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول ما يسخط الربّ، وأنا على إبراهيم لمحزون. وقال ﷺ يوم مات إبراهيم ما كان من حزن في القلب أو في العين فإنما هو رحمة، وما كان من حزن باللسان واليد فهو من الشيطان.

وروي أنّه ﷺ لمّا مات عثمان بن مظعون كشف الثّوب عن وجهه، ثم قبّله بين عينيه ثمّ بكى طويلاً، فلمّا رفع السرير قال طوباك يا عثمان لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها. ولمّا أُصيب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ أسماء رضي الله عنها، فقال لها أخرجي لي ولد جعفر فخرجوا إليه فضمّهم إليه وشمّهم ودمعت عيناه فقالت يا رسول الله أصيب جعفر؟ قال نعم أُصيب اليوم.

قال عبد الله بن جعفر أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمّي فنعى لها أبي ونظرت إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي وعيناه تهرقان الدموع حتى تقطر على لحيته، ثمّ قال اللّهمّ إنّ جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب فاخلفه في ذرّيته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته، ثمّ قال يا أسماء ألا أُبشرك قالت بلى بأبي وأمّي، فقال إنّ الله عزّ وجلّ جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنّة[٢].

---

(١) دس الشيء التراب وفيه أدخله فيه واخفاه.

(٢) وقد ورد نظير هذه الكلمة النيرة عن السجاد عليه السلام في حق سيدنا أبي الفضل العباس عليه السلام قال عليه السلام رحم الله عمي العباس فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة كما جعل لجعفر بن أبي طالب وان للعباس عند الله منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة.

غير خفي على القارىء الخبير ان تبديل الله تعالى يدي جعفر الطيار عليه السلام وكذا يدي العباس عليه السلام بجناحين يكشف عن تجسم الأعمال كما هو الظاهر المحقق من الآيات الشريفة والأحاديث الكثيرة وأن لكل عمل في عالم المثال صورة تناسب لذلك العمل وكذا الأمر في الآخرة وعالم الخلد.

وبما أنّ اليد من أعضاء البدن الإنساني في هذه النشأة الدنيوية آلة للقدرة والقوة والأخذ والاعطاء فقطعها في رضا الله تعالى وفي سبيله وخدمة الدين الإلهي واحياء التوحيد وإماتة الكفر والزندقة يوجب العجز من صاحبها في هذا العالم فالصورة المناسبة لهذا العمل في النشأة البرزخية هي إبدال الله تعالى بهما جناحين يطيربهما جعفر الطيار وابن أخيه العباس عليه السلام في العوالم البرزخية لا رادع لهما عن التجوال في تلك المراتب والمقامات العالية ولما كانت العوالم البرزخية أيضاً كهذه النشأة الفانية منصرمة لا محالة ففي جنّة الخلد يكون الجناحين إشارة إلى القوتين العلمية والعملية والصعود فيهما إلى الدرجات السامية =

وعن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله لمّا جاءته وفاة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة كان إذا دخل بيته بكى عليهما جدّاً وقال كانا يحدثاني ويؤنساني فجاء الموت فذهب بهما. وعن خالد بن سلمة قال لمّا جاء نعي زيد بن حارثة أتى النّبيّ صلى الله عليه وآله منزل زيد فخرجت إليه بنيّة زيد، فلمّا رأت رسول الله صلى الله عليه وآله خمشت في وجهه، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال هاه هاه، فقيل يا رسول الله ما هذا؟ فقال شوق الحبيب إلى حبيبه.

ولمّا انصرف النّبيّ صلى الله عليه وآله من أُحد راجعاً إلى المدينة لقيته حمنة بنت جحش، فنعى لها الناس أخاها فاسترجعت واستغفرت له، ثمّ نعي لها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت له، ثمّ نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ زوج المرأة منها لبمكان لما رأى صبرها على (عن) أخيها وخالها وصياحها على زوجها ثمّ مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على دور من دور الأنصار من بني عبد الأشهل فسمع البكاء والنّوائح على قتلاهم فذرفت عيناه وبكى، ثمّ قال لكن حمزة لا بواكي له، فلمّا رجع سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله بكاءهنّ على حمزة خرج إليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكين، فقال لهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ارجعن يرحمكنّ الله فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.

وروى الشيخ بإسناده إلى الصادق عليه السلام أنّ إبراهيم خليل الرّحمن سأل ربّه أن يرزقه الله ابنة تبكيه بعد موته. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليس منّا من ضرب الخدود وشقّ الجيوب، وعن أبي أمامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن الخامشة وجهها والشّاقة جيبها والدّاعية بالويل والثّبور، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال كبر مقتاً عند الله الأكل من غير جوع، والنوم من غير سهر، والضحك من غير عجب، والرّنّة عند المصيبة؛ والمزمار عند النّغمة؛ وعن الباقر عليه السلام أشدّ الجزع الصّراخ بالويل والعويل ولطم الوجه والصّدر وجزّ الشعر. ومن أقام النّوائح فقد ترك الصبر ومن صبر واسترجع وحمد الله جل ذكره فقد رضي بما صنع الله تعالى ووقع

= والمقامات العالية والمنازل الرفيعة التي تغبطه بها جميع الشهداء ويكشف عن هذا قول السجاد: يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة وغير خافٍ على القارىء الفطن أنّ لفظ (الشهداء) جمع معرف باللام يفيد العموم مضافاً إلى لفظ (الجميع) الذي هو من ألفاظ العموم أيضاً فيشمل مثل حمزة وجعفر وغيرهما.

أجره على الله عزّوجلّ ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأحبط الله عزّوجلّ أجره.

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله أربع من كنّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ومن إذا أصاب خيراً قال الحمد لله، ومن إذا أصاب خطيئة قال أستغفر الله وأتوب إليه.

وقال الباقر عليه السلام ما من مؤمن يصاب بمصيبة في الدنيا فيسترجع عند المصيبة ويصبر حين تفجأه المصيبة إلّا غفر الله له ما مضى من ذنوبه إلّا الكبائر التي أوجب الله تعالى عليها النار، وكلما ذكر مصيبة فيما يستقبل من عمره فاسترجع عندها وحمد الله عزّوجلّ إلّا غفر الله له كل ذنب اكتسبه فيما بين الاسترجاعين إلا الكبائر من الذنوب رواهما الصدوق، وأسند الكليني الثاني إلى معروف بن خرّبوذ عن الصادق عليه السلام ولم يستثنِ منه الكبائر.

وروى الترمذي بإسناده إلى النّبي صلّى الله عليه وآله قال إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة وسمّوه بيت الحمد، ونحوه رواه الكليني عن الصادق عليه السلام عن النّبي صلّى الله عليه وآله.

ويجوز البوح بالكلام الحسن وتعداد الفضائل مع اعتماد الصّدق، لأنّ فاطمة عليها السلام فعلته في قولها يا أبتاه من ربّه ما أدناه؛ يا أبتاه إلى جبرائيل أنعاه، يا أبتاه أجاب ربّه لما دعاه.

وروي أنّها قبضت قبضة من تراب قبره صلّى الله عليه وآله فوضعتها على عينيها وأنشدت:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... ألاّ يشم مدى الزمان غواليا
صبّت عليّ مصائب لو أنّها ... صبّت على الأيّام صرن لياليا

وروى ابن بابويه أنّ الباقر عليه السلام أوصى أن يندب في المواسم عشر سنين، وروى يونس ابن يعقوب عن الصادق عليه السلام قال: قال لي أبي يا جعفر فرّق من مالي كذا وكذا على نوادب يندبنني عشر سنين بمنى أيّام منى، قال الأصحاب والمراد بذلك تنبيه الناس على فضائله وإظهارها ليقتدى بها وتعلم ما كان عليه أهل هذا

البيت عليهم السلام لتبقى آثارهم لزوال التّقيّة بعد الموت. وعن أبي سعيد الخدري قال لعن رسول الله صلى الله عليه وآله النّائحة والمستمعة.

الأمر السابع: في التّعزية وما شابهها؛ روى ابن مسعود عن النّبي صلى الله عليه وآله قال من عزّى مصاباً فله مثل أجره من غير أن ينقص الله من أجره شيئاً، ومن كفّن مسلماً كساه الله من سندس وإستبرق وحرير، ومن حفر قبراً لمسلم بنى الله عزّ وجلّ له بيتاً في الجنّة ومن أفطر معسراً أظلّه الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظلّه، وسئل النّبي صلى الله عليه وآله عن التّصافح في التّعزية؛ فقال هو سكن للمؤمن ومن عزّى مصاباً فله مثل أجره، وعن أبي برزة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله من عزى ثكلى كسي برداً في الجنّة.

وروي أنّ داود عليه السلام قال إلهي ما جزاء من يعزّي الحزين والمصاب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن أكسوه رداء من أردية الإيمان أستره به من النّار وأُدخله به الجنّة، قال يا إلهي فما جزاء من شيّع الجنائز ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن تشيّعه الملائكة يوم يموت إلى قبره، وأن أُصلّي على روحه في الأرواح. وقال موسى عليه السلام إلهي ما لمعزّي الثّكلى من الأجر قال أُظلّه تحت ظلّي يوم لا ظلّ إلّا ظلّي.

وأمّا كيفيّتها فقد تقدّم خبر المصافحة فيها، وأمّا ما يقال فيها فما يتّفق من بعض الكلمات، ويروى من الأخبار المؤدّية إلى السلوة؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا عزّى قال آجركم الله ورحمكم، وإذا هنّأ قال بارك الله لكم وبارك عليكم، وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال في مرض موته أيها النّاس أيّما عبد من أُمّتي أصيب بمصيبة من بعدي فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإنّ أحداً من أُمّتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشدّ عليه من مصيبتي؛ وروي أنّه كان في بني إسرائيل رجل فقيه عالم مجتهد وكانت له امرأة وكان بها معجباً، فماتت فوجد عليها وجداً شديداً حتّى خلى في بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس، فلم يكن يدخل عليه أحد، ثمّ أن امرأة من بني إسرائيل سمعت به فجاءته، فقالت لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلّا أن أشافهه بها، فذهب النّاس ولزمت الباب فأُخبر؛ فأذن لها فقالت أستفتيك في أمر فقال ما هو؟ قالت إنّي استعرت من جارة لي حلياً فكنت ألبسه زماناً ثم إنّهم أرسلوا إليّ فيه أفأردّه إليهم؟ قال نعم والله قالت إنّه قد مكث عندي زماناً طويلاً قال ذلك أحقّ لردّك إيّاه، قالت رحمك الله أفتأسف على ما أعارك الله عزّ وجلّ ثمّ أخذه منك وهو أحقّ به منك، فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها.

وعن أبي الدّرداء قال كان لسليمان بن داود عليه السلام ابن يحبّه حبّاً شديداً؛ فمات فحزن عليه حزناً شديداً؛ فبعث الله عزّ وجلّ إليه ملكين في هيئة البشر، فقال ما أنتما قالا خصمان، قال اجلسا بمنزلة الخصوم، فقال أحدهما إنّي زرعت زرعاً فأتى هذا فأفسده فقال سليمان ما تقول يا هذا؟ قال أصلحك الله إنّه زرع في الطريق وإنّي مررت به فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الزرع، فركبت قارعة الطريق فكان في ذلك فساد زرعه، فقال سليمان عليه السلام ما حملك على أن تزرع في الطّريق؟ أما علمت أنّ الطريق سبيل النّاس؟ ولا بدّ للناس من أن يسلكوا سبيلهم، فقال له أحد الملكين أوما علمت يا سليمان أنّ الموت سبيل النّاس، ولا بدّ للنّاس أن يسلكوا سبيلهم، قال فكأنّما كشف عن سليمان عليه السلام الغطاء ولم يجزع على ولد بعد ذلك، ورواه ابن أبي الدنيا.

وروي أيضاً أنّ قاضياً كان في بني إسرائيل مات له ابن فجزع عليه وصاح؛ فلقيه رجلان، فقالا له اقضِ بيننا، فقال من هذا فررت، فقال أحدهما إنّ هذا مر بغنمه على زرعي فأفسده؛ فقال الآخر إنّ هذا زرع بين الجبل والنّهر ولم يكن لي طريق غيره؛ فقال له القاضي أنت حين زرعت بين الجبل والنّهر ألم تعلم أنّه طريق النّاس؟ فقال له فأنت حين ولد لك ألم تعلم أنّه يموت فارجع إلى قضائك؛ ثمّ عرجا وكانا ملكين.

وروي أنّه كان بمكّة مقعدان لهما ابن شابّ فكان إذا أصبح نقلهما فأتى بهما المسجد فكان يكتسب عليهما يومه؛ فإذا كان المساء احتملهما فأقبل بهما، فافتقدهما النّبي صلى الله عليه وآله فسأل عنهما، فقيل مات ابنهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو ترك أحد ترك ابن المقعدين رواه الطبراني. وروي عن بعض العابدات أنّها قالت ما أصابني من مصيبة فأذكر معها النّار إلّا صارت في عيني أصغر من تراب.

وروى عبد الرحمن بن الحجّاج قال ذكر عند أبي عبدالله عليه السلام البلاء وما يختصّ الله عزّ وجلّ به المؤمن، فقال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أشدّ الناس بلاء في الدنيا؟ فقال النبيّون، ثمّ الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صحّ ايمانه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه.

وعن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال إنّ لله عزّ وجلّ عباداً في الأرض من خالص عباده ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض إلّا صرفها عنهم إلى غيرهم، ولا بليّة إلّا صرفها إليهم، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحبّ

عبداً غتّه بالبلاء غتاً؛ وثجّه (بجّه) بالبلاء ثجاً (بجاً) فإذا دعاه قال لبّيك عبدي لئن عجّلت لك ما سألت إنّي على ذلك لقادر ولكن ادّخرت لك فما ادّخرت لك خير لك.

وعن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال إنّ الله عزّ وجلّ ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة؛ ويحميه من الدنيا كما يحمي الطبيب المريض؛ وعن أبي عبدالله عليه السلام قال دُعي النّبي صلى الله عليه وآله إلى طعام فلمّا دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت، فوقعت البيضة على وتد في الحائط فثبتت عليه ولم تسقط ولم تنكسر، فتعجّب النّبي صلى الله عليه وآله منها، فقال له الرجل أعجبت من هذه البيضة؟ فوالذي بعثك بالحق ما رزئت قطّ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يأكل من طعامه شيئاً، وقال من لم يُرزأ فما لله فيه من حاجة.

وروينا بالإسناد إلى إسحاق بن عمّار قال إنّ أبا عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كتب إلى عبدالله بن الحسن(١) حين حمل هو وأهل بيته يعزيه على ما صار: بسم الله الرحمن الرّحيم إلى الخلف الصالح والذّريّة الطيّبة من ولد أخيه وابن عمّه، أمّا بعد فلئن كنت قد تفرّدت أنت وأهل بيتك ممّن حمل معك بما أصابكم ما انفردت بالحزن والغيظ والكآبة وأليم وجع القلب دوني؛ وقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحرّ المصيبة مثل ما نالك، ولئن رجعت إلى ما أمر الله عزّ وجلّ به للمتّقين من الصّبر وحسن العزاء حين يقول لنبيّه صلى الله عليه وآله ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وحين يقول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]؛ وحين يقول لنبيّه صلى الله عليه وآله حين مثّل بحمزة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فصبر رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يعاقب، وحين يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]؛ وحين يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]، وحين يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]؛

(١) هو عبد الله الملقب بالمحض ابن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وإنما سمي المحض لأن أباه الحسن ابن الإمام الحسن عليه السلام وأمه فاطمة بنت الحسين عليه السلام وكان شيخ بني هاشم في زمانه ذكره الشيخ رحمه الله في رجاله من أصحاب الصادق عليه السلام وقال هاشمي مدني تابعي (اهـ) قتل رضوان الله عليه في مجلس المنصور الدوانيقي بالهاشمية سنة: (١٤٥هـ) وهو ابن (٧٥) انظر مقاتل الطالبيين لأبي الفرج ص ١٨٤ ط مصر.

وحين يقول لقمان لابنه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ وحين يقول عن موسى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وحين يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]؛ وحين يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وحين يقول: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وحين يقول: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] وأمثال ذلك من القرآن كثير.

واعلم أي عمّ أنّ الله جلّ وعزّ لم يبالِ بضرّ الدنيا لوليّه ساعة قطّ ولا شيء أحب إليه من الضرر والجهد واللأواء[1] مع الصبر وأنّه تبارك وتعالى لم يبالِ بنعيم الدنيا لعدوّه ساعة قطّ؛ ولولا ذلك ما كان أعداؤه يقتلون أولياءه ويحيفونهم (يخيفونهم خ) ويمنعونهم وأعداؤه آمنون مطمئنّون عالون ظاهرون، ولولا ذلك ما قتل زكريّا ويحيى ابن زكريّا ظلماً وعدواناً في بغيّ من البغايا؛ ولولا ذلك ما قتل جدّك عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمّا قام بأمر الله جلّ وعزّ ظلماً وعمّك الحسين بن فاطمة صلّى الله عليهما ظلماً واضطهاداً وعدوانا؛ ولولا ذلك ما قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ولولا ذلك لما قال في كتابه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: لولا أن يحزن المؤمن لجعلت للكافر عصابة من حديد فلا يصدع رأسه أبداً، ولولا ذلك لما جاء في الحديث: إنّ الدنيا لا تساوي عند الله عزّ وجلّ جناح بعوضة، ولولا ذلك ما سقى كافراً منها شربة ماء، ولولا ذلك لما جاء في الحديث: لو أنّ مؤمناً على قلّة جبل لبعث الله له كافراً أو منافقاً يؤذيه، ولولا ذلك لما جاء في الحديث: أنّه إذا أحبّ الله قوماً أو أحب عبداً صبّ عليه البلاء صبّاً فلا يخرج من غمّ إلّا وقع في غمّ، ولولا ذلك لما جاء في الحديث: ما من جرعتين أحبّ إلى الله عزّ وجلّ أن يجرعهما عبده المؤمن في الدنيا من جرعة غيظ كظم عليها وجرعة حزن عند مصيبة صبرُ عليها بحسن عزاء واحتساب؛ ولولا ذلك لما كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله يدعون على من ظلمهم بطول العمر وصحّة

(١) اللأواء الشدة والمحنة.

البدن وكثرة المال والولد؛ ولولا ذلك ما بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إذا خصّ رجلاً بالترّحم والاستغفار استشهد، فعليكم يا عمّ وابن عمّ وبني عمومتي وإخوتي بالصّبر والرضا والتّسليم والتّفويض إلى الله عزّوجلّ والرضا والصّبر على قضائه؛ والتّمسّك بطاعته والنّزول عند أمره. أفرغ الله علينا وعليكم الصبر وختم لنا ولكم بالسعادة، وأبعدكم وإيّانا من كل هلكة بحوله وقوّته إنّه سميع قريب وصلى الله على صفوته من خلقه محمد النّبي وأهل بيته. هذا آخر التعزية بلفظها كما في كتاب التتمات والمهمات؛ وحيث انتهى بنا الحال إلى هنا فلا بأس بالإشارة إلى الداهية العظمى والمصيبة الكبرى وهي واقعة الطّفوف، فإنّ المصائب وإن جلّت فهي بالنّسبة إليها حقيرة.

نور في بعض أحوال واقعة الطفوف وشهادة مولانا أبي عبدالله الحسين عليه السلام

إعلم أيّدك الله أنّ البلاء إنما كتب على المؤمن وأنّ الدنيا ليست بدار ثواب ولا بدار عقاب، لم يرضَ سبحانه بأن يجعل ثواب المؤمن فيها ولا عقاب الكافر فيها وذلك لقلّة أيّامها ونقصان الأعمار فيها، ومن ثمّ بعث الدّواهي والمصائب فيها إلى أحبابه وأقاربه، ولا مصيبة مثل مصيبة مولانا الحسين عليه السلام فإنّها هدّت أركان الدين وصدّعت قواعد الشرع المبين، وأبكت الأجفان وأقرحت القلوب، ولعمري إنّها المصيبة التي يتسلّى بها المؤمن عن كلّ مصاب والدّاهية المنسية له مفارقة الخلاّن والأحباب، واعلم أولاً أنّ جماعة من مخالفينا (أوردوا هنا شبهة ظ).

بل وربما قاله بعض الجهّال منّا وهو أنّ الحسين عليه السلام كان عالماً بأن يجري عليه ما جرى قبل مسيره إلى العراق فلم سار إليها حتّى صار كالمعين على نفسه؟ وهذه شبهة ركيكة والجواب عنها من وجوه:

الأوّل: إنّ الإمام إذا وجد الأعوان وجب عليه القيام بأمر الجهاد ولا يجوز له التّقاعد عنه لظنّه بهم الخذلان له كما لم يجز للأنبياء عليهم السلام ترك الجهاد لهذه المظنّة بل قاموا بالدّعوة حتّى أُصيبوا من الأمّة بالمصائب العظام، كما وقع لأُولي العزم وغيرهم استتماماً لحجة الله تعالى على الخلائق، ومن ثمّ أسدى إليهم مولانا الحسين عليه السلام كمال الحجة في أثناء المحاربة؛ والعلم الواقعي الذي ظهر لهم وخفي على غيرهم ممّا لا يجوز العمل عليه في الأحكام الظاهرة، ولهذا كان النّبي صلى الله عليه وآله يحكم بين المتداعيين بظاهر الشريعة ويجعل الحق لمن توجه له الحكم في الظّاهر وإن كان يعلم أنّ الحق للخصم الآخر في الواقع ونفس الأمر، وكان يقول إنّكم

تأتوني وأحدكم يعرب حجّته ويفصح عنها فآخذ له الحق نظراً إلى ظاهر الشريعة ولكني إنّما أقطع له جذوة من نار جهنّم.

الوجه الثاني: أنّه عليه السلام لو لم يسر إلى العراق لما تركوه ولو ذهب إلى المكان البعيد، كما روي أنّ أخاه محمد بن الحنفيّة لحقه إلى عرفات وأشار عليه بأن يلحق الرّمال من اليمن حتّى ينظر بواطن أهل العراق، فقال له يا أخي نعم ما رأيت من الصّلاح ولكن هؤلاء القوم ما يسكتون عن طلبي أينما ذهبت حتى يسفكوا دمي، فعند ذلك يلبسهم الله ذلّ الدنيا والآخرة، وما خرج من مكة إلّا خائفاً من القتل[1].

الثالث: إنّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام قد خصّهم الله تعالى بأنواع من التّكاليف فلعل هذا وهو الإلقاء إلى التهلكة منها نظراً إلى الحكم والمصالح الإلهيّة؛ ومن ثم روي أنّه لو لم يقم عليه السلام بالجهاد الذي قام به لما استتمّ حجّة الشيعة[2] وذلك أنّ المخالفين لنا يقولون إنّ سكوت علي عليه السلام عن المتخلّفين دليل على رضاه عنهم وإلاّ فما يمنعه عن الجهاد وهو أشجع الشجعان؟ فنقول لهم إنّ الذي منعه هو الخوف على نفسه، ألا ترون إلى مولانا الحسين عليه السلام لمّا قام يطلب حقّه كيف جرى عليه من المصائب والبلوى.

---

(١) وقد أمر يزيد لعنه الله بقبضه عليه السلام أو قتله فإنّه أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص من المدينة إلى مكة في عسكر عظيم وولاه أمر الموسم وأمره على الحاج كلهم فحج بالناس وأوصاه بقبض الحسين عليه السلام سراً وإن لم يتمكن منه يقتله وأمره أن يناجز الحسين عليه السلام القتال إن هو ناجزه فلما كان يوم التروية قدم عمرو بن سعيد إلى مكة في جند كثيف ثم إنّ يزيد دس مع الحاج في تلك السنة ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية وأمرهم بقبض الحسين عليه السلام على أي حال اتفق فلما علم الحسين عليه السلام عزم على التوجه إلى العراق.

(٢) لولا نهضته المقدسة وتلك التضحية العظيمة لم تقم للإسلام قائمة وقد احيى الحسين عليه السلام بشهادته التوحيد في العالم فإنّ الاحقاد القديمة من بني أمية وتلك الضغائن الخبيثة من تلك الشجرة الملعونة نهضت على محو الدين الإسلامي الذي ظهر من أسرة عريقة بالمجد والشرف اعني البيت الهاشمي البازغ منهم شمس الرسالة والنبوة.
وقد كان من المقاصد المشؤومة والنيات الممقوتة لبني أمية هدم الإسلام ونسفه عملاً بتعاليم رئيسهم ورئيس المنافقين أبي سفيان ذلك الزنديق الشهير بكفره وعداوته لرسول الله صلى الله عليه وآله.
وقد دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن ولي الخلافة وخاطب بني أمية وقال: (يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة) وقال لعثمان أدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك ولا أدري ما من جنة ولا نار. وأتى قبر حمزة سيد الشهداء عليه السلام فركله برجله ثم قال: يا حمزة إنّ الأمر الذي كنت تقاتلنا عليه بالأمس قد ملكناه اليوم وكنا أحق به من تيم وعدي.

فإن قلت كيف لم يبايع عليه السلام ليزيد حتى لا يصل إليه ذلك الضرر، قلت هذا مجرّد كلام والمؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين، وذلك أنه عليه السلام رأى أخاه الحسن عليه السلام لمّا سالم معاوية كيف فعل به أولاً وكيف غدر به آخراً حتى قتله مسموماً، فما كان يصنع ابنه يزيد مع الحسين عليه السلام إلّا أسوأ من هذا، لأنّ معاوية كان فيه الدّهاء، وما كان يتجرّأ على قتل الحسين عليه السلام ظاهراً؛ ولهذا أوصى عند موته ليزيد أنّك إن تظفر بالحسين فلا تقتله واذكر فيه القرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأمّا السير والتواريخ الواردة بكيفيّة شهادته عليه السلام فهي على تكثّرها لم تستوفِ المصائب التي جرت عليه وعلى أهل بيته من بعده، وأصحابه الذين قتلوا معه؛ ولنشر إلى طرف منها فإنّا قد استوفيناها في المجلد الثّاني من كتابنا الموسوم بنوادر الأخبار. روى الصدوق طاب ثراه مسنداً إلى الرضا عليه السلام قال كان أبي صلوات الله عليه وآله إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلبه حتى تمضي منه عشرة أيّام؛ فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، وكان يقول هذا اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام.

أقول: يظهر من هذا الخبر وممّا روي بمعناه أنّ ما يفعله عوامنا في عشرة أيّام المحرم من اجتناب أكثر الملاذّ والتشبّه بأهل المصيبة في المأكل والملبس ودخول الحمام وترك حلق الرأس وغير ذلك ليس هو بدعة بل هو ثواب جزيل، واشتراك لأهل البيت عليهم السلام في مصابهم؛ وروينا بالاسناد إلى ابن محمود قال الرضا عليه السلام إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهليّة يحرمون فيه القتال فاستحلّت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا وأُضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيه من ثقلنا، ولم يرعوا لرسول الله صلى الله عليه وآله حرمة في أمرنا، إنّ أمر الحسين عليه السلام أسهر جفوننا وأسبل دموعنا وأذلّ عزيزنا، يا أرض كرب وبلاء أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، فإنّ البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام.

وروينا أنّ الرّيان بن شبيب قال دخلت على الرضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرم فقال لي يابن شبيب أصائم أنت؟ فقلت لا؛ فقال هذا هو اليوم الذي دعا فيه زكريّا عليه السلام ربّه عزّ وجلّ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]؛ فاستجاب الله له وأمر الملائكة فنادت زكريّا وهو قائم يصلّي في المحراب إنّ الله يبشّرك بيحيى فمن صام هذا اليوم ثمّ دعا الله عزّ وجلّ استجاب له كما استجاب لزكريّا عليه السلام، ثم قال يابن شبيب إنّ المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهليّة فيما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال لحرمته فما عرفت هذه الأُمة حرمة

شهرها ولا حرمة نبيّها لقد قتلوا في هذا الشهر ذريّته وسبوا نساءه وانتهبوا ثقله فلا غفر الله ذلك لهم أبداً، يابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابكِ للحسين بن علي بن أبيطالب عليه السلام فإنّه ذبح كما يذبح الكبش وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيه؛ ولقد بكت السمٰوات السّبع والأرضون لقتله، لقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فوجدوه قد قتل فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم فيكونون من أنصاره وشيعته وشعارهم يا لثارات الحسين عليه السلام.

يابن شبيب لقد حدّثني أبي عن أبيه عن جدّه أنّه لمّا قتل جدّي الحسين عليه السلام أمطرت السمٰوات دماً وتراباً أحمر، يابن شبيب إن بكيت على الحسين عليه السلام حتّى تصير دموعك على خدّيك غفر الله لك كل ذنب أذنبته صغيراً كان أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً، يا ابن شبيب إن سرّك أن تلقى الله عزّ وجلّ ولا ذنب عليك فزر الحسين عليه السلام؛ يابن شبيب إن سرك أن يكون لك من الثواب ما لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقل متى ذكرته يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، يابن شبيب إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى في الجنّات فاحزن لحزننا وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا فلو أنّ رجلاً تولّى حجراً لحشره الله يوم القيامة معه.

وروينا مسنداً عن أشياخ لبني سليم، قالوا غزونا بلاد الرّوم فدخلنا كنيسة من كنائسهم فوجدنا فيها مكتوباً:

أيرجو معشر قتلوا حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب

قال فسألنا كم هذا في كنيستكم؟ فقالوا قبل أن يبعث نبيّكم بثلاثمائة عام.

وروينا مسنداً إلى هرثمة بن أبي مسلم قال غزونا مع عليّ بن أبيطالب عليه السلام صفين فلمّا انصرفنا نزل بكربلا[1] فصلّى بها الغداة، ثمّ رفع إليه من تربتها فشمّها ثم

(١) في كتاب الملاحم والفتن للسيد الإمام رضي الدين ابن طاووس قدس سره عن كتاب الفتن للسليلي عن شيبان قال اقبلنا مع علي بن أبي طالب عليه السلام من صفين حتى نزلنا كربلاء وهو على بغلة له فنزل عن البغلة فأخذ كفاً من تحت حافر البغلة فشمها ثم قبلها ووضعها على عينه وبكى وقال وأي حبيب يقتل في هذا الموضع كأني انظر إلى ثقل من آل الرسول صلى الله عليه وآله قد اناخوا بهذا الوادي فخرجتم إليهم فقتلتموهم وويل لكم منهم وويل لهم منكم ما اعلم شهداء أفضل منهم إلا شهداء خلقهم مع محمد صلى الله عليه وآله ببدر ثم ذكر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أوتد شيئاً في موضع حافر البغلة فلما قتل الحسين عليه السلام جئت فاستخرجت ذلك الشيء من موضع دمه عليه السلام وإن أصحابه لربض حوله. =

قال واهاً لك أيّتها التّربة ليحشرن منك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب، فرجع هرثمة إلى زوجته وكانت شيعة لعلي عليه السلام فقال ألا أُحدّثك عن وليّك أبي الحسن نزل بكربلاء فصلّى ثم رفع إليه من تربتها فشمّها، ثمّ قال واهاً لك أيّتها التّربة ليحشرن منك أقوام يدخلون الجنّة بغير حساب، قالت المرأه أيّها الرجل فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل إلّا حقّاً، فلمّا قدم الحسين عليه السلام قال هرثمة كنت في البعث الذين بعثهم عبيدالله بن زياد، فلمّا رأيت المنزل والشجر ذكرت الحديث فجلست على بعيري ثم صرت إلى الحسين عليه السلام فسلّمت عليه فأخبرته بما سمعت من أبيه في ذلك المنزل الذي نزل به الحسين عليه السلام، فقال أمعنا أنت أم علينا؟ فقلت لا معك ولا عليك خلّفت صبية أخاف عليهم من عبيدالله بن زياد، قال فامضِ حيث لا ترى لنا مقتلاً ولا تسمع لنا صوتاً فوالذي نفس الحسين بيده لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلّا أكبّه الله على وجهه في جهنم؛ وقال عليه السلام أنا قتيل العبرة ولا يذكرني مؤمن إلّا استعبر.

وروينا مسنداً إلى مولانا الصادق عليه السلام قال إنّ أُم سلمة أصبحت يوماً تبكي؛ فقيل لها ما لك؟ فقالت لقد قتل ابني الحسين وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله منذ مات إلّا اللّيلة، فقلت بأبي أنت وأمّي ما لي أراك شاحباً؟ فقال لم أزل منذ اللّيلة أحفر قبر الحسين عليه السلام وقبور أصحابه، وقالت أمّ سلمة ما سمعت نوح الجن منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا اللّيلة؛ ولا أراني إلّا وقد أُصبت بابني، قال وجاءت الجنيّة منهم تقول:

ألا يا عين فانهملي بجهد ... فمن يبكي على الشهداء بعدي
على رهط تقودهم المنايا ... إلى متحيّر في ملك عبدي

وروينا مسنداً إلى مولانا الباقر عليه السلام قال كان النّبي صلى الله عليه وآله في بيت أمّ سلمة فقال

= ثم نقل السيد عن الكتاب المذكور باسناده المتصل عن عبدالله بن يحيى الكندي عن أبيه قال كنا مع علي ابن أبي طالب عليه السلام فرجعنا من صفين فلما حاذى نينوى نادى علي عليه السلام اصبر ابا عبدالله بشط الفرات فالتفت إليه الحسين عليه السلام فقال وما ذاك يا أمير المؤمنين فقال عليٌّ دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وعيناه تدمعان فقلت ما بال عينيك تدمعان بأبي وأمي فقال قام عندي جبرائيل قبيل فحدثني أنّ الحسين عليه السلام يقتل بشط الفرات ثم قال هل لك أن أشمك من تربته قلت نعم فمد يده فقبض قبضة من تراب ثم ناولنيها فلم أملك عينيّ أن فاضتا انظر الملاحم والفتن ص ٧٩ـ ٨٠ ط الأعلمي - لبنان.

لها لا يدخل عليّ أحد؛ فجاء الحسين عليه السلام وهو طفل فما ملكت معه شيئاً حتى دخل على النّبي صلى الله عليه وآله؛ فدخلت أمّ سلمة على أثره؛ فإذا الحسين على صدره وإذا النّبي صلى الله عليه وآله يبكي؛ وإذا في يده شيء يقلّبه؛ فقال النّبي صلى الله عليه وآله يا أمّ سلمة إنّ هذا جبرائيل يخبرني أنّ هذا مقتول وهذه التربة التي يقتل عليها، فضعيه عندك فإذا صارت دماً فقد قتل حبيبي، فقالت أمّ سلمة يا رسول الله سل الله أن يدفع ذلك عنه، قال قد فعلت فأوحى الله عزّ وجلّ إليّ أنّ له درجة لا ينالها أحد من المخلوقين، وأنّ له شيعة يشفَّعون فيشفعون، وأنّ المهدي من ولده، فطوبى لمن كان من أولياء الحسين عليه السلام وشيعتهم والله الفائزون.

وعن كعب الأحبار قال إنّ في كتابنا أنّ رجلاً من ولد محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يقتل ولا يجفّ عرق دواب أصحابه حتّى يدخلوا الجنّة فيعانقوا الحور العين فمرّ بنا الحسن عليه السلام فقلنا هو هذا؟ قال لا، فمرّ بنا الحسين عليه السلام فقلنا هو هذا؟ قال نعم.

وروينا مسنداً إلى الصادق عليه السلام قال البكّاءون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليهما السلام، فأمّا آدم فبكى على الجنّة حتى صار في خدّيه أمثال الأودية، وأمّا يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره، وأمّا يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذّى به أهل السجن فقالوا إمّا تبكي بالنهار وتسكت باللّيل وإما تبكي باللّيل وتسكت بالنهار فصالحهم على واحد منهما، وأما فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله وعليها السلام فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة وقالوا لها قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء فتبكي حتى تقضي حاجتها ثمّ تنصرف، وأمّا عليّ بن الحسين عليه السلام فبكى على مصائب أبيه الحسين عليه السلام عشرين سنة أو أربعين سنة، وما وضع بين يديه طعام إلّا بكى حتى قال له مولى له جعلت فداك يابن رسول الله إنّي أخاف عليك أن تكون من الهالكين، قال إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إنّي لم أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقتني لذلك العبرة.

وروينا مسنداً إلى أبي عمّار المنشد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي يا أباعمار أنشدني في الحسين بن علي عليه السلام قال فأنشدته فبكى ثم أنشدته فبكى، قال فما زلت أُنشده وهو يبكي حتى سمعت البكاء من الدار، قال فقال لي يا أباعمار من أنشد في الحسين بن علي شعراً فأبكى خمسين فله الجنّة؛ ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين فأبكى عشرين فله الجنّة، ومن أنشد في

الحسين فأبكى عشرة فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين فتباكى فله الجنّة.

وروينا مسنداً إلى داود الرقي قال كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ استسقى الماء فلمّا شربه رأيته قد استعبر واغرورقت عيناه بدموعه، ثم قال يا داود لعن الله قاتل الحسين فما أنغص ذكر الحسين للعيش؛ إنّي ما شربت ماءً بارداً إلّا وذكرت الحسين وما من أحد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام ولعن قاتله إلّا كتب الله له مائة ألف حسنة، ومحى عنه مائة ألف سيّئة، ورفع له مئة ألف درجة؛ وكأنّما أعتق ألف نسمة، وحشره الله يوم القيامة أبلج الوجه.

وروينا مسنداً إلى ابن أبي نعيم قال شهدت ابن عمر فأتاه رجل فسأله عن دم البعوضة قال من أنت؟ قال من أهل العراق، قال فانظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوضة وقد قتلوا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول للحسن والحسين أنتما ريحانتاي من الدّنيا.

وروينا مسنداً إلى الصادق عليه السلام في حديث طويل وصف فيه مقتل الحسين عليه السلام قال ثم وثب الحسين عليه السلام بعد مقتل أكثر أصحابه متوكّئاً على سيفه، فنادى بأعلى صوته فقال أنشدكم الله هل تعرفوني؛ قالوا نعم أنت ابن رسول الله وسبطه، قال أنشدكم الله هل تعرفون (تعلمون خ) أنّ عليّ بن أبيطالب أبي؟ قالوا اللّهمّ نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ أمّي فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله؟ قالوا اللّهمّ نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ جدتي خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأُمة إسلاماً؟ قالوا اللّهمّ نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ سيّد الشهداء حمزة عمّي وعمّ أبي؟ قالوا اللّهمّ نعم قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ الطيّار في الجنّة عمّي؟ قالوا اللّهمّ نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ هذا سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا متقلّده؛ قالوا اللّهمّ نعم، قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ هذه عمامة رسول الله وأنا متعمّم بها، قالوا اللّهمّ نعم قال أنشدكم الله هل تعلمون أنّ علياً كان أولهم إسلاماً وأعلمهم علماً وأعظمهم حلماً، وأنّه وليّ كل مؤمن ومؤمنة قالوا اللّهمّ نعم؛ قال فبم تستحلّون دمي؟ وأبي الذائد عن الحوض غداً يذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الصادر عن الماء؛ ولواء الحمد في يد جدّي يوم القيامة، قالوا لقد علمنا ذلك كلّه ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً، فأخذ الحسين عليه السلام بطرف لحيته وهو يومئذ ابن سبع وخمسين سنة ثمّ قال اشتد غضب الله على المجوس حين عبدوا النار دون الله؛ واشتدّ غضب الله على اليهود حين قالوا عزير ابن الله، واشتد غضب الله على

النّصارى حين قالوا المسيح ابن الله، واشتدّ غضب الله على قوم قتلوا نبيّهم، واشتدّ غضب الله على هذه العصابة الذين يريدون قتل ابن نبيّهم.

ثمّ قال ونظر الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً فلمَ ير أحداً، فرفع رأسه إلى السّماء فقال اللّهمّ إنّك ترى ما صنع بولد نبيّك، وحال بنو كلاب بينه وبين الماء ورمي بسهم فوقع في نحره وخرّ عن فرسه، فأخذ السّهم ورمى به، وجعل يتلقّى الدّم بكفه فلمّا امتلأت لطخ بها رأسه ولحيته وهو يقول ألقى الله عزّوجلّ وأنا مظلوم متلطّخ بدمي ثمّ خرّ على خدّه الأيسر صريعاً؛ فأقبل عدوّ الله سنان بن أنس وشمر بن ذي الجوشن العامري في رجال من أهل الشّام حتى وقفوا على رأس الحسين عليه السلام، وجعل يضرب السّيف في حلقه وهو يقول والله إنّي لأجتزّ رأسك وأنا أعلم أنّك ابن رسول الله وخير النّاس أمّاً وأباً.

وأقبل فرس الحسين عليه السلام حتى لطخ عرفه (غرّته خ) وناصيته بدم الحسين عليه السلام وجعل يركض ويصهل، فسمع بنات النّبي صلى الله عليه وآله صهيله؛ فخرجن فإذا الفرس بلا راكب فعرفن أنّ حسيناً قد قتل، وخرجت أمّ كلثوم بنت الحسين عليه السلام [(١)] واضعة يدها على رأسها تندب وتقول: وا محمداه هذا الحسين بالعراء قد سلب العمامة والرّداء، وأقبل ابن سنان لعنه الله حتى أدخل رأس الحسين عليه السلام على عبيدالله بن زياد لعنه الله؛ وهو يترنّم ويقول:

إمــلأ ركـــابــي فــضّـــة وذهــبـــا	إنّـي قـتـلـت الـمـلـك الـمـحـجّـبـا
قـتـلـت خـيـر الـنّـاس أمّـاً وأبـا	وخـيـرهـم إذ يـنـسـبـون نـسـبـا

فقال له عبيدالله بن زياد ويحك فإذا علمت أنّه خير النّاس أمّاً وأباً لم قتلته إذاً فأمر به وضرب عنقه وعجّل الله بروحه إلى النّار؛ وأرسل ابن زياد لعنه الله إلى أم كلثوم بنت الحسين عليه السلام فقال الحمد لله الذي قتل رجالكم فكيف ترون ما يفعل بكم؟ فقالت يابن زياد لئن قرّت عينك بقتل الحسين عليه السلام فطال ما قرّت عين

---

(١) كذا فيما وقفنا عليه من نسخ الكتاب والظاهر أنّ في العبارة تصحيفاً والصواب: أم كلثوم بنت علي عليه السلام وهي زينب الكبرى سلام الله عليها كما يظهر من بعض القرائن فإنّه ليس للحسين عليه السلام بنت مكناة بأم كلثوم.
وكذا قوله الآتي: وأرسل ابن زياد لعنه الله إلى أم كلثوم بنت الحسين عليه السلام ـ والصواب أم كلثوم بنت علي عليه السلام وهي زينب الكبرى عليها السلام أيضاً.

جدّه صلى الله عليه وآله به وكان يقبّله ويلثم شفتيه ويضعه على عاتقه، يابن زياد أعدّ لجدّه جواباً فإنّه خصمك.

وروينا مسنداً إلى الباقر عليه السلام أُصيب الحسين بن علي عليهما السلام ووجد فيه ثلاثمائة وبضع وعشرون طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، وروي أنّها كانت في مقدّمه لأنّه عليه السلام كان لا يولّي.

وروينا عن فاطمة[1] بنت الحسين عليه السلام قالت دخلت الغارة علينا الفسطاط وأنا جارية صغيرة وفي رجلي خلخالان من ذهب، فجعل رجل يفضّ الخلخالين من رجلي وهو يبكي، فقلنا ما يبكيك يا عدوّ الله؟ فقال كيف لا أبكي وأنا أسلب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت لا تسلبني، قال أخاف أن يجيء غيري فيأخذه، قالت هي وانتهبوا ما في الأفنية حتى كانوا ينزعون الملاحف عن ظهورنا، وعن فاطمة بنت علي عليه السلام أنّ يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين عليه السلام فحبسن مع علي بن الحسين عليهما السلام في محبس لا يكنهم من حرّ ولا برد حتى تقشرت وجوههم، ولم يرفع

---

(١) هي جدتنا فإنها أم جدنا إبراهيم الغمر ابن الحسن المثنى ابن الإمام المجتبى عليه السلام وتوفيت رضي الله تعالى عنها في سنة: (١١٧هـ) كما ذكره سبط ابن الجوزي في التذكرة أو في سنة: (١١٠هـ) كما في الدر المنثور لزينب فواز ونور الأبصار للشبلنجي وأعلام النساء لكحالة ومرآة الجنان لليافعي وغيرها وفي طبقات الأتقياء لابن حبان أنها حين توفيت كانت ابنة سبعين سنة. فعلى التاريخ الأول في وفاتها يكون سنها في وقعة الطف ثلاث عشرة (١٣) وعلى الثاني يكون عشرين (٢٠) وفي إحياء العلوم للغزالي: أنّ فاطمة بنت الحسين عليه السلام نظرت إلى جنازة زوجها الحسن المثنى فغطت وجهها وقالت:

وكانوا رجاء ثم امسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

ونقل الشيخ المفيد رحمه الله وغيره قصة تزويج الحسن المثنى لها راجع إلى الإرشاد والأغاني لأبي الفرج وإعلام الورى وقال المؤرخ النسابة ابن فندق البيهقي المتوفى (٥٦٥هـ) في كتابه: لباب الأنساب ـ المخطوط ـ بعد نقل قصة تزويج الحسن المثنى لها ما هذا لفظه: فقال الحسين عليه السلام فاطمة بنتي أكثر الناس شبهاً بأمي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وكان هذا التزويج في السنة التي قتل فيها الحسين عليه السلام اهـ.

ولذا يقال لها كما اشتهر في الألسن: فاطمة العروس لقرب عرسهما حين مجيئهما مع الحسين عليه السلام إلى كربلاء وأما قصة تزويجها من القاسم بن الحسن عليه السلام في وقعة الطف فلا مسحة لها من الواقع ولا يجوز نقلها في المحافل والمنابر وما في بعض الكتب من نقلها عن بعض الكتب المجهولة المؤلف وكذا ما ذكر في المنتخب للطريحي رحمه الله لا يعتمد عليه أصلاً وتحقيق المطلب يحتاج إلى بسط في الكلام ولا مجال له في المقام وقد ذكرنا ترجمة فاطمة عليها السلام تفصيلاً في بعض مجاميعنا والله الموفق.

في بيت المقدس حجر عن وجه الأرض إلّا وقد وجد تحته دم عبيط، ونظر النّاس الشّمسَ على الحيطان حمراء كأنّها الملاحف المعصفرة إلى أن خرج عليّ ابن الحسين عليه السلام بالنّسوة وردّ رأس الحسين عليه السلام إلى كربلاء[١].

وروينا مسنداً إلى الصادق عليه السلام قال لمّا ضرب الحسين عليه السلام بالسّيف ثمّ ابتدر ليقطع رأسه نادى مناد من قبل رب العزّة تبارك وتعالى من بطنان العرش فقال أيّتها الأمّة المتحيرة الظالمة بعد نبيّها لا وفقكم الله لأضحى ولا فطر، ثم قال أبو عبدالله عليه السلام لا جرم والله ما وفقوا ولا يوفّقون أبداً حتى يقوم ثائر الحسين عليه السلام. أقول لعلّ المراد أنّهم لا يوفّقون لمثوبات هذين اليومين وما أعدّ الله فيهما من التّوبة للعاصين والتّجاوز عن جرم المجرمين، وإن حملته على اشتباه الأهلّة في زمن دولة بني أميّة فلا بعد فيه[٢].

وروينا مسنداً إلى الرضا عليه السلام قال: قال النّبي صلى الله عليه وآله تحشر ابنتي فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بالدماء، تتعلّق بقائمة من قوائم العرش تقول يا أحكم الحاكمين احكم بيني وبين قاتل ولدي، قال رسول الله صلى الله عليه وآله ويحكم لابنتي وربّ الكعبة.

وبالإسناد إلى ابن عباس قال كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خروجه إلى صفّين فلمّا نزل نينوا وهو شطّ الفرات قال بأعلى صوته يابن عباس أتعرف هذا الموضع؟ قلت له ما أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال علي عليه السلام لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي، قال فبكى طويلاً حتى اخضلّت لحيته وسالت الدّموع على صدره وبكينا معه وهو يقول أوه أوه ما لي ولآل أبي سفيان، مالي ولآل حرب حزب الشيطان وأولياء الكفر؛ صبراً أبا عبدالله فقد لقي أبوك مثل الذي تلقى (تلقاه خ) ثمّ دعا بماء فتوضّأ وضوء الصلاة فصلّى ما شاء الله أن يصلّي، ثم ذكر نحو كلامه الأوّل إلّا أنّه نعس عند انقضاء صلاته وكلامه بساعة، ثمّ انتبه فقال يابن عباس، فقلت ها

---

(١) إن كان لفظ: (رد) بصيغة الماضي كما هو الظاهر يدل الخبر على مجيء أهل البيت عليهم السلام إلى كربلاء.

(٢) يمكن أن يكون المراد أنّ الأمة قاطبة لا يوفقون منذ زمن شهادة الحسين عليه السلام إلى قيام ثائره لاضحى وفطر يعني لصلاتهما مع الإمام المعصوم عليه السلام ولا يوفقون لإتيانها معه حتى يقوم القائم المنتظر عجل الله فرجه وكذلك صار الأمر بالنسبة لصلاتهما منذ وقعة الطف الفجيعة إلى اليوم وكذلك يكون أيضاً إلى قيام القائم أرواحنا فداه.

أناذا. فقال ألا أُحدّثك بما رأيت في منامي آنفاً عند رقدتي، فقلت نامت عيناك ورأيت خيراً يا أمير المؤمنين؛ قال رأيت كأنّي برجال قد نزلوا معهم أعلام بيض قد تقلّدوا بسيوفهم وهي بيض تلمع، وقد خطّوا حول هذه الأرض خطة، ثمّ رأيت كأنّ هذه النخيل قد ضربت بأغصانها والأرض تضطرب بدم عبيط؛ وكأنّي بالحسين عليه السلام سخلي وفرخي ومضغتي ومخّي قد غرق فيه، فيستغيث فلا يغاث، وكأنّ الرّجال البيض قد نزلوا من السّماء ينادونه ويقولون صبراً آل الرسول فإنّكم تقتلون على يدي شرار الناس؛ وهذه الجنّة يا أبا عبدالله إليك مشتاقة، ثمّ يعزونني ويقولون لي يا أبا الحسن أبشر فقد أقرّ الله به عينك يوم يقوم الناس لربّ العالمين ثمّ انتبهت هكذا.

وروي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله كان ذات يوم جالساً وحوله عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال لهم كيف بكم إذا كنتم صرعى وقبوركم شتّى؟ فقال له الحسين عليه السلام أنموت موتاً أو نقتل قتلاً، فقال بل تقتل يا بني ظلماً ويقتل أخوك ظلماً وتشرّد ذراريكم في الأرض؛ فقال الحسين عليه السلام ومن يقتلنا يا رسول الله؟ قال شرار النّاس؛ قال فهل يزورنا بعد قتلنا أحد، قال نعم يا بنيّ طائفة من أُمّتي يريدون بزيارتكم برّي وصلتي، فإذا كان يوم القيامة جئتهم إلى الموقف حتى آخذ بأعضادها فأخلّصها من أهواله وشدائده.

وروى سالم بن أبي حفصة قال: قال عمر بن سعد للحسين عليه السلام يا أباعبدالله إنّ قبلنا ناس سفهاء يزعمون أنّي أقتلك؛ فقال له الحسين عليه السلام إنّهم ليسوا بسفهاء ولكنّهم حلماء، أما إنّه يقرّ عيني أنّك لا تأكل برّ العراق بعدي إلّا قليلاً؛ وروينا عن سعد الاسكاف قال: قال أبو جعفر عليه السلام كان قاتل يحيى بن زكريا ولد زنا؛ وكان قاتل الحسين بن علي عليه السلام ولد زنا؛ ولم تحمر السّماء إلّا لهما، قال وخرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً وارتحل عنه إلّا ذكر يحيى بن زكرياء؛ وقال يوماً من الأيام إنّ من هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحيى بن زكريّا أُهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل، وعن عاصم عن ذر قال أول رأس حمل في الإسلام على رمح رأس الحسين بن علي عليه السلام فلم أر باكياً وباكية أكثر من ذلك اليوم.

وعن ابن عباس قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في النّوم أشعث أغبر معه قارورتان فيهما دم عبيط، فقلت يا رسول الله ما هذا؟ فقال دم الحسين وأصحابه ولم أزل ألتقطه منذ اليوم، قال فحسب ذلك اليوم وإذا هو يوم قتل الحسين عليه السلام. وعن الكندي قال لمّا قتل الحسين عليه السلام مكثنا سبعة أيّام إذا صلّينا العصر نظرنا إلى

الشّمس على الحيطان كأنّها ملاحف معصفرة من شدّة حمرتها؛ وضربت الكواكب بعضها بعضاً.

وروي أنّه لمّا أصبح ابن زياد لعنه الله بعث برأس الحسين عليه السلام فدير به في سكك الكوفة كلّها وقبائلها.

فروي عن زيد بن أرقم أنّه قال مرّ به وهو على رمح وأنا في غرفة لي فيها فلمّا حاذاني سمعته يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، فوقف والله شعري وناديت رأسك والله يابن رسول الله وأمرك أعجب وأعجب. وعن أبي حباب قال لقيت رجلاً من طيّ فقلت له بلغني أنّكم تسمعون نوح الجنّ على الحسين، قال نعم قلت ما الذي سمعت؟ قال سمعتهم يقولون:

مسح الرسول جبينه فله بريق في الخدود
أبواه من عليا قريش جدّه خير الجدود

وقال ديك الجن يرثي الحسين عليه السلام:

ويكبّرون بأن قتلت وإنّما قتلوا بك التّكبير والتّهليلا

وروي عن رجل أسديّ قال كنت زارعاً على نهر العلقمي بعد ارتحال عسكر بني أميّة فرأيت عجائب لا أقدر أحكي إلّا بعضها؛ وهو إذا هبّت الأرياح تمرّ عليّ نفحات كنفحات المسك والعنبر وإذا سكنت أرى نجوماً تنزل من السماء إلى الأرض وترقى من الأرض إلى السّماء وأنا منفرد مع عيالي ولا أرى أحداً أسأله عن ذلك، وقبل غروب الشّمس يقبل أسد من القبلة فأولّي عنه إلى منزلي، فإذا أصبح الصّباح أراه مستقبل القبلة ذاهباً، فقلت في نفسي حكت عساكر ابن زياد أنّ هؤلاء خوارج قد خرجوا على عبيدالله بن زياد فأمر بقتلهم وأرى منهم ما لم أر من سائر القتلى، فوالله هذه اللّيلة لا بدّ من المساهرة في هذه الأرض لأبصر هذا الأسد يأكل من هذه الجثث أم لا، فلمّا صار غروب الشّمس وإذا به أقبل فخفته فإذا هو هائل المنظر، فارتعت منه وهممت أن أنهزم عنه فثبطت نفسي وراجعتها وهو يتخطّى القتلى حتى وقف على جسد كأنّه الشّمس إذا طلعت تحت الغمام، فبرك عليه، فقلت يأكل منه وإذا به يمرغ وجهه على ذلك الجسد وهو يهمهم ويدمدم ودموعه تجري على خدّيه، فقلت الله أكبر ما هذه الأعجوبة فجعلت أحرسه حتى اعترك الظّلام وإذا الشّموع معلّقة فملأت هذه الأرض فزادني عجباً، وإذا أنا أسمع بكاء ونحيباً ساعة، وإذا بلطم مفجع لكن لم أر أشخاصاً فقصدت تلك الأصوات فخيل لي أنّي وقعت عليها

فأصغيت سمعي زماناً، فإذا هو تحت الأرض وفهمت من ناعٍ فيهم يقول وا حسيناه وا إماماه فاقشعرّ جلدي وطار لبّي؛ فقربت من الباكي وأقسمت عليه بالله وبرسوله من تكون؟ فقال إنّا نساء من الجنّ، فقلت وما شأنكنّ؟ فقالت في كلّ يوم وليلة هذا عزاؤنا على الحسين العطشان المجدّل على الرملاء، فقلت هذا الحسين الذي يجلس عنده الأسد، فقالت نعم، قالت أنت تعرف هذا الأسد؟ قلت لا؛ قالت هذا أبوه عليّ بن أبي طالب[1] فهممت أن أرجع ودموعي تجري على خَدّي حزناً عليه، وإذا

---

(١) هذا الكلام إفك عظيم وكلمة خاطئة يدل على أنّ هذه القصة المنقولة لا تخلو من دس واختلاق فإنّ ظهور أمير المؤمنين عليه السلام في صورة الأسد لا يمكن التفوه به من رواد العلم وطلاب الفضيلة فإنّه محال كما نقل جمع من البسطاء نظير ذلك في المعراج أيضاً وأن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى في ليلة المعراج أسداً قد سد الطريق عليه وأخذ الخاتم من يده ثم عرف أنّه أمير المؤمنين عليه السلام.
وهذه النقليات من الأفائك والمفتريات ومن موضوعات الغلاة والمفوضة وبعض الصوفية ومن مختلقاتهم ومن خرافات بعض جهال الشعراء الذين نظموا تلك القصة المجعولة في أشعارهم وينشدونها في مجالسهم والاعتقاد بهذه الأكاذيب وإنشاد الشعر فيها لا يصدر عمن كان من أهل الإسلام والإيمان.
ليت شعري أية شرافة في صورة الأسد وهو الحيوان المفترس حتى تنقلب صورة أمير المؤمنين عليه السلام ـ العياذ بالله ـ إليها وينخلع من هو أفضل الخلائق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عن الصورة الإنسانية التي هي أفضل صور الموجودات كلها إلى الصورة الحيوانية فإنّ الإنسان وصورته النوعية اشرف الصور وأحسنها وأفضلها قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] وقال سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وفي تحسين خلقة الإنسان يقول تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].
فليسمح لي القارىء الكريم أن أقول: هل أنّ انقلاب صورة أمير المؤمنين عليه السلام بصورة الحيوان المفترس كان باختياره عليه السلام أو أنّ الله تعالى أراد انقلاب صورته عليه السلام بصورة الأسد؟
فإن كان الأول فنقول كيف رضي أمير المؤمنين عليه السلام أن ينخلع عن الصورة التي يقول هو عليه السلام في حقها: الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه وهي كتابه الذي كتبه بيده وهي الهيكل الذي بناه بقدرته وهي صورة مجموع العالمين وهي النسخة المختصرة من اللوح المحفوظ وهي الشاهدة على كل غائب وهي الحجة على كل جاحد وهي الطريق المستقيم إلى كل خير وهي الصراط الممدود بين الجنّة والنار؟ =

برجال لم أر أطول منهم ذوو أسلحة كثيرة، فكاد فؤادي أن يطير، وإذا بهم قائل يقول فارجع فرجعت خائفاً؛ وقيل هذا الرّجل هو الذي دفن الحسين عليه السلام.

= فكيف اختار عليه السلام الصورة الحيوانية على الصورة الإنسانية الشريفة؟ فهل يسيغ وجدان عاقل من أهل الإيمان أن ينسب هذا القول الشائن المقذع إلى أمير المؤمنين عليه السلام حاشا وكلا.

وإن كان الثاني فيلزم أن يكون الله تعالى - العياذ بالله - مسخ أمير المؤمنين عليه السلام وحول صورته الشريفة إلى الصورة الحيوانية فإنّ المسخ عبارة عن تبدل صورة أعلى إلى صورة ادنى وتحول صورة إلى صورة أقبح منها ونسبة هذا إلى الله تعالى وإلى أمير المؤمنين عليه السلام كفر وإلحاد.

وأضف إلى ذلك أنّ المسخ اتفق في بعض الأمم السالفة كما ينبيء عنه القرآن الكريم من جهة تمرد تلك الأمة على طاعة الله تعالى والإيمان به والإصرار على المعاصي وعدم الانقياد منهم لأوامره ونواهيه فغضب الله تعالى عليهم ومسخهم على صورة القردة والخنازير وغيرها ولم يتفق المسخ لاظهار الرحمة والشفقة فإن توهم جاهل أنّ لشرافة الأسد وصولته جعل الله تعالى أمير المؤمنين عليه السلام في صورته فيقال لهذا الجاهل أية شرافة لهذا الحيوان المفترس الحرام اللحم الذي يأكل الجيف وأية صولة له في مقابل الإنسان وهو مسخر له كسائر الحيوانات. وما يذكر في حقه عليه السلام لفظ (أسدالله) وهو من ألقابه الشريفة يقصد به المعنى المجازي الذي يعرفه ويفهمه كل ناشيء من الطلاب وأصاغرهم وليس المراد هو المعنى الحقيقي قطعاً وبما أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قاتل الكفرة وله الشجاعة المشهورة والمواقف المشهودة في الحروب والغزوات وفي الجهاد مع الكفار والمشركين ومع الأبطال والشجعان فشبهوه بالأسد وقالوا هو أسد الله كما ذكروا ذلك في حق حمزة سيد الشهداء أيضاً.

وقد صرح المجتهد المحقق الأكبر والمفسر الأعظم السيد علي الحائري اللاهوري قدس سره في تفسير لوامع التنزيل: إنّ الاعتقاد بظهور أمير المؤمنين عليه السلام في المعراج بصورة الأسد وصده الطريق على رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذه الخاتم من يده كفر وزندقة ومذهب الإمامية بريء من هذه الأكاذيب والمفتريات وائمة أهل البيت الطاهر عليهم السلام تبرأوا من هذه الحكايات الموضوعة والقصص المختلقة والأقوال المفتعلة وقد حقق قدس سره هذا المطلب تفصيلاً في ذلك التفسير النفيس انظر إلى اللوامع ج ١٥ ص ٣٦ - ٣٧ ط الهند.

والعجب بعد ذلك كله من المحدث المتتبع المعاصر النهاوندي نزيل المشهد الرضوي رحمه الله صاحب المؤلفات المحتوية على الصحيح والسقيم والقوي والضعيف وقد ذكر في كتابه: (أنوار المواهب) قصة ظهور أمير المؤمنين عليه السلام في ليلة المعراج بصورة الأسد ونقلها عن بعض الكتب الضعيفة التي لا يعتمد عليها ثم أيدها بهذا الخبر الذي نقله المصنف رحمه الله عن الزارع الأسدي وقال إنّ هذا الخبر موجود في المنتخب للطريحي رحمه الله ونقله صاحب رياض الشهادة باختلاف فاحش وذكر أنّ هذا الزارع الأسدي كان يهودياً وأنه ذكر هذه القصة للإمام السجاد عليه السلام وأنه قال لليهودي أنّ ذلك الأسد هو أمير المؤمنين عليه السلام انظر إلى انوار المواهب الجزء الثالث ص ٥٥ - ٥٦. =

وروينا عن علي بن الحسين عليه السلام قال لمّا وفدنا على يزيد بن معاوية لعنهما الله تعالى أتوا بحبال وربقونا مثل الأغنام؛ وكان الحبل بعنقي وعنق أمّ كلثوم وبكتف زينب وسكينة والبنات تساق كلّما قصرن عن المشي ضربن حتى أوقفونا بين يدي يزيد، فتقدّمت إليه وهو على سرير مملكته، وقلت له ما ظنّك برسول الله صلى الله عليه وآله لو يرانا على هذه الصفة؟ فبكى وبكى كلّ من كان حاضراً في مجلسه فأمر بالحبال فقطعت من أعناقنا وأكتافنا.

وروي عن المنهال بن عمرو قال بينما أتمشّى في السّوق من دمشق وإذا أنا بعليّ ابن الحسين عليه السلام يتوكّأ على عصا ورجلاه كأنّهما قصبتان والدّم يسيل من ساقيه، والصّفرة قد ازدادت عليه، فخنقتني العبرة فاعترضته وقلت كيف أصبحت يابن رسول الله؟ قال فبكى وقال كيف حال من أصبح أسيراً ليزيد بن معاوية، ونسائي إلى الآن ما شبعن بطونهنّ ولا كسين رؤوسهن نائحات اللّيل والنّهار، ونحن يا منهال كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم؛ أمست العرب تفتخر على العجم بأنّ محمداً عربيّ؛ وأمست قريش تفتخر على العرب بأنّ محمداً منهم، وأمسينا معشر أهل البيت مغصوبين مقتلين مشرّدين؛ ما يدعونا يزيد إليه مرّة إلّا نظنّ القتل إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قلت سيّدي وإلى أين تريد؟ قال المحبس الذي نحن فيه ليس له سقف والشّمس تصهرنا به ولا نرى الهواء فأفرّ منه لضعف بدني سويعة، وأرجع خشية على النّساء، فبينما هو يخاطبني وأخاطبه وإذا بامرأة تناديه، فتركني ورجع إليها فحققت النظر إليها وإذا بها زينب بنت علي عليه السلام تدعوه إلى أين تمضي يا قرّة عيني؟ فرجع وانحرفت عنه؛ ولم أزل أذكره وأبكي.

وروي عن الطرماح بن عدي رحمه الله قال كنت من قتلى كربلاء وقد بقي فيّ رمق الحياة، ولو حلفت لكنت صادقاً إذ رأيت بعد عشرات متتابعات عشرين فارساً لهم نور شعشعاني وكلّهم ذو ثياب بيض يفوح منها رائحة المسك والعنبر، فقلت في نفسي هذا ابن زياد وقد أقبل بطلب جسد الحسين عليه السلام ليمثل به، فجاءوا حتى نزلوا

= وطالع هذه الأقاويل العجيبة ولا عجب من مسلك صاحب صحيفة الأبرار وطريقته حيث نقل في القسم الثاني في باب معجزات أمير المؤمنين عليه السلام ص ٢٤ عن بعض الكتب الضعيفة إنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: فعرجت إلى عرش ربي فبينا يناجيني الله تعالى ربي وأنا أناجيه وإذا أنا بأسد واقف قدامي فنظرت وإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام، فلينظر القارىء الفطن إلى هذه الشطحات والأقوال الشنيعة التي ألصقها المؤالف والمخالف إلى الامامية وابتلى مجتمعنا المذهبي بهذه الأفائك والأباطيل.

بين القتلى ثمّ إنّ المتقدّم أتى إلى الحسين وجلس عنده وأجلسه وسنده بصدره وأومى إلى نحو الكوفة بيده فما ردّها إلّا وبها رأس الحسين عليه السلام، فركّبه على الجسد كما كان أوّلاً، فطار عقلي وقلت ليس ابن زياد قادراً على هذا فتأمّلته فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فقال السلام عليك يا ولدي فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا جدّاه، قال كيف يا ولدي قتلوك؟ أتراهم ما عرفوك ومن الماء منعوك، وعن حرم جدّك أخرجوك ويلهم ألا أخبرتهم بحسبك عسى يرفقوا بحالك، فبكى وقال يا جدّاه أخبرتهم فقالوا نعرفك حق المعرفة لكن نقتلك ظلماً وعدواناً.

فقال عليه السلام يا أبي آدم ويا أبينوح، ويا أبيإبراهيم؛ ويا أخي إسماعيل، ويا أخي موسى، ويا أخي عيسى، فأجابوه بالتّلبية: انظروا إلى ما فعلت أشقى أمّتي من بعدي بعترتي، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة، فقالوا آمين اللّهمّ آمين، فجعلوا يبكون ويعزّون النّبي صلى الله عليه وآله زماناً طويلاً، وهو يحثو التّراب على رأسه وشيبته الطاهرة والحسين يقصّ عليه ما صدر وما عملوه فيه حتى غشي عليه من البكاء وأنا أسمعهم وأُشاهدهم، ففارقوه وانطرح كما كان أولاً ميتاً.

وروي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله كان ذات يوم جالساً وإذا بالحسين عليه السلام مقبلاً طفلاً، فأخذه على فخذه الأيمن، وأُتي بولده إبراهيم فوضعه على فخذه الأيسر وجعل يقبل هذا على فمه وهذا بحلقه وشفتيه وهو مشعوف بهما، فإذا جبرائيل قد انحدر عليه وقال يا محمّد إنّ الله تعالى لم يكن ليجمع لك بينهما لكنّه عزّ وجلّ يريد يأخذ روح أحدهما فاختر أيّهما شئت، فقال في نفسه إذا مات إبراهيم بكيت أنا وحدي وإذا مات الحسين بكيت عليه أنا وعلي وفاطمة، يا أخي جبرائيل موت إبراهيم خير لي فمات بعد ثلاثة أيّام، فكان بعد ذلك كلّما جاء الحسين عليه السلام قال النّبي صلى الله عليه وآله أهلاً وسهلاً ومرحباً بمن فديته بولدي إبراهيم.

وروي أنّ الحريم لمّا أُدخلن في السّبي إلى يزيد بن معاوية لعنه الله كان يطلع فيهنّ ويسأل عن كل واحدة بعينها وهنّ مربقات بحبل طويل وزجر بن قيس لعنه الله يجرّهنّ حتى أقبلت امرأة كانت تستر وجهها بزندها لأنّها لم يكن لها خرقة تستر بها وجهها، فقال من هذه التي ليس لها ستر؟ قالوا سكينة بنت الحسين؛ قال أنت سكينة؟ فسالت دموعها على خدّها واختنقت بعبرتها فسكت عنها حتى كادت أن تطلع روحها من البكاء، فقال لها وما يبكيك؟ قالت كيف لا تبكي من ليس لها ستر تستر وجهها ورأسها عنك وعن جلسائك، فبكى يزيد وأهل مجلسه؛ ثم قال لعن الله

عبيدالله بن زياد ما أقسى قلبه على آل الرسول، ثمّ أقبل إليها وقال ارجعي مع النسوة حتى آمركنّ بأمري.

فقالت يا يزيد إنّ بكائي أكثره من طيف رأيته اللّيلة، قال قصّيه عليّ فأمر السائق في الوقوف، فقالت إنّي لم أنم منذ قتل أبي الحسين لأنّي لم أتمكّن من الركوب على ظهر أدبر أعجف هذا، وكلما عثر بي يقهرني هذا زجر بن قيس يوشحني بالسّوط، فلم أر من يخلصني منه؛ فلعنه يزيد وجلساؤه؛ ثمّ قالت رقدت الليلة وإذا أرى قصراً من نور شرائفه الياقوت وأركانه من الزبرجد وأبوابه من العود القماري، فبينا أنا أنظر إليه وإذا ببابه قد فتحت فخرج منها خمس مشايخ يقدمهم وصيف[1] فتقدّمت إليه فقلت له لمن هذا القصر؟ فقال لأبيك الحسين؛ فقلت ومن هؤلاء المشايخ؟ فقال هذا آدم، وذاك نوح؛ وهذا إبراهيم، و(هذا) موسى و(هذا) عيسى فبينما أنا أنظر إلى كلامه وإلى القصر إذ أقبل رجل قمري الوجه قابضاً على لحيته همّاً وأسفاً حزيناً كئيباً فقلت ومن هذا؟ قال أما تعرفينه؟ فقلت لا قال هذا جدّك محمّد المصطفى، فدنوت منه وقلت يا جدّاه قتلت والله رجالنا؛ وذبحت أطفالنا وهتكت حريمنا؛ يا جدّنا لو رأيتنا على الأقتاب بغير وطاء ولا غطاء ولا حجاب ينظر إلينا البرّ والفاجر لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً، فأحنى عليّ وضمّني إلى صدره وبكى بكاء شديداً، وأنا أحكيه (حاكية خ) بهذا وأمثاله، فقالت لي تلك الأنبياء غضّي من صوتك يا بنت الصّفوة فقد أوجعت قلوبنا وقلب سيّدنا وأبكيته وأبكيتنا.

فأخذ الوصيف بيدي وأدخلني القصر وإذا بخمس نسوة وبينهن امرأة ناشرة شعرها على كتفيها وعليها ثياب سود، وبيدها ثوب مضمخ بالدّم، إذا قامت قمن لقيامها وإذا جلست جلسن معها لجلوسها، لاطمة خدّيها جارية دمعتها وهي تنوح والنساء تجيبها بذلك فقلت للوصيف ومن هؤلاء النّسوة؟ فقال يا سكينة هذه حوّاء، وهذه مريم والتي عندها آسية بنت مزاحم، وهذه أمّ موسى؛ وخديجة الكبرى، فقلت وصاحبة القميص المضرّج بالدماء، قال هذه جدّتك فاطمة الزهراء؛ فدنوت منها وقلت السلام عليك يا جدّتاه، ورفعت رأسها وقالت سكينة؟ قلت نعم، فقامت لاطمة معولة فقالت ادني مني فضمتني إلى صدرها، فقلت يا جدّتي على صغر سنّي أيتمت، فقالت واويلتاه وا مهجة قلباه من أحنا عليكنّ من بعد القتل، من جمعكن عن الشّتات آن الرّحيل أخبريني يا سكينة عن حال العليل، فقلت يا جدّتاه مراراً كثيرة

---

(١) قد يطلق الوصيف على الخادم غلاماً كان أو جارية.

أرادوا قتله فدفعهم عنه علّته لأنّه مكبوب على وجهه، سلبوه ثيابه لا يطيق النهوض ولو تراه عينك حين أركبوه على ظهر أعجف أدبر وقيّدوا عنقه بقيد ثقيل؛ فبكى فقلنا له ما يبكيك؟ قال إذا رأيت قيدي هذا ذكرت أغلال أهل النّار، فسألناهم فكّه فقيدوا رجله من تحت بطن النّاقة وإذا بفخذه يسيل دماً وقيحاً، باكياً نهاره وليله إن نظر إلى رأس أبيه ورؤوس الأنصار مشهرين، وإن نظر الينا عاريات مكشّفات، فكلّما رأى ذلك ازداد البكاء، فلطمت على وجهها ونادت وا ولداه وا ضيعتاه هكذا صدر عليكم من بعدنا، ثمّ إنها قالت وجسد القتيل من غسّله من كفّنه من صلّى عليه من دفنه من زاره؟ فقلت لم يكن له غسل غير دموعنا، وكفنته السّوافي من رمالها؛ ورحلنا عنه وزوّاره الطّير والوحش؛ فنادت وا حسيناه وا ولداه وا قلّة ناصراه هذا والنّساء باكيات معولات لإعوالها، ثمّ نظرن إليّ وقلن لي مهلاً يا بنت الصّفوة لقد أهلكت سيّدتنا وأهلكتنا؛ فانتبهت من رقدتي هذه ويزيد وجلساؤه وأمراء بني أميّة يبكون، فأمرهن بالانصراف فانصرفن.

روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] ؟أنّه رأى ساق العرش والأسماء عليه؛ فلقّنه جبرائيل، فقال قل: يا حميد بحق محمّد يا عالي بحق عليّ يا فاطر بحق فاطمة يا محسن بحق الحسن، يا صاحب (قديم خ) الإحسان بحق الحسين؛ فسالت دموعه وانخشع قلبه، وقال يا أخي جبرائيل في ذكري الخامس ينخشع قلبي وتسيل عبرتي، قال جبرائيل ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال يا أخي وما هي؟ قال يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً؛ ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم ينادي واعطشاه وا قلّة ناصراه حتى يحول العطش بينه وبين السّماء كالدخان فلم يجبه أحد إلّا بالسيوف وشرب الحتوف فيذبح ذبح (كما يذبح خ) الشاة من قفاه وتُشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان ومعهم تؤخذ النسوان، سبق يا أخي في علم الواحد المنّان، فبكى مع جبرائيل بكاء المثكولة والثّكيل.

وروينا حديث الجمال لعنه الله باسناده (نا) إلى سعيد بن المسيّب قال لمّا استشهد مولانا أبو عبدالله الحسين عليه السلام وحجّ النّاس من قابل دخلت على مولاي عليّ بن الحسين عليه السلام فقلت له يا مولاي قد قرب الحج فما تأمرني؟ فقال إمض على نيّتك فحجّ فحججت فبينما أنا أطوف في الكعبة وإذا أنا برجل مقطوع اليدين ووجهه كقطع اللّيل المظلم وهو متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول اللّهمّ ربّ هذا البيت الحرام إغفر لي وما أحسبك تفعل ولو تشفّعت فيّ سكّان سمواتك وأرضك وجميع

ما خلقت لعظم جرمي، قال سعيد بن المسيّب فشغلت وشغل الناس عن الطواف حتى حفّ به النّاس واجتمعنا عليه؛ فقلت أيا ويلك لو كنت إبليس لما كان ينبغي لك أن تيأس من رحمة الله فما أنت وما ذنبك؟ فبكى وقال يا قوم أنا أعرف بنفسي وذنبي وما جنيت، فقالوا له تذكره لنا.

فقال أنا كنت جمّالاً لأبي عبدالله عليه السلام لما خرج من المدينة إلى العراق وكنت أراه إذا أراد الوضوء للصلاة يضع سراويله عندي، فأرى تكة تغشي الأبصار بحسن إشراقها وألوانها، وكنت أتمنّاها أن تكون لي؛ إلى أن صرنا بكربلا فقتل الحسين عليه السلام وهي معه؛ فدفنت نفسي في مكان من الأرض فلم أُطلب أنا وأمثالي، فلما جنّ الليل خرجت من مكاني فرأيت في تلك المعركة نوراً لا ظلمة، ونهاراً لا ليلاً؛ والقتلى مطرحون (حين) على وجه الأرض، فذكرت لحيني وشقائي التّكّة فقلت والله لأطلبنّ الحسين عليه السلام وأرجو أن تكون التّكّة في سراويله فآخذها. ولم أزل أنظر في وجوه القتلى حتى أتيت إلى الحسين عليه السلام، فوجدته مكبوباً على وجهه وهو جثّة بلا رأس ونوره مشرق مرمّل بدمائه والرّياح سافية عليه، فقلت هذا والله الحسين عليه السلام، فنظرت إلى سراويله كما كنت أراها، فدنوت منه فضربت بيدي إلى التكة لآخذها، فإذا هو قد عقدها عقداً كثيرة، فلم أزل أحلّها حتى حللت عقدة منها فمدّ يده اليمنى وقبض على التّكة فلم أقدر على أخذ يده عنها ولا أصل إليها، فدعتني النفس الملعونة إلى أن أطلب شيئاً أقطع به يده فوجدت قطعة سيف مطروح فأخذتها، فلم أزل أجز يده حتى فصلتها عن زنده، ثمّ نحيتها عن التّكة، فمددت يدي إلى التّكّة لأحلّها فمدّ يده اليسرى فقبض عليها فلم أقدر على أخذها، فأخذت قطعة السيف وقطعتها بها، فمددت يدي إلى التّكّة لآخذها فإذا بالأرض ترجف والسّماء تهتزّ وإذا بغلبة (بغلغلة) عظيمة وبكاء، ونداء يقول يا ابناه يا مقتولاه وا ذبيحاه، وا حسيناه، وا غريباه، يا بني قتلوك وما عرفوك ومن شرب الماء منعوك؛ وما عرفوا جدك وأباك. فلمّا رأيت ذلك صعقت ورميت نفسي بين القتلى وإذا بثلاث نفر وامرأة تقول:

ألا يا نور عيني يا حسينا	فمن قطع اليسار مع اليمينا
ومن أرداك في البيدا طريحاً	ومن أيتم بناتك والبنينا
ومن سلب الثياب أيا حبيبي	ويا ذخري ويا عيني اليمينا
عفيراً بالتّراب بغير رأس	خضيب النّحر متلول الجبينا

فمن أوصيت بعدك باليتامى ... ومن لسكينة حصناً حصينا
ومن للثاكلات وللضياعا (للصبايا) ... لقد أضحوا بأيدي الكافرينا
يعزّ عليّ أن ألقاك ملقى ... بلا غسل ولا كفن رهينا
أيا روحي لقد طوّلت حزني ... لقتلك يابن خير العالمينا
لمقتله بكت أملاك ربّي ... وحور العين تبكي والأمينا
لقد أورثتني حزناً طويلاً ... على طول اللّيالي والسّنينا
فآه لما جرى لك يا حبيبي ... نساؤك حاسرات مجررينا
فنوحوا واندبوا مولى قتيلاً ... حبيب رسول ربّ العالمينا

وقد امتلأت الأرض وحولها خلائق وقوفاً؛ وقد امتلأت الأرض بصور الناس وأجنحة الملائكة، وإذا بواحد منهم يقول يا ابناه يا حسين فداؤك جدّك وأبوك وأمّك وأخوك، وإذا بالحسين عليه السلام ورأسه على بدنه، وهو يقول يا جداه يا رسول الله، ويا أبتاه يا أمير المؤمنين، ويا أمّاه يا فاطمة الزهراء، ويا أخاه المقتول بالسّم قبلي، عليكم منّي السلام، ثمّ إنّه بكى وقال يا جدّاه قتلوا والله رجالنا يا جدّاه سلبوا والله نساءنا؛ يا جداه نهبوا والله رحالنا يا جدّاه ذبحوا والله أطفالنا، يا جدّاه يعزّ والله عليك أن ترى حالنا وما فعل الكفّار بنا. وإذا بهم قد جلسوا حوله يبكون على ما أصابهم من الكفّار وفاطمة تقول يا أباه يا رسول الله أما ترى ما فعل أمّتك بولدي، أتأذن لي أن آخذ من دم شيبه وأخضب به ناصيتي وألقى الله عزّ وجلّ وأنا متخضّبة (مختضبة) بدم ولدي الحسين؟ فقال لها خذي ونأخذ يا فاطمة، فرأيتهم يأخذون من دم شيبه وتمسح به فاطمة ناصيتها والنّبي وعليّ والحسن يمسحون به نحورهم وصدورهم وأيديهم إلى المرافق، وسمعت فاطمة الزهراء تقول وهي مقروحة الفؤاد يا بنيّ من الذي قطع رأسك الشّريف؛ يا بنيّ من ذا الذي رضّ لصدرك العفيف، يا بنيّ من ذا الذي أيتم أطفالك، يا بني من ذا الذي قتل رجالك، قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له فديتك يا حسين يعزّ عليّ والله أن أراك مقطوع الرأس، مرمّل الجبين؛ دامي النحر مكبوباً على قفاك قد كستك الذواري من الرّمل (الرمول) وأنت طريح مقتول مقطوع الكفّين، يا بني من قطع يدك اليمنى وثنى باليسرى؟

فقال يا جدّاه كان معي جمّال من المدينة وكان يراني إذا وضعت سراويلي للوضوء فيتمنى أن يكون له؛ فما منعني أن أدفعها إليه إلّا لعلمي أنّه صاحب هذا الفعل فلمّا قتلت خرج يطلبني من بين القتلى، فوجدني جثّة بلا رأس فتفقّد سراويلي

فرأى التّكّة وقد كنت عقدتها عقداً كثيرة، فضرب يده إلى التكّة فحلّ عقدة منها فمددت يدي اليمنى فقبضت على التكة، فطلب المعركة فوجد قطعة سيف فقطع به يميني ثمّ حلّ عقدة أُخرى فقبضت على التّكّة بيدي اليسرى لئلاّ يحلّها فتنكشف عورتي، فجزّ يدي اليسرى؛ فلمّا أراد حلّ التّكة حسّ بك فرمى نفسه بين القتلى، فلمّا سمع النّبي صلى الله عليه وآله كلام الحسين عليه السلام بكى بكاء شديداً وأتى بين القتلى إلى أن وقف نحوي وقال: ما لي وما لك يا جمال، تقطع أيدياً طالما قبلها جبرائيل عليه السلام وملائكة الله أجمعين وتبرّكت بها أهل السمٰوات والأرضين، أما كفاك ما صنع به الملاعين من الذّلّ والهوان، هتكوا نساءه بعد الخدور وانسبال السّتور وقد سلبهن الأعداء، سوّد الله وجهك يا جمال في الدنيا والآخرة، وقطع الله يديك ورجليك وجعلك في حزب من سفك دماءنا وجزاؤك على الله؛ فما استتمّ دعاؤه حتى شلّت يداي وحسست بوجهي كأنّه أُلبس قطعاً من اللّيل مظلماً، وبقيت على هذه الحالة، فجئت إلى هذا البيت أستشفع وأنا أعلم أنّه لا يغفر لي أبداً فلم يبق في مكة أحد إلّا وسمع حديثه وتقرّب إلى الله بلعنه، وكلّ يقول حسبك ما جنيت يا لعين.

وروينا أنّ آدم عليه السلام لـمّا نزل إلى الأرض فلم ير حوّاء صار يطوف الأرض في طلبها؛ فمرّ بكربلاء فاعتلّ وضاق صدره من غير سبب، وعثر في الموضع الذي قتل فيه الحسين عليه السلام حتى سال الدّم من رجله؛ فرفع رأسه إلى السّماء وقال إلهي هل حدث منّي ذنب آخر فعاقبتني به؟ فإنّي طفت جميع الأرض فما أصابني ما أصابني في هذه الأرض، فأوحى الله إليه يا آدم ما حدث منك ذنب ولكن يقتل في هذه الأرض ولدك الحسين ظلماً فسال دمك موافقة لدم الحسين، فقال آدم يا ربّ أيكون الحسين نبيّاً؟ قال لا ولكنّه سبط النّبي محمّد صلى الله عليه وآله، قال ومن القاتل له؟ قال قاتله يزيد لعين أهل السّموات وأهل الأرض، قال آدم فأيّ شيء أصنع يا جبرائيل؟ فقال ألعنه، فلعنه آدم أربع مرّات ومشى أربع خطوات إلى جبل عرفات بقدرة رافع السّموات فوجد حوّاء هناك.

وإنّ نوحاً عليه السلام ركب في السّفينة وطافت به جميع الدنيا، فلما مرّت السفينة بكربلاء أخذته إلى الأرض وخاف نوح من الغرق؛ فدعا ربّه وقال إلهي هل حدث منّي ذنب؟ فإنّي طفت جميع الدنيا فما أصابني فزع مثل ما أصابني في هذه الأرض، فنزل إليه جبرائيل وقال له يا نوح في هذا الموضع يقتل الحسين سبط محمد خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء، قال ومن القاتل له يا جبرائيل؟ قال قاتله لعين أهل السّموات السّبع والأرضين السّبع، فلعنه نوح عليه السلام أربع مرّات فسارت السّفينة حتّى بلغت الجودي واستقرّت عليه.

وإنّ إبراهيم عليه السلام مرّ في أرض كربلاء وهو راكب فرساً فعثر الفرس وسقط إبراهيم وشجّ رأسه وسال دمه، فأخذ في الاستغفار وقال إلهي أيّ شيء حدث منّي؟ فنزل جبرائيل وقال يا إبراهيم ما حدث منك ذنب ولكن هنا يقتل سبط خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء فسال دمك موافقة لدمه. قال يا جبرائيل ومن يكون قاتله؟ قال قاتله لعين أهل السّموات والأرضين، والقلم جرى على اللّوح بلعنه بغير إذن ربّه، فأوحى الله تعالى إلى القلم إنّك استحققت الثّناء بهذا اللّعن، فرفع إبراهيم عليه السلام يده ولعن يزيد لعناً كثيراً وأمّن فرسه بلسان فصيح، فقال إبراهيم عليه السلام لفرسه أيّ شيء عرفت حتى تؤمّن على دعائي؟ فقال يا إبراهيم أنا أفتخر بركوبك عليّ؛ فلمّا عثرت وسقطت عن ظهري عظمت خجلتي وكان سبب ذلك من يزيد لعنه الله تعالى.

وإن إسماعيل عليه السلام كانت أغنامه ترعى بشطّ الفرات فأخبره الرّاعي أنّها لا تشرب من هذه المشرعة منذ كذا يوماً، فسأل ربّه عن سبب ذلك، فنزل جبرائيل عليه السلام وقال يا إسماعيل اسأل غنمك فإنّها تجيبك عن سبب امتناعها من شرب الماء؛ فقال لها لم لا تشربين من هذا الماء؟ فقالت بلسان فصيح قد بلغنا أنّ ولدك الحسين يقتل هنا عطشاناً فنحن لا نشرب من هذه المشرعة حزناً عليه، فسأل عن قاتله؛ فقالت يقتله لعين أهل السمٰوات والأرضين والخلائق أجمعين، فقال إسماعيل عليه السلام اللّهم العن قاتل الحسين عليه السلام.

وإن موسى عليه السلام كان ذات يوم سائراً ومعه يوشع بن نون، فلمّا جاء إلى أرض كربلاء انخرق نعله وانقطع شراكه ودخل الحسك في رجليه وسال دمه، فقال إلهي أيّ شيء حدث مني؟ فأوحى الله إليه إنّ هنا يقتل الحسين عليه السلام وهنا يسفك دمه فسال دمك موافقة لدمه، فقال ربّ ومن يكون الحسين؟ فقيل هو سبط محمد المصطفى وابن عليّ المرتضى فقال ومن يكون قاتله؟ فقيل هو لعين السّمك في البحار والوحوش في القفار والطّيور في الهواء، فرفع موسى يديه ولعن (قال إلهي العن) يزيد ودعا عليه وأمّن يوشع بن نون على دعائه ومضى لشأنه.

وإنّ سليمان عليه السلام كان يجلس على بساطه ويسير بالهواء؛ فمرّ ذات يوم وهو سائر في أرض كربلاء فدارت الرّيح بساطه ثلاث دورات حتى خافوا السّقوط، فسكنت الرّيح ونزل البساط في أرض كربلاء؛ فقال سليمان للريح لم سكنت؟ فقالت إنّ هنا يقتل الحسين عليه السلام؛ فقال ومن يكون الحسين؟ قالت هو سبط محمّد المختار وابن عليّ الكرّار قال ومن قاتله؟ قالت يقتله لعين أهل السمٰوات والأرض، فرفع يده سليمان ولعن يزيد وأمّن على دعائه الإنس والجنّ فهبت الرّيح وسار البساط.

وإنّ عيسى عليه السلام كان سائحاً في البراري ومعه الحواريّون، فمرّ بأرض كربلاء فرأى أسداً كاشراً قد أخذ الطريق، فتقدّم عيسى إلى الأسد وقال له لم جلست في هذا الطّريق ولا تدعنا نمرّ؟ فقال الأسد بلسان فصيح إنّي لم أدع لكم الطريق حتى تلعنوا يزيد قاتل الحسين عليه السلام، فقال عيسى عليه السلام ومن يكون الحسين؟ قال هو سبط محمّد النّبي الأمّي وابن عليّ الوليّ، قال ومن القاتل له؟ قال قاتله لعين الوحوش والذئاب والسّباع أجمع خصوصاً في أيّام عاشوراء؛ فرفع عيسى عليه السلام يده ولعن يزيد ودعا عليه وأمّن الحواريّون على دعائه فتنحّى الأسد عن طريقهم ومضوا لشأنهم.

وروى الكليني طاب ثراه بإسناده إلى إدريس بن عبدالله الأودي قال لمّا قتل الحسين عليه السلام أراد القوم أن يوطئوه الخيل، فقالت فضة لزينب يا سيّدتي إنّ سفينة وهو مولى رسول الله صلى الله عليه وآله انكسر به في البحر فطاف على خشبة في الماء فخرج إلى جزيرة، فرأى أسداً مقبلاً فأتى الأسد وقال يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله؛ فهمهم بين يديه حتى أوقفه على الطريق، والأسد رابض في ناحية، فدعيني أمضي إليه وأعلمه ما هم صانعون غداً، قال فمضت إليه؛ فقالت يا أبا الحارث؛ فرفع رأسه ثمّ قالت أتدري ما يريدون يعملوا (يفعلوا) غداً بأبي عبدالله عليه السلام؟ يريدون أن يوطئوا الخيل ظهره، قال فمشى حتى وضع يديه على جسد الحسين عليه السلام، فأقبلت الخيل فلمّا نظروا إليه قال لهم عمر بن سعد لعنه الله هذه فتنة لا تثيروها إنصرفوا فانصرفوا.

قال مؤلف هذا الكتاب عفى الله عنه قد تقدّم أنّهم أوطأوه الخيل، ولا منافاة بينهما لجواز أن يكون في يوم مجيء الأسد لم يوطئوه الخيل وأوطأوه بعد ذلك، وفي إرشاد المفيد رحمه الله، أنّه لمّا لم يبق أحد مع الحسين عليه السلام دعا بسراويل يمان يلمع فيه البصر ففزره (فغرزه) لكيلا يسلب من بعد قتله، فلمّا قتل عمد بحر بن كعب فسلبه السراويل وتركه مجرّداً، وكانت يدا بحر بن كعب تيبسان في الصيف كأنّهما عودان، وترطبان في الشتاء فتنضحان دماً وقيحاً إلى أن أهلكه الله تعالى؛ والأخبار الواردة بهذا المضمون كثيرة جدّاً.

وأمّا من قتل مع الحسين عليه السلام من أهل بيته فقال شيخنا المفيد نور الله ضريحه هم ثمانية عشر وهم: العبّاس وعبدالله وجعفر وعثمان بنو أمير المؤمنين عليه السلام؛ أمّهم أمّ البنين بنت حزام الكلابيّة؛ وعبيدالله وأبو بكر ابنا أمير المؤمنين عليه السلام؛ أمّهما

ليلى الثقفيّة، وعليّ وعبدالله ابنا الحسين بن علي عليه السلام؛ والقاسم وأبو بكر وعبدالله بنو الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وعبدالله وجعفر وعبد الرحمن بنو عقيل بن أبي طالب، وعبدالله بن مسلم بن عقيل ومحمد بن عقيل ابن أبي طالب عليه السلام ومحمّد وعون ابنا عبدالله بن جعفر بن أبيطالب، فهؤلاء ثمانية عشر نفساً من بني هاشم وهم كلّهم مدفونون ممّا يلي رجلي الحسين عليه السلام إلّا العبّاس فإنّه دفن موضع قتله.

وأمّا أصحاب الحسين عليه السلام الذين قتلوا معه فإنّهم دفنوا حوله؛ ولسنا نحصل لهم أجداثاً على التحقيق والتّفصيل غير أنّا لا نشكّ في أنّ الحائر محيط بهم، هذا كلامه رحمه الله، أقول قد ترك رحمه الله ذكر الحر فإنّه من الشهداء وليس هو ممّا يحيط به الحائر الشّريف بل هو بعيد عن قبر مولانا الحسين عليه السلام بفرسخ وأزيد، وقبره الآن معروف يزوره بعض الناس، وبعض الخواص من الشيعة والعلماء يترك زيارته، بل ربّما سمعت عن بعض محدّثي الشيعة لعنه والطّعن عليه تعويلاً على أنّه قطع عليه بالارتداد الفطري، ومثل هذا المرتدّ عند الأكثر لا تقبل توبته، وما نقل من قبول الحسين عليه السلام لها منقول بأخبار الآحاد وهو لا يعارض الإجماع، وأمّا أنا فقد أوردت بعض الكلمات المناسبة لهذا المقام في شرح تهذيب الحديث ولا بأس هنا بالإشارة إلى نبذة منه وهو يتمّ ببيان أمور:

الأول: في تحقيق معنى المرتد؛ فنقول الذي قاله أصحابنا رضوان الله عليهم إنّ المرتدّ هو من أنكر ما علم ثبوته من الدين ضرورة أو إثبات ما علم نفيه كذلك، أو يفعل ذلك صريحاً كالسّجود للصنم ونحوه، وإلقاء المصحف في القاذورات، وعلى هذا فالمرتد أكثر من غيره، وذلك أنّه ما من يوم إلّا وأكثر الناس يتّهم الله في قضائه وعدله؛ وغير ذلك ممّا يوجب الارتداد، نعم ربّما ظهر من بعض الأخبار أنّه يشترط في مثله العلم بكونه من ضروريات الدين، وعلى هذا فلعلّ الجاهل معذور حتى يعرف ويلقي العالم إليه الحكم الشّرعي لإمكان الجهل بالضروريّات لكثير من الناس؛ خصوصاً أهل القرى والصّحارى، ويؤيّده قوله صلى الله عليه وآله الناس في سعة ما لم يعلموا.

فإذا عرفت هذا فنقول إنّ الحرّ لمّا خرج من الكوفة ما كان قصده القتال مع الحسين عليه السلام وإنّما أمره عبيدالله بن زياد لعنه الله بأن يأتي به إلى الكوفة؛ وأمّا منعه له عن الرجوع إلى المدينة بعد أن طلب الحسين عليه السلام أن يأذن له فيه فقد كان جاهلاً بأنّ مثل هذا يخرج من الدّين ويكون الرجل مرتداً به، ومن ثمّ لمّا رجع إلى

الحسين عليه السلام وتاب حلف بأنّي ما كنت أعلم أنّ القوم يفعلون بك هذا، وقد كان صادقاً في يمينه، وحينئذ فالذي صدر منه نوع من أنواع الكبائر فلمّا تاب منها قبل الحسين عليه السلام توبته منها، ويؤيّده أنّ كثيراً من الشّيعة ومن أقارب الأئمة عليهم السلام كانوا يؤذون أئمتّهم عليهم السلام بأنواع الأذى مثل العباس أخي الرضا عليه السلام ومثل أقارب مولانا الصادق عليه السلام؛ وقد كان جماعة منهم يسعون بقتلهم وإهانتهم عند خلفاء الجور ومع هذا كلّه إذا أراد أحد من الشّيعة أن يذكرهم بسوء في مجالس الأئمة عليهم السلام يغضبون عليهم السلام، ويبالغون في نفيه؛ ويقولون إنّ هؤلاء أقاربنا دعونا معهم لا تتعرضوا لهم بسوء من كلام خبيث وغيره؛ فالذي صدر من الحرّ على تقدير العلم منه مثل الذي صدر من هؤلاء مع أنّ الأئمة عليهم السلام قبلوا حالهم قبل التّوبة فكيف لو تابوا.

الثاني: إنّ المراد من الدين المأخوذ في التّعريف إنّما هو دين الإسلام على ما صرّحوا به لا دين الشيعة فقط؛ وذلك أنّه لو كان المراد بالمرتدّ من أنكر ما علم ثبوته من دين الشيعة ضرورة لكان مخالفونا كلّهم مرتدّين في هذه الدنيا، لأن كون علي بن أبيطالب عليه السلام هو الخليفة الأوّل بالنّص والاستحقاق ممّا ثبت من دين الشيعة ضرورة، فكان يجب أن يحكم على عامة أهل الخلاف بالارتداد والمصرح به من علمائنا بخلافه في هذه الدنيا، وأمّا في الآخرة فعذابهم أشدّ من المرتدّ وغيره، وحينئذ منع الحسين عليه السلام عن الرجوع إلى المدينة وإن كان حراماً إلّا أنّه ليس ضروريّاً من دين الإسلام ولا يقول مخالفونا بكفر مثل هذا، نعم قالوا بكفر كلّ من خرج على إمام عادل وحاربه والحرّ في وقت الحرب كان للإمام عليه السلام لا عليه، فلم يصدق عليه من هذه الجهة أيضاً اسم الارتداد.

الثالث: إنّ قولهم إنّ المرتدّ الفطري غير مقبول التوبة لا نقبله على إطلاقه، بل نقول إنّ توبته مقبولة فيما بينه وبين الله تعالى كما صار إليه شيخنا الشّهيد الثاني طاب ثراه، وحينئذ فلو لم يقدر على قتله أو تأخّر قتله فتاب صحّت توبته وقبلت عباداته ومعاملاته؛ لكن لا تعود إليه زوجته بذلك ولا ماله على ما لا يخفى، وأمّا فيما بينه وبين الناس فبأن يقول إنّ ذلك الناس الذي ثبت عندهم ارتداده إن كان غير الإمام لم يجز له العفو عنه بل وجب عليه قتله مع المكنة، وإن كان هو الإمام كان مخيّراً بين قتله والعفو عنه؛ كما عفا أمير المؤمنين عليه السلام عن أهل البصرة وقبل توبة من تاب منهم، مع أنّهم كانوا مرتدّين عن الفطرة، وكذلك قبل توبة من تاب من أهل النّهروان وصفّين وسائر حروبه وموارده مع صدق تعريف الارتداد عليهم بكلّ الوجوه، ومن

هذا أجاب مخالفونا بزعمهم عن كل ما أوردناه عليهم إلّا عن محاربة الصحابة لأمير المؤمنين عليه السلام فإنّهم لم يقدروا عليه، بل قالوا وأمّا عن حرب الصحابة فنسكت، وبعضهم أحاله على علم الله تعالى القديم وأنّه كان مقدّراً وعلم الله بزعمهم هو علّة للمعلول ووقوعه، وآخرون قالوا إنّهم تابوا بعد المحاربة إلى غير ذلك من الخرافات الباردة والتّمويهات الفاسدة.

الرابع: قولهم إنّ ارتداده قطعي وتوبته ظنّي (ظنيّة) لا يخفى ما فيه، وذلك إنّ كلّ خبر وأثر تضمّن خروجه على الحسين عليه السلام ومنعه له عن الرجوع تضمّن توبته وقبول الحسين عليه السلام لها وأنّه عليه السلام رثاه بأبيات من الشعر وهي مشهورة، وفي كتب الأحاديث والسّير والتّواريخ مسطورة، وقد ترحّم عليه بعد قتله، وهذا متواتر نقله الخلف عن السّلف في كل عصر وأوان بحيث لا يمكن إنكاره، ولعمرك إنّ الطّعن على الحرّ يؤول إلى الطّعن على منَ قبل توبته وهو مولانا الحسين عليه السلام؛ وهذا هو الارتداد الظّاهر الذي لا يقبل التوبة، أعاذنا الله وإيّاكم من الإقدام على مثله والجرأة عليه.

ولقد حدثني جماعة من الثّقات[1] أنّ الشّاه إسماعيل لمّا ملك بغداد وأتى إلى مشهد الحسين عليه السلام وسمع من بعض الناس الطعن على الحرّ أتى إلى قبره وأمر بنبشه؛ فنبشوه فرأوه نائماً كهيئته لمّا قتل؛ ورأوا على رأسه عصابة مشدوداً بها رأسه؛ فأراد الشّاه نور الله ضريحه أخذ تلك العصابة لما نقل في كتب السّير والتّواريخ أنّ تلك العصابة هي دسمال[2] الحسين عليه السلام شدّ به رأس الحرّ لما أصيب

---

(١) نقل شيخنا العلاّمة المامقاني رحمه الله في تنقيح المقال قصة نبش الشاه إسماعيل رحمه الله قبر الحر بواسطة الحائري عن هذا الكتاب وكتب في الهامش بخطه الشريف عند قول المصنف رحمه الله :- هي دسمال هذه كلمة اعجمية وقد كان الأولى ابدالها ونقل في ترجمته عن الشيخ ابن نما رحمه الله في مثير الأحزان أن الحر عند خروجه من الكوفة نودي من خلفه ابشر يا حر بالجنة فعجب من ذلك حيث لم ير خلفه أحداً وروى ابن الجوزي في التذكرة أنّه قص ذلك على الحسين عليه السلام فقال له ذلك هو الخضر جاء مبشراً لك ثم قال قدس سره ومن سبر سيرته وآدابه مع الحسين عليه السلام يعلم صدق نيته وخلوص إيمانه حشرنا الله معه ومع أشباهه بحق الحسين عليه السلام واقرانه (اهـ) راجع إلى تنقيح المقال تجد تحقيقاً حول ترجمة الحر رحمه الله وجلالة شأنه وأن خروجه من أول الأمر لم يكن لمحاربة الحسين عليه السلام ج١ ص ٢٦١.

(٢) دسمال: فارسية أي خرقة، يعني خرقة استعملها الإمام الحسين عليه السلام كعصابة ووضعها على رأس الحر رضوان الله عليه.

في تلك الواقعة؛ ودفن على تلك الهيئة، فلما حلّوا تلك العصابة جرى الدم (دمه) من رأسه حتّى امتلأ منه القبر فلما شدّوا عليه تلك العصابة انقطع الدم فلما حلّوها جرى الدم، وكلما أرادوا أن يعالجوا قطع الدم بغير تلك العصابة لم يمكنهم، فتبين لهم حسن حاله، فأمر فبنى على قبره بناء وعيّن له خادماً يخدم قبره؛ والذي يجود بنفسه في ذلك الوقت الضيق ويقدم على القتل وعلى أن يفدي الحسين عليه السلام بنفسه لا شك في أنّ حاله من أحسن الأحوال.

الخامس: إنّ الذي يظهر من هذه الأخبار المعتبرة الصحيحة كما قاله الشهيد الثاني عطر الله مرقده هو أنّ الارتداد كله قسم واحد وأنّه يستتاب صاحبه فإن تاب وإلاّ قتل، وهذا مذهب ابن الجنيد طاب ثراه والأخبار بإطلاقها أو عمومها دالة عليه ولم يدل على المشهور من التفصيل سوى رواية عمار الساباطي وهي على ضعفها لا تقوم بتقييد الأخبار الصحيحة المتكثرة، فيكون وقت منع الحر للحسين عليه السلام إلى وقت رجوعه إليه هو زمن الاستتابة فتاب وقبلت توبته، وبالجملة فالقول بأنّ توبة المرتدّ الفطري غير مقبولة حتى بينه وبين الله تعالى مشكل جدّاً، والله الهادي إلى سواء السّبيل.

نور في الفقر والزهد والتوكل

الحمد لله الذي تسبّح له الرمال وتسجد له الظّلال؛ وتتدكدك من هيبته الجبال خلق الإنسان من الطّين اللازب والصلصال، وزيّن صورته بأحسن تقويم وأتمّ اعتدال؛ وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضّلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثمّ كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال فلاح له من البهجة والفلاح والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادي اشراقه كل حسن وجمال، واستثقل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال وتمثّل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النّكال، وهي متلفّفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السّحر والاحتيال؛ وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال فهي تقتنصهم بضروب المكر والإحتيال، ثمّ لا تجترىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال بل تقيّدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلمّا انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيما زهد المبغض لها؛ فتركوا التّفاخر والتّكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه

هممهم على حضرة الجلال منها بوصال ليس له انفصال؛ ومشاهدة أبديّة لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة على سيّدنا محمد سيّد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أمّا بعد فإنّ الدنيا عدوّة الله تعالى، بغرورها ضلّ من ضلّ، وبمكرها زلّ من زلّ، فحبّها رأس الخطيئات والسّيئات؛ وبغضها أمّ الطّاعات ورأس القربات، وقد قدّمنا الكلام في بيان معناها والآن نتكلّم في تحقيق هذه الأمور الثلاثة:

أمّا الفقر فهو عبارة عن انزواء الدنيا عن العبد، وأمّا الزهد فهو انزواء العبد عن الدنيا، وأمّا التوكّل فهو تفويض العبد أموره إلى مولاه بعد أن فعل ما أوجب عليه من الأسباب، وذلك كقول الصادق عليه السلام التوكّل أن تعقل بعيرك ثمّ تقول توكّلت على الله في حفظه، يعني لا يكون اعتمادك في حفظه على العقال، فكم من جمل قد سرق بعقاله، ولا تترك العقال اعتماداً على التوكّل فإنّ العقال جزء من مفهوم التوكّل ومن أكمل شروطه؛ فأمّا الفقر فهو فقد ما هو محتاج إليه، فأمّا فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمّى فقراً، فدلّك هذا على أنّ ما سوى الله فهو فقير لاحتياجه إليه في دوام الوجود؛ فالغنيّ المطلق ليس إلّا هو تعالى شأنه. والذي أردنا بيانه هنا هو الاحتياج إلى المال وفاقده يدور على خمسة أحوال:

الأولى: وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذّى به وهرب من أخذه مبغضاً له، وهذا هو الزهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه ولا يكرهه وهذا هو الرضا.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحبّ إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم تبلغ رغبته لأن ينهض بل إن أتاه من غير طلب أخذه، وهذا يسمّى قانعاً إذ أقنع نفسه بالموجود حتى ترك الطّلب.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه وإلاّ فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتّعب لطلبه؛ وصاحب هذه الحالة يسمّى الحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطرّاً إليه كالجائع الفاقد للخبز؛ ويسمّى في هذه الحالة مضطرّاً.

فأعلى هذه الأحوال هو الزهد، نعم إذا انضم الزهد إلى الاضطرار كان هو الأعلى؛ وفوق هذه الحالات كلّها حالة أُخرى أعلى من الزهد، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده، وتسمّى هذه الحالة غناء النّفس وهي التي أشار إليها المسيح عليه السلام بقوله خادمي يداي، ودابّتي رجلاي، وفراشي الأرض ووسادي

الحجر، ودفئي في الشّتاء مشارق الأرض وسراجي باللّيل القمر، وإدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصّوف، وفاكهتي وريحانتي ما أنبتت الأرض للوحوش والأنعام، أبيت وليس لي شيء؛ وأُصبح وليس لي شيء، وليس على وجه الأرض أحد أغنى منّي. والزهد الذي هو أعلى درجة الأبرار ذنب بالنّسبة إلى صاحب هذه المرتبة السّادسة، لقوله ﷺ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وقد حقّق هذا المعنى بعض ارباب القلوب بأنّ الكاره للدنيا وهي درجة الزهد مشغول بكراهتها كما أنّ الراغب فيها مشغول بها، والشّغل بما سوى الله حجاب عنه، لأنّه لا حجاب بينك وبينه سوى شغلك بغيره؛ كما قال عليه السلام يا من كان الحاجب للعباد عنه هم العباد، يعني به أنّ الحاجب للعباد عن الله سبحانه هو أنفسهم وما اقترفوه من المعاصي وأتوا به من الشّغل بغيره؛ فكل مشغول عن الله بغيره سواء كان يحبّ الدنيا أو يبغضها يكون ذلك الشّاغل حاجباً له عن ذلك الجناب، ومثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله فهو في حالة اشتغال وقلبه مصروف عن التّلذّذ بمشاهدة معشوقه؛ ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه، فكما أنّ النّظر إلى غير المعشوق لحبّه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص. ولكن أحدهما أخفّ من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب؛ بغضاً وحبّاً، فإنّه كما لا يجتمع في القلب حبّان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحبّ في حالة واحدة؛ فالمشغول ببغض الدّنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبّها إلّا أنّ المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد والمشغول ببغضها غافل لكنّه سالك طريق القرب، فالكمال له متوقع؛ ومثالهما كرجلين في طريق الحجّ مشغولين بعلف النّاقة وركوبها لكن أحدهما مستقبل القبلة والآخر مستدبرها، فكلاهما محجوب عن الكعبة إلّا أنّ الأول يرجى له الوصول بخلاف الثاني فالأول حاله محمودة بالنّظر إلى الثاني وإن كانت ناقصة بالنسبة إلى من هو مقيم على الاعتكاف في الكعبة، ولذلك قيل من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، فظهر من هذا كلّه أنّ الزهد الذي هو عدم الرغبة في الدنيا كمال بالإضافة إلى الراضي والقانع والحريص نقصان بالنسبة إلى غناء النّفس.

واعلم أنّ اسم الفقر يطلق على المراتب الخمس الأُول؛ وأمّا السادسة فإن أُطلق

عليها اسم الفقر فإنّما يراد به الفقر إلى الله سبحانه لأنّه معنى من معاني الفقر، وحينئذ فلا منافاة بين قوله ﷺ اللّهمّ إنّي اعوذ بك من الفقر، وقوله كاد الفقر أن يكون كفراً؛ وبين قوله اللّهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين إذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه، والافتقار إلى الله عزّ وجلّ هو الذي سأله، فلا منافاة.

أقول: والأولى في رفع المنافاة التّفريع على ما سبق؛ وهو أنّ من درجات الفقر واطلاقاته وحالاته الاضطرار وهو شدّة الاحتياج إلى ما يحتاج إليه من الأموال والمعايش ومنه أيضاً درجة الرضا؛ وهو كما عرفت أن يكون بحيث لا يرغب فيه ولا يكرهه، فيكون كلّ واحد من الحديثين منزّلاً على درجة من درجات الفقر.

أمّا حديث الاستعاذة من الفقر فهو منزل على درجة الاضطرار، فإنّ الإنسان ربّما لم يقدر معها على القيام بوظائف العبودية كما تقدم من أنّه ﷺ جاع في بعض أوقاته فاضطجع على قفاه ولم يتمكّن من القيام للصلاة، فكان يقول اللّهمّ إنّي أعوذ بك من جوع يضجعني على الفراش وينسيني ذكرك، وهذا المعنى هو المراد من قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام صارعت كلّ شيء فغلبته، وصار عني الفقر فغلبني.

وروي أنّه جاء أعرابي إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال إنّي مأخوذ بثلاث علل: علّة النّفس، وعلّة الفقر، وعلّة الجهل، فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام وقال يا أخا العرب علّة النّفس تعرض على الطبيب، وعلّة الجهل تعرض على العالم؛ وعلّة الفقر تعرض على الكريم؛ فقال الأعرابي يا أمير المؤمنين أنت الكريم وأنت العالم وأنت الطّبيب؛ فأمر له أمير المؤمنين عليه السلام بأن يعطى من بيت المال ثلاثة آلاف درهم، وقال تنفق ألفاً بعلّة النّفس، وألفاً بعلّة الجهل،وألفاً بعلّة الفقر.

وأمّا الدرجة التي طلبها ﷺ فهي درجة القناعة والرّضا المشار إليها بقوله ﷺ اللّهمّ أرزق آل محمد الكفاف، وقوله اللّهمّ لا تعطني قليلاً فأشقى ولا كثيراً فأطغى والشّقا هنا بمعنى التّعب من باب قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١-٢]، نزلت بعد أن كان يصلّي عليه السلام كلّ اللّيل فورمت قدماه وتعب من جهة العبادة؛ وهو المراد أيضاً من قوله عليه السلام إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجّلت عقوبته، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ومن هذا الباب ما رواه شيخنا الكليني رحمه الله عن النّوفلي رحمه الله رفعه إلى عليّبن الحسين عليه السلام قال مرّ رسول الله ﷺ براعي إبل، فبعث يستسقيه، فقال أمّا ما في

ضروعها فصبوح الحي، وأمّا ما في آنيتنا فغبوقهم، فقال رسول الله ﷺ اللّهمّ أكثر ماله وولده ثمّ مرّ براعي غنم فبعث إليه يستسقيه، فحلب له ما في ضروعها وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله ﷺ وبعث إليه بشاة؛ فقال هذا ما عندنا وإن أحببت أن نزيدك زدناك، قال فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهمّ ارزقه الكفاف**»، فقال له بعض أصحابه يا رسول الله دعوت للذي ردّك بدعاء عامّتنا نحبّه ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاء كلّنا نكرهه، فقال رسول الله ﷺ: «ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى، اللّهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف».

وروي عن عمران بن حصين أنّه قال كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه فقال يا عمران إنّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله؛ فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة عليها السلام فقرع الباب وقال السلام عليكم أدخل، فقالت فاطمة ادخل يا رسول الله؛ قال أنا ومن معي؟ قالت ومن معك يا رسول الله؟ قال عمران فقالت فاطمة والذي بعثك بالحق نبيّاً ما عليّ إلّا عباءة قال اصنعي بها هكذا وهكذا أشار بيده؛ فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدّي بها على رأسك، ثم أذنت له، فدخل فقال السّلام عليكم يا بنتاه كيف أصبحت؟ قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أنّي لست أقدر على طعام آكله فقد أضرّني الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال لا تجزعي يا بنتاه والله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث، وإنّي لأكرم على الله منك ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشري فوالله إنّك لسيّدة نساء أهل الجنّة، قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد؟ قال آسية سيّدة نساء عالمها، ومريم سيّدة نساء عالمها، وخديجة سيدة نساء عالمها، وأنت سيّدة نساء عالمك إنكنّ في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب، ثم قال لها اقنعي بابن عمّك فوالله لقد زوّجتك سيّداً في الدنيا وسيّداً في الآخرة.

روى هذا الحديث الغزالي وغيره؛ ومع هذا ذهبوا إلى أنّ عائشة أفضل من فاطمة عليها السلام، وهذا ليس بأول قارورة كسرت في الإسلام.

وعن أبي الدّرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول يدخل فقراء المسلمين الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إنّ الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ

بيده فيستخرج، وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها وطلب إليه الرجل؛ فقال أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف لا أفعل، وقال أبوالدّرداء ما من أحد إلّا وفي عقله نقص؛ وذلك أنّه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظلّ فرحاً مسروراً، واللّيل والنّهار دائبان في هدم عمره ثمّ لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفعه مال يزيد وعمر ينقص، ويصدّق هذا أنّ الرجل إذا كان له عند أحد دين أو عطاء مقرّر ويكون موزّعاً على الشهور كيف تراه يحبّ أن تنقضي الأشهر والسّنون حتى يحلّ وقت الدين والعطاء مع أنّ ما يذهب من عمره لم يرجع إليه أبداً، ومفقود المال يمكن رجوعه، فهذا أيضاً من نقصان العقل.

وقال الحسن عليه السلام لعن الله أقواماً أقسم الله عزّ وجلّ لهم ثمّ لم يصدقوه ثمّ قرأ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، وكان أبو ذر رحمه الله يوماً جالساً فأتته امرأته، فقالت له تجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هفّة ولا سفّة(١) فقال يا هذه إنّ بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلّا كلّ مخفّ، فرجعت وهي راضية، ويروى أنّ الله عزّ وجلّ قال في بعض الكتب المنزلة يابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلّا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

وعن أنس بن مالك قال بعث الفقراء رسولاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال إنّي رسول الفقراء إليك، فقال مرحباً بك وبمن جئت من عندهم قوم أُحبّهم، وقال قالوا يا رسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالحسنة يحجّون ولا نقدر عليه وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم، فقال النّبي صلى الله عليه وآله بلّغ عنّي الفقراء إنّ لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإنّ في الجنّة غرفاً ينظر إليها أهل الجنّة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلّا نبيّ فقير أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، والثانية يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام؛ الثالثة إذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر؛ وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم؛ وكذلك أعمال البرّ كلّها؛ فرجع إليهم فقالوا رضينا رضينا.

فإن قلت كيف فضل تسبيح الفقراء على تسبيح الأغنياء مع أنّ كلاً منهما طاعة له تعالى كما هو المفروض وليس في أحدهما رياء، قلت الجواب عن هذا من وجوه:

---

(١) يقال: ما في بيتك هفة ولا سفة أي لا مشروب في بيتك ولا مأكول.

الأول: إنّ أفضل أفراد الغنى هو الذي ينفق في سبيل الله تعالى واجباته ومستحبّاته ومع هذا فصاحبه في أمن من الدّنيا مستشعراً راحة بذله وهو ممّا يورث الأُنس بهذا العالم والوحشة من الآخرة؛ وبقدر ما يستأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة لأنّهما كالمشرق والمغرب بقدر ما تقرب من أحدهما تبعد من الآخر؛ ومهما انقطعت أسباب الأُنس بالدنيا تجافت القلوب عن الدنيا وزهرتها؛ والقلب إذا تجافى عما سوى الله عزّوجلّ وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصوّر قلب فارغ، وليس في الوجود إلّا الله، فمن أقبل على غيره تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره؛ فالغنيّ قلبه مشغول بماله ومحبّته كامنة فيه كمون النار في الأحجار، فعلاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللّسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكّد بها الأُنس بالمذكور، فلا يكون تأثيره في إثارة الأُنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيره في قلب مشغول، ولذلك قيل مثل من تعبّد في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسّمك ومن دخل السّوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلّها في سبيل الله عزّوجلّ .

الثاني: إنّ داعي الفقير إلى العبادة غائب وداعي الغنيّ حاضر لأنّ من دواعيه إلى العبادة إتمام النعمة عليه فهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فداعي الغني الذي ينشطه على العبادة حاضر موجود بخلاف الفقير فإنّه لا داعي له كذلك، فاعتماده على غائب دليل على قوّة إيمانه ووفور إخلاصه.

الثالث: إنّ مثل الفقير العابد والغنيّ العابد مثل مولى له مملوكان فخلع على أحدهما وكساه ولم يخلع على الآخر ولم يكسه وكلاهما مشغول بخدمته؛ فلا ريب أنّ خدمة ذلك العبد الذي لم يخلع عليه ولم يعطه شيئاً كثيراً أقبل عند أهل العقل والكمال من خدمة الآخر؛ وهذا الوجه في الحقيقة يرجع إلى الوجهين الأوّلين.

ولنرجع إلى الكلام الأوّل فنقول: للفقير قانون شرعيّ في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله، أمّا الباطن فأن لا يكون فيه كراهة لما أورده الله سبحانه عليه من الفقر يعني لا يكون كارهاً له من حيث إنّه فعل الله سبحانه، وإن كان كارهاً له من حيث التّألّم به وذلك كالحجّام فإنّ المحجوم وإن كان كره فعله من حيث الألم لكن من حيث إنّه فعل الحجّام مراد له، ويرى أنّ للحجّام المنّة عليه بذلك؛ وهذا المعنى واجب ونقيضه حرام محبط للأجر، وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا

من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلاّ فلا؛ وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به، وأعلى منهما أن يكون طالباً له لعلمه بغوائل الغنى.

وروي عن علي عليه السلام أنّ لله تعالى عقوبات ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربّه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره؛ ومن علامة أن يكون عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربّه ويكثر الشّكاية، ويتسخّط القضاء، وهذا يدلّ على أنّ الفقر المحمود ذلك الفرد إذ قيل ما أُعطي عبد شيئاً من الدنيا إلّا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث: شغل، وهمّ، وطول حساب.

وأمّا الظاهر فبأن يظهر التّعفّف والتّجمّل ولا يظهر الفقر والشّكوى؛ ففي الحديث إنّ الله تعالى يحب الفقير المتعفّف أبا العيال، وإذا أراد إظهاره فلا يظهر إلّا لأخ في الإيمان لأنّ الشكوى إليه ربّما ترتّب عليها بعض الفوائد، ولا بدّ من شكوى إلى ذي صبابة يواسيك أو يسلّيك أو يتوجع، ولأنّ المحن وزحمات القلوب ربّما كان القلب لا يطيق تحمّلها كما لا يطيق تحمّل غيرها.

روي عن جابر بن يزيد الجعفي قال حدّثني أبو جعفر عليه السلام سبعين ألف حديث لم أُحدّث بها أحداً ولن أحدّث بها أحداً أبداً، قال جابر قلت لأبي جعفر عليه السلام جعلت فداك إنّك قد حمّلتني وقراً عظيماً بما حدّثتني به من سرّكم الذي لا أحدّث به أحداً فربّما جاش في صدري حتى يأخذني منه شبه الجنون، قال يا جابر إذا كان كذلك فاخرج إلى الجبّانة فاحفر حفيرة ودلّ رأسك فيها ثم قل حدّثني محمد بن علي بكذا وكذا؛ فإنّ الأرض تحمل حديثنا. فإذا كانت القلوب لا تطيق حمل العلوم مع كونها لذة محضة فكيف تطيق حمل أثقال الهموم والغموم التي صرعت مثل أمير المؤمنين عليه السلام في قوله عليه السلام صارعني الفقر فغلبني[1].

روى أخطب خوارزم أنّ أعرابياً جاء إلى الحسين عليه السلام وقال يابن رسول الله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها فقلت في نفسي أسأل أكرم الناس، وما رأيت أكرم من أهل بيت رسول الله؛ فقال الحسين عليه السلام يا أخا العرب أسألك عن ثلاث مسائل فإن اجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال، وإن أجبت عن اثنتين أعطيتك ثلثي

---

(١) ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

صارعت كل كريهة فغلبتها ... والفقر صارعني فأصبح غالبي

إن أخفه يقتل ان أبده يفضح ... فيا تعساً له من صاحب

المال، وإن أجبت عن الكلّ أعطيتك الكلّ، فقال الأعرابي يابن رسول الله أمثلك يسأل مثلي وأنت من أهل بيت العلم والشّرف، فقال الحسين عليه السلام بلى سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول المعروف بقدر المعرفة؛ فقال الأعرابي سل عمّا بدا لك فإن أجبت وإلاّ تعلّمته منك، ولا قوّة إلّا بالله، فقال الحسين عليه السلام فما النّجاة من المهلكة؟ فقال الأعرابي الثّقة بالله؛ فقال الحسين عليه السلام فما يزيّن الرجل؟ فقال الأعرابي علم معه حلم، فقال فإن أخطأ ذلك، فقال مال معه مبرّة، فقال فإن أخطأ ذلك فقال فقر معه صبر، فقال الحسين عليه السلام فإن اخطأ ذلك، فقال الأعرابي فصاعقة تنزل من السّماء وتحرقه فإنّه أهل لذلك، فضحك الحسين عليه السلام ورمى إليه بصرّة فيها ألف دينار؛ وأعطاه خاتمه وفيه فصّ قيمته مائتا درهم، وقال يا أعرابي أعط الذهب إلى غرمائك واصرف الخاتم في نفقتك فأخذ الأعرابي وقال الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وأمّا في مخالطته فبأن لا يتواضع لغنيّ لأجل غناه بل يتكبّر عليه لأجله؛ روي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال ما أحسن تواضع الغنيّ للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه[1] الفقير على الغنيّ ثقة بالله عزّ وجلّ ، فهذه رتبة وأدون منها أن لا يرغب في مخالطة الأغنياء لأنّ ذلك من مبادي الطّمع، قال بعضهم وإذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنّه مراءٍ وإذا خالط السلطان فاعلم أنّه لصّ.

وأمّا في أفعاله فبأن لا يفتر عن العبادات بسبب الفقر ولا يمتنع عن التّصدق الممكن، ففي الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله درهم من الصدقة أفضل عند الله تعالى من مائة ألف درهم، قيل وكيف يا رسول الله؟ فقال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف فتصدّق بها وأخرج رجل درهماً لا يملك غيره طيّبة به نفسه؛ فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف، وقد تقدّمت الرّواية في ذلك الفقير الذي حمل إلى النّبي صلى الله عليه وآله تمرة واحدة فوضعها على تمور الصّدقة؛ فأنزل الله سبحانه قرآناً في مدائحه.

وينبغي أن لا يدّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي. والإدّخار على ثلاث مراتب: إحداها أن لا يدّخر إلّا ليومه وليلته وهي درجة الصدّيقين، والثانية أن يدّخر لأربعين يوماً لأن ما زاد داخل في طول الأمل كما فهمه العلماء من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام وهذه رتبة المتّقين، والثالثة أن يدّخر لسنة وهي رتبة الصالحين،

---

(١) تاه تيهاً تكبر.

قال الصادق عليه السلام إنّ النّفس إذا أحرزت قوت سنتها استقرّت وما زاد على ذلك فهو همّ وغمّ وخروج عن الوثوق بفضل الله سبحانه.

وأمّا آداب الفقير في قبوله للعطاء بغير سؤال فهي ثلاثة أيضاً: الأول لا يلاحظ الفقير نفس المال وهو كونه حلالاً خالياً عن الشّبهات فإنّ البعد عن الشبهات درجة الصالحين، الثاني أن يلاحظ غرض المعطي وهو إمّا تطييب قلب الفقير وطلب محبّته وهو الهدية، أو الثواب والصّدقة والزكاة أو الذكر والرّياء والسمعة إمّا على التّجرد أو ممزوجاً ببقيّة الأغراض، أمّا الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإنّ قبولها سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منّة؛ فإن علم أنّ بعضها ممّا يعظم فيه المنّة فليردّ البعض دون البعض.

فقد أُهدي إلى النّبي صلى الله عليه وآله سمن وأقط وكبش، فقبل السّمن والأقط وردّ الكبش وكان يقبل من بعض الناس ويردّ على بعض، حتى قال لقد هممت أن لا أتّهب إلّا من قرشي أو ثقفي أو دوسي، وأمّا إذا كان غرض المعطي الثواب المجرّد كصدقة أو زكاة فعلى الفقير أن ينظر في صفات نفسه أنّه هل هو من أهل الاستحقاق لها أم لا، وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه ولظاهره من الصّلاح فلينظر هو إلى باطن نفسه فإن كان مقارفاً لمعصية في السرّ ويعلم أنّ المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله تعالى بالتّصدّق عليه فهذا حرام كما قيل، وذلك كما لو أعطى هو لظنّه أنّه عالم أو علويّ ولم يكن فإن أخذه لا شك في حرمته، وقد يكون غرض المعطي الشهرة والرياء فينبغي للفقير أن لا يأخذه لئلاّ يكون معيناً له على ذلك الغرض الفاسد، وعوتب بعضهم في ردّ ما كان يأتيه من صلة؛ فقال إنّما أردّ صلتهم إشفاقاً ونصحاً لهم، لأنّهم يذكرون ذلك ويحبّون أن يعلم به، فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم؛ فإذا علم الفقير هذه الأمور وخلوّ ذلك المال منها فليأخذ ما أعطوه؛ كما روي عنه صلى الله عليه وآله قال ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً، ومن أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنّما هو رزق ساقه الله إليه.

وقال الصادق عليه السلام تارك أخذ الزكاة وقد وجبت له كتارك دفعها وقد وجبت عليه، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا حقّ لابن آدم إلّا في ثلاث: طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته؛ وبيت يكنّه، فما زاد فهو حساب؛ فإذاً أنت في أخذ الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب وإن عصيت الله تعالى فأنت متعرّض للعذاب.

واعلم أنّ السؤال من غير حاجة ممّا لا يبعد القول بتحريمه لأنّه لا ينفكّ عن ثلاثة أمور محرّمة: الأوّل إظهار الشكوى من الله تعالى كما أنّ العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيّده فكذا سؤال العبد تشنيع على الله تعالى؛ وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحلّ إلّا لضرورة كالميتة، والثاني أنّ فيه إذلال السائل نفسه لغير مولاه وليس للمولى أن يذلّ نفسه إلّا لله إلّا لضرورة؛ وكان الباقر عليه السلام إذا أعطى الفقراء أعطاهم من تحت حجاب فقيل له في ذلك فقال لئلاّ أرى ذلّ السّؤال في وجوه السائلين.

وقال الصادق عليه السلام إنّ أمير المؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل خمسة أوساق من تمر وكان ذلك الرجل ممّن يرجى رفده وكان لا يسأل عليّاً عليه السلام ولا غيره شيئاً، فقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام والله ما سألك فلان شيئاً ولكان يجزيه من الخمسة الأوساق وسق واحد، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام لا كثّر الله في المؤمنين مثلك، أُعطي أنا وتبخل أنت به، إذا أنا لم أُعط الذي يرجوني إلّا من بعد مسألتي ثمّ أعطيته بعد المسألة فلم أُعط إلّا ثمن ما أخذت منه، وذلك لأنّي عرضته لأن يبذل لي وجهه الذي يعفره في التراب لربّي وربّه عزّوجلّ عند تعبّده له، وطلب حوائجه إليه فمن فعل هذا بأخيه المسلم وقد عرف أنّه موضع لصلته ومعروفه فلم يصدق الله عزّوجلّ في دعائه له حيث يتمنّى له الجنّة بلسانه ويبخل عليه بالحطام من ماله، وذلك أنّ العبد قد يقول اللّهمّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات فإذا دعا له بالمغفرة فقد طلب له الجنّة فما أنصف من فعل هذا بالقول ولم يحقّقه بالفعل.

وروى صاحب كشف الغمّة أنّ رجلاً جاء إلى الحسن عليه السلام وسأله حاجة فقال له يا هذا حقّ سؤالك يعظم لديّ ومعرفتي بما يجب لك تكبر لديّ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله عزّوجلّ قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور ورفعت عنّي معونة الاهتمام لما أتكلّفه من واجبك فعلت، فقال يابن رسول الله أقبل القليل وأشكر العطيّة وأعذر على المنع؛ فدعا الحسن عليه السلام بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها، فقال هات الفاضل من الثلاثمئة ألف درهم فأحضر خمسين ألفاً؛ قال فما فعل الخمسمائة دينار؟ قال هي عندي قال أحضرها؛ فأحضرها فدفع الدّراهم والدّنانير إلى الرّجل، وقال هات من يحملها فأتاه بحمّالين فدفع الحسن عليه السلام إليه رداءه لكرى الحمّالين، فقال مواليه ما عندنا درهم، فقال لكنّي أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

وروى أيضاً عن المدائني قال خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبدالله بن جعفر

حجّاجاً ففاتهم أثقالهم؛ فجاعوا وعطشوا فمرّوا بعجوز، فقالوا هل من شراب؟ قالت نعم؛ فأناخوا وليس لها إلّا شويهة في كسر الخيمة؛ فقالت احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك وقالوا لها هل من طعام؟ قالت لا إلّا هذه الشّاة فليذبحها أحدكم حتّى أُهيّىء لكم شيئاً تأكلون، فذبحوها فهيّأت لهم طعاماً فأكلوه؛ فلمّا ارتحلوا قالوا نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمّي بنا فإنّا صانعون إليك خيراً. ثمّ ارتحلوا فأقبل زوجها فغضب على صنعها، ثمّ بعد مدة ألجأتهم الحاجة إلى دخول المدينة، فجعلا يبيعان البعر ويعيشان منه فمرّت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن عليه السلام على باب داره جالس، فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فردّها، فقال يا أمة الله تعرفيني؟ قالت لا، قال أنا ضيفك يوم كذا، فقالت العجوز بأبي أنت وأمّي فأمر الحسن عليه السلام فاشترى لها من شاة الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار وبعث معها غلامه إلى أخيه الحسين عليه السلام، فقال لها بكم وصلك أخي الحسن؟ فقالت بألف شاة وألف دينار فأمر لها بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر، فقال بكم وصلك الحسن والحسين؟ فقالت بألفي دينار وألفي شاة فأمر لها عبدالله بألفي شاة وألفي دينار، وقال لو بدأت بي لأتعبتهما فرجعت العجوز إلى زوجها بذلك.

وفي بعض كتب العربيّة أنّ شاعراً أتى معن بن زائدة وهو في قصر إمارته فلم يجد إليه سبيلاً، فرأى نهراً يجري إلى داخل القصر؛ فكتب هذا البيت بقرطاسة ووضعها على خشبة وسيرَّها الماء حتّى أدخلها القصر؛ فاتّفق أنّ معناً كان جالساً على شاطىء النّهر فرأى الخشبة وعليها القرطاسة، فأخذها وقرأ ما فيها وهو:

أيا جود معنٍ ناجِ معناً بحاجتي فليس إلى معنٍ سواك شفيع

فخرج من قصره واستدعاه فأُتي به فقال أنت الذي كتبت هذا الشّعر؟ قال: فقال نعم، فأمر له بمائة ألف درهم؛ فأخذها ومضى إلى الخان، فلمّا كان اليوم الثاني طلبه وأخرج القرطاسة وقرأ ذلك الشّعر وأمر له بمائة ألف درهم، وبقي على هذا الحال خمسة أيّام، ثمّ إنّ ذلك الشاعر خاف من ندامته على الدّراهم فأخذها ومضى بها من البلد فطلبه اليوم السادس، فقيل له أنّه سافر، فقال والله إنّ طالع خزانتي أقوى من طالعه فوالله لو بقي في البلد لأعطيته كلّ درهم ودينار في خزانتي؛ فانظر إلى هذه السّخاوة الجيّدة.

الأمر الثالث في السّؤال أنّه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً؛ لأنّه ربّما لا

تسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه فإن بذل حياءً من السائل ورياءً فلعلّه يكون حراماً على الآخذ، وإن منع ربّما استحى من المنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السّبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلّا لضرورة، وقد اتّضح بهذه الأمور الثلاثة معنى قوله ﷺ مسألة الناس من الفواحش ما أُحلّ من الفواحش غيرها، فسمّاها فاحشة، ولا شكّ أنّ الفاحشة إنّما تباح عند الضرورة فقط.

وقال ﷺ من سأل عن غنى فإنّما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله ما يعينه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم، وما أحسن قول بعض العارفين بأنّ الفقير إذا أخذ مع علمه بأنّ باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به يكون ذلك الأخذ حراماً بلا خلاف فيه بين الأمّة، وحكمه حكم الأخذ من غيره بالضّرب إذ لا فرق بين أن يضرب جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء؛ ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر رضي به ومدار الأحكام الشّرعية على الظّواهر، لأن الفرق بين الصّورتين ظاهر لا يخفى، نعم الاطّلاع على البواطن عسر جدّاً لأنّ السّائل ربّما ظنّ أنّ المعطي راض وهو غير راض، ومن جهة هذا ترك المتّقون السّؤال رأساً؛ ولكن قرائن الأحوال ربّما أطلعت السائل على بواطن بعض الناس دون بعض، فإذا احتاج إلى السّؤال فلا يسأل إلّا من قامت له القرينة على حسن باطنه وأنّ عطاءه خال من الأمور، أمّا إذا علم السّائل أو الوالي بأنّ المعطي إنّما أعطاه لفقره أو لاضطراره الشّديد كأن لا يجد طعام ليلة أو أكثر أو أقل وكان عنده أزيد ممّا ظنّ به المعطي وأعطاه لتلك الحالة فقد جزم أهل التّحقيق بأنّ ذلك الطّعام أو المال حرام على السّائل ويجب عليه أو على الوالي أن يرجعه إلى أهله، فإن لم يعرفوا تصدّق لهم به على المساكين أو صرفه في وجه من وجوه مصالح المسلمين، وينزّل أخذ السّائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ العلويّ بقوله إنّي علويّ وهو كاذب؛ فإنّه لا يملك ما يأخذ، وكأخذ الصوفي والصّالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن يقارف معصية لو عرفها المعطي ما أعطاه.

وأمّا الشّيء الذي يطلبه السّائل فهو دائر بين أحوال أربعة: إمّا أن يكون مضطرّاً إليه أو محتاجاً إليه حاجة شديدة أو خفيفة أو لا حاجة به إليه؛ أمّا المضطرّ إليه كسؤال الجائع عند الخوف على نفسه فهو واجب إلّا أن يكون قادراً على الكسب

وهو غير مشغول بتحصيل العلم بحيث يستغرق وقته فيه، وأمّا الذي لا حاجة به إلى السّؤال فسؤاله حرام قطعاً، وأمّا شدّة الاحتياج كمن له جبّة ولا قميص له تحتها في الشّتاء وهو يتأذّى بالبرد لكن لا يبلغ تأذيه الضرر فهنا الأولى ترك السّؤال، وإذا سأل هذا ينبغي له الصّدق في سؤاله كأن يقول ليس تحت جبّتي قميص والبرد يؤذيني وأنا أُطيقه ولكن يشقّ عليّ.

وأمّا الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصاً يلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، ومن يسأل الإدام وهو قادر على الخبز، أو أن يسأل كراء الفرس في الطريق وهو قادر على كراء الحمار فقد قيل إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشّكوى أو الذّلّ أو إيذاء المسؤول فهو حرام؛ لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن يباح بها مثل هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

فإن قلت كيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ قلت ذكر له بعض أهل السّلوك طريقاً، وحاصله أنّ دفع الشّكوى أن يظهر الشّكر لله عند السّؤال والاستغناء عن الخلق فلا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن نفسي تطالبني بهذا؛ فيخرج به عن حدّ الشّكوى، وأمّا الخروج عن الذّلّ فبأن يسأل شخصاً لا ينقصه ذلك في عينه ولا يحتقره بسبب سؤاله، وأمّا إيذاء المسؤول فسبيل الخروج عنه هو أن لا يعيّن شخصاً حين السّؤال بل يلقي الكلام مجملاً بحيث لا يقدم على البذل إلّا متبرع بصدق الرغبة وأمّا إذا سأل معيّناً فينبغي أن لا يصرِّح بل يعرِّض تعريضاً يبقي له سبيلاً إلى التّغافل إن أراد؛ فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك دليل على رغبته به وينبغي للسائل أن يسأل من لا يستحي منه لو ردّه أو تغافل عنه فإنّ الحياء من السّائل يؤذي.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّه قد سبق في الخبر تحريم السّؤال عن ظهر غنى فما حدّ الغنى؟ وتحديده لا يخلو من إشكال لاختلاف الأخبار، فقد ورد في الحديث: استغنوا بغناء الله تعالى، قالوا وما هو؟ قال غداء يوم وعشاء ليلة، وفي خبر آخر: من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذّهب فقد سأل إلحافاً، وفي حديث آخر: أربعون درهماً. وينبغي تنزيل هذه الأخبار على الأحوال المختلفة.

وروي عن رسول الله ﷺ: لا حقّ لابن آدم إلّا في ثلاث: طعام يقيم به صلبه،

وثوب يواري به عورته، وبيت يكنّه، وما زاد فهو حساب، وذكر هذه الأجناس الثّلاثة مثالاً لكثرة الاحتياج إليها وإلاّ فما بمعناها حكمه حكمها أيضاً.

فأمّا الثّوب فيراعى فيه ما يليق بذوي الدين وهو قميص ومنديل وسراويل ومداس والثاني مستغنى عنه؛ وليقس على هذا أثاث البيت، وأمّا الطّعام في اليوم فقدره في الشّرع مدّ، وأمّا المسكن فهو ما يحتاج إليه من غير زينة، وأمّا بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه من الطّعام في الحال ممّا لا شكّ فيه.

فأمّا السّؤال لما سيأتي فالضّابط فيه أنّه إذا كان عنده طعام سنة فالسّؤال حرام، وأمّا إذا كان أقلّ فله حالات ودرجات في الفضل والفضيلة حتى يبلغ الأربعين يوماً فإذا كان عنده طعامها فلا يسأل، وأفضل من هذا كلّه ترك السّؤال إذا كان عنده غداء يومه وعشاءه، وفي الحديث القدسي يابن آدم كما لا أطلب منك عمل غد في هذا اليوم فلا تطلب أنت منّي رزق غد في هذا اليوم. هذا محصّل الكلام في الفقر.

وأمّا ما يوجبه فروي عن النّبي ﷺ أنّه قال عشرون خصلة تورث الفقر، أوله القيام من الفراش للبول عرياناً، والأكل جنباً، وترك غسل اليدين عند الأكل؛ وإهانة الكسيرة من الخبز، وإحراق الثوم والبصل، والقعود على أفنية البيت، وكنس البيت باللّيل وبالثّوب، وغسل الأعضاء في موضع الاستنجاء، ومسح الأعضاء المغسولة بالمنديل والكمّ، ووضع القصاع والأواني غير مغسولة، ووضع أواني الماء غير مغطّاة الرؤوس، وترك بيوت العنكبوت في المنزل؛ واستخفاف الصلاة، وتعجيل الخروج من المسجد؛ والبكور إلى السّوق؛ وتأخير الرجوع عنه إلى العشاء؛ وشراء الخبز من الفقراء؛ واللّعن على الأولاد، والكذب، وخياطة الثّوب على البدن، وإطفاء السّراج بالنّفس، وفي خبر آخر والبول في الحمّام، والأكل على الجشاء، والتّخلّل بالطّرفاء والنّوم بين العشاءين، والنّوم قبل طلوع الشّمس، وردّ السائل المذكر باللّيل، والتّمشّط من قيام، واليمين الفاجرة، وقطيعة الرّحم.

وأمّا الزهد فهو انصراف الرغبة عن الشّيء إلى ما هو خير منه فإذاً يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه؛ وبالجملة فلا يتصوّر الزّهد إلّا بالعدول عن المحبوب إلى الأحبّ والذي يرغب عن كلّ ما سوى الله تعالى حتى الفراديس فلا يحب إلّا الله فهذا هو الزهد المطلق وأمّا الذي رغب عن الدنيا ولكن طمع في حور العين وقصورها فهذا أيضاً زاهد ولكنّه دون الأوّل.

وأمّا الذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك التّوسّع في الأكل ولا يترك التّجمّل في الزينة فلا يستحقّ اسم الزهد مطلقاً وإن كان زهداً صحيحاً كما أنّ التّوبة عن بعض المعاصي صحيحة دون البعض الآخر على ما تقدّم، فإذن الزهد المبحوث عنه هو الرّغبة عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى إليه تعالى، واشترط بعضهم في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه فإنّ ترك مالا يقدر عليه محال؛ وقد يقوى اليقين في تلك النّشأة حتى يبيع الرجل نفسه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]؛ ثمّ بيّن أنّ صفقتهم رابحة فقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد ورد في الأخبار أنّ عليّاً عليه السلام باع نفسه على الله تعالى، وقد اشترط الله عليه وقت الشراء الصبر على ما أصابه بعد النّبي صلى الله عليه وآله من الظّالمين، وإلى ما ذكرنا من أنّه يشترط في الزّهد الرّغبة عن محبوب إلى أحبّ منه الإشارة بما روي أنّ رجلاً قال في دعائه اللّهمّ أرني الدنيا كما تراها، فقال له النّبي صلى الله عليه وآله لا تقل هكذا ولكن قل اللّهمّ أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك، وذلك أنّ الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وأمّا العبد فيراها حقيرة في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له؛ وهذا هو الزهد فلا بدّ في الثّواب من أن تكون محبوبة له في نفسها حتّى يتركها إلى غيرها؛ وليس من الزّهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وإن كان كلّ ذلك من محاسن العادات ولا مدخل له في العبادات، وإنّما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة، فأمّا كلّ نوع من التّرك فإنّه يتصوّر ممّن لا يؤمن بالآخرة.

وأمّا الأخبار الواردة في فضيلة الزهد فكثيرة جدّاً، ففي الرواية عنه صلى الله عليه وآله من أصبح وهمّه الدنيا شتّت الله عليه أمره وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلّا ما كتب الله له، ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله همّه وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، وقال إبراهيم بن أدهم لشقيق ابن إبراهيم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال تركتهم إن أُعطوا شكروا وإذا منعوا صبروا؛ وظنّ أنّه لما وصفهم بترك السّؤال فقد أثنى عليهم غاية الثّناء، فقال إبراهيم هكذا تركت كلاب بلخ عندنا؛ فقال شقيق فكيف الفقراء عندك يا أباإسحاق؟ فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإذا أُعطوا آثروا، فقبّل رأسه فقال صدقت يا أستاذ.

وأمّا تفاصيل الزّهد ودرجاته بالإضافة إلى نفسه فثلاث:

الأولى: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ وقلبه إليها مائل ولكنّه يجاهد نفسه ويكفّها؛ وهذا يسمّى المتزهّد وهو مبدأ الزهد، وهذه هي الدّرجة السّفلى وصاحبها على خطر، فإنّه ربّما تغلبه نفسه على العود إلى الدنيا.

الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إيّاها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنّه لا يشقّ عليه ذلك، وهذا الزّاهد يلتفت إلى زهده ويظنّ أنّه ترك شيئاً له قدر إلى ما هو أعظم قدراً منه؛ وربّما أُعجب بنفسه وزهده.

الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده ولا يرى أنّه ترك شيئاً إذ عرف أنّ الدنيا لا شيء، فيكون عند نفسه كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فإنّه لا يرى أن هذا معاوضة وأنّه ترك شيئاً بالإضافة إلى الله تعالى وإلى نعيم الآخرة؛ قيل ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أرباب القلوب وأهل المعرفة مثل من أراد الدّخول على السلطان فمنعه كلبه عن الدخول، فرمى إليه لقمة خبز فشغله بها فدخل على السّلطان ونال أعلى درجات القرب منه، أفتراه يقدر أن يمنّ على الملك بأنّي أعطيت كلبك لقمة خبز حتى أنّك بلغتني هذه الدرجة، فالشّيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدّخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز بل أقلّ بالنّسبة إلى ما أعدّ الله تعالى للزّاهدين في دار النّعيم؛ وكلّ واحدة من هذه الدرجات لها درجات؛ وأمّا انقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه فثلاث درجات أيضاً:

الأولى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النّار ومن سائر الآلام كأن يسمع أنّ في جهنّم عقارب كالبغال المعلّقة وأنّ فيها حيّات لو نفخت منها حيّة في الدنيا لأذابت الجبال والأحجار ولما بقي على وجه الأرض رطب ولا يابس إلّا احترق، وأنّ الرجل ليوقف بالحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرن رواء؛ فهذا زهد الخائفين وسمّى الصادق عليه السلام عبادة هؤلاء بأنّها عبادة العبيد، وهو الخوف من عقاب المولى وهذه هي الدرجة السفلى.

الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله تعالى واللّذات الموعودة في الجنّة فهذا زهد الراجين؛ وسمى مولانا الصادق عليه السلام عباداتهم بأنّها عبادة التجّار؛ فهؤلاء لاحظوا مع الخلوص من العذاب نيل الثّواب.

الثالثة: وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلّا في الله تعالى وفي رضائه ولقائه، وهذا هو التوحيد الحقيقي الذي أشار إليه مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله ما عبدتك

خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك، وهذه الدرجة لا يمكننا نيلها ولو قلنا بألسنتنا أنّ هذه الدرجة هي مقصودنا لكذّبنا الوجدان، فلسان الحال يكذب لسان المقال، وإلى هذه الدرجات الإيماء بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، ثم قال في ذلك السياق ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وفي موضع آخر ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]؛ والإشارة إلى القريب، وفي آية أخرى بعد أن ذكر ما هيّأ لهم من مراتب النّعيم: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]؛ وذلك لعلمه سبحانه باختلاف مطالب خلائقه وتشتّت طبائعهم.

وروي أنّ عيسى عليه السلام جلس في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال ما أقمتني أنت إنّما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعّم في ظلّ الحائط.

فإن قلت ذكرت أنّ الزّهد ترك ما سوى الله تعالى فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشّرب واللّبس ومخالطة النّاس فإنّ هذا اشتغال بما سوى الله؟ قلت معنى الانصراف عن الدنيا هو الإقبال بالقلب على الله تعالى ولا يتصوّر ذلك إلّا بضروريّات الحياة؛ فإذا كان المقصود بتلك الأمور التّوصّل إلى جناب الحق تعالى كان الاشتغال بها مثل اشتغال الحاج بإصلاح أحوال ناقته وعلفها في طريق الحجّ، فإنّ الغرض منه التّوصّل إلى مكّة فهذا ممّا لا ينافي الزّهد وضروريّات الإنسان في حياته كثيرة؛ فمنها المطعم وذلك لأنّ الإنسان لا بدّ له من طعام حلال يقيم به صلبه، وللإنسان في هذا أحوال: الأولى وهي الأعلى (اعلاها) أن يقتصر على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض فإذا استقلّ بما تناوله لم يدّخر من غدائه لعشائه، الثانية أن يدّخر لشهر أو لأربعين يوماً، الثالثة أن يدّخر لسنة فقط؛ وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد ومن ادّخر لأكثر من ذلك فلا يسمّونه زاهداً.

وعن واحدة من زوجات النّبي صلى الله عليه وآله قالت كانت تأتي اربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله مصباح ولا نار، قيل لها فبم كنتم تعيشون؟ قالت بالأسودين التّمر والماء، وكان صلى الله عليه وآله يركب الحمار ويلبس الصّوف؛ ويتنعّل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض، ويقول إنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد، وقال عيسى عليه السلام بحقّ أقول إنّه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنّوم على المزابل مع

الكلاب كثير، وكان يقول يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرّي وخبز الشّعير، وإيّاكم وخبز البرّ فإنّكم لن تقوموا بشكره.

ومنها الملبس وأقلّ درجاته ما يدفع الحرّ والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطّى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان، وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل، وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو عندهم مجاوز حدّ الزّهد، وشرطوا في الزّاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت، وقيل لسلمان الفارسيّ رضي الله عنه ما لك لا تلبس الجيّد من الثّياب؟ فقال وما للعبد والثّوب الحسن فإذا أُعتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً.

ومنها المسكن وله فيه ثلاث درجات أعلاها أن لا يطلب موضعاً خاصّاً بل يقنع بزوايا المساجد؛ وأوسطها أن يطلب موضعاً خاصّاً مثل كوخ مبنيّ من سعف أو من خص أو ما يشبهه؛ وأدناها أن يطلب حجرة مبنيّة إمّا بشراء أو بإجارة، وقد اتّخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب فقيل له لو بنيت؟ فقال هذا لمن يموت كثير.

ومنها أثاث البيت وللزّهد فيه أيضاً درجات وأعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلّا مشط وكوز؛ فرأى إنساناً يمشط لحيته بأصابعه فرمى المشط؛ ورأى آخر يشرب من النّهر بكفّيه؛ فرمى الكوز؛ وهذا حكم كلّ أثاث فإنّه إنّما يراد لمقصود فإذا استغني عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة، وما لا يستغنى عنه ينبغي أن يقتصر منه على أقلّ الدرجات وهو الخزف في كلّ ما يكفي فيه، ولا يبالي في أن يكون مكسور الطرف، وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد؛ وأدناه أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس الخسيس فإن تجاوز هذا القدر خرج عن أبواب الزّهد.

ودخل رجل على أبي ذر فقال يا أباذر ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث، فقال إنّ لنا بيتاً نوجّه صالح متاعنا إليه، فقال إنّه لا بدّ لك من متاع ما دمت ههنا، فقال إنّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه. وفرشت عائشة للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم فراشاً جديداً وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم ينام على عباءة مثنيّة فما زال يتقلّب ليلته، فلمّا أصبح قال لها أعيدي العباءة الخلقة ونحّي هذا الفراش عنّي قد أسهرني اللّيلة.

ومنها المنكح وكان أزهد الناس النبيّ والأئمّة عليهم السلام وقد نكحوا النّساء، لكن الحقّ أنّهم كانوا عالمين بعدم شغل النّساء لهم عن الله سبحانه، والأولى في الزهد الاقتصار على واحدة طلباً للنّسل وحرصاً على سنّته صلى الله عليه وآله وسلم وما ورد فيه من الثواب،

وبالجملة فما يحتاج إليه الإنسان في حفظ الحياة ممّا لا ينافي الزّهد بل يؤكّده ويحقّقه. روي أنّ الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك، فقال يا ربّ عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئاً؛ فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا.

وروى الكليني طاب ثراه أنّ رجلاً سأل علي بن الحسين عليهما السلام عن الزّهد فقال عشرة أشياء فأعلى درجة الزّهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإنّ الزّهد في آية من كتاب الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]؛ هذا مجمل الكلام في الزّهد.

وأمّا التّوكّل فهو مقام عظيم ومسلك من مسالك الموقنين، وقد صرّحت به الأخبار النّبويّة والآيات القرآنيّة، قال صلى الله عليه وآله لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقتم كما ترزق الطّير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً. وأمّا الخليل عليه السلام فروي أنّ جبرائيل عليه السلام جاء إليه وقد رمي إلى النار من المنجنيق فقال له ألك حاجة؟ فقال أمّا إليك فلا قال له إسأل ربّك حتى ينجيك من نار النّمرود، قال يكفي علمه بحالي عن سؤالي، فرجع جبرائيل فقال تعالى للنار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وهذا كان فائدة توكّله على مولاه.

واعلم أنّه لو ادّعى رجل دعوى لبّسها على رجل آخر وأراد الرجل المدّعى عليه أن يوكّل وكيلاً في رفع تلبيس دعوى ذلك الرجل الآخر لعلمه أو ظنّه بأنّه هو لا يقدر على جواب تلك الدعوى الملبّسة فهو يقصد أن يكون في الوكيل نهاية الهداية والقوّة والفصاحة والشّفقة، أمّا الهداية فليعرف بها مواقع التّلبيس، وأمّا القوّة فليستجرىء على التّصريح بالحقّ ولا يداهن ولا يجبن، وأمّا الفصاحة وهي قدرة اللّسان فليكون بها قادراً على حلّ عقدة التّلبيس، وأمّا غاية الشّفقة فليكون بها باذلاً كلّ مجهوده في حقّه، فإن كان شاكاً في هذه الأربعة أو في واحد أو جوز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة من الوكيل، لم تطمئن نفسه إلى وكيله؛ وتتفاوت أحواله في شدّة الثّقة والطّمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال في وكيله، وإذا وقع في يده مثل هذا الوكيل اعتمد عليه وفوّض كشف ذلك التّلبيس إليه، فإذا كان حاله هذا في حال رجل مثله ربّما يظن فيه مثل هذه الأمور وكان الواقع خلافها فكيف لا يوكل من يعلم أنّه قد بلغ من هذه الخصال الأربع غايتها وهو جناب الحق سبحانه، فيجعله وكيله فيما يعتريه من تلبيسات الشيطان ومن الأسباب التي يحتاج إليها في عالم حياته في

كل أوان، وليفهم معنى قوله لا حول ولا قوّة إلّا بالله فإذا تفهم هذا المعنى قوي باعث توكّله عليه تعالى في جميع الأمور، وهذا اليقين حاصل لأكثر الناس؛ نعم قد يضعف اليقين بانضمام الأوهام إليه فإنّ القلب قد ينزعج بتبعيّة الوهم، فإنّ العاقل لو كلّف المنام مع الميت في بيت واحد لربّما جبن قلبه وخاف منه مع علمه بأنّه جماد وأنّه لا فرق بينه وبين الأحجار الموضوعة في البيت، وإذا عرفت هذا فاعلم أنّ لتلك الحالة ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في الثقة على الله والاعتماد على كفالته كحاله في الثّقة بالوكيل.

الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمّه فإنّه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها، وإذا رآها تعلّق بذيلها وإن نابه أمر في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه يا أمّاه؛ فهو قد وثق بشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتّمييز الذي له، ويظنّ أنّه طبع من حيث إنّ الصّبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلفيق لفظه ولا على إحضاره مفصّلاً ولكن كلّ ذلك وراء الإدراك والفرق بين هذه الدرجة وما قبلها أنّ هذا متوكّل وقد فني في توكّله عن توكّله إذ ليس قلبه يلتفت إلى التّوكّل وحقيقته بل إلى الوكيل، وأمّا الأول فمتوكّل بالتّكلّف والكسب وليس فانياً عن توكّله بل له التفات إليه وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكّل عليه وحده.

الثالثة: وهي القصوى وهي أن يرى نفسه بين يدي الله تعالى كالميّت بين يدي المغسّل فإنّه يقلّبه كيف شاء والاختيار إنّما هو إليه لا غير؛ وهذا يفارق الصّبي فإنّ الصّبي يفزع إلى أمّه ويصيح إليها بل هذا مثاله مثال من علم أنّه إن ترك الأمّ فهي لم تتركه وتبتدر بجميع أنواع المنافع، وهذا المقام في التّوكّل يثمر ترك الدّعاء اعتماداً على كرمه وعنايته كما نقلنا عن الخليل عليه السلام، وصاحب هذه الرّتبة لا يبقى له تدبير في أموره بل الله تعالى هو المدبّر لأموره كما قاله أرباب السّلوك.

وأمّا صاحب الدرجة الثانية فينبغي له تدبير ما أمره به الوكيل وإن كان قد ترك تدبير ما أمره به غيره، ومن هنا قال الصادق عليه السلام التّوكّل هو أن تعقل بعيرك وتتوكّل على الله تعالى في حفظه، وأمّا صاحب الدرجة الأولى فهو لا يزال في التّدبير من الوكيل وغيره، فظهر بهذا أنّ التّوكّل لا تنافيه الأعمال بل ربّما تحقّقه، نعم إذا سعى الإنسان في مجاهدات نفسه حتى بلغ الدرجة الثالثة كان غير محتاج إلى التّدبير

والأعمال ولكنّه هنا قد عمل أشقّ الأعمال ودبّر فوق كلّ تدبير وهو المجاهدة مع النّفس حتى وطنها على تلك الدرجة، فهذا غير منافٍ لما أمر الله سبحانه به من السّعي لطلب الأرزاق، فإنّ مثل هذا السّعي أشدّ من ركوب البحار وقطع القفار كما لا يخفى على من له أدنى إنصاف.

وأمّا اعمال المتوكّلين فاعلم أنّ الأسباب التي بها تجلب المنافع ثلاث درجات أيضاً مقطوع بها ومظنوناً ظنّاً يوثق به وموهوم وهماً لا تثق به النّفس:

الدرجة الأولى: المقطوع بها وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسبّبات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمدّ يدك إليه وتقول أنا متوكل وشرط التّوكّل عدم السّعي ومدّ اليد إلى الطعام سعي وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان فهذا سفه وجنون وليس من التّوكّل في شيء بل التوكّل في هذه الصورة هو أن تمدّ يدك وتأكل ويكون توكّلك هذا على فضله سبحانه حتى لا تجفّ يدك في الحال، ولا تفلج ولا يصيبك ما يفزعك في حال الأكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متعيّنة لكن الغالب أنّ المسبّبات لا تحصل بدونها كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطاً في التّوكل بل استصحاب الزّاد في البوادي سنّة الأولين؛ ومن هذا كان الخواص إذا سافروا في القفار لا تفارقهم الإبرة والمقراض والحبل والركوة، وذلك لأنّ الأغلب في البوادي أنّها خالية من هذه الأربعة التي يحتاج إليها المسافر، ولو انحاز رجل إلى شعب من شعاب الجبل خال من الماء والكلأ والسّاكن وجلس متوكّلاً فهو آثم، كما روي أنّ زاهداً من الزّهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعاً؛ وقال لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربّي برزقي؛ فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته شيء، فقال يا ربّ إنّ أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلاّ فاقبضني إليك. فأوحى الله تعالى إليه وعزّتي لا أرزقنّك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس؛ فدخل المصر وأقام فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا؛ أما علمت أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحبّ إليّ من أن أرزقه بيد قدرتي، فإذن ترك الأسباب مراغم للحكمة لكن الاعتماد على الله سبحانه كما روي أنّ عيسى عليه السلام قال انظروا إلى الطّير لا تزرع

ولا تحصد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم، فإنّ قلتم نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله لها هذا الخلق.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج عن درجات التّوكّل كلّها كما هو الغالب على الناس؛ فإذا ظهر أنّ الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التّعلّق بها عن التّوكل وإلى ما لا يخرج وأن الذي لا يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون فالمتوكّلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات:

الأول: مقام الخواص وقد مثّله أهل السّلوك بالذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تيسير ما يمسك حياته ولو كان من بقول الأرض وحشيشها.

المقام الثاني: أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنّه في القرى والأمصار فهذا أضعف من الأول ولكنّه أيضاً متوكّل لأنّه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معتمد على فضل الله تعالى في تدبير أموره.

المقام الثالث: أن يخرج ويكتسب اكتساباً رفيقاً جميلاً وهذا المقام هو الممدوح الوارد في الشّريعة الذي أراده ﷺ من قوله ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتّقوا الله وأجملوا في الطّلب، ولا يحملنّكم استبطاء شيء من الرّزق على أن تطلبوه من الحرام، فإنّ الله سبحانه قسم الأرزاق بين عباده حلالاً ولم يقسمها حراماً، نعم من ترك الكسب إذا كان مستغرقاً وقته في العلم أو العبادة كان له وجه في الجملة، مع أنّ الوارد عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام أنّ التّكسب للعيال والأخوان أفضل من العبادة، نعم لا يكون اعتماده على الكسب وعلى آلاته بل على ذلك الكفيل؛ روي أنّ العبد ليهمّ من اللّيل بأمر من أمور التّجارة ممّا لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه، فيصبح كئيباً حزيناً يتظنّن بجاره وابن عمّه من شيّعني من دهاني وما هو إلّا رحمة رحمه الله تعالى بها. وهذا مجمل الكلام في هذا المقام والله المستعان.

خاتمة هذا البحث في الرّزق. اعلم أنّ الذي اتّفق عليه أصحابنا رضوان الله عليهم والمعتزلة أنّ الرزق هو ما صح انتفاع الحيوان به بالتّغذي أو غيره وليس لأحد منعه. فالحرام على هذا ليس برزق؛ وعند الأشاعرة كلّ ما انتفع به حيّ سواءكان بالتغذّي أو بغيره، مباحاً كان أو حراماً، وقال الأشاعرة في الاستدلال لو لم يكن

الحرام رزقاً لم يكن المغتذي به طول عمره مرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والجواب عن هذا ظاهر وهو أنّ المغتذي في الدنيا لا يجوز أن يكون مغتذياً بالحرام طول عمره، وذلك أنّ أيّام الرضاع اللّبن ليس بحرام عليه وفي كل أوقاته التّنفس في الهواء ليس بمحرّم عليه أيضاً مع أنّ الرزق على قسمين: منه ما كان غذاء للأبدان ومنه وهو الأكمل الأعظم ما كان غذاء للأرواح كالعلوم والكمالات وهذا هو الغذاء الباقي بعد فناء الأبدان وغذائها، وبسببه حرم الأعلام من كثرة الغذاء الأبداني لوجود الأرواحي عندهم، وعلى هذا فالعلماء مرزوقون الرّزق الأكمل؛ وحينئذ فقوله:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصيّر العالم النّحرير زنديقا

ممّا لا ينبغي وذلك لأنّ العالم أكثر رزقاً من الجاهل وإن كان له ملك كسرى أو قيصر، ومن كان له حظّ من الإنصاف وكان له نوع اطلاع على بعض العلوم يعلم أنّه لو أتى إليه جاهل سيّما الأحمق وكان عنده من المال ما لا يحصى، وقال أريد أن أُعاوضك هذا المال الوافر بهذا العلم القليل الذي تعرفه لم يقبل ذلك العالم بل يرجع عليه ماله، وذلك لأنّ الأموال لذّات خياليّة وما يصل إلى مالكها منها إلّا تعب الأرواح والأبدان، والعلم لذّة حقيقيّة لا يزال يصعد بصاحبه حتى يرقّيه فوق مراتب الملوك والسّلاطين، وهل رأيت عالماً عزل عن سرير علمه؟ وكم رأيت سلطاناً عزل عن سرير ملكه؛ وتاجر أُغرق ماله أو سرق فبقي يتكفّف الناس.

ونظير هذا ما روي من أنّ رجلاً من فقراء الشّيعة أتى إلى الإمام أبي عبدالله جعفربن محمّد الصادق عليه السلام فشكى إليه الفقر، فقال عليه السلام له أنت من شيعتنا وتدّعي الفقر! شيعتنا كلّهم أغنياء، ثمّ قال له يا فلان أنت (إنّ) لك تجارة قد أغنتك؛ فقال وما هي؟ قال لو أنّ رجلاً غنيّاً قال لك أعطيك ملء الدنيا فضّة وتحول عن ولاية أهل البيت إلى ولاية غيرهم أكنت فاعلاً قال لا يابن رسول الله ولو ملئت الدنيا لي ذهباً، فقال عليه السلام إذن لست فقيراً وإنّما الفقير من ليس له ما لك، ثمّ وصله بمال.

وروي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله قال يوماً لأصحابه: من الفقير؟ قالوا الذي لا درهم له ولا دينار؛ فقال النّبي صلى الله عليه وآله ليس هذا هو الفقير، وإنّما الفقير الذي يؤتى به في عرصات القيامة ضارباً لهذا وشاتماً لهذا وغاصباً من هذا؛ فإن كان له شيء من الحسنات

أُخذت منه ودفعت إلى المضروب والمغصوب منه والمشتوم، وإن لم يكن له حسنات أخذت ذنوبهم وجعلت في عنقه.

أقول: وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ولنرجع إلى ما نحن بصدده، فنقول إنّ خطبته ﷺ في حجّة الوداع قد رواها العامّة والخاصّة وهي صريحة فيما ذهبنا إليه غير قابلة للتّأويل، رواها شيخنا الكليني طاب ثراه بإسناده إلى الإمام أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: ألا إنّ الرّوح الأمين نفث في روعي أنّه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتّقوا الله وأجملوا في الطّلب، ولا يحملنّكم استبطاء شيء من الرّزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإنّ الله تعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتّقى الله وصبر أتاه رزقه من حلّه، ومن هتك حجاب ستر الله عزّ وجلّ وأخذه من غير حلّه قصّ به رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة، وأمّا ما يتراءى من بعض الأخبار التّي أُطلق فيها لفظ الرزق على الحرام فسبيله التّأويل وارتكاب المجاز جمعاً بين الأخبار، مع أنّ الله سبحانه قال في كتابه العزيز ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، فمدحهم على هذا الإنفاق ولا مدح لمن أنفق من الحرام.

بقي الكلام في أنّ الرّزق هل ينقص ويزيد بتفاوت السّعي ونقصانه أم لا؟ وظاهر الأخبار المعتبرة أنّه إذا ضمّ إليه السّعي القليل المأمور به كان غير قابل لهما بل لا يصل إليه إلا ما قدّر له، وفي دعاء الصّحيفة: وجعل لكل روح منهم قوتاً معلوماً مقسوماً من رزقه لا ينقص من زاده ناقص ولا يزيد من نقص منهم زائد، وفي الحديث إنّ أرزاقكم تطلبكم كما تطلبكم آجالكم فلن تفوتوا الأرزاق كما لم تفوتوا الآجال؛ نعم لو جلس الرّجل في بيته وترك الطّلب فهل يجب على الله سبحانه إيصال الرّزق إليه أم لا يجب؟ قال بعضهم بوجوب القدر الضّروري وهو ما يمسك به الحياة؛ وقال بعضهم لا يجب إلّا لمن ألقى عنان التّوكّل إليه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، والحقّ أنّ مثل هذا الإيصال غير واجب عليه سبحانه، نعم ربّما تفضل به ولا مانع من التّفضّل.

وفي الحديث أنّه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] قال أصحاب النّبي ﷺ إنّ ربّنا قد تكفّل بأرزاقنا فلا نتعب في طلبها فغلقوا عليهم الأبواب وجلسوا في بيوتهم، فنزلت آية السّعي في مناكب الأرض

وأطرافها، ففتحوا الأبواب وسعوا في تحصيل الأرزاق، ومن هنا كان المحدّثون من أصحاب النّبي والأئمّة عليهم السلام أهل حرفة وكسب وتجارة؛ نعم ذاك زمان وهذا زمان وذلك أنّ العلم كان علم الكلام والحديث وكانت عين الحياة موجودة عندهم يردونها في كل أوقاتهم ولا كانوا مثلنا يحتاجون إلى الاجتهاد في المسائل عند تعارض الأدلّة؛ ولا كانوا يحتاجون إلى صرف أكثر أوقاتهم في الفحص عن أحوال العلوم ومقدّماتها من العربيّة والمنطق واللّغة إلى غير ذلك من علوم الاجتهاد الاثني عشر؛ وقد اشتهر أنّ العلم نقطة كثّره الجاهلون وقد قلنا سابقاً بدله إنّ العلم بسيط ركّبه العالمون، فمن هذا لم يسع العلماء في هذه الأعصار الجمع بين الكسب للمعاش وتحصيل العلوم الكثيرة إلى أن يبلغوا درجة الاجتهاد فلا جرم وكلوا أمور معاشهم إلى خالقهم وهو رازقهم وعليه فليتوكّل المتوكّلون؛ وقد تتبّعنا أكثر موارد الرّزق وأسبابه فلم نر سبباً أجلب للرّزقِ من الصّدقة، فإنّ الوفاء حاضر وهو عشرة أو سبعون إلى سبعمائة عوض الواحد، فمن أراد تصديق هذا فليتصدّق على فقير بدرهم وينظر كيف يجازيه ربّه في ذلك اليوم أو غده مع ما يدّخر له من الأجر الجزيل والثّواب الجميل، وما أحسن قول الشّاعر في شأن كثرة أرزاق الجهّال وسموّ مكانهم، وفقر العقلاء واتّضاعهم:

الدّهر كالبحر يعلو فوقه جيف ... ويستقرّ بأقصى قعره الدّرر
وفي السّماء نجوم لا عداد لها ... وليس يكسف إلّا الشمس والقمر

وهذا هو الذي جلب الدّواهي إلى العقلاء ونفخ قلوبهم، وقرقر بطونهم وقال بعض مشايخنا من أهل الظّرافة:

قلت لنحويّ وفي بطنه ... قرقرة ما هذه القرقرة
فقال يا جاهل في نحونا ... هذا تسمّى الضّرطة المضمرة

وقال سيّدنا المرتضى قدس الله روحه في عتاب الدّنيا:

عتبت على الدنيا فقلت إلى متى ... أُكابد ضرّاً همّه ليس ينجلي
أكلّ شريف قد علا بجدوده ... حرام عليه الرّزق غير محلّل
فقالت نعم يابن الحسين رميتكم ... بسهم عنادي حين طلّقني علي

وبالجملة شأن هذا الدنيا ومدارها أعاذنا الله وإيّاكم من خدائعها.

نور في أحوال الملوك والولاة وكيفية ما ينبغي لهم من السلوك في أنفسهم ومع رعيتهم وما يلحق بهذا

اعلم أيّدك الله ووفقك أنّ قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ دليل على أنّ أمور الملك مقدّرة في عالم الملكوت، وذلك أنّا رأينا من أتعب نفسه وبذل ماله في تحصيل ملك أو ولاية فلم يصل إليها وبلغها غيره بلا تعب وبذل مال، هذا ما يقتضيه ظاهر لفظها، وأمّا بطن الآية فقد ورد في الخبر أنّ المراد بالملك الذي يؤتيه الله من يشاء هو الملك الواقعي الذي يكون الله تعالى به راضياً وهو ملك آل محمّد عليهم السلام وتوابعهم، فهو الملك الذي آتاهم ولم يؤته غيرهم.

قال الصادق عليه السلام وأما ملك بني أُميّة فقد غصبوه من آل محمّد، وذلك كما أنّ الرجل له ثوب فيأتي إليه رجل فيغصبه إيّاه فالله تعالى لم يؤته ذلك الثّوب وإنّما تعدّى في أخذه وغصبه، وحاصل معنى الآية حينئذ أنّ إعطاء الملك بيدك فمن كان في علمك قابلاً له نوهت باسمه في هذا العالم وقرّرت أن يكون هو الملك والسّلطان كأهل البيت عليهم السلام والمجتهدين من شيعتهم بعدهم؛ ومن لم يكن في علمك قابلاً للملك كأعداء آل محمّد ومخالفيهم نزعته عن الملك وما أعلمت العباد إلّا بعدم استحقاقه للملك؛ فإنّ الخليل عليه السلام لمّا جعل ملكاً وسلطاناً وإماماً لكافّة الناس أراد إبقاء هذا الملك في ذرّيّته فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، فأجابه تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فأسمعه في القديم أنّ من كان ظالماً كان معزولاً عن الملك والدّولة الإلهيّة، فلينظر الوالي والملك المواليين لأهل البيت عليهم السلام فإن كانوا من أهل الظلم والتّعدّي كانوا في معزل عن أن يكونوا قد آتاهم الله الملك، وإن كانوا من أهل العدل وفي مقام قضاء حوائج الشيعة والتّحنن على فقرائهم فليعلموا أنّه ملك من الله سبحانه ودولة ساقها الله إليهم فيجب عليهم القيام بشكرها.

واعلم أنّه ينبغي للولاة والسّلاطين أن يجعلوا لهم وقتاً خاصاً مع ربّهم يتضرّعون فيه إليه وينزعون ثياب الملك ويلبسون الثّياب الخشنة ويقرّون له بالعبوديّة ليكون كفّارة ما أظهروه من الجبروت في حضور الخلائق، وقد نقل أهل السّير والتّواريخ أنّ عمر بن عبد العزيز كان له في كلّ يوم بيت يدخله وحده ويغلق عليه بابه ويلبث فيه كثيراً ثمّ يخرج منه. فلمّا توفّي وجلس في موضعه يزيد بن عبد الملك سأل خواصّ ابن عبدالعزيز عن خزانته؛ فقالوا لا نعلم له خزانة ولكن له موضع كان يتفرّد به وحده

فلعلّ خزانته تكون هناك، فلمّا ذهبوا إلى ذلك البيت وفتحوا قفله رأوه بيتاً خالياً من الفروش أرضاً بيضاء وفيه مكان مفروش بالتّراب فوق الأرض مقدار ما يصلّي فيه الإنسان وعنده ثياب خشنة بعضها من اللّيف وبعضها من الكرباس الغليظ؛ وفوقها طوق من الحديد كان يضعه في عنقه ويلبس تلك الثياب ويجلس فوق ذلك التّراب للبكاء والتّضرّع.

ونقل مثل هذا وأمثاله من أطوار الملك الجليل الشّاه عبّاس الأوّل أسكنه الله بحابيح الجنان[١].

وحكى رجل كان يخدمه لما كان ذلك الرجل ولداً صغير السّن، قال أمرني ذات يوم بحمل الإبريق معه ليتطهّر به من البول قال ذلك الولد فحملته ومشيت خلفه حتى صعد إلى سطح عالٍ في بيوته، فلمّا انتهيت معه إلى أوّل السّطح أخذ الإبريق من يدي وقال لي اجلس هنا حتى أرجعِ إليك؛ فأجلسني في مكان لا أراه فيه فغاب عني طويلاً حتى خفت عليه؛ فلحقته فرأيته ساجداً وهو يبكي وخدّه ملصق بالأرض وقد

---

(١) جمع من الزعانفة وأرباب السمر والمجون في طهران عاصمة إيران دأبوا يلعبون بالتاريخ وسيرة الرجال والمشاهير ولاسيما في تواريخ رجال إيران ونهضوا يؤلفون الكتب المشحونة بالشطحات في سيرهم وتواريخهم مع نيات فاسدة وتحريكات كاسدة من عمال السياسة الغاشمة وقد كتب في هذه الآونة الأخيرة أحد من يرى نفسه من أساتذة بعض الكليات في طهران كتاباً في عدة مجلات بعنوان: (زندگانى شاه عباس أول) بالفارسية وقد شحنها من أعاجيب الأكاذيب وأباطيل الأقاويل وليس غرضه من صنيعه هذا إلا تلويث ساحة ذلك السلطان بلوث الأعمال الشنيعة والأفعال المنافية للشريعة الإسلامية وأن يلبس الأمر في حق الشاه عباس الكبير للناشئة من أبناء الوطن وأن يظهر لهم أنّ هذا السلطان الذي بقي حبه منذ قرون في قلوب الأمة الإيرانية إلى اليوم لم يكن إلا رجلاً فاسقاً صاحب لهو ومجون وطرب غير مبال بأحكام الشرع وأراد أن يشوّه الأمر على الأمة الإيرانية في حق الصفويين ولم يكن كتابة هذا الكاتب تلك الأفائك والمفتريات إلا بايعاز من بعض أرباب الصحف والجرائد السوداء من أهل السنة في طهران وليس مستنده في نسبة تلك الأباطيل والماجريات إلى الشاه عباس في الأغلب إلا كلمة فلان المسيحي أو حقيبة فلان القسيس الأجنبي وغير خفي على القارىء الفطن أنّا لا ندعي أنّ الشاه عباس الكبير كان من الأولياء والأتقياء بل نقول أنّ تلك المفتريات والأكاذيب التي لفقها مؤلف ذلك الكتاب وجمعها فيه لا أصل لاكثرها بل لجلّها وليكن النسل الآتي على ذكر من ذلك ويعلموا أنّ الدولة الصفوية كانت نتاجاً ظاهراً للبعث الديني وكان هذا البعث مبنياً على الإيمان الشيعي القوي المفعم بالثقافة والمدنية كما صرح به بعض الخبراء في فن التاريخ الصحيح وهذا الأمر ثقل في قلب من ليس له حب للدين الإسلامي المقدس.

صار تحته شبه الطّين من الدّموع، ثمّ رفع رأسه وغضب عليّ فاعتذرت إليه أنّي خفت عليك بطول مقامك على السطح، فصببت الماء على يديه وغسل وجهه فلوى أُذني، وقال لا يخرج منك شيء وإن سألك أحد من الخدّام والعبيد فقل كان الشّاه يلوط بي.

وقد عرفت أنّ العبادة هي التّواضع لله سبحانه وأوّل من سبقهم بهذا ملك الملوك وسلطان السّلاطين مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلقد كان له حالات مع ربّه في أوقات خاصّة يسجد فيها على التّراب ويتضرّع إلى الله تعالى.

وفي الرّواية عن عروة بن الزّبير قال كنّا جلوساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء ألا أُخبركم بأقل القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا من؟ قال عليّ بن أبي طالب، قال رأيته في حائط بني النجّار يدعو بدعوات، وذكر الدعوات إلى أن قال: ثمّ انغمر في البكاء فلم أسمع له حسّاً ولا حركة؛ فقلت غلب عليه النّوم لطول السّهر أُوقظه لصلاة الفجر فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة؛ فحركته فلم يتحرّك؛ فقلت إنّا لله وإنّا إليه راجعون مات والله عليّ بن أبي طالب، فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت فاطمة يا أبا الدّرداء ما كان من شأنه وقصّته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت هي والله يا أباالدّرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله، ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ونظر إليّ وأنا أبكي، فقال ما بكاؤك يا أباالدّرداء؟ فقلت بما أراه تنزله بنفسك فقال يا أباالدّرداء فكيف إذا رأيتني أُدعى إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ فوقفت بين يدي الملك الجبّار قد أسلمني الأحبّاء ورفضني أهل الدنيا لكنت أشدّ رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية، فقال أبو الدّرداء فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولا يجوز للولاة أن يقولوا نحن ملوك ولم يطلب الله تعالى منّا العبادة وإنّما أراد منّا العدالة، فيدليهم الشّيطان بغروره ويستفزهم، بل يجب أن يتصوّروا بأن كلّما عظمت النّعمة على العبد عظم تكليفه بالشّكر عليها، ولا شكر إلّا الطاعة والعبادة والإحسان إلى العباد، وينبغي أن يعلموا إنّ طاعاتهم من الصلاة والصوم ونحوها يترتّب عليها من الثّواب الكامل ما لا يترتّب على غيرها وذلك لكثرة المشقّة عليهم في تحمّلها لما تعوّدوا عليه من التّنعّم والتّلذّذ.

وروي أنّ أفضل الأعمال أحمزها، وينبغي لكلّ وال من الولاة أن يميل إلى حب

العلماء والأخيار وأن يكثر مصاحبتهم ومجالستهم ويختار له صاحباً منهم؛ ويكون عالماً ورعاً سليم النّفس، راغباً في قضاء حوائج المؤمنين ليجلب للوالي أسباب الثّواب.

أمّا حبّ العلماء فلما روي من قوله ﷺ كن عالماً أو متعلّماً أو محبّاً لأهل العلم ولا تكن الرّابع فتهلك؛ وفي الحديث أنّ من أحبّ حجراً حشره الله معه والمرء مع من أحبّ، وقال عليه السلام إنّ الله يغفر للمؤمنين ولمحبّيهم ولمحبّي محبّيهم، فهذا من أفضل الأعمال للولاة وغيرهم، وأمّا مجالستهم فلما ورد في الخبر من أنّ جلوس ساعة واحدة مع العالم يعدل من الثّواب ما لا يحصى وأنّ النّظر إلى العلماء عبادة؛ وأمّا اختيار صاحب منهم بتلك الأوصاف فليكون واعظاً له مذكّراً له في أحوال الغفلات لكثرة مشاغله فيحتاج إلى الواعظ والمذكّر، وهكذا كان أحوال الملوك والسّلاطين في الأعصار الماضية.

وينبغي أن يعظه برفق، روي أنّ عابداً دخل على معاوية ليعظه؛ فقال له يا فاسق يا كلب هكذا تظلم الناس وأطال الكلام معه، فقال له معاوية يا عابد أنت أفضل من موسى نبيّ الله أم هو أفضل منك؟ فقال بل موسى خير منّي؛ فقال له وأنا أشقى أم فرعون؟ فقال بل فرعون؛ فقال إنّ فرعون لما أرسل الله إليه واعظين وهما موسى وهارون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، فأمرهما الله سبحانه بالكلام اللّيّن وأنت تعظني بهذه الخشونة. وليكن همّ المصاحب للوالي أن يقصّ عليه أحوال الملوك والولاة المتقدّمين الذين كانوا أشدّ منه بأساً وأقوى مراساً فأفناهم الزّمان وجار عليهم الدّهر الخوّان؛ ومن أعظمهم نبيّ الله سليمان بن داود عليه السلام فلقد طلب من الله تعالى الملك بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، حتى قال نبيّنا ﷺ: رحم الله أخي سليمان ما كان أبخله.

وقال الصّادق عليه السلام لمّا سئل عن معنى الآية والحديث، فقال أمّا معنى الآية فهو أنّ سليمان أراد ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده أن يقول إنّ ملك سليمان قد حصّله سليمان بالغلبة والجنود مثل سلاطين الدنيا؛ فسخّر الله له الرّيح والطير والوحش وميّز ملكه عن ملك الملوك حتى عرف النّاس أنّ ملك سليمان قد أعطاه الله إيّاه وأمّا معنى الحديث فقال عليه السلام معناه رحم الله أخي سليمان ما كان أبخله بعرضه، أو رحم الله أخي سليمان ما كان أبخله لو كان معنى الآية ما ذهب إليه عوام الناس من

الأخذ بظاهرها، وقد منح الله سبحانه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ملكاً عظيماً حيث سخر له ما في الكونين فأمر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجنّ فنسجوا له بساطاً من الإبريسم والذهب، وكان يجلس عليه مع خاصّته، وكان في مجلسه على البساط ستّمائة ألف كرسيّ، ولسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ سرير مرصّع في وسط الكراسي يجلس عليها العلماء والأنبياء، وسخّر له ريح الصّبا غدوّها شهر ورواحها شهر، وكان يسير في أول النّهار من مكّة ويتغدّى في الكوفة ثمّ يسير من الكوفة ويتعشّى في الشّام.

وقد زاد الله في ملكه بأنّه ما يتكلّم أحد كلمة أينما كان إلا ألقتها الريح في أذنه حتى يسمعها، ومع هذا الملك كان لم يأكل ما مسّه النار بل كان يعمل من سعف[1] الخوص زنبيلاً ويشتري بثمنه شعيراً فيضعه بين صخرتين حتى يصير جريشاً ويجعله في الشّمس حتى يجف فيأكله، فإذا جنّه الليل نزع ثياب الملك ولبس ثياباً من ليف النخل وغلّ يديه إلى عنقه فقام باكياً إلى الصّباح.

وفي الرواية عن الصّادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال إنّ سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذات يوم لأصحابه إنّ الله تبارك وتعالى قد وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، سخّر لي الريح والإنس والجنّ والطّيور والوحوش؛ وعلّمني منطق الطّير وآتاني من كلّ شيء ومع جميع ما أُوتيت من الملك ما تمّ سروري يوماً إلى اللّيل؛ وقد أحببت أن أدخل قصري في غد فأصعد إلى أعلاه وأنظر إلى ممالكي ولا تأذنوا لأحد عليّ لئلاّ يرد عليّ ما ينغص عليّ يومي، فقالوا نعم، فلمّا كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره؛ ووقف متّكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أُوتي فرحاً بما أُعطي، إذ نظر إلى شابّ حسن الوجه واللّباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره، فلمّا بصر به سليمان قال له من أدخلك إلى هذا القصر وقد أردت أن أخلو فيه اليوم؟ وبإذن من دخلت؟ قال الشّاب أدخلني هذا القصر ربّه وبإذنه دخلت، فقال ربّه أحقّ به منّي فمن أنت؟ قال أنا ملك الموت قال وفيم جئت؟ قال جئت أقبض روحك، قال إمض لما أُمرت به فهذا يوم سروري وأبى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون لي سرور دون لقائه؛ فقبض ملك الموت روحه وهو متّكىء على عصاه، فبقي سليمان متّكئاً على عصاه وهو ميّت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدّرون (يعتقدون) أنّه حيّ فافتتنوا فيه واختلفوا، فمنهم من قال إنّ سليمان قد بقي متّكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب إنّه لربّنا الذي يجب

(١) محركة جريد النخل أو ورقه.

علينا أن نعبده، وقال قوم إنّ سليمان ساحر؛ وقال المؤمنون إنّ سليمان عبد الله ونبيّه يدبّر الله أمره بما شاء. فلمّا اختلفوا بعث الله عزّوجلّ الأرضة فدبّت في عصا سليمان، فلما أكلت جوفها انكسرت العصا وخرّ سليمان من قصره على وجهه، فشكرت الجنّ للأرضة صنيعها، فلأجل ذلك لا توجد الأرضة في مكان إلّا وعندها ماء وطين؛ وذلك قول الله عزّوجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤]، يعني عصاه، ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

ثمّ قال الصادق عليه السلام والله ما نزلت هذه الآية هكذا وإنّما نزلت «فلمّا خرّ تبيّنت الجن أنّ الإنس لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين»، ثمّ لينظر العاقل إلى قوله صلى الله عليه وآله لو كانت الدنيا تسوى عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء، وإلى قول جبرائيل عليه السلام يا محمّد إنّ الله يقول لك عش ما شئت فإنّك ميّت، وأحبب من شئت فإنّك مفارقه؛ واعمل ما شئت فإنّك مجزي به. ولمّا دخل يزيد الرّقاشي على عمر بن عبد العزيز قال عظني يا يزيد؛ قال يا أمير المؤمنين إعلم أنّك لست أول خليفة تموت؛ فبكى عمر وقال زدني يا يزيد، فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم إلّا أب ميّت، فبكى وقال زدني يا يزيد، فقال يا أمير المؤمنين ليس بين الجنّة والنار منزل، فسقط مغشيّاً عليه، وليتلُ الواعظ إنّ الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له؛ وعليها يعادي من لا علم له؛ وعليها يحسد من لا فقه له، ومن صحّ فيها سقم، ومن سلم فيها هرم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، حلالها حساب وحرامها عقاب، ومتشابهها عذاب، من سعى إليها فاتته، ومن قعد عنها وأتته، لا خيرها يدوم ولا شرّها يبقى.

واعلم أنّ الذي أصبحت فيه من النّعيم إنّما صار إليك بموت غيرك وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك وهل الدنيا إلّا كما قال الأوّل قدر يغلي وكنيف يملأ:

ولقد سألت الدّار عن أخبارهم ... فتبسّمت عجباً ولم تبدي
حتى مررت على الكنيف فقال لي ... أموالهم ونوالهم عندي

وقال الرشيد لابن السّماك عظني وبيده شربة من ماء؛ فقال يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تشتريها بملكك؟ قال نعم، قال أرأيت لو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك؟ قال نعم، قال فما (فلا) خير في ملك لا يسوى شربة ولا بولة.

وحكى الأصمعي أنّ النّعمان لمّا بنى الخورنق وأشرف عليه يوماً وقد أعجبه ملكه وسعته ونفوذ أمره، فقال لأصحابه هل أُوتي أحد مثل ما أوتيت؟ فقال له حكيم من حكماء أصحابه هذا الذي أُوتيت شيء لم يزل ولا يزول أم شيء كان لمن قبلك زال عنه وصار إليك؟ قال بل شيء كان لمن قبلي زال عنه وصار إليّ وسيزول عنّي، قال فسررت بشيء تذهب عنك لذّته وتبقى تبعته، قال فأين المهرب؟ قال إمّا أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس أمساحاً وتلحق بجبل تعبد ربّك فيه وتفرّ من الناس حتى يأتيك أجلك؛ قال فإذا فعلت ذلك فما لي؟ قال حياة لا تموت وشباب لا يهرم، وصحّة لا تسقم وملك جديد لا يبلى؛ قال فأيّ خير فيما يفنى والله لأطلبنّ عيشاً لا يزول أبداً؛ فانخلع من ملكه ولبس الأمساح وسار في الأرض وتبعه الحكيم، وجعلا يسيحان في الأرض ويعبدان الله حتى ماتا.

وهذا القصر قد بناه رجل اسمه سنمّار، فلمّا فرغ من بنائه دخله النّعمان وخواصّه وتعجّبوا من عظم بنائه وارتفاعه، فقال لهم ذلك الباني وأعجب من هذا أنّي أُريك آجرة في حائطه إذا قلعتها تهدم هذا القصر العظيم كلّه فدلّه عليها، فأمر به فرموه من أعلى القصر، وقيل إنّما رماه لئلّا يبني لغيره من الملوك مثله؛ وقد صار جزاء سنمّار مثلاً بين الناس يضرب لمن يقابل الإحسان بالإساءة، ووجدت هذه الأبيات على مدينة سيف بن ذي يزن وهو من أعاظم الملوك:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من معالي على (عن) معاقلهم ... فاسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ... أين الأسرّة والتّيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجّبة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا يوماً وما شربوا ... فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أُكلوا

وقد رأيت مدينة عظيمة في فارس وهي على جبل ولها مصعد تصعد منه الدوابّ والحيوانات، وهو من صخرة واحدة؛ وفيه درجات كثيرة وفوق تلك المدينة مجلس عظيم قد كان له سقف والآن ليس هو بموجود، وإنّما الموجود منه أسطواناته وكلّ واحدة منها صخرة سوداء تقرب من المنارة ارتفاعاً، وفيها حمّام من صخرة واحدة، وأمّا طرقاتها فوضعها عجيب وهو أنّ الطريق وإن طال قد صنعوه من أربعة أحجار،

فحجر هو أرضه وحجر في يمينه والأُخرى عن شماله، والرابعة سقفه، وله فرج من الجانب الفوقاني للضّوء، وحدّثنا أهل تلك البلاد أنّ تلك المدينة من بنيان الجنّ لسليمان عليه السلام ورأيت على بعض أحجارها مكتوباً هذين الشّعرين:

أين الملوك التي كانت مسلّطة حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
كم من مدائن في الآفاق قد بنيت أمست خراباً ودار الموت أهليها

وفي الأخبار أنّ إسكندر عليه السلام اجتاز يوماً في عسكره على رجل جالس في مقبرة وبين يديه عظام رميمة وجماجم بالية وهو ينظر إليها؛ فقال له الاسكندر ما تصنع في هذه العظام؟ فقال إنّ هذه المقبرة قد دفن فيها جماعة من الملوك فبعثني الله سبحانه أن أعزل عظام الملوك عن عظام الفقراء فأنا أنظر في هذه الجماجم والعظام ولا أعرف هذا من هذا، فمضى الاسكندر عنه وقال والله ما عنى غيري، وهذا كان السّبب في طلبه الموضع الذي مات فيه.

وفي الرواية أنّ داود عليه السلام اجتاز على غار فدخله فوجد فيه رجلاً ميّتاً عظيم الخلقة وإذا عند رأسه حجر مكتوب فيه أنا دوسم الملك؛ ملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وافترعت ألف بكر من بنات الملوك ثمّ صرت إلى ما ترى (رميماً كما ترى) فصار التّراب فراشي والحجارة وسادتي؛ والدّيدان جيراني فمن رآني فلا يغترّ بالدنيا كما غرّتني.

وروي أنّ عيسى عليه السلام مرّ ذات يوم مع جماعة من أصحابه، فلمّا ارتفع النّهار مرّوا بزرع قد أمكن من الفرك، فقالوا يا نبيّ الله إنّا جياع، فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم في قوتهم؛ فأذن لهم فتفرّقوا في الزّرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزّرع وهو يقول زرعي وأرضي ورثتها من آبائي فبإذن من تأكلون؟ قال فدعا عيسى عليه السلام ربّه، فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الأرض من لدن آدم إلى ساعته، فإذا عند كلّ سنبلة أو ما شاء الله رجل أو امرأة ينادون زرعي وأرضي ورثته عن آبائي؟ ففزع الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لا يعرفه؛ فلمّا عرفه قال معذرة إليك يا رسول الله أنّي لم أعرفك زرعي ومالي حلال لك؛ فبكى عيسى عليه السلام وقال ويحك هؤلاء كلّهم قد ورثوا هذه الأرض وعمروها ثمّ ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال.

وفي الدّيوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنّه لمّا رأى فاطمة عليها السلام مسجّاة بثوبها بكى فرثاها ثمّ قال:

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة ... وإنّ الذي دون الممات قليل
أرى علل الدّنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل
وإنّ افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على أن لا يدوم خليل
ألا أيّها الموت الذي لست تاركي ... أرحني فقد أفنيت كلّ خليل
أراك بصيراً بالذين أحبّهم ... كأنّك تنحو نحوهم بدليل

ولمّا نفض يديه من ترابها تمثّل بقول بعض بني ضبّة:

أقول وقد فاضت دموعي حسرة ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
أخلاّي لو غير الحِمام أصابكم ... عتبت ولكن ما على الموت معتب

وروي أنّ عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان، فأصابهما الجوع فانتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه السلام لصاحبه انطلق فاشتر لنا طعاماً، وقام عيسى عليه السلام يصلّي فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فأبطأ عليه انصراف عيسى عليه السلام، فأكل رغيفاً، فانصرف عيسى عليه السلام فقال أين الرّغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلّا رغيفين، قال فمرّا على وجوههما حتّى مرّا بظباء، فدعا عيسى عليه السلام ظبياً منها فنحروه وأكلوا منه؛ فقال عيسى عليه السلام للظبي قم بإذن الله فقام حيّاً؛ فقال الرّجل سبحان الله فقال عيسى عليه السلام بالّذي أراك هذه الآية من صاحب الرّغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلّا اثنين فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة؛ فإذا قريب منها ثلاث لبنات من ذهب، فقال الرجل هذا مال؟ فقال عيسى عليه السلام أجل هذا مال واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرّغيف الثالث، فقال الرجل أنا صاحب الرّغيف الثالث فقال عيسى عليه السلام هي لك كلّها ففارقه، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه فمرّ عليه (به) ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللّبن؛ فقال اثنان منهم لواحد انطلق إلى القرية فأتنا بطعام؛ فذهب فقال أحد الباقيين للآخر: تعال نقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا، وقال الذي ذهب أجعل في الطّعام سمّاً فأقتلهما وآخذ اللّبن. ففعل فلمّا جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذي جاء به فماتا، فمرّ بهم عيسى عليه السلام وهم حولها مصروعون؛ فقال الدنيا هكذا تفعل بأهلها.

ووجد مكتوباً على قبر سيف بن ذي يزن:

من كان لا يطأ التّراب برجله ... وطىء التّراب بصفحة الخدّ
من كان بينك في التّراب وبينه ... شبران كان بغاية البعد
لو بعثرت للناس أطباق الثّرى ... لم يعرف المولى من العبد

ووجد مكتوباً على قصر بعض الملوك:

هذي منازل أقوام عهدتهم يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذّمم
تبكي عليهم ديار كان يطربها ترنّم المجد بين الحلم والكرم

ولبعضهم:

تروح لك الدنيا بغير الذي غدت ويحدث من بعد الأمور أمور
وتجري اللّيالي باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظنّ أنّ الدّهر باقٍ سروره فذاك محال لا يدوم سرور
عفا الله عمّا صيّر الهمّ واحداً وأيقن أنّ الدّائرات تدور

وفي الرواية أنّ رجلين تنازعا في دار فأنطق الله لبنة من جدار تلك الأرض فقالت إني كنت ملكاً من ملوك الأرض ملكت الدنيا ألف سنة، فلمّا صرت تراباً أخذني خزّاف بعد ألف سنة فصيّرني خزفاً، فبقيت ألف سنة ثمّ أخذني لبّان فصيّرني لبنة وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا فلم تنازعا في هذه الأرض.

وروي أنّه سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رأيته؟ فقال أعجب ما رأيته أنّي مررت على مدينة ولم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعضهم متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا سبحان الله ما يذكر آباؤنا وأجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطّوفان؛ ثمّ غبت عنها نحواً من خمسمائة سنة وعبرت عليها بعد ذلك، فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله، وإذا رعاة غنم فسألتهم عنها؛ فقالوا لا نعلم، فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثمّ انتهيت إليها فإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غوّاصون يخرجون منها اللّؤلؤ فقلت لبعض الغوّاصين منذ كم هذا البحر ههنا؟ فقالوا سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلّا أنّ هذا البحر منذ بعث الله الطّوفان، ثمّ غبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثمّ انتهيت إليها فإذا ذلك البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه أجمة ملتفّة بالقصب والبرديّ والسّباع، وإذا صيّادون يصيدون السّمك في زوارق صغار، فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا؟ فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا وأجدادنا أنّه كان ههنا بحر قطّ؛ فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثمّ أتيت إلى ذلك الموضع فإذا هو مدينة على حالته الأولى والحصون والقصور والأسواق قائمة؛ فقلت لبعضهم أين الأجمة التّي كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا وأجدادنا إلّا أنّ هذه المدينة على حالها منذ

بعث الله الطّوفان، فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثمّ انتهيت إليها فإذا عاليها سافلها وهي تدخن بدخان شديد فلم أر أحداً أسأله عنها؛ ثمّ رأيت راعياً فسألته أين المدينة التي كانت ههنا؟ ومتى حدث هذا الدّخان؟ فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا وأجدادنا إلّا أنّ هذا الموضع كان هكذا منذ كان، فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي في الدنيا فسبحان مبيد العباد.

ولمّا ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسّالاً يلوي بيده ثوباً، فقال وددت أنّي كنت غسّالاً لا أعيش إلّا بما اكتسبته يوماً فيوماً، فبلغ ذلك أباحازم فقال الحمدلله الذي جعلهم عند الموت يتمنّون ما نحن فيه ولا نتمنّى عنده ما هم فيه؛ وكانت العرب لا تعرف الألوان إنّما طعامهم اللّحم يطبخ بماء وملح حتى كان زمن معاوية، فاتّخذ الألوان وأسرف فيها وما شبع مع كثرة ألوانه حتى مات.

وقيل إنّ السّبب الموجب لنزول معاوية بن يزيد بن معاوية عن الخلافة أنّه سمع جاريتين يتلاحيان وكانت إحداهما بارعة الجمال، فقالت لها الأخرى لقد أكسبك جمالك كبر الملوك، فقالت الحسناء وأي ملك يضاهي ملك الحسن وهو قاض على الملوك وهو الملك حقّاً؛ فقالت لها وأيّ خير في الملك وصاحبه إمّا قائم بحقوقه وعامل بالشّكر فيه فذاك مسلوب اللّذة والقرار منغّص العيش، وإمّا منقاد لشهواته ومؤثر للذّاته ومضيّع للحقوق ومنصرف عن الشّكر فمصيره إلى النار؛ فوقعت الكلمة من نفس معاوية موقعاً مؤثّراً وحملته على الانخلاع عن الخلافة فقال له أهله أعهدت إلى أحد يقوم بها مكانك؟ فقال كيف أتجرّع مرارة فقدها وأتقلّد تبعة عهدها، ولو كنت مؤثراً بها أحداً لآثرت بها نفسي، ثمّ انصرف وأغلق بابه ولم يأذن لأحد؛ فلبث بعد ذلك خمساً وعشرين ليلة ثمّ قبض؛ وقالت له أمّه عندما سمعت منه ذلك ليتك كنت حيضة، فقال ليتني كنت حيضة كما تقولين ولا أعلم أنّ للناس جنّة ولا ناراً ولا للنار أُناساً، ونحو ذلك من المواعظ والنصائح.

وينبغي للوالي أن لا يتأنق في الملبس في غير أيّام أعياده بل يلبس الأوسط من الثّياب ليرغب الناس في لبس الأدنى، فتتوفر الأموال بين الرّعية ويكثر أسباب الخير عندهم، وليعلم الوالي أنّ كلّ رداء يرتديه فهو جميل وأنّ الثّياب يعلو قدرها بلبسه لا أنّها هي التي ترفع قدره، وكان ملك السّلاطين مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قد رقع جبّة عند الخياط ووضع فيها سبعين رقعة حتى قال والله إنّي لأستحي من راقعها أن يرقعها لي مرّة أُخرى، والولاة لا يقدرون على هذا لكن لا يفوتهم الأقرب إليه، وأمّا المطعم فإن تأنّقوا فيه فينبغي لهم أن يحضروا طعاماً مخصوصاً بهم ويكون على

المائدة طعام خال من التّكلّف لتأكله الولاة، حتى إنّهم لو لم يأكلوا منه فلا أقلّ من أن يكون حاضراً معهم على الموائد وهو طعام الفقراء لتقتدي الناس به وليسهل على الفقير فقره، وليكون مذكّراً للوالي وأهل خاصّته أحوال الفقراء والمساكين ومشبّههم في بعض الأحوال فإنّ من تشبّه بقوم كان منهم وإن لم يعمل عملهم كما جاء في الرواية.

وروي أنّ فرعون كان له مضحكة يضحك من كلامه، فأتى يوماً إلى باب فرعون ليدخل عليه فرأى رجلاً واقفاً على باب فرعون رثّ الهيئة عليه عباءة سملة وبيده عصا فقال له من أنت؟ قال أنا موسى نبيّ الله أرسلني إلى فرعون أدعوه إلى التّوحيد، فرجع ذلك الرجل ولبس ثياباً مثل ثياب موسى عليه السلام ودخل على فرعون يحكي له قول موسى على طريق الاستهزاء، فاغتاظ موسى عليه السلام من استهزائه به ثمّ لما انتهى حال فرعون إلى أن أغرقه الله تعالى إيّاه وجنوده في شطّ النّيل فنجّى الله سبحانه ذلك الرجل الذي استهزأ بموسى، فقال يا رب كيف لا تغرق هذا وهو قد آذاني؟ فأوحى الله تعالى إليه يا موسى إني لا أعذّب من تشبّه بأحبابي وإن كان على غير طريقهم[1].

وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا صار والياً منع نفسه من أن يبات شبعاناً، فقيل

---

(١) هذا الخبر لا يخلو من تأمل فإنّ الله تعالى ذم المستهزئين عليهم السلام ووبخهم في كتابه الكريم وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] والاستهزاء على الأنبياء عليهم السلام كفر وزندقة وتلبس الرجل ثياباً مثل ثياب موسى عليه السلام على طريق الاستهزاء كيف يكون موجباً لعدم عذابه مع كون من تشبه باحباب الله تعالى على غير طريقة الأنبياء عليهم السلام فهل يمكن أن يقال: إنّ عبادة المخنث الذي كان رجلاً مضحكاً غريب الشكل وكان المتوكل العباسي يرقصه في مجلس لهوه مشبهاً له بأمير المؤمنين عليه السلام لا يعذبه الله تعالى لكونه تشبه بأفضل أحباب الله وأوليائه؟ـ حاشا وكلا. نعم والذي يهون الخطب أنّ ظاهر الخبر هو عدم عذاب الله تعالى من تشبه باحبابه في الدنيا وأما في الآخرة فله عذاب أليم.
ثم لا يخفى على القارىء العزيز أنّ هذا الخبر صريح بأن الله تعالى غرق فرعون وجنوده في شط النيل وهذا دليل على أنّ هذا الخبر لا يخلو من دس واختلاق فإنّ الصحيح المتحقق أنّ الله تعالى غرق فرعون وجنوده في خليج السويس من البحر الأحمر وعرضه بحسب اختلاف مواقعه من نحو عشرة أميال إلى نحو عشرين ميلاً انظر تفسير آلاء الرحمن للعلاّمة البلاغي ص ٩٢ ط صيدا.
وقد غلط الشاعر الفارسي حيث ذكر النيل في قوله:

گلستان كند آتشى بر خليل گروهى بآتش برد زاب نيل

له في ذلك؟ فقال ينبغي للوالي أن يكون في مطعمه مثل أفقر رعيّته، وأنا أخاف أن يكون رجل في اليمامة قد بات جائعاً فكيف أشبع أنا من الطّعام.

وينبغي للوالي أن يرفع حجابه وأهل أبوابه في وقت الغداء والعشاء؛ ويأمر بفتح الأبواب لتدخل الأيتام وأهل السؤال فينالوا من طعامه شيئاً، ولا يكون أهل السّؤال يصيحون من وراء الجدران والأبواب حتى لو أمر لهم بطعام بيد أحد غلمانه فربّما أخذه الغلام لنفسه وربّما أعطاه الفقير وأعقبه بالإهانة والضّرب حتى لا يجيء مرّة أُخرى، إمّا لأنّ ما يأخذه الفقير نقص من غداء الغلمان وعشائهم وإمّا لأنّ الغلام إذا مشى إلى الفقير الذي يكون واقفاً خارج الأبواب فات على ذلك الغلام شيء من مقرّره من المائدة وإما لغير ذلك، بل ينبغي للوالي وأهل الثّروات أن يعاينوا ويطلعوا على إعطاء السائلين من موائدهم وإن هم أعطوا بأيديهم فيالها من مكرمة لا يعدل ثوابها شيء.

وكان الصادق عليه السلام إذا أعطى السّائل درهماً أو نحوه أخذه من يد السّائل فقبّله ووضعه على عينه، ثمّ دفعه إليه مرّة أُخرى، فقيل له في ذلك؟ فقال لأنّ درهم السؤال أول ما يقع في يدي الله تعالى فأُحبّ أن أتشرف به وأُعظمه لمكان يدي الرحمة. وكان الكاظم عليه السلام يتصدّق بالسكّر والحلوى فقيل له في سببه؟ فقال إنّ الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢] وأنا أحبّ السّكر والحلوى فأحبّ أنّ أتصدّق بهما، وفي الرواية أنّ الله تعالى إنّما أمهل فرعون ومدّ له في الملك مع ما كان عليه من الكفر أنّه كان إذا حضرت موائده أمر بفتح الأبواب ورفع الحجاب، وكان كل من يمرّ على بابه من الفقراء والأيتام يأكل من طعامه، وفي رواية أُخرى أنّه كتب على باب قصره بسم الله الرحمن الرحيم، فلمّا تعجّل موسى عليه السلام نزول العذاب عليه أوحى الله سبحانه إليه يا موسى أنت تنظر إلى كفره وأنا أنظر إلى ما كتبه على باب قصره.

وروي أنّ رجلاً من أهل مصر رفع إلى فرعون عنقود عنب، وقال له أنت ربّنا فأطلب منك أنّ تحوّل هذا العنب لآلىء كباراً، فأخذ العنقود من يده ودخل بيتاً من بيوته وغلق عليه الأبواب وجلس يتفكّر كيف يصنع في ذلك الأمر، فأتى إليه الشّيطان ودقّ عليه الباب، فقال فرعون من بالباب؟ فقال إبليس ضرطتي بلحية ربّ لا يدري من بالباب، فعرفه فرعون[1] فقال ادخل يا ملعون، فقال إبليس ملعون يدخل على

(١) كيف عرف فرعون إبليس وتكلمه ولذا اظن أنّ هذه القضية أسطورة ذكروها من باب المطايبة والأمثال.

ملعون فدخل عليه فرآه متحيّراً متفكّراً فأخذ العنقود وقرأ عليه اسماً فصيّره عنقوداً من اللّؤلؤ فقال له يا فرعون أنصف من نفسك أنا في هذا العلم والكمال وما قبلوني أن أكون عبداً وأنت في هذا الجهل والحماقة تريد أن تكون ربّاً، فقال له فرعون لم لا سجدت لآدم حين أُمرت بالسّجود له؟ فقال له إبليس لأنّي علمت أنّ مثلك في صلبه.

وما أحسن مراسلة وقعت بين كسرى وقيصر وهو أنّ قيصر ملك الرّوم بعث إلى كسرى ملك الفرس ممّاذا أنتم أطول منّا أعماراً أو أدوم ملكاً؟ فأجابه كسرى أمّا بعد أيّها السّيد الكريم والملك الجسيم؛ أمّا سبب الملك وإغرازه في مغرزه ورسوخه في مركزه فلأمور أنتم عنها غافلون ولستم لأمثالها فاعلون، منها أن ليس لنا نوّاب يرشى ويمنع ولا بواب يدفع ويردع لم تزل أبوابنا مشرعة ونوّابنا لقضي الحوائج مسرعة، لا أقصينا صغيراً ولا أدنينا أميراً ولا احتقرنا بذوي العقول (الأصول)، ولا قدّمنا الشّبّان على الكهول ولا كذبنا في وعد ولا صدقنا في إيعاد ولا تكلّمنا بهزل ولا سمنا وزيراً إلى عزل؛ موائدنا مبسوطة وعقولنا مضبوطة لا نقطع في أمل ولا لجليسنا نمل، خيرنا مضمون وشرّنا مأمون وعطاؤنا غير ممنون؛ لا نحوج أحداً إلى باب بل نقضي بمجرّد الكتاب، نرقّ للباكي ونستقصي قول الحاكي ما جعلنا همّنا بطوننا ولا فروجنا، أمّا البطون فلقمة وأمّا الفروج فأمة، ولا نؤاخذ على قدر غيظنا بل نؤاخذ على قدر الجناية، ولا نكلّف الضّعيف المعدم ما يتحمّله الشّريف المنعم ولا نأخذ البريء بالسّقيم ولا الكريم باللّئيم النّمام عندنا مفقود والعدل في جانبنا موجود الظلم لا نتعاطاه والجور أنفسنا تأباه، لا نطمع في الباطل ولا نأخذ العشر قبل الحاصل؛ لا ننكث العهود ولا نحنث في الموعود الفقير عندنا مدعوّ والمفتخر لدنيا مقصوّ، جارنا لا يضام وعزيزنا لا يرام رعيّتنا مرعيّة وحوائجهم لدينا مقضيّة صغيرهم عندنا خطير وزريّهم لدينا كبير، الفقير بيننا لا يوجد والغني بما لديه يسعد العالم عندنا مكرم معظم والتّقي عندنا (لدينا خ) موقّر مقدّم، ولا يسدّ بمملكتنا باب ولا يوجد عندنا سارق ولا مرتاب سماؤنا ممطرة وأشجارنا لم تزل مثمرة، لا نعامل بالشّهوات ولا نجازي بالهفوات، الطّير إلينا شاكي والبعير أتانا متظلّم وباكي عدلنا قد عمّ القاصي والدّاني وجودنا قد غمر الطّائع والعاصي، عقولنا باهرة وكنوزنا ظاهرة وفروجنا عفائف وذيولنا نظائف؛ أفهامنا سليمة حلومنا جسيمة كفوفنا سوامح بحورنا طوافح نفوسنا أبيّة وطوالعنا ألمعيّة،إن سئلنا أعطينا وان قدرنا عفينا وإن وعدنا أوفينا وإن غضبنا أغضينا. فلمّا وصل الكتاب إلى قيصر قال يحقّ لمن تكون هذه سياسته أن تدوم رياسته.

وينبغي للوالي أن لا يشعر قلبه التّكبّر وإن أظهره في حضور الرّعيّة لمصلحة الملك وإذا جلس أو ركب ورأى العساكر حافّة به فليذكر ذلك الوقت عظمة الله سبحانه وليذكر حقارته وهوانه، وأنّ الملك زائل عنه إلى غيره وأنّه يصل إلى طبقات الأرض ويصاحب الدّيدان، فإذا خطر بخاطره مثل هذا عرف قدر نفسه.

وفي كتب السّير أنّ عمر بن عبدالعزيز كان له ابن وقد صاغ خاتماً من ألف درهم، فحكوا له ما صنع ابنه؛ فكتب إليه يا بنيّ بع الخاتم بألف درهم وأشبع بها ألف مسكين وصغ خاتماً من أربعة دراهم واكتب على فصّه رحم الله امرأً عرف قدره. فصنع ما أمره؛ وفي الحديث القدسي: العزّ إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعنيهما أُدخله ناري ولا أُبالي.

وقال عليه السلام يابن آدم أنّى لك والفخر فإنّ أوّلك جيفة وآخرك جيفة وفي الدنيا حامل الجيف؛ وقد سبق تحقيق هذا في باب التّكبّر.

وينبغي للوالي أن يجعل لأمواله ثلاثة من الوكلاء، واحد منها يكون وكيله في قبض الأموال الحلال مثل مداخيل أملاكه وتجاراته الحلال ونحو ذلك ليصرفها على نفسه وعلى تصدّقاته وعطاياه للعلماء والفقراء والأخيار، وثانيها أن يكون وكيله في قبض الخراج والأموال التي تجبى إليه كلّ سنة ويكون قانوناً سلطانيّاً على الرعيّة فإنّ مثل هذه تقرب من الحلال إن لم تكن حلالاً، وذلك أنّ الوالي إذا كان عالماً عاملاً من عمّال السّلطان وأولاه تلك البلاد فكأنّه أعطاه مال خراجها ومقرّراتها ويكون الوزر على السّلطان؛ فبهذا يكون داخلاً تحت الشّبهات ولا يكون حراماً محضاً، وثالثها أن يكون وكيله في قبض المحرّمات المحضة فإنّ ولاة هذه الأعصار لا يتركون مثله ويكون مصرف هذا أهله فإنّهم أحقّ به من الغير وإلاّ فلا يكون مصرف مثل هذا إلّا في الأمور الحقيرة البعيدة من الشرع.

ويجب على الوالي الوجوب العيني وهو أهمّ ما يجب عليه العدل وحياطة الرعيّة قال انوشيروان حصّن البلاد بالعدل فهو سور لا يغرقه ماء ولا يحرقه نار ولا يهدمه منجنيق وكان كسرى إذا جلس في مجلس حكمه أقام رجلين عن يمينه وشماله وكان يقول لهما إذا زغت(١) فحرّكوني ونبّهوني، فقالا له يوماً والرعيّة تسمع أيّها الملك انتبه فإنّك مخلوق لا خالق وعبد لا مولى، وليس بينك وبين الله قرابة أنصف الناس وانظر لنفسك.

---

(١) أي ملت عن الحق.

وقال بعض الحكماء إذا وليت ولاية فايّاك وأن تستعين في ولايتك بأقاربك فتبتلى بما ابتلي به عثمان بن عفان واقض حقوقهم بالمال لا بالولاية، وحمل بعض عمّال انوشيروان إليه في بعض السّنين ثمانين ألف درهم زيادة على الموظّف المقرّر، فسأله عن ذلك؟ فقال وجدت في أيدي قوم فضلاً فأخذته منهم؛ فقال ردّوا هذا المال على من أُخذ منه فإنّ مثلنا في ذلك كمثل من طيّن سطحه بتراب أساس بيته، فيوشك أن يكون ضعف الأساس وثقل السّطح مسرعين في خراب بيته.

وفي الحديث من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثمّ لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوّأ مقعده من النّار؛ وروي أيضاً أنّه إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقذف على جسر جهنّم فيأمر الله سبحانه الجسر فينتفض به انتفاضة فيزول كلّ عظم منه عن مكانه، ثمّ يأمر الله وتعالى العظام فترجع إلى أماكنها ثمّ يسائله فإنّ كان لله مطيعاً أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمَته وإن كان لله عاصياً خرق به الجسر فهوى في جهنّم مقدار سبعين خريفاً.

وفي الرواية أنّه كان في زمن بني إسرائيل سلطان ظالم فأوحى الله سبحانه إلى نبيّ من أنبيائه أن قل لهذا الظالم ما جعلتك سلطاناً إلّا لتكف أصوات المظلومين عن بابي؛ فوعزّتي وجلالي لأُطعمنّ لحمك الكلاب، فسلّط عليه سلطاناً آخر حتى قتله فأطعم لحمه الكلاب.

وروي أنّ كسرى صنع طعاماً فدعا الناس إليه، فلمّا فرغوا ورفعت الآلات وقعت عينه على رجل وقد أخذ جاماً له قيمة كبيرة، فسكت عنه وجعل الخدم يرفعون الآلات فلم يجدوا الجام؛ فسمعهم كسرى يتكلّمون فقال ما لكم؟ قالوا فقدنا جاماً من الجامات فقال لا عليكم أخذه من لا يردّه وأبصره من لا ينمّ عليه فلمّا كان بعد أيّام دخل الرجل على كسرى وعليه حلية جميلة وحال مستجدة، قال له كسرى هذا من ذاك؟ قال نعم، ولم يقل له شيئاً.

وروى أهل السّير والتواريخ أنّ كسرى انوشيروان قد ظلم في أوّل حكمه كثيراً حتى بلغ ظلمه إلى رجل راهب كان يعبد الله في صومعته، فكتب العابد إليه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم ملكتم فأسأتم، ووسّع عليكم فضيّقتم، نسيتم سهام الأسحار وهي صائبة خصوصاً إذا خرجت من قلوب قد أقرحتموها وأكباد قد أوجعتموها وأجساد قد أعريتموها وأجفان عين قد أجريتموها، فاعملوا ما شئتم فإنّا صابرون وجوروا فإنّا بعزّة الله واثقون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

وينبغي أن يعلم أنّ نيّات الملوك والولاة لها مدخل في زيادة معائش الرعيّة ونقصانها، وروى الكليني عن أبيه قال خرج كسرى في بعض أيّامه للصيد فعنّ له صيد فتبعه فانقطع عن أصحابه، فرفع له كوخ فقصده فإذا عجوز بباب الكوخ جالسة، فقالت له انزل فنزل ودخل الكوخ فإذا ابنة العجوز قد جاءت ومعها بقرة، فأدخلتها الكوخ وكسرى ينظر وقال في نفسه: ينبغي أن نجعل على كلّ بقرة إتاوة فهذا حلاب كثير، فلمّا مضى من اللّيل شطره قالت العجوز يا فلانة قومي إلى البقرة فاحلبيها فقامت إلى البقرة فوجدتها حائلاً فنادت أمّها يا أمّاه قد أضمر لنا الملك شرّاً قالت وما ذلك؟ قالت لأنّ هذه البقرة حائل وما تدرّ بقطرة؛ فقالت لها أمّها امكثي لأنّ عليك قليلاً؛ فقال كسرى في نفسه من أين لها أني أضمرت في نفسي الشّر أما إنّي لا أفعل ذلك؛ قال فمكثت قليلاً ثمّ نادتها يا بنيّة قومي احلبي البقرة، فقامت إليها فوجدتها حاملاً فنادت يا أمّاه قد ذهب والله ما كان في نفس الملك من الشّر فهذه البقرة حاملاً، فحلبتها وأقبل الصّبح وتتبّع رجال كسرى أثره حتى أتوه، فركب وأمر بحمل العجوز وابنتها إليه فحملتا فأحسن إليهما، وقال كيف علمت أنّ الملك قد أضمر شرّاً وأن الشّر الذي قد أضمره قد عدل عنه؟ قالت العجوز أنا بهذا المكان من كذا وكذا ما عمل فينا بعدل إلّا أخصبت بلادنا واتّسع عيشنا، وما عمل فينا بجور إلّا ضاق عيشنا وانقطعت موادّ النّفع عنّا.

وفي كتاب عجائب المخلوقات أنّ الريحان الفارسي وهو الأخضر لا الذي يميل إلى الحمرة لم يكن قبل كسرى أنوشيروان وإنّما وجد في زمانه؛ وسببه أنّه كان ذات يوم جالساً للمظالم إذ أقبلت حيّة عظيمة تنساب تحت سريره فهمّوا بقتلها، فقال كسرى كفّوا عنها فإنّي أظنّها مظلومة، فمرّت تنساب حتى استدارت على فوهة بئر؛ فنزلت فيها ثم أقبلت تتطلع فنظروا فإذا في قعر البئر حيّة مقتولة وعلى ظهرها عقرب أسود، فأدلى بعضهم رمحه إلى العقرب فنخسها به وأتى الملك فخبّره بحال الحيّة، فلمّا كان في العام القابل أتت الحيّة في اليوم الذي كان كسرى جالساً فيه للمظالم وجعلت تنساب حتى وقفت ولفظت من فيها بذراً أسود، فأمر الملك أن يزرع فنبت منه الرّيحان، وكان الملك كثير الزكام وأوجاع الدّماغ فاستعمل منه ونفعه جدّاً، فانظر إلى عدل هذا الملك أين بلغ؛ على أنّ النّبي ﷺ قال ولدت في زمن الملك العادل يعني به كسرى.

ورووا أنّه لمّا أراد بناء قصره الذي في المدائن أمر بشراء ما حوله ورغب الناس في الثمن الوافر إلّا عجوز كان لها بيت صغير، قالت ما أبيع جوار السلطان بالدنيا

كلّها، فاستحسن أنوشيروان منها هذا القول وأمر بترك ذلك البيت على حاله وإحكام عمارته وبنى الإيوان محيطاً به وكان في جانب الإيوان قبّة محكمة العمارة يعرفها أهل تلك النّاحية بقبّة العجوز، وكان على الإيوان نقوش وصور بالتّزاويق، وقد شكوا غلمان الدار إلى انوشيروان وقالوا إنّ العجوز تدخن في بيتها ودخانها يفسد نقوش الإيوان، فقال كلّما فسدت أصلحوها ولا تمنعوها من التدخين، وكان للعجوز بقرة تأتيها آخر النّهار لتحلبها؛ فإذا وصلت إلى الإيوان طووا فرشه لتمشي البقرة إلى باب قبة العجوز فإذا فرغت من حلبها رجعت البقرة وسوّوا الفرش، وكان هذا مذهبه في العدل.

وروي أنّ المأمون أرق ليلة فاستدعى سميرة[1] تحدّثه بحديث، فقالت يا أمير المؤمنين كان بالبصرة بومة وبالموصلِ بومة فخطبت بومة البصرة إلى بومة الموصل بنتها لابنها فقالت بومة البصرة لا أُنكحك ابنتي إلّا أن تجعل في صداقها مائة ضيعة خراب فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها الآن ولكن إن دام والينا سلّمه الله تعالى علينا سنة واحدة فعلت لك ذلك فاستيقظ المأمون وتفقّد أمر الولاة.

وروى شيخنا الكليني رحمه الله بإسناده إلى الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال إنّ الله عزّ وجلّ جعل لمن جعل له سلطاناً أجلاً ومدّة من ليالي وأيّام وسنين وشهور فإن عدلوا في الناس أمر الله عزّ وجلّ صاحب الفلك فأبطأ بإدارته فطالت أيّامهم ولياليهم وسنونهم وشهورهم وإن جاروا في الناس ولم يعدلوا أمر الله تبارك وتعالى صاحب الفلك فأسرع بإدارته فقصرت لياليهم وأيّامهم وسنونهم وشهورهم وقد وفى الله عزّ وجلّ بعدد اللّيالي والشّهور.

قال شيخنا المعاصر أدام الله أيّامه لعلّ المراد بسرعة إدارة الفلك وبطئها تعجيل زوال أسباب الملك وعكسه، ويجوز أن يكون لكلّ دولة فلك غير الأفلاك المعروفة الحركات فيكون سرعة الإدارة وبطؤها عارضين لذلك الفلك انتهى، وكأنّه أيّده الله تعالى أراد دفع الاعتراض على ظاهر الحديث من وجهين:

الأوّل: ما ذهب إليه الحكماء والمنجّمون من أنّ الفلك لا يمكن أن يزول عن الحركة التي هو عليها الآن وبرهنوا بزعمهم على هذا.

الثاني: أنّه ربّما كان سلطان جائر في بلاد من البلدان وسلطان عادل في بلاد

---

(١) الذي يحدث بالليل.

أُخرى فكيف يكون جور هذا وظلمه سبباً في زوال ملك الآخر ونقص عمره مع أنّ رعيّة الجائر أيضاً ممّا ليس لهم ذنب في الجور فكيف تنقضي أيّام أعمارهم على طريق السرعة.

والجواب عن الأول أنّه قد ورد في الأخبار المستفيضة وقد تقدّم بعضها أنّ أيّام دولة المهدي عليه السلام إنّما تكون كلّ سنة منها تعادل سبع سنين من هذه السّنين فقيل له يابن رسول الله إنّ الفلك لا يزول عن حركته هذه؛ ولو زال لفسد؟ فقال عليه السلام هذا قول الزنادقة والمنجّمين؛ والمراد بالزنادقة الحكماء.

وأمّا الإشكال الثاني فالجواب عنه أنّ غير الجائر من الرعيّة والملوك إن قدروا على إزالته عن الملك وسكتوا عنه مداهنة فالذي يصيبهم من قصر الأعمار والملك إنّما هو بسبب المداهنة وقد عذّب الله تعالى في الأمم السّابقة من أذنب ومن داهن وجعلهم في العذاب سواء، ومن لم يقدر على إزالته عن الملك فكان ينبغي له أن يفرّ عن بلاده ويطلب بلاد الله العريضة لأنّ السّكنى مع الظالمين ذنب حتى إنّه ورد في الحديث لو أنّ الجعل يبني بيتاً في محلّة الظّالمين لعذّبه الله تعالى بعذابهم، وأمّا من لم يقدر على الفرار وكان الظّلم قد عمّ البلاد والعباد فيجوز أن يكون سبحانه وتعالى يضيف إلى أعمار هؤلاء الذين لم يذنبوا بوجه من الوجوه بقيّة أيّامهم التّي أسرع إليها الظّلم بحركته فيعوّضهم بدلها أيّاماً وليالي في دولة من يأتي من الملوك. ويظهر من هذا الخبر وغيره أنّ أيام دولة الولاة مكتوب عن الله تعالى لا يزيد ولا ينقص إلّا بالجور والعدل ولو أراد الناس والرعيّة والعساكر زواله ما قدروا عليه بوجه من الوجوه كما هو المشاهد حتى تنقضي الأيّام ويأذن الله بزوال ذلك الملك فعند ذلك يزول بأنقص الأسباب وأدناها.

فلا ينبغي أن يخطر بخاطر أحد من الولاة أنّني إذا فعلت الفعل الفلاني كان سبباً لزوال ملكي إلّا أن يكون ظالماً في ذلك الفعل فحينئذ يجب على الوالي دفع الظالمين الذين يظلمون الرعيّة ويخيفون الطّرقات ويمنعون المتردّدين ويغيرون على القوافل ونحو ذلك فإن لم يدفعهم عن ظلمهم كان له الحظّ الأوفر من العذاب والعقاب ويكون مداهنته معهم هي السّبب الأقوى في زوال ملكه مع أنّه قد ظنّ أنّه سبب لبقاء ملكه.

وفي بعض الأخبار أنّ عدل الحاكم يوماً يعادل عبادة العابد خمسين سنة وليس

العدل هو أنّ القضيّة إذا بلغت إليه حكم بها على طريق الحقّ وإنّما العدل وروده هو على القضايا لا ورود القضايا عليه بأن يكون له اطّلاع على بلاده ومحالّه ويكون له العيون والجواسيس في أقطار ممالكه حتى يتعرّفوا القضايا ويوردوها عليه؛ وهكذا كانت أحوال السّلف من الملوك، ولا يجوز للوالي أن يضرب الأستار ويغلق الأبواب في وجوه المسلمين، ولينظر إلى قول الصادق عليه السلام من ضرب بينه وبين أخيه حجاباً ضرب الله بينه وبين الجنّة سبعين حجاباً مسير كلّ حجاب منها سبعون عاماً أو أكثر، وليجعل له وقتاً خاصاً لتفرّده بنفسه ومع عياله وأهل بيته كما كان يصنع النّبي صلى الله عليه وآله.

وقد كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لعامله مالك الأشتر قانوناً للإمارة والولاية نقلها علماؤنا رضوان الله عليهم في الكتب المعتبرة وهذا لفظها:

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ ٱللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلْأَشْتَرَ، فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَٱسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى ٱللَّهِ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ ٱلَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ، وَيَدِهِ، وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ - جَلَّ ٱسْمُهُ - قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ ٱلْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ ٱللَّهُ.

ثُمَّ ٱعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ ٱلنَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ ٱلْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى ٱلصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي ٱللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ ٱلذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ ٱلْعَمَلِ ٱلصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ ٱلشُّحَّ بِالنَّفْسِ ٱلْإِنْصَافُ مِنْهَا فِي مَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ ٱلرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَٱلْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَٱللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي ٱلدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ

فِي ٱلْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ ٱلزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ ٱلْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي ٱلْعَمْدِ وَٱلْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ ٱلَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي ٱلأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَٱللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ، وَقَدِ ٱسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وَٱبْتَلاَكَ بِهِمْ، وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ ٱللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذٰلِكَ إِدْغَالٌ فِي ٱلْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ ٱلْغِيَرِ، وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ، مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ، أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ ٱللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ.

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ ٱللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ وَٱلتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ ٱللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

أَنْصِفِ ٱللَّهَ، وَأَنْصِفِ ٱلنَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ ٱللَّهِ كَانَ ٱللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ ٱللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ ٱللَّهِ، وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ، مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ ٱلْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ ٱلأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطَهَا فِي ٱلْحَقِّ، وَأَعَمَّهَا فِي ٱلْعَدْلِ، وَأَجْمَعَهَا لِرِضَى ٱلرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ ٱلْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى ٱلْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ ٱلْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى ٱلْعَامَّةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى ٱلْوَالِي مَؤُونَةً فِي ٱلرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي ٱلْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ ٱلإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ ٱلْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ ٱلدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عِمَادُ ٱلدِّينِ، وَجِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱلْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ، ٱلعَامَّةُ مِنَ ٱلأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صَغْوُكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَؤُهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبَهُمْ لِمَعَائِبِ ٱلنَّاسِ، فَإِنَّ فِي ٱلنَّاسِ عُيُوباً ٱلْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَٱللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَٱسْتُرِ ٱلْعَوْرَةَ مَا ٱسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ ٱللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ، أَطْلِقْ عَنِ ٱلنَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَٱقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ ٱلسَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ ٱلْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ ٱلْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ ٱلْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ ٱلشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ ٱلْبُخْلَ، وَٱلْجُبْنَ، وَٱلْحِرْصَ، غَرَائِزُ شَتَّى، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي ٱلْآثَامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ ٱلْأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ ٱلظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ ٱلْخَلَفِ، مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ، أُولٰئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولٰئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ ٱلْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِي مَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ ٱللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَٱلْصَقْ بِأَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَٱلصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ، وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ ٱلزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ ٱلْعِزَّةِ.

وَلاَ يَكُونَنَّ ٱلْمُحْسِنُ وَٱلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ ٱلْإِحْسَانِ فِي ٱلْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ ٱلْإِسَاءَةِ عَلَى ٱلْإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلّاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ ٱلْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ قِبَلَهُمْ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذٰلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ ٱلظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ ٱلظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ، وَٱجْتَمَعَتْ بِهَا ٱلْأُلْفَةُ،

وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّعِيَّةُ، وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ ٱلسُّنَنِ فَيَكُونَ ٱلأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَٱلْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ ٱلْعُلَمَاءِ، وَمُنَافَثَةَ ٱلْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وَإِقَامَةِ مَا ٱسْتَقَامَ بِهِ ٱلنَّاسُ قَبْلَكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْهَا جُنُودُ ٱللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ ٱلْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ ٱلْإِنْصَافِ وَٱلرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ ٱلْجِزْيَةِ وَٱلْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ ٱلذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ ٱلنَّاسِ، وَمِنْهَا ٱلتُّجَّارُ وَأَهْلُ ٱلصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا ٱلطَّبَقَةُ ٱلسُّفْلَى مِنْ ذَوِي ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ، وَكُلاًّ قَدْ سَمَّى ٱللَّهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَتَهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ ٱللَّهِ حُصُونُ ٱلرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ ٱلْوُلاَةِ، وَعِزُّ ٱلدِّينِ، وَسُبُلُ ٱلْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ ٱلرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ ٱللَّهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْخَرَاجِ ٱلَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي مَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بِالصِّنْفِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْقُضَاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَٱلْكُتَّابِ لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ ٱلْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ ٱلْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ ٱلْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا، وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي ٱلصِّنَاعَاتِ فِي مَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ ٱلطَّبَقَةُ ٱلسُّفْلَى مِنْ أَهْلِ ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ ٱلَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي ٱللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى ٱلْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ ٱلْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ ٱللَّهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلاَّ بِالاهْتِمَامِ وَٱلِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ ٱلْحَقِّ، وَٱلصَّبْرِ عَلَيْهِ فِي مَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ، فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ ٱلْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى ٱلْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى ٱلْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ ٱلْعُنْفُ وَلَا يَقْعُدُ بِهِ

ٱلضَّعْفُ. ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي ٱلْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ ٱلْبُيُوتَاتِ ٱلصَّالِحَةِ، وَٱلسَّوَابِقِ ٱلْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ ٱلنَّجْدَةِ، وَٱلشَّجَاعَةِ، وَٱلسَّخَاءِ، وَٱلسَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ ٱلْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ ٱلْعُرْفِ، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ ٱلْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ، وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ ٱلنَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ ٱلظَّنِّ بِكَ، وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ ٱتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ[1] مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ، وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ، مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ ٱلْوُلَاةِ ٱسْتِقَامَةُ ٱلْعَدْلِ فِي ٱلْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ ٱلرَّعِيَّةِ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاَّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِبْطَاءِ ٱنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو ٱلْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ ٱلشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ ٱلنَّاكِلَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ.

ثُمَّ ٱعْرِفْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلَا تُضِيفَنَّ بَلَاءَ ٱمْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ ٱمْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلَا ضَعَةُ ٱمْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً.

وَٱرْدُدْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ ٱلْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي

---

(١) آثر أي أفضل وأعلى منزلة فليكن أفضل رؤساء الجند من واسى الجند اي ساعدهم بمعونته لهم. وأفضل عليهم أي أفاض وجاد من جدته والجدة بكسر ففتح: الغنى والمراد ما بيده من أرزاق الجند وما سلم إليه من وظائف المجاهدين لا يقتر عليهم في الفرض ولا ينقصهم شيئاً مما فرض لهم بل يجعل العطاء شاملاً لمن تركوهم في الديار. من خلوف الأهلين: جمع خلف - بفتح فسكون - من يبقى في الحي من النساء والعجزة بعد سفر الرجال (عبده).

ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فَالرَّدُّ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَٱلرَّدُّ إِلَى ٱلرَّسُولِ ٱلْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ ٱلْجَامِعَةِ غَيْرِ ٱلْمُفَرِّقَةِ.

ثُمَّ ٱخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ ٱلْأُمُورُ، وَلَا تُمْحِكُهُ ٱلْخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَى فِي ٱلزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ ٱلْفَيْءِ إِلَى ٱلْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ، وَأَوْقَفَهُمْ فِي ٱلشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ ٱلْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ ٱلْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ ٱتِّضَاحِ ٱلْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولٰئِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَٱفْسَحْ لَهُ فِي ٱلْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ ٱلْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ، مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذٰلِكَ ٱغْتِيَالَ ٱلرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ، فَانْظُرْ فِي ذٰلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هٰذَا ٱلدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي ٱلْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ ٱلدُّنْيَا.

ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمُ ٱخْتِبَاراً، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ ٱلْجَوْرِ وَٱلْخِيَانَةِ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ ٱلتَّجْرِبَةِ وَٱلْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ ٱلْبُيُوتَاتِ ٱلصَّالِحَةِ، وَٱلْقَدَمِ فِي ٱلْإِسْلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي ٱلْمَطَامِعِ إِشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ نَظَراً، ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذٰلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى ٱسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ، ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَٱبْعَثِ ٱلْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلصِّدْقِ وَٱلْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي ٱلسِّرِّ لِأُمُورِهِمْ، حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَمَانَةِ، وَٱلرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَتَحَفَّظْ مِنَ ٱلْأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ، ٱجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، ٱكْتَفَيْتَ بِذٰلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ ٱلْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ ٱلْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ ٱلتُّهَمَةِ.

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ ٱلْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لِأَنَّ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى ٱلْخَرَاجِ

وَأَهْلِهِ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ ٱلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذٰلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ وَمَنْ طَلَبَ ٱلْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ ٱلْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ ٱلْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً، أَوْ عِلَّةً، أَوِ ٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ، أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ ٱغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ ٱلْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ ٱسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ ٱلْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، وَٱلثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ. فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ ٱلْأُمُورِ، مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ، ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ، فَإِنَّ ٱلْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ ٱلْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ ٱلْوُلَاةِ عَلَى ٱلْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ ٱنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَٱخْصُصْ رَسَائِلَكَ ٱلَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ، بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ ٱلْأَخْلَاقِ، مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ ٱلْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ، فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلأٍ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ ٱلْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى ٱلصَّوَابِ عَنْكَ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً ٱعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي ٱلْأُمُورِ، فَإِنَّ ٱلْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ، ثُمَّ لَا يَكُنِ ٱخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَٱسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ ٱلظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ ٱلرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ ٱلْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ، وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّصِيحَةِ وَٱلْأَمَانَةِ شَيْءٌ وَلٰكِنِ ٱخْتَبِرْهُمْ بِمَا وَلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي ٱلْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وَلِيتَ أَمْرَهُ، وَٱجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ، لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ.

ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي ٱلصِّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً ٱلْمُقِيمِ مِنْهُمْ،

وَٱلْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَٱلْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ ٱلْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ ٱلْمَرَافِقِ، وَجُلاَّبُهَا مِنَ ٱلْمَبَاعِدِ وَٱلْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ ٱلنَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلاَدِكَ، وَٱعْلَمْ مَعَ ذٰلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَٱحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي ٱلْبِيَاعَاتِ، وَذٰلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى ٱلْوُلاَةِ، فَامْنَعْ مِنَ ٱلاِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنَعَ مِنْهُ، وَلْيَكُنِ ٱلْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً، بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً، بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ، فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ. ثُمَّ ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنَ ٱلَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، وَٱلْمَسَاكِينِ، وَٱلْمُحْتَاجِينَ، وَأَهْلِ ٱلْبُؤْسَى وَٱلزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً، وَٱحْفَظْ لِلَّهِ مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي ٱلإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ ٱلَّذِي لِلأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، فَلاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ ٱلتَّافِهَ لإِحْكَامِكَ ٱلْكَثِيرَ ٱلْمُهِمَّ، فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ ٱلْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ ٱلرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لأُولٰئِكَ ثِقَتَكَ، مِنْ أَهْلِ ٱلْخَشْيَةِ وَٱلتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ ٱعْمَلْ فِيهِمْ بِالإِعْذَارِ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هٰؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ ٱلرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى ٱلإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى ٱللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ، وَتَعَهَّدْ أَهْلَ ٱلْيُتْمِ وَذَوِي ٱلرِّقَّةِ فِي ٱلسِّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْوُلاَةِ ثَقِيلٌ وَٱلْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ ٱللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا ٱلْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ ٱللَّهِ لَهُمْ.

وَٱجْعَلْ لِذَوِي ٱلْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ، مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ ٱلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ». ثُمَّ ٱحْتَمِلِ ٱلْخُرْقَ مِنْهُمْ وَٱلْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْكَ ٱلضِّيقَ وَٱلأَنَفَ، يَبْسُطِ ٱللَّهُ عَلَيْكَ

بِذٰلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَٱمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ، ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا، مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ، وَٱجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِي مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ ٱلْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ ٱلْأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا ٱلنِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا ٱلرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ ٱلَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ ٱللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى ٱللَّهِ مِنْ ذٰلِكَ، كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ، وَلَا مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ بِهِ ٱلْعِلَّةُ وَلَهُ ٱلْحَاجَةُ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى ٱلْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

وَأَمَّا بَعْدُ فَلاَ تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ ٱلْوُلاَةِ عَنِ ٱلرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ ٱلضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ، وَٱلِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا ٱحْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ ٱلْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ ٱلصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ ٱلْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ ٱلْقَبِيحُ، وَيُشَابُ ٱلْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا ٱلْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ ٱلنَّاسُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى ٱلْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ ٱلصِّدْقِ مِنَ ٱلْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي ٱلْحَقِّ، فَفِيمَ ٱحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلىً بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ ٱلنَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَٱحْسِمْ مَادَّةَ أُولٰئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ، وَلَا تَقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي ٱعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ ٱلنَّاسِ فِي

شِرْبٍ، أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذٰلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ ٱلْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ ٱلْقَرِيبِ وَٱلْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذٰلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَٱبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذٰلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَإِنْ ظَنَّتِ ٱلرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَٱعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى ٱلْحَقِّ.

وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلَّهِ فِيهِ رِضىً، فَإِنَّ فِي ٱلصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْناً لِبِلاَدِكَ، وَلٰكِنَّ ٱلْحَذَرَ كُلَّ ٱلْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ ٱلْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَٱتَّهِمْ فِي ذٰلِكَ حُسْنَ ٱلظَّنِّ، وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَٱرْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، وَٱجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ ٱللَّهِ شَيْءٌ، ٱلنَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ ٱجْتِمَاعاً، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ ٱلْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذٰلِكَ ٱلْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِمَا ٱسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ ٱلْغَدْرِ، فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى ٱللَّهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً، أَفْضَاهُ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلاَ إِدْغَالَ، وَلَا مُدَالَسَةَ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ، وَلَا تَعْقِدْ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ ٱلْعِلَلُ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ ٱلتَّأْكِيدِ وَٱلتَّوْثِقَةِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ ٱللَّهِ إِلَى طَلَبِ ٱنْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو ٱنْفِرَاجَهُ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ ٱللَّهِ فِيهِ طِلْبَةٌ، فَلاَ تَسْتَقِيلَ[1] فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ.

إِيَّاكَ وَٱلدِّمَاءَ، وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ،

(١) في نسخة ثانية: لَا تَسْتَقْبِلُ.

وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَٱنْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ ٱلدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ فِي مَا تَسَافَكُوا مِنَ ٱلدِّمَاءِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوْهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ ٱلْعَمْدِ لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ ٱلْبَدَنِ، وَإِنِ ٱبْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ، أَوْ سَيْفُكَ، أَوْ يَدُكَ، بِعُقُوبَةٍ فَإِنَّ فِي ٱلْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ ٱلْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

وَإِيَّاكَ وَٱلْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَٱلثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ ٱلْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ ٱلشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَٱلْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ ٱلتَّزَيُّدَ فِي مَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ ٱلْمَنَّ يُبْطِلُ ٱلْإِحْسَانَ، وَٱلتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ ٱلْحَقِّ، وَٱلْخُلْفَ يُوجِبُ ٱلْمَقْتَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱلنَّاسِ، قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وَإِيَّاكَ وَٱلْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ ٱلتَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ ٱللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ(١)، أَوِ ٱلْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا ٱسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَٱلِاسْتِئْثَارَ بِمَا ٱلنَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَٱلتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ ٱلْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ، أَمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَٱحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ بِكَفِّ ٱلْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ ٱلسَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ ٱلِاخْتِيَارَ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ ٱلْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

وَٱلْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ

---

(١) تنكرت: لم يعرف وجه الصواب فيها. واللجاجة: الإصرار على منازعة الأمر ليتم على عسر فيه. (عبده).

فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَهُ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي ٱتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هٰذَا وَٱسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ ٱلْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ ٱلْإِقَامَةِ عَلَى ٱلْعُذْرِ ٱلْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ ٱلثَّنَاءِ فِي ٱلْعِبَادِ، وَجَمِيلِ ٱلْأَثَرِ فِي ٱلْبِلاَدِ، وَتَمَامِ ٱلنِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ ٱلْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَٱلشَّهَادَةِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَٱلسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ٱلطَّيِّبِينَ ٱلطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً، وَٱلسَّلاَمُ.

هذا آخر رسالته عليه السلام وهي كافية لمن أراد العمل بها من الحكام والولاة، وفيها سلطان الدنيا وملك الآخرة؛ فمن قصد العمل بها أُوتي خير الدنيا والآخرة، وهذه الوصيّة تحتاج إلى شرح حسن منقح لا يخلو من بعض الطّول لأنّها كلام من قيل فيه إنّ كلامه فوق كلام المخلوق وتحت كلام الخالق، وحيث إنّ شرحها هنا يحتاج إلى بسط فيطول الكتاب فإن وفق الله سبحانه جعلناه كتاباً منفرداً وبالله الاستعانة في كلّ الأمور.

وقد بقي رسالة أُخرى رويناها بأسانيد[1] متعدّدة إلى عبدالله بن سليمان النّوفلي قال كنت عند جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فإذا بمولى لعبدالله النّجاشي قد ورد عليه فسلّم وأوصل إليه كتاباً ففضّه وقرأه فإذا أول سطر فيه بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء سيّدي وجعلني من كلّ سوء فداه ولا أراني فيك مكروهاً فإنّه وليّ ذلك

(١) هذه الرسالة رواها شيخنا الشهيد الثاني رحمه الله في كشف الريبة في أحكام الغيبة ونقلها شيخنا الأعظم الأنصاري رحمه الله في كتاب المكاسب وعبدالله النجاشي كان والياً في أهواز من قبل المنصور الدوانقي العباسي وهو جد أستاذ فن الرجال الشيخ الثقة المعتمد أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي صاحب كتاب الرجال المشهور المعتبر المتوفى بمطير آباد ج ١ - ٤٥٠هـ. وكان مولده في صفر - ٣٧٢ وسرد نسبه في كتاب رجاله إلى جده النجاشي والي الأهواز وله ترجمة مفصلة مشحونة بالفوائد في تنقيح المقال لشيخنا المامقاني رحمه الله انظر ج ١ باب أحمد ص ٧٠ رقم ٤٠١.

والقادر عليه. اعلم سيّدي ومولاي أنّي بليت بولاية الأهواز فإن رأى سيدي أن يحدّ لي حدّاً ويمثّل لي مثالاً لأستدلّ به على ما يقرّبني إلى الله عزّوجلّ وإلى رسوله، ويلخّص لي في كتابه ما يرى لي العمل به وفيما أبتذله وأين أضع زكاتي وفيمن أصرفها؟ وبمن آنس وإلى من أستريح وإلى من أثق وآمن وألجأ إليه في سرّي؟ فعسى أن يخلّصني الله بهدايتك ودلالتك (وولايتك) فإنّك حجّة الله على خلقه وأمينه في بلاده لا زالت نعمته عليك.

قال عبدالله بن سليمان فأجابه أبو عبدالله عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم حاطك الله بصنعه ولطف بك بمنّه، وكلأك برعايته فإنّه وليّ ذلك؛ أمّا بعد فقد جاءني رسولك بكتابك وقرأته وفهمت ما ذكرته وسألت عنه وزعمت (وذكرت) أنّك بليت بولاية الأهواز فسرّني ذلك وساءني، وسأخبرك بما ساءني من ذلك وما سرّني إن شاء الله تعالى؛ فأمّا سروري بولايتك فقلت عسى أن يغيث الله بك ملهوفاً خائفاً من أولياء آل محمد صلى الله عليه وآله ويعزّ بك ذليلهم، ويكسو بك عاريهم، ويقوّي بك ضعيفهم، ويطفي بك نار المخالفين عنهم، وأمّا الذي ساءني من ذلك فإنّ أدنى ما أخاف عليك أن تعثر بوليّ لنا فلا تشمّ حظيرة القدس فإنّي ملخّص لك جميع ما سألت عنه إن أنت عملت به ولم تجاوزه رجوت أن تسلم إن شاء الله تعالى. أخبرني يا عبدالله أبي عن آبائه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النّصيحة سلبه الله لبّه؛ واعلم أنّي سأشير عليك برأي إن أنت عملت به تخلّصت ممّا أنت متخوفه (تخافه خ) واعلم أنّ خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكف الأذى عن أولياء الله، والرفق بالرعيّة والتّأني وحسن المعاشرة مع لين في ضعف وشدّة في غير عنف ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله؛ وارتق فتق رعيّتك بأن توقفهم على ما وافق الخير والعدل إن شاء الله تعالى.

إيّاك والسّعاة وأهل النمائم فلا يلتزقنّ بك منهم أحد ولا يراك الله يوماً أو ليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً[1] فيسخط الله عليك ويهتك سترك؛ واحذر مكر خوز الأهواز فإنّ أبي أخبرني عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال إنّ الإيمان لا ينبت في قلب يهودي ولا خوزيّ أبداً، فأمّا من تأنس به وتستريح إليه وتلجىء أمورك

---

(١) يقال لا يقبل منه صرف لا عدل أي توبة وفدية أو نافلة وفريضة والمراد. الكذب والصدق أي لا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صدقاً وكذباً.

إليه فذلك الرجل الممتحن المستبصر الأمين الموافق لك على دينه؛ وميّز أعوانك وجرّب الفريقين فإن رأيت هنالك رشداً فشأنك وإيّاه، وإيّاك أن تعطي درهماً أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابّة في غير ذات الله لشاعر أو مضحك أو ممتزح إلّا أعطيت مثله في ذات الله، وليكن جوائزك وعطاياك وخلعك للقوّاد والرّسل والأجناد وأصحاب الرسائل وأصحاب الشّرط والأخماس، وما أردت أن تصرفه في وجوه البرّ والنّجاح والفتوّة والصّدقة والحج والمشرب والكسوة التي تصلي فيها وتصل بها والهدية التّي تهديها إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله ﷺ من أطيب كسبك.

يا عبدالله اجهد أن لا تكثر ذهباً ولا فضّة فتكون من أهل هذه الآية التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، ولا تستصغرنّ من حلو أو فضل طعام تصرفه في بطون خالية تسكن بها غضب الرب تبارك وتعالى، واعلم أنّي سمعت أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سمع النّبي ﷺ يقول لأصحابه يوماً ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع، فقلنا هلكنا يا رسول الله! فقال من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم وخلقكم وخرقكم تطفئون به غضب الرب، وسأُنبّئك بهوان الدنيا وهوان شرفها على من مضى من السّلف والتّابعين؛ فقد حدّثني أبي محمد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام لما تجهّز الحسين عليه السلام إلى الكوفة أتاه عبدالله بن عباس فناشده الله والرحم أن يكون هو المقتول بالطفّ؛ فقال إنّي أعرف بمصرعي منك وما وكدي من الدنيا إلّا فراقها؛ ألا أخبرك يابن عباس بحديث أمير المؤمنين عليه السلام والدنيا؟ فقال له بلى لعمري إنّي أحبّ أن تحدّثني بأمرها، فقال قال أبي قال عليّ بن الحسين عليه السلام سمعت أبا عبدالله الحسين عليه السلام يقول حدّثني أمير المؤمنين عليه السلام قال إنّي كنت بفدك في بعض حيطانها وقد صارت لفاطمة عليها السلام، فإذا أنا بامرأة قد قحمت[1] عليّ وفي يدي مسحاة وأنا أعمل بها، فلمّا نظرت إليها طار قلبي ممّا تداخلني من جمالها، فشبّهتها ببثينة بنت عامر الجمحي وكانت من أجمل نساء قريش؛ فقالت يابن أبي طالب هل لك أن تتزوّج بي فأُغنيك عن هذه المسحاة، وأدلّك على خزائن الأرض فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقال عليه السلام لها من أنت حتى أخطبك من أهلك؟ قالت أنا الدنيا؛ قال لها فارجعي واطلبي زوجاً غيري، فأقبلت على مسحاتي وأنشأت أقول:

---

(١) الإقحام الدخول في الشيء بشدة وقوة.

لقد خاب من غرّته دنيا دنيّة ... وما هي إن غرّت قروناً بنائل
أتتني على زيّ العزيز بثينة ... وزينتها في مثل تلك الشمائل
فقلت لها غرّي سواي فإنّني ... عزوف[1] عن الدنيا ولست بجاهل
وما أنا والدنيا فإنّ محمداً ... أحلّ صريعاً بين تلك الجنادل
وهبنا أتتني بالكنوز ودرّها ... وأموال قارون وملك القبائل
أليس جميعاً للفناء مصيرها ... ويطلب من خزّانها بالطوائل
فغرّي سوائي إنّني غير راغب ... بما فيك من ملك وعزّ ونائل
فقد قنعت نفسي بما قد رزقته ... فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
فإنّي أخاف الله يوم لقائه ... وأخشى عذاباً دائماً غير زائل

فخرج من الدنيا وليس في عنقه تبعة لأحد حتى لقي الله محموداً غير ملوم ولا مذموم، ثم اقتدت به الأئمّة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطّخوا بشيء من بوائقها عليهم السلام أجمعين وأحسن مثواهم، وقد وجهت إليك بمكارم الدنيا والآخرة عن الصادق المصدق رسول الله صلى الله عليه وآله فإن أنت عملت بما نصحت لك في كتابي هذا ثمّ كانت عليك من الذنوب والخطايا كمثل أوزان الجبال وأمواج البحار رجوت الله أن يتحامى عنك جل وعزّ بقدرته. يا عبدالله إيّاك أن تخيف مؤمناً فإنّ أبي محمد بن عليّ حدّثني عن أبيه عن جدّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه كان يقول من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه؛ وحشره الله في صورة الذّر لحمه وجسده وجميع أعضائه حتى يورده مورده وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال من أغاث لهفاناً من المؤمنين أغاثه الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه وآمنه يوم الفزع الأكبر وآمنه من سوء المنقلب ومن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة إحداها الجنّة، ومن كسى أخاه المؤمن من عري كساه الله من سندس الجنّة وإستبرقها وحريرها ولم يزل يخوض في رضوان الله ما دام على المكسوّ منه سلك، ومن أطعم أخاه من جوع أطعمه الله من طيّبات الجنّة، ومن سقاه من ظمأ سقاه الله من الرّحيق المختوم ريّه، ومن أخدم أخاه أخدمه الله من الولدان المخلّدين وأسكنه مع أوليائه الطاهرين، ومن حمل أخاه المؤمن من رجله على راحلة حمله الله

---

(١) عزفت نفسي عنه تعزف عزوفاً بالزاء المعجمة زهدت فيه وانصرفت وبالفارسية (رويرتافتن).

على ناقة من نوق الجنّة وباهى به الملائكة المقربين يوم القيامة ومن زوّج أخاه المؤمن امرأة يأنس بها ويشدّ عضده ويستريح إليها زوّجه الله من الحور العين وآنسه بمن أحبّ من الصديقين من أهل بيت نبيّه وإخوانه وآنسهم به، ومن أعان أخاه المؤمن على سلطان جائر أعانه الله على اجازة الصّراط يوم زلزلة الأقدام، ومن زار أخاه المؤمن إلى منزله لا لحاجة منه إليه كتب من زوّار الله وكان حقيقاً على الله أن يكرم زائره.

يا عبدالله وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول لأصحابه يوماً: معاشر الناس إنّه ليس بمؤمن من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه فلا تتبّعوا عثرات المؤمنين فإنّه من تتبع عثرة مؤمن تتبّع الله عثراته يوم القيامة وفضحه في جوف بيته، وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام أنّه قال أخذ الله ميثاق المؤمن أن لا يصدَّق في مقالته ولا ينتصف من عدوّه وعلى أن لا يشفي غيظه إلّا بفضيحة نفسه(١) لأنّ كلّ مؤمن ملجم وذلك لغاية قصيرة وراحة طويلة؛ أخذ الله ميثاق المؤمن على أشياء أيسرها عليه مؤمن مثله يقول بمقالته(٢) يبغيه ويحسده وشيطان يغويه ويفتنه (يضله) وسلطان يقفو أثره ويتتبّع عثراته وكافر بالله الذي هو به مؤمن يرى سفك دمه ديناً وإباحة حريمه غنماً فما بقاء المؤمن بعد هذا، يا عبدالله وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النّبي صلى الله عليه وآله قال نزل جبرائيل عليه السلام فقال يا محمّد إنّ الله يقرئك السلام ويقول اشتققت للمؤمن اسماً من أسمائي سميّته مؤمناً فالمؤمن منّي وأنا منه من استهان بمؤمن فقد استقبلني بالمحاربة.

يا عبد الله وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال يوماً يا عليّ لا تناظر رجلاً حتى تنظر في سريرته فإنّ كانت سريرته حسنة فإنّ الله عزّ وجلّ: لم يكن ليخذل وليّه، وإن كانت سريرته رديئة فقد يكفيه مساويه، فلو جهدت أن تعمل به أكثر ممّا عمله من معاصي الله عزّ وجلّ ما قدرت عليه، يا عبدالله وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال أدنى الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها، أُولئك لا خلاق لهم.

يا عبدالله وحدّثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام أنّه قال من قال في مؤمن ما رأت

---

(١) أي بتعييبها وتعجيزها عن أن يفعل شيئاً للعدو لشفاعة نفسه بل تشفي المؤمن بملامة نفسه وإظهار عجزه وذله.

(٢) أي يعتقد مثل ما اعتقده في الدين ومع ذلك يبغيه.

عيناه وسمعت أذناه ما يشينه ويهدم مروّته فهو من الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، يا عبدالله وحدّثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام أنّه قال من روى عن أخيه المؤمن رواية يريد بها هدم مروّته وشينه أوثقه الله بخطيئته يوم القيامة حتى يأتي بالمخرج ممّا قال ولن يأتي بالمخرج منه أبداً، ومن ادخل على أخيه المؤمن سروراً فقد ادخل على أهل البيت عليهم السلام سروراً، ومن أدخل على أهل البيت سروراً فقد أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله سروراً، ومن أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله سروراً فقد سرّ الله ومن سرّ الله فحقيق عليه أن يدخله الجنة.

ثمّ إنّي أوصيك بتقوى الله وإيثار طاعته والإعتصام بحبله فإنّه من اعتصم بحبل الله فقد هدي إلى صراط مستقيم؛ فاتّقِ الله ولا تؤثر أحداً على رضاه وهواه فإنّه وصيّة الله عزّ وجلّ إلى خلقه لا يقبل منهم غيرها ولا يعظّم سواها، واعلم أنّ الخلائق لم يوكلوا بشيء أعظم من التّقوى فإنّه وصيّتنا أهل البيت فإن استطعت أن لا تنال من الدنيا شيئاً تسأل عنه غداً فافعل،

قال عبدالله بن سليمان فلمّا وصل كتاب الصادق عليه السلام إلى النّجاشي نظر فيه وقال صدق والله الذي لا إله إلّا هو مولاي فما عمل أحد بما في هذا الكتاب إلّا نجا. فلم يزل عبدالله يعمل به أيّام حياته.

هذا تمام الرسالة بلفظها وقد اشتملت على قوله عليه السلام ما نبت الإيمان في قلب يهودي ولا خوزي ابداً ولعل ظاهره لا يخلو من إشكال، إذ قوله أبداً يدلّ بظاهره على استغراق الأزمنة المستقبلة بالنّظر إلى زمن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام مع أنّ الأهواز قد كان منها المؤمنون في كلّ الأعصار سيّما هذه الأزمان (الأعصار)، وحينئذ فما معنى هذا النّفي المؤكّد بالدّوام؟ قلت يمكن الجواب عنه من وجوه:

أوّلها: إنّ المراد من قوله خوزيّ كفّارهم بقرينة ذكرهم مع اليهودي، فيكون إشارة إلى أنّ كفّارهم قد طبعوا على الكفر بحيث لا يقبلون دخول الإيمان في قلوبهم، وكأنّهم ينشأون على الفطرة التي قال فيها عليّ عليه السلام: كلّ مولود يولد على الفطرة حتى إنّ أبويه يهوّدانه وينصّرانه.

وثانيها: إنّ نبات الإيمان مغاير لحصوله واستقراره بعد الحصول وذلك أنّ نبات الإيمان في القلب عبارة عن تأصّله فيه واستحكام ثباته فيه كاستحكام نبات الشّجرة في الأرض وحينئذ فمعناه أنّ إيمان غيرهم في القلوب نابت كنبات الشّجر في أعماق

الأرض وأمّا إيمان أهل الأهواز فهو كشجرة زرعت على وجه الأرض ودخلت عروقها في الأرض للبقاء لكن أين لاستحكام هذه الشّجرة التّي نبتت في الأرض وطلعت أغصانها خارج القلب بعد أن كان مستقرّها القلب، وبالجملة فإيمان غيرهم قد خرج من داخل القلب وجرى على ظاهره وإيمان أهل الأهواز قد أتى إلى القلب من الأعضاء الخارجة عنه، فيكون كناية عن عدم كمال استقراره وثباته في القلب كما قال عزّ من قائل في قسمي الإيمان ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وثالثها: إنّ قوله عليه السلام لا ينبت الإيمان المراد به الإيمان الكامل لما تقدّم من أنّ الإيمان عشر درجات، ولا ريب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إذ أطلق لفظ الإيمان لا يريد به غالباً إلّا الدرجة العالية منه أو ما قاربها كإيمان سلمان أو أبي ذرّ والمقداد وعمّار ونحوهم من أكابر الصّحابة، فمثل هذا الإيمان لا ينبت ولا يدخل في قلوبهم فلا ينافيه دخول الإيمان بأقسامه الأُخرى، ولا تظنّ أنّ هذا الجواب هو عين الجواب الثاني بل هو غيره وحينئذ فيكون النّابت في قلوبهم أقلّ درجاته.

وأما الحويزة فهي داخلة في الأهواز؛ وقد ذكر صاحب كتاب غرائب البلدان مذمة البلدين (الحويزة) قال الحويزة وما أدراك ما الحويزة[1] دار الهوان ومنزل الحرمان، ثمّ ما أدراك ما الحويزة أرضها رغام وسماؤها قتام وسحابها جهام وسمومها شهام ومياهها سمام وطعامها حرام وأهلها لئام، وخواصها عوام وعوامها طغام؛ لا يدرى ريعها ولا يرجى نفعها ولا يعرى ضرعها ولا يرعى ذرعها، ولقد صدق الله قوله فيها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية، وهم يتّخذون الغمز والزور إلى أرزاقهم سبباً ويأكلون الدنيا سلباً ويعدّون الدين لهواً ولعباً ولو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً وفيهم يقول الشاعر:

إذا سقى الله أرضاً صوب غادية ... فلا سقاها سوى النّيران تضطرم

---

(١) الحق أنّ أخلاق أهل البلاد وسكان الأمصار وأوصافهم تتغير وتتبدل وتختلف في القرون والأدوار بسبب الدعايات المشؤومة أو التبليغات المستحسنة وتكون السلطة والغلبة من أهل الخير والعدل أو الشر والظلم كما يتغير بعض أوضاعها الطبيعية بمرور القرون والدهور في أثر السير والحركات فلا بد من ملاحظة أخلاق سكان البلاد وحالات أهلها وأطوارهم وأوصافهم في كل عصر وزمان وعدم القياس إلى عصر سابق أو زمن لاحق وإن غفل الأكثر عن ذلك ولم يراعوا ما ذكرناه ويشهد لما قلناه أنك ترى أنّ صاحب غرائب البلدان يذم الحويزة بتلك الكلمات والمصنف رحمه الله يمدحها بتلك العبارات وكلام كل منهما حق بالنظر إلى عصرهما.

وينسب إليها أبو العباس أحمد بن محمد الحويزي وكان إذا عزل عن الدولة شرع في العبادة والزهد ومطالعة الكتب حتى يظهر للنّاس أنّه كان يتمنّى العزل؛ وإذا أقبلت عليه الدّولة كان من أظلم الظّلمة؛ فصعد إليه جماعة وشقّوا بطنه.

قال مؤلّف هذا الكتاب عفا الله عنه قد كان أوائل تحصيلنا العلوم فيها في أوّل زمان حكومة الوالي المرحوم السيّد علي خان ورأينا أنّ الغالب على أهلها العبادة والزهادة ومطالعة العلوم وكتابة الكتب وأهلها في غاية الذكاء؛ وذلك أنّ الرعيّة تبع للوالي وكان واليها المذكور قد حاز الحظّ الأوفر من العبادة والزهادة والتّبحّر في فنون العلوم ونظم الأشعار والقصائد الرّائقة وقد أكثر من التصانيف العالية في أنواع العلوم وقد كان في الحلم والعفو عمّن أساء إليه بمكان لا يدانى فيه، وأمّا شجاعته وقوّة قلبه فقد كانت تضرب بها الأمثال، وقد اتصلنا بملازمة مجلسه العالي أوقاتاً كثيرة وما كان عيب مجلسه إلّا ذكر فنون العلوم والآداب فيه كما قال الشّاعر:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب

وقد ذكرنا فيما تقدّم مكاتبة أرسلها إلينا أكثر فيها الملاطفة وإظهار المحبّة، وفي وقت تأليف هذا الكتاب صار الوالي ولده المبارك الذي اقتفى أثر أبيه في مكارم الأخلاق السيّد حيدر خان، وبالجملة فالولاة إذا جعلوا هذا النور قانوناً لأعمالهم وأحكامهم فازوا بالنّشأتين ووفّقوا للدّولتين.

نور في أحوال العالم والمتعلم وكيفية آدابهما

وهذا النّور يشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: آدابهما في أنفسهما وهي على أمور:

الأول: في نيّة التّعليم والتعلّم، فإنّك قد عرفت أنّ مدار قبول الأعمال على النّيّة وبسببها يكون العمل تارة خرقة لا قيمة لها وتارة جوهرة لا قيمة لها وتارة وبال على صاحبه مكتوب في ديوان السيئات وإن كان في صورة الواجبات.

روي عنه ﷺ أنّه قال إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت؛ قال كذبت ولكنّك قاتلت ليقال جريء فقد قيل ذلك ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنّك

تعلّمت ليقال إنّك قارىء فقد قيل ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

وهذه الدرجة وهي درجة الإخلاص عظيمة المقدار كثيرة الأخطار، وذلك أنّ الإنسان لو فكّر في نفسه لعلم أنّ الباعث الأكثري سيّما في الابتداء لطالب العلم طلب الجاه والمال أو الشهرة وانتشار الصيت ولذة الاستيلاء واستثارة الحمد والثّناء وربّما لبّس الشيطان عليه مع ذلك ويقول لهم غرضكم نشر دين الله.

وهذه المقاصد تظهر عند ظهور واحد من الأقران أكثر علماً منه وأحسن حالاً بحيث يصرف الناس عنه فلينظر حينئذ فإن كان حاله مع الموقّر له والمعتقد لفضله أحسن وهو له أكثر احتراماً وتلقى به أشدّ استبشاراً ممّن يميل إلى غيره مع كون ذلك الغير مستحقاً للموالاة فهو مغرور عن دينه مخدوع وهو لا يدري، وربّما انتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتعايروا تعاير النساء فيشقّ على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه ينتفع بغيره ويستفيد في دينه، ولو كان الباعث له على العلم هو الإخلاص لكان إذا ظهر غيره شريكاً أو مستبدّاً أو معيناً على التعليم لشكر الله تعالى إذ كفاه أو أعانه على هذا المهمّ بغيره، وأيضاً فيه تكثُّر المرشدين الهادين وأوتاد الأرض وربّما لبّس عليه الشيطان وقال إنّما غمّك من ظهور هذا العالم لانقطاع الثّواب عنك ووصوله إلى غيرك لا لأجل انصراف الناس عنك ولم يعلم أنّ انقياده للحق أفضل من انفراده بهذا المعنى بل قد ينخدع الإنسان ويحدث نفسه بأنّه لو ظهر من هو أولى منه واعلم لفرح به واختاره على نفسه، ثمّ إذا ظهر ذلك العالم كذب عليه في الذي حدثته به نفسه؛ قال رسول الله ﷺ إنّ الله يؤيّد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فيه، وقال أيضاً إنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر.

الأمر الثاني: إستعمال ما علماه فإنّ العاقل همّه الرعاية والجاهل همّه الرواية وجاء رجل إلى علي بن الحسين عليه السلام فسأله عن مسائل، فأجاب ثمّ عاد ليسأل مثلها فقال عليّ بن الحسين عليه السلام مكتوب في الإنجيل لا تطلبوا علم ما لا تعلمون، ولمّا تعملوا بما علمتم، فأنّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلّا كفراً ولم يزدد من الله إلّا بعداً ومثال الفقيه المتقن للعلوم من غير عمل مثل مريض به علّة لا يزيلها إلّا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلّا حذّاق الأطباء فسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق، فعلّمه الدّواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها يجلب وعلّمه كيفيّة دقّها وعجنها؛ فتعلّم ذلك منه وكتب منه نسخاً حسنة بحسن خطّ ورجع إلى بيته وهو يكررها ويقرأها ويعلّمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟

هيهات لو كتب منه ألف كتاب وعلّمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرّره كلّ ليلة ألف مرّة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً إلى أن يزن الذهب ويشتري الدّواء ويخلطه كما تعلّم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته بعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه، وإذا فعل جميع ذلك كلّه فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلاً، هكذا الفقيه إذا أحكم علم الطاعات ولم يعمل بها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها؛ وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتّصف بها فهو مغرور في نفسه مخدوع عن دينه؛ وقد يغرّه الشيطان فيقول له ما أنت وهذا المثال لأنّ مطلبك القرب من الله تعالى ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضائل العلم ولم يعلم ما وصف الله به العالم التّارك لعلمه كقوله تعالى في وصف بلعم بن باعور الذي كان في حضرته إثنا عشر ألف محبرة يكتبون عنه العلم مع ما آتاه الله من الآيات المتعدّدة التي كان من جملتها أنّه كان بحيث إذا نظر يرى العرش، كما نقله جماعة من العلماء: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، فإذن المطلوب من العالم إنّما هو العلم والعمل.

وأمّا طلب الرزق فقد ورد في الحديث عن النّبي ﷺ إنّ الله قد تكفّل لطالب العلم برزقه خاصّة عمّا ضمنه لغيره؛ بمعنى أنّ غيره يحتاج إلى السّعي على الرزق حتى يحصل غالباً وطالب العلم لا يكلّفه بذلك بل كفاه مؤنة الرّزق أن أحسن الظنّ به وعندي في ذلك من الوقائع من ألطاف الله تعالى بي من أول اشتغالي بالعلم وهو أوائل سنة الستين بعد الألف إلى هذا الوقت وهو عام التاسع والثمانين بعد الألف من أنواع الأرزاق وكيفيّة التّسبّب إليها ما لا يحصيه إلّا الله تعالى.

الأمر الثالث: حسن الخلق زيادة على غيرهما من الناس والتّواضع وبذل الوسع في تكميل النّفس، وذلك أنّ المتلبّس بالعلم ينظر الناس إلى أوصافه فتتعدّى أوصافه إلى غيره من الرعيّة فيكون في حسن أخلاقه انتظام النّوع كما أنّ في فساده فسادها ويا ليته إذ هلك انقطعت مفاسد أعماله بل هي باقية بعده فيمن استنّ بأخلاقه وأفعاله، قال بعض العارفين إنّ عامّة الناس أبداً دون المتلبّس بالعلم بمرتبة: فإذا كان ورعاً تقيّاً صالحاً تلبّست العامّة بالمباحات، وإذا اشتغل بالمباح تلبّست العامّة بالشّبهات، فإن دخل بالشبهات تعلق العامي بالحرام، فإن تناول الحرام كفر العامي، وهذا ممّا هو مشاهد بالعيان فلا يحتاج إلى النقل من الأعيان.

الأمر الرابع: أن يكون عالي الهمة منقبضاً عن الملوك وأهل الدنيا لا يدخل

إليهم طمعاً ما وجد إلى الفرار منهم سبيلاً صيانة للعلم عمّا صانه السّلف؛ ومن فعل ذلك فقد خان أمانته وعرض نفسه، وفي أغلب الأحوال لم يبلغ بغيته، قال ﷺ الفقهاء أُمناء الرّسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل يا رسول الله وما دخولهم في الدنيا؟ قال اتباع السلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم؛ أما لو اتّبع السلطان ليجعله وسيلة إلى إعلاء كلمة الحق وترويج الدين وقمع أهل البدع والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ونحو ذلك فهو من أفضل الأعمال، وبه يجمع بين الأخبار وقد فعل ذلك جماعة من الأعيان كعليّ بن يقطين وعبدالله النّجاشي وأبي القاسم بن روح أحد الأبواب الشريفة ومحمد بن إسماعيل بن بزيع، ونوح بن دراج وغيرهم من أصحاب الأئمة الطّاهرين، ومن الفقهاء مثل السيدين الأجلّين المرتضى والرضى وأبيهما، وخواجا نصير الدين الطوسي والعلاّمة الحلّي، ومن المتأخرين شيخنا الشيخ بهاء الدين محمد العاملي والفاضل الورع المولى عبدالله التستري، والمحقّق الكاشي وفي هذا العصر أستاذنا الخونساري.

روى الصدوق رحمه الله بإسناده إلى الرضا عليه السلام أنّه قال إنّ لله تعالى بأبواب الظالمين من نوّر الله به البرهان ومكّن له في البلاد ليدفع بهم عن أوليائه ويصلح الله به أمور المسلمين لأنّه ملجأ المؤمنين من الضرر وإليه يفزع ذوو الحاجة من شيعتنا بهم يؤمن الله روعة المؤمن في دار الظلمة أُولئك المؤمنون حقّاً أُولئك أُمناء الله في أرضه؛ أُولئك نور الله في رعيّتهم يوم القيامة ويزهر نورهم لأهل السمٰوات كما تزهر الكواكب الزهريّة لأهل الأرض، أُولئك من نورهم نور القيامة تضيء منهم القيامة خلقوا والله للجنّة وخلقت الجنّة لهم فهنيئاً لهم، ما على أحدكم أن لو شاء لنال هذا كلّه، قال الراوي وهو محمد بن إسماعيل بن بزيع: بماذا جعلني الله فداك؟ قال تكون معهم فتسرّنا بإدخال السرور على المؤمنين من شيعتنا فكن منهم يا محمد: ولكن الحق أنّ هذا موضع خطر فإنّ حبّ الرياسة ربّما حجب القلب عن طرق الصواب، ومن هذا بعد عنه العلماء الأعلام وقد حدّثني أوثق مشايخي أنّ السيّد الجليل محمد صاحب المدارك والشيخ المحقق الشيخ حسن صاحب المعالم قد تركا زيارة المشهد الرضوي على ساكنه أفضل الصلوات خوفاً من أن يكلّفهم الشّاه عباس الأول بالدخول عليه مع أنّه كان من أعدل سلاطين الشيعة[1] فبقيا في النّجف الأشرف ولم يأتيا إلى بلاد العجم احترازاً من ذلك المذكور.

(١) هو من أعدل سلاطين الشيعة ومتشرعيهم في الدولة الصفوية التي كانت نتاجاً للبعث الديني =

الأمر الخامس: أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام كإقامة الصلوات في الجماعات وإفشاء السلام للخاص والعام والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والصّبر على الأذى بسبب ذلك صادعاً بالحق متكلّماً باذلاً نفسه لله لا يخاف لومة لائم متأسيًّ في ذلك بالنّبي ﷺ وغيره من الأنبياء، متذكّراً لما نزل بهم من المحن عند القيام بأوامر الله تعالى، فإنّ العلماء هم القدوة ويقتدي بهم من لا ينظرون إليه ولا يعلمون به وبالجملة فهم قد ورثوا الأنبياء عليهم السلام ووارث النّبي الآخذ عنه يجب عليه أن يراعي نسبة من أخذ عنه الميراث.

الفائدة الثانية: آدابهما في درسهما واشتغالهما وهو يشتمل أيضاً على أمور:

أولها: أن لا يزال كلّ منهما مجتهداً في الاشتغال قراءة ومطالعة وتعليقاً ومباحثة ومذاكرة وحفظاً وفكراً وإقراءً وغيرها؛ وأن يكون ملازمته للعلم هي رأس ماله، ومن هنا قيل أعط العلم كلّك يعطك بعضه؛ وعن الباقر عليه السلام رحم الله عبداً أحيا العلم فقيل وما إحياؤه؟ قال أن يذاكر به أهل الدين والورع.

وثانيها: أن لا يسأل أحداً تعنّتاً أو تعجيزاً بل سؤال متعلّم لله أو معلّم له منبّه على الخير قاصداً للإرشاد أو الاسترشاد فهناك تثمر شجرة العلم، فأمّا إذا قصد المراء والجدال وأحبّ ظهور الفلج والغلبة فإنّ ذلك يثمر في النّفس ملكة رديئة ويستحقّ المقت من الله تعالى ومع ذلك فهو منغّص للعيش[1] فإنّك لا تماري سفيهاً إلّا ويؤذيك ولا حليماً إلّا ويقيلك (يغلبك خ) وفي تركه ثواب جزيل قال ﷺ من ترك المراء وهو محقّ بني له بيت في أعلى الجنّة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له

= الشيعي ولم يؤسس بعد غلبة الإسلام على إيران أكبر دولة فيها مثلها وكان الشاه عباس الكبير لبيباً عاقلاً متديناً صحيح العقيدة متشرعاً فإنّ صدر منه بعض الفجور فعلى فرض صحته لم يكن ذلك من جهة عدم التدين والاعتقاد الديني ولكن بعض الأقلام المستأجرة في عصرنا يريد أن يعرف الشاه عباس إلى الجامعة الإيرانية بصورة مشوهة فاللازم لكل مثقف متدين حي ولكل من له عرق من حب وطنه وقومه التيقظ وعدم الإصغاء لتلك الأصوات المنكرة وتلك المفتريات والأفائك التي الصقوها إلى الشاه عباس الكبير في بعض الكتب المؤلفة في هذا العصر بغير دليل ومستند كما اشرنا إلى ذلك سابقاً أيضاً.

(١) بل يوجب قصر العمر كما نقلنا في هذا المعنى قضية في سلوك أحد الفضلاء في النجف الأشرف مع آية الله العظمى العالم الرباني الشيخ محمد حسن المامقاني قدس سره انظر ص ٨٠ ج ٣ من هذا الكتاب.

بيت في رنط الجنّة[١] وحقيقة المراء الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه لفظاً أو معنى أو قصداً لغير غرض ديني أمر الله تعالى به؛ فأمّا اللّفظ فهو كإظهار خلل فيه من جهة النحو أو اللّغة أو النّظم أو التّرتيب بسبب قصور المعرفة أو طغيان اللسان؛ وأمّا في المعنى كأن يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه لكنّه كذا، وأما في قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحقّ وما يجري مجراه وعلامة فساد مقصد المتكلّم يتحقّق بكراهة ظهور الحقّ على غير يده.

وثالثها: أن لا يستنكف من التّعلّم والاستفادة ممّن هو دونه في منصب أو شهرة أو سنّ[٢] أو في علم آخر، بل يستفيد من كلّ من يفيده لقوله ﷺ الحكمة ضالّة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها، وليس العمى طول السؤال وإنّما تمام العمى طول السّكوت على الجهل؛ ومن هذا الباب أن يترك السؤال استحياء فإنّه كما قال الصادق عليه السلام من رقّ وجهه رقّ علمه؛ وقال عليه السلام هذا العلم عليه قفل ومفتاحه السؤال.

ورابعها: وهي أهمّها الانقياد للحقّ بالرجوع عند الهفوة ولو ظهر على يد من هو أصغر منه، فإنّه هو الكبر المذكور في الأخبار الذي هو ردّ الحق على أهله وعدم قبوله منهم، وما أحسن الإنصاف من العالم، وقد كان لي شيخ جليل قرأت عليه كثيراً من العربيّة والأصول فما وجدت أحداً أنصف منه، وذلك أنّه ربّما أشكلت

---

(١) قوله: (في رنط الجنة) كذا في أكثر النسخ وفي هامش النسخة المخطوطة هكذا في الأصل بخطه رحمه الله. وفي بعض النسخ: (وسط الجنة) وفي الخصال للصدوق رحمه الله بإسناده عن رسول الله ﷺ قال أنا زعيم ببيت في ربض الجنّة وبيت في وسط الجنّة وبيت في أعلا الجنّة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ولمن ترك الكذب وإن كان هازلاً ولمن حسن خلقه(اهـ) ربض الجنّة أسافلها وما قرب من بابها وسورها قال ابن الأثير في النهاية. فيه أنا زعيم ببيت في ربض الجنّة هو بفتح الباء ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع (اهـ) المراء والجدل المنهي عنه هو ما كان الغرض منه الغلبة وإظهار الكمال والفخر أو التعصب وترويج الباطل وأما ما كان لإظهار الحق ودفع الباطل ورفع الشبهة عن الدين وإرشاد المضلين فهو من أعظم أركان الدين ومن أكبر أشغال علماء المذهب ولكن بعد كون الكبرى من المسلمات إنّما الإشكال في الصغريات فإنّ التميز بين الأمرين في غاية الصعوبة وكثيراً ما يشتبه أحدهما بالآخر في بادىء النظر وللنفس فيه تسويلات خفية لا يمكن التخلص منها إلا بفضل الله تعالى وتوفيقه كما صرح به بعض الأعلام.

(٢) هنا قضايا وقصص عجيبة عندنا يطول الكلام بشرحها وحبسنا القلم عن نقلها على مضض حفظاً لشأن القوم وحرصاً على كيانهم.

المسألة علينا وقت الدرس فإذا طالعتها أنا وكنت أصغر الشركاء سنّاً قال لي ذلك الشيخ هذا الحق وغلطت أنا وجميع هؤلاء فيغلّط نفسه والطلبة لأجل معرفته بصحة كلامي، ثمّ يقول لي أمل عليّ ما خطر بخاطرك حتّى أُعلّقه حاشية على كتابي، فأُملي أنا عليه وهو يكتبه حاشية، وهو وقت تأليف هذا الكتاب في بلاد حيدرآباد من بلاد الهند واسمه الشيخ جعفر البحريني مدّ الله أيّام سعادته، ومن جملة أخلاقه أنّ أستاذنا الشيخ عبد علي الحويزي قد ألّف تفسيراً غريباً بالأحاديث وحدها سمّاه نور الثقلين؛ فسألت الشيخ جعفر سلّمه الله تعالى عن ذلك التفسير وكيف هو؟ فقال لي يا فلان هذا التفسير في حياة مؤلّفه ما يسوى عندنا شيئاً ولا هو جيّد فإذا مات مؤلفه فأوّل من يكتبه بماء الذهب أنا؛ ثمّ تلا عليّ هذين الشعرين:

ترى الفتى ينكر فضل الفتى ... ما دام حيّاً فإذا ما ذهب
لجّ به الحرص على نكتة ... يكتبها عنه بماء الذهب

ولقد صدق في هذا؛ وقد كان في اصفهان رجل فاضل فصنّف كتاباً مليحاً فلم يكتبه أحد ولم يلتفت إليه، فقال له رجل من الطلبة لم لا يشتهر كتابك؟ فقال لأنّ له عدوّاً فإذا أزال الله سبحانه ذلك العدوّ اشتهر كتابي، فقال له ومن هو؟ فقال أنا(١) وقد صدق في كلامه هذا.

وبالجملة فارتكاب طريقة الانصاف طريقة الحكماء الإلهيّين كيف لا وقد روي أنّ الله سبحانه أمر نوحاً عليه السلام بالرجوع إلى قبول كلام الشيطان حين نصح نوحاً، وقال له وهو في السفينة يا نوح إيّاك والحرص فإنّه الذي أخرج أباك آدم من الجنّة حين

---

(١) والقارىء الكريم جد خبير بأن ما ذكره المصنف رحمه الله حق وصدق ويعلم مما ذكره أنّ التصنيف الذي اشتهر في أيام حياة مصنفه ومرصفه وأخذ رواجاً كبيراً وإقبالاً عظيماً عليه من فقهاء الأمة جمعاء وما من فقيه إلا ولديه نسخة منه وتلقته الأوساط العلمية بكل إكبار وإعجاب وتداولته أندية العلم بكل شعف وتقدير مع كون مؤلفه في الدرجة القصوى والقمة العليا من الشهرة والرياسة والمرجعية للشيعة في التقليد والفتوى ليس إلا أنّ لهذا السفر القيم مزايا ونكات ولرواجه علل وجهات وأنه أصبح نافعاً من شتى النواحي ومفيداً من كل الضواحي وقد احتاج العلماء والفقهاء إلى مطالعته والأخذ من أثماره وفوائده وقد اتفق هذا الأمر الذي وصفناه في هذا العصر في حق كتاب: مستمسك العروة الوثقى من تصانيف أستاذنا الإمام المرجع الأعلى للشيعة سيدنا الطباطبائي الحكيم دام ظله الوارف، وللعلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية مقال قيم في هذا الموضوع وقد أتى فيه بالحقائق الراهنة وكشف فيه عن علة رواج المستمسك وهو حقيق بالمطالعة وإمعان النظر نشره في مجلة العرفان انظر المجلد (٤٤) ج ٧ ص ٧٦٧ - ٧٧٠.

أباح الله له جميع ثمارها ونهاه عن شجرة الحنطة فدعاه الحرص إلى الأكل منها، وإيّاك والتكبّر فإنّه الذي بلغ بي إلى ما ترى بعدما كنت طاووساً للملائكة، وذلك أنّه أمرني بالسجود لأبيك آدم فتكبّرت عنه وأبيت؛ وإيّاك أن تخلو بامرأة أجنبيّة في بيت واحد فإنّك إذا خلوت بها أكون أنا الثالث فأُوقعك بوساوسي في الفتنة، فأوحى الله سبحانه إلى نوح أن اقبل كلام الشيطان فإنّي أجريت الحق على لسانه.

وخامسها: أن يتأمّل ويهذّب ما يريد أن يورده أو يسأل عنه قبل إبرازه والتفوّه به ليأمن من صدور هفوة أو زلّة أو انعكاس فهم فيصير له بذلك ملكة.

وسادسها: أن لا يحضر مجلس الدرس إلّا إذا كان متطهراً من الحدث والخبث متنظّفاً متطيّباً في بدنه وثوبه لابساً أحسن ثيابه قاصداً بذلك تعظيم العلم وترويح الحاضرين من الجلساء والملائكة سيّما إذا كان في مسجد.

الفائدة الثالثة: آداب يختصّ بها المعلّم وهو يشتمل على بيان أمور:

الأوّل: أن لا ينتصب للتدريس حتى يكمل أهليته ويظهر استحقاقه لذلك ويشهد له صلحاء مشايخه ففي الخبر المشهور: المتشيّع بما لم يعط كلابس ثوب زور، وإذا نصب نفسه للتّدريس وكان محتاجاً إلى قراءة الدّرس (دروس) عسر عليه جدّاً فلا ينبغي له أن يتصدّى للتدريس إلّا بعد قضاء الوطر من قراءة الدرس.

الثاني: أن لا يذلّ العلم ببذله لغير أهله ويذهب إلى بيوت الأكابر لتعليم العلم إلّا أن تدعو إليه ضرورة وتقتضيه مصلحة دينيّة.

الثالث: أن يكون عاملاً بعلمه زيادة على ما تقدّم في الأمر المشترك، قال سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]؛ وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قصم ظهري رجلان عالم متهتّك وجاهل متنسّك فالجاهل يغشّ الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتّكه.

الرابع: زيادة حسن الخلق فيه وتكميل النفس فإنّ العالم الصالح في هذا الزمان بمنزلة نبيّ من الأنبياء كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وآله علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل[1] بل قيل إنّ العالم أعظم في هذا الزمان، وذلك لأنّ أنبياء بني إسرائيل كان

---

(١) هذا الحديث مذكور في كثير من الكتب المتداولة ومذكور في الألسنة ولكن لم يوجد في الجوامع الحديثية للامامية من روايته وسنده عين ولا أثر بل صرح جمع من مهرة المحدثين وأساتذتهم أنّه من موضوعات العامة قال المحدث الأكبر السيد عبدالله الشبر رحمه الله في كتابه مصابيح الأنوار: روي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: علماء أمتي أنبياء بني إسرائيل أو كأنبياء بني =

يجتمع منهم في العصر الواحد ألوف؛ وأمّا العلماء في هذه الأعصار فلا يوجد منهم إلّا واحد بعد واحد.

الخامس: أن لا يمتنع من تعليمه لأحد لكونه غير صحيح النيّة فربّما أشكل تصحيح النيّة على كثير من الطالبين ابتداء الطّلب لقلّة أُنسهم بموجبات تصحيح النيّة فيؤدّي إلى تفويت كثير من العلم مع أنّه يرجى إذا توسع في العلم النّية الصحيحة منه، قال بعض العلماء طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلّا لله ومعناه أنّه صارت عاقبته أن صار لله، لكن يجب على العالم إذا عرف من المتعلّم مثل هذا أن يرشده إلى نية الخير بتلاوة الأخبار والآيات الواردة فيه فإن لم ينجع ذلك فيه فليتركه، وقد أشار إلى هذا مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بقوله لا تعلّقوا الجواهر في أعناق الخنازير، وعن الصادق عليه السلام قال قام عيسى بن مريم خطيباً في بني إسرائيل فقال يا بني إسرائيل لا تحدّثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

السادس: بذل العلم عند وجود المستحق فإنه تعالى قد أخذ على العلماء في شأن تعليم الجهّال ما أخذه على الأنبياء، وقال مولانا الصادق عليه السلام قرأت في كتاب عليّ عليه السلام إنّ الله لم يأخذ على الجهال عهداً بطلب العلم حتى أخذ على

= إسرائيل أو أفضل من أنبياء بني إسرائيل.
وهذا الحديث لم نقف عليه في أصولنا وأخبارنا بعد الفحص والتتبع والظاهر أنّه من موضوعات العامة وممن صرح بوضعه من علمائنا المحدث الحر العاملي في الفوائد الطوسية والمحدث الشريف الجزائري وكيف كان فيمكن توجيهه بوجهين الخ انظر ج ١ ص ٤٣٤ ط بغداد وما نسبه إلى الشيخ الحر رحمه الله موجود في الفوائد الطوسية - النسخة المخطوطة الموجودة في مكتبتنا.
وفي كلام معالي العلاّمة الشهير الشهرستاني الذي كتبه في جواب سؤال صديقي العلاّمة الواعظ الچرندابي التبريزي دام بقاؤه بعد أن ذكر مد ظله أنّ حديث: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ما هذا لفظه: (وفي أكثر الروايات أفضل من أنبياء بني إسرائيل) انظر أوائل المقالات ص ٤٤ ط ٢ تبريز.
إن كان مراده من تلك الروايات التي أشار إليها هي الروايات المروية المسندة في الجوامع الحديثية فليت شعري أين تلك الروايات التي في أكثرها لفظ (أفضل) ولعل مراده مد ظله غير ما يتراءى من ظاهر كلامه والمقصود من تلك الروايات هي الدائرة في الألسنة والمذكورة في كثير من كتب الفريقين من نسبة الحديث المذكور إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مرفوعاً ومرسلاً من دون بيان سند له ومستند من كتب الأحاديث والجوامع الحديثية كما ذكرناه وإلا فليس في جوامعنا منه عين ولا أثر كما عرفت.

العلماء عهداً ببذل العلم للجهال لأنّ العلم كان قبل الجهل؛ فإنْ قلت بناء على ما تقدّم من أخذ العهد على العلماء أيجب عليهم تعليم الجهّال قبل أن يبتدئوهم أم لا يجب إلّا بعد السّؤال؟

قلت هذه مسألة غامضة وما رأينا من تعرّض لها ولكن الذي يظهر من ممارسة الأخبار وأطوار الأئمة الأطهار عليهم السلام مع جهّال شيعتهم أنّ وجوب بذل العلم لا يكون إلّا بعد السؤال بشرط أن يعرفوا الجهال أنّ أخذ العلم واجب عليكم، فإذا ألقى العالم مثل هذا الكلام المجمل إلى الجهال وجب على الجهّال التّفحص والسؤال وعلى العلماء الجواب.

نعم إذا رأوا جاهلاً بحكم ظهر جهله عندهم وجب عليهم ارشاده، وعلى هذا ينحلّ معنى الحديث الذي نقله المشايخ رضوان الله عليهم وهو أنّ سائلاً سأل الصادق عليه السلام عن النّساء أيحتلمن؟ فقال نعم ولكن لا تحدّثوهن به فيتخذنه علة؛ حيث أشكل ظاهره بأنّ ارشاد الضّال وتعليم الجهّال واجب فكيف لم يوجب عليه السلام هذا الحكم؟حتى أنّه ذهب شيخنا المعاصر أدام الله أيّامه إلى أنّ هذا الحديث مخصّص لذلك العام، وبيان دفع الإشكال أنّه عليه السلام قال لا تحدّثوهنّ يعني لا تخبروهنّ به ابتداء منكم لما عرفت من عدم وجوب مثله ولم يقل عليه السلام لا تجيبوهنّ عن هذه إذا سألنكم، وهذا ظاهر من قوله لا تحدّثوهن فإنّ ظاهره ابتداؤهنّ به على ما لا يخفى، وقال الباقر عليه السلام زكاة العلم أن تعلّم عباد الله.

السابع: أن يحترز عن مخالفة أفعاله لأقواله وإن كانت على الوجه الشّرعي مثل أن يأمر بشيء من المستحبّات وهو لا يأتي بها لاشتغاله بما هو أهمّ منها، فإنّ هذا وإن كان جائزاً إلّا أنّ العوام ربّما توهّموا أنّه تلبيس عليهم، فإنّه ينبغي للعالم كشف ما يلتبس حاله على الناس كما اتّفق للنّبي صلى الله عليه وآله حين رآه بعض أصحابه يمشي ليلاً مع بعض زوجاته إلى منزلها، فخاف أن يتوهم أنّها ليست من نسائه فقال له إن هذه زوجتي فلانة؛ ونبّهه على العلّة لخوفه من تلبيس إبليس عليه.

الثامن: إظهار الحق بحسب الطاقة من غير مجاملة لأحد ولذلك قال النّبي صلى الله عليه وآله إذا ظهرت البدع في أُمّتي فليظهر العالم علمه ومن لم يفعل فعليه لعنة الله، وما جاءت الغفلة في الغالب واستيلاء الجهالة والتّقصير عن معرفة الفرائض والقيام بالواجبات والسّنن إلّا من تقصير العلماء عن إظهار الحق على وجهه وإتعاب النّفس في إصلاح الخلق وردّهم إلى سلوك سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بل لا يكتفي علماء السوء بهذا حتى يوافقون العوام والفسّاق على ما يصنعون، فعند ذلك

ينزل من السّماء الويل والثّبور؛ قال بعض العلماء إنّ كل قاعد في بيته أينما كان فليس خالياً عن المنكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم معالم الدين وحملهم على المعروف سيّما العلماء، فإنّ أكثر الناس جاهلون بالشّرع في الواجبات العينية كالصلاة وشرائطها سيّما في القرى والبوادي فيجب كفاية أن يكون في كل بلد وكل قرية واحد يعلّم الناس دينهم باذلاً نفسه للإرشاد والتّعليم، وقد سبق الكلام فيه أمّا إذا احتاج العالم إلى كتمان العلم للضرورة فلا بأس بكتمانه وإن كان في بلاد الإيمان، فإنّا رأينا أنّ الضرر الذي يحصل من عوام الشيعة لعلمائهم لا يقصر عن الضرر الذي يحصل للعلماء من المخالفين في المذهب.

الفائدة الرابعة: في آداب المعلم مع تلاميذه وهو يشتمل أيضاً على أمور:

أولها: أن يؤدّبهم على التدريج بالآداب السنيّة والشّيم المرضيّة؛ وأول ذلك أن يحرص الطالب على الاخلاص لله تعالى في سعيه ومراقبة الله تعالى؛ وأن يعرّفه أن ذلك يفتح عليه أبواب العلم وينابيع الحكمة.

وثانيها: أن يرغبهم في العلم ويذكرهم فضائله وفضائل العلماء وأنّهم ورثة الأنبياء وأنّهم على منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء، ونحو ذلك ممّا ورد في فضائل العلم والعلماء من الآيات والأخبار والأشعار والأمثال، ففي الأدلّة الخطابيّة والأمارات الشعريّة (حظّ) هزّ[1] عظيم للنّفوس الإنسانيّة.

وثالثها: أن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشّر فإنّ ذلك من تمام الإيمان ومقتضى المواساة؛ ففي صحيح الأخبار: لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، ولا شكّ أنّ المتعلّم أفضل الإخوان بل الأولاد فإنّ العلم كما عرفت قرب روحاني وهو أجلّ من الجسماني.

ورابعها: أن يزجره عن سوء الأخلاق وارتكاب المناهي أو ترك الاشتغال أو إساءة أدب أو كثرة كلام لغير فائدة أو معاشرة من لا يليق به معاشرته أو نحو ذلك بطريق التّعريض لا التصريح، لأنّه يهيّج الحرص على الإصرار؛ وقد ورد: لو منع الناس عن فتّ البعر لفتّوه وقالوا ما نهينا عنه إلّا وفيه شيء؛ فإنّ لم ينته يطرده؛ وبالجملة فكما يعلّمهم مصالح دينهم يعلّمهم مصالح دنياهم ليكمل لهم فضيلة الحالتين.

---

(١) هزّ أي تحريك.

وخامسها: أن لا يتعاظم على المتعلّمين بل يتواضع لهم، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وفي الخبر عنه ﷺ علّموا ولا تعنفوا فإنّ المعلم (العلم) خير من المعنف (العنف) وعنه ﷺ لينوا لمن تعلّمون ولمن تتعلمون منه، وينبغي أن يخاطب كلا منهم سيّما الفاضل المتميّز بكنية ونحوها من أحب الأسماء إليه، فلقد كان رسول الله ﷺ يكني أصحابه إكراماً لهم؛ وقال ﷺ إنّ رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً.

وسادسها: إذا غاب أحد منهم أو من ملازمي الحلقة زائداً على العادة يسأل عنه وعن أحواله وموجب انقطاعه فإن لم يخبر عنه أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل كما كان يفعله رسول الله ﷺ، فإن كان مريضاً عاده أو في غمّ فرّجه عنه أو مسافراً تفقّد أهله وتعرّض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن.

وسابعها: أن يستعلم اسماء طلبته وحاضري مجلسه وأنسابهم وكُناهم ومواطنهم وأحوالهم ويكثر الدّعاء لهم.

وثامنها: أن يكون سمحاً ببذل ما حصّله من العلم متلطّفاً في إفادته طالبيه، ولا ينبغي أن يدخر عنهم شيئاً من أنواع العلوم التي يحتاجون إليها أو يسألون عنها إذا كان الطّالب أهلاً لذلك، وليكتم عنهم ما لم يتأهّلوا له من المعارف لأنّ ذلك ممّا يفرّق الهمّ، فإنّ سأله عن شيء من ذلك نبّهه على أنّ ذلك يضرّه وأنّه لم يمنعه منه شحّاً بل شفقة ولطفاً.

وتاسعها: منع المتعلّم أن يشتغل بغير الواجب قبله وبفرض الكفاية قبل فرض العين ومن فرض العين إصلاح قلبه وتطهير باطنه بالتّقوى وكذلك يمنعه من علم الأدب قبل علم السّنّة وهكذا.

وعاشرها: أن يكون حريصاً على تعليمهم باذلاً وسعه في تقريب الفوائد إلى أفهامهم مهتمّاً بذلك مؤثراً له على حوائجه ومصالحه ما لم يكن ضرورة إلى ما هو ارجح منه؛ ويفهم كل واحد منهم بحسب فهمه فلا يلقي إليه ما لا يحتمله فهمه؛ ويخاطب كلّ واحد على قدر درجة فهمه، ويكرّر المسألة لمن يحتاج إلى تكريرها ويوضحها بالأمثلة والتّمثيلات، ويذكر لهم ما في المسألة من الأقوال والدّلائل القويّة والضّعيفة وينبّه على وجه ضعفه.

وحادي عشرها: أن يذكر في تضاعيف الكلام ما يناسبه من قواعد الفن الكليّة

التي لا تنخرم أو يضبط مستثنياتها إن كانت كقوله كلّ ركن يبطل الصلاة بزيادته ونقصانه مطلقاً إلّا مواضع مخصوصة ويذكرها مفصّلة.

وثاني عشرها: أن يحرصهم على الاشتغال في كل وقت ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم ويسألهم عمّا ذكر لهم من المهمّات والمباحث فمن وجده حافظاً مراعياً أكرمه وأثنى عليه وأشاع ذكر ذلك، ومن وجده مقصّراً عنفه في الخلوة، وإن رأى مصلحة في الملأ فعله فإنّه طبيب.

وثالث عشرها: أن يطرح على أصحابه ما يراه مستفاد المسائل الدّقيقة والنكت الغريبة يختبر بذلك أفهامهم ليتدّبروا بذلك ويعتادوه، وقد روي أنّ النّبي ﷺ قال إنّ من الشّجر شجرة لا يسقط ورقها وإنّها مثل المسلم حدّثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال ابن عمر ووقع في نفسي أنّها النّخلة فاستحيت، ثمّ قالوا حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال هي النّخلة؛ فقال له أبوه لو قلتها لكان أحب إليّ من كذا وكذا. وكذلك إذا فرغ من شرح الدرس فلا بأس بأن يطرح مسائل تتعلّق به على الطلبة وإعادة ذكر ما أشكل منه ليمتحن بذلك فهمهم وضبطهم لما شرح لهم؛ فمن ظهر استحكام فهمه له شكره ومن لم يفهمه تلطّف في إعادته له، وينبغي للشيخ أن يأمر الطّلبة بالاجتماع في الدرس لما يترتّب عليه من الفائدة التي لا تحصل مع الانفراد وإعادة ما وقع من التّقرير بعد فراغه فيما بينهم ليثبت في أذهانهم.

ورابع عشرها: أن ينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً فإنّ ذلك من بركة العلم؛ وقد قدّمنا الكلام فيه.

وخامس عشرها: أن لا يظهر للطّلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودّة أو اعتناء مع تساويهم في الصّفات من سنّ أو فضيلة أو ديانة فإنّ ذلك ممّا ينفر القلوب وإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً وأشدّ اجتهاداً فلا بأس بترجيحه بشرط أن يذكر لهم أنّ ترجيحه وإكرامه إنّما هو لهذه الفضيلة، وذلك لينشط باقي الطلبة فيحصّلون صفاته.

وسادس عشرها: أن يقدّم في تعليمهم إذا ازدحموا الأسبق ولا يقدّمه بأكثر من درس إلّا برضاء الباقين؛ ويختار إذا كانت الدّروس في كتاب واحد باتفاق منهم وهو المسمّى بالتّقسيم أن يبدأ في كل يوم بدرس واحد منهم فإنّ الدرس المبدأ به ربّما حصل فيه من النّشاط في التقرير ما لا يحصل في غيره إلا إذا علم من نفسه عدم الملالة وبقاء النّشاط فيرتّب الدرس ترتيب الكتاب، فيقدّم درس العبادات على درس

المعاملات وهكذا، وإن رأى مع ذلك تقديم الأسبق ليحرص المتأخّر على التّقدّم كان حسناً؛ وينبغي أن لا يقدّم احداً في نوبة غيره ولا يؤخّره عن نوبته إلّا إذا رأى في ذلك مصلحة كما عرفته، وإن جاؤوا معاً وتنازعوا أقرع بينهم بشرطه الآتي.

وسابع عشرها: إذا سلك الطّالب في التّحصيل فوق ما يقتضيه حاله وخاف ضجره أوصاه بالرّفق بنفسه وذكره قول النّبي ﷺ إنّ المنبتّ (المنبتّ) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وكذلك إذا ظهر له منه نوع ملالة أو ضجر أمره بالرّاحة وتخفيف الاشتغال وليزجره عن تعلّم ما لا يفهمه فإنّ استشاره من لا يعرف حاله في الفهم في قراءة فن أو كتاب لم يشر عليه حتى يجرّب ذهنه ويعلم حاله.

وثامن عشرها: إذا كان عالماً ببعض العلوم لا ينبغي له أن يقبّح الطالب غيره من العلوم كما يتّفق ذلك لكثير من جهلة المعلّمين، فإنّ المرء عدوّ ما جهل حتى إذا كان غيره أعرف منه بذلك وجب عليه هداية المتعلّم إليه بأن يقول له هذا العلم الذي تقرأه عندي فلان أعرف منّي به، لأنّ هذا نصح أخيه المسلم بل ولده الروحاني كما عرفت.

وتاسع عشرها: أن لا يتأذّى ممّن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره لمصلحة راجعة إلى المتعلّم فإنّ هذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلّمين ومن لا يريد بعلمه وجه الله تعالى وهو من أوضح الدّلائل على فساد النّية فإنّه عبد مأمور بأداء رسالة ملك إلى بعض عبيده؛ فإذا أرسل الملك عبداً آخر لأداء الرسالة لا ينبغي للأول الغضب فإنّ ذلك لا ينقصه عند السيّد بل يزيده قدراً ورفعة عنده إذا وجده راضياً؛ فالواجب على المعلّم إذا رأى المتعلّم قابلاً لقراءة درسين وهو يملّ من الدرس الآخر أن يهديه على معلّم آخر، أمّا لو كان جاهلاً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو كثير الغلط بحيث يفيد الطالب ملكة رديئة وكان الطالب جاهلاً بحاله فالتّحذير من الاغترار به حسن مع مراعاة المقصد الصحيح.

العشرون: إذا تكمل الطالب وتأهّل للاستقلال بالتّعليم وأراد أن يصير مدرّساً فينبغي أن يقوم المعلّم بنظام أمره في ذلك ويمدحه في المحافل ويأمر الناس بالأخذ عنه، ولينبّه الناس على قدر معلوماته وتقواه وصلاحه كما أنّه لو رأى منه ميلاً إلى الاستقلال بالتّعليم ولم يبلغ درجته ينبغي له أن يقبح له ذلك عنده ويشدّد النّكير عليه في الخلاء فإن لم ينجع فليظهر ذلك على وجه صحيح حتى يرجع إلى الاشتغال.

الفائدة الخامسة: آدابه في درسه وهي أمور:

الأول: أن لا يخرج إلى الدرس إلّا كامل الهيئة من الثّياب التي توجب له الوقار وإقبال القلوب عليه، وأفضلها البيض وهذا مذكور في كتاب التّجمل من الكافي، وليقصد بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة وليتطيّب ويسرح لحيته ويزيل عنه كل ما يشينه، وكان بعض المحدّثين إذا جلس لتعليم الحديث لبس أحسن ثيابه ولا يزال يبخر بالعود إلى أن يفرغ، ويقول أُحبّ تعظيم حديث رسول الله ﷺ.

الثاني: أن يدعو عند خروجه للدرس بالدعاء المروي عن النّبي ﷺ اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أضِلّ أو أُضلّ، وأزلّ أو أُزلّ وأظلم أو أُظلم وأجهل أو يُجهل عليَّ عزّ جارك وجلّ ثناؤك ولا إله غيرك، ثمّ يقول بسم الله حسبي الله توكّلت على الله ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، اللّهمّ ثبّت جناني وأدر الحق على لساني، ويديم ذكر الله إلى أن يصل المجلس.

الثالث: أن يسلّم على من حضر إذا وصل المجلس ويصلّي ركعتين تحيّة المسجد إن كان مسجداً وإلاّ نوى بهما الشّكر لله تعالى على توفيقه وتأهيله لذلك، أو للحاجة إلى تسديده وعصمته عن الخطأ أو مطلقتين، فإن الصلاة خير موضوع، وأمّا استحبابها لذلك بخصوصه فلم يثبت وإن استحبّه العلماء ثمّ يدعو بعدهما بالتوفيق والإعانة والعصمة.

الرابع: أن يجلس على سكينة ووقار مطرقاً ثانياً رجليه أو محتبياً غير متربّع ولا مقعٍ ولا غير ذلك من الجلسات المكروهة مع الاختيار كل ذلك في حال الدرس أمّا في غيره فلا بأس بمدّ رجليه أو إحداهما أو اتّكائه فإنّ الطلبة بمنزلة أولاده.

الخامس: قيل يجلس مستقبل القبلة لأنّه أشرف ولقوله ﷺ خير المجالس ما استقبل بها القبلة، ويمكن أن يقال باستحباب استدباره لها ليخصّ الطّلبة بالاستقبال لأنّهم أكثر وكذا من يجلس إليهم للاستماع.

السادس: أن ينوي حين خروجه من منزله تعليم العلم ونشره وتبليغ الأحكام الدّينية التي ائتمن عليها وأُمر بتبيانها والازدياد في العلم بالمذاكرة والاجتماع على ذكر الله تعالى، والدعاء للعلماء الماضين وغير ذلك من المقاصد التي يريد بها جزيل الثواب وليس المراد بنيّة هذه المطالب الجليلة أن يقول أفعل كذا لأجل كذا بل ما عرفت في تحقيق النّيّة من أن تكون تلك المقاصد هي الباعثة والمحرّكة له على ذلك الفعل.

السابع: أن يصون بدنه عن الزّحف والتّنقّل عن مكانه والتّقلقل، ويديه عن العبث

والتشبيك؛ وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة، ويتّقي كثرة المزاح والضّحك فإنّه يقلّل الهيبة، وأمّا القليل من المزاح والضحك فمحمود كما كان يفعله النّبي ﷺ فقد كان يضحك حتى تبدو نواجذه ولكن لا يعلو الصّوت.

الثامن: أن يجلس في موضع يبرز وجهه فيه لجميع الحاضرين ويفرق النظر بينهم ويخصّ من يكلمه أو يسأله؛ وأن يقدّم على الشروع في البحث والتدريس الاستعاذة من الشيطان وحمد الله والصلاة على محمد وآله والدعاء للعلماء الماضين ولمشايخه خاصة ولوالديه وللحاضرين؛ وإن كان في مدرسة دعا للواقف ولم يرد في هذا نصّ لكن فيه خير عظيم، وإذا تعددت الدروس فليقدّم منها الأشرف والأهمّ فالأهمّ، فيقدّم أصول الدين ثم التفسير ثم الحديث ثمّ أصول الفقه ثم النحو ثمّ المعاني وعلى هذا القياس باقي العلوم بحسب مرتبتها والحاجة إليها؛ وأن لا يشتغل بالدرس وفيه ما يزعجه ويشوّش فكره من مرض أو جوع أو مدافعة حدث أو خبث أو غضب أو نعاس أو برد أو حرّ أو نحو ذلك؛ وأن لا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضرين من دخان أو غبار أو صوت يزعج أو شمس حارّة أو نحو ذلك.

التاسع: أن يتودد لغريب حضر عنده وينبسط عنده فإنّ للقادم دهشة سيّما بين يدي العلماء، ولا يكثر النظر والالتفات إليه استغراباً له فإنّه يخجله، وإذا أقبل بعض الفضلاء وقد شرع في مسألة أمسك عنها حتى يجلس، وإن جاء وهو يبحث أعادها له، وإذا أقبل وقد بقي للفراغ وقيام الجماعة بقدر ما يصل إلى المجلس فليؤخّر تلك البقية وليشتغل عنها إلى أن يصل ثمّ يعيدها أو يتمّ تلك البقيّة كيلا يخجل المقبل بقيامهم عند جلوسه.

العاشر: وهو الأهمّ منها إذا سئل عن شيء لا يعرفه أو عرض في الدرس ما لا يعرفه فليقل لا أعرفه أو لا أتحقّقه أو حتى أراجع النّظر ولا يستنكف عن ذلك فمن علم العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم والله أعلم، قال عليّ عليه السلام إذا سئلتم عمّا لا تعلمون فاهربوا قالوا وكيف المهرب؟ قال تقولون الله أعلم، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال ما علمتم فقولوا وما لم تعلموا فقولوا الله أعلم، إنّ الرجل ليشرع بالآية من القرآن يخرّ فيها أبعد ما بين السماء والأرض، وعن ابن عباس رضي الله عنه إذا ترك العالم لا أدري أُصيبت مقاتله، وقال ابن مسعود لا أدري ثلث العلم، وقال بعض الفضلاء ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري يعني يقولها كثيراً حتى يعتادوها، وقول العالم لا أدري ممّا يزيد في قدره ومحلّه، وهو دليل واضح على تقواه وإنّما يمتنع من لا أدري من قلّ علمه وعدمت تقواه حتى لا يسقط من العيون.

الحادي عشر: إذا اتفق له تقرير أو جواب فتوهّمه صواباً ثمّ ظهر له خطاؤه فيجب عليه أن يبادر إلى التّنبيه على فساده ويبيّن لهم خطاءه قبل تفرّق الحاضرين ولا يمنعه الحياء عن ذلك فيؤخّره إلى وقت آخر، لأنّ فيه استقرار الخطأ في قلوب الطلبة وتأخير بيان الحق مع الحاجة إليه وخوف عدم حضور أهل المسجد فيستمرّ على فهم الخطأ وفيه طاعة الشيطان في الاستمرار على الخطأ؛ مع أنّ في رجوعه تعليم للطلبة هذه الخصلة الحميدة ويرفعه الله تعالى بذلك على خلاف ما يظنّه الأحمق ويتوهّمه الجاهل، وينبغي أن ينبّه المتعلّم عند فراغ الدرس بما يدلّ عليه إن لم يعرفه القارىء وقد جرت عادة السّلف أن يقولوا أجد والله أعلم، وينبغي أن يختم الدرس بذكر شيء من الدقائق والحكم والمواعظ وتطهير الباطن ليتفرّقوا على الخضوع والاخلاص، فإنّ البحث يورث في القلب قوّة وربما أعقب قسوة فليحركه في كل وقت إلى الإقبال؛ وأن يختم المجلس بالدعاء لما قد غشيهم من الرحمة، وكان النّبي ﷺ إذا أراد أن يقوم من مجلسه يقول اللّهمّ اغفر لنا ما أخطأنا و ما تعمّدنا؛ وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منّا وأنت المقدم وأنت المؤخّر لا إله إلّا أنت.

وينبغي أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة فإنّ فيه فوائد وآداباً له ولهم: منها إن كان في نفس أحدهم بقايا سؤال تأخر، ومنها إن كان لأحد به حاجة قد صبر عليها حتى إذا فرغ يذكرها له، ومنها عدم خفقان النّعال خلفه، ومنها عدم ركوبه بينهم إن كان يركب.

وينبغي أن ينصب لهم نقيباً فطناً يرتّب الحاضرين ومن يدخل عليه على قدر منازلهم ويوقظ النائم وينبّه الغافل ويأمر بسماع الدروس والإنصات إليها لمن لا يعرف وكذلك ينصب لهم رئيساً آخر يعلّم الجاهل ويعيد درس من أراد ويرجع إليه في كثير ممّا يستحيى أن يلقى به العالم من مسألة أو درس فإنّ فيه ضبطاً لوقت العالم؛ وإذا قام من مجلسه فينبغي له أن يقول سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك سبحان ربّك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين رواه جماعة من فعل النّبي ﷺ، وفي بعض الروايات أنّ الثّلاث آيات كفارة المجالس؛ وكما يستحبّ للعالم يستحب لكلّ قائم.

الفائدة السادسة: في آداب المتعلّم وهي أمور:

أوّلها: أن يحسن نيّته ويطهّر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه، وأن

يغتنم التحصيل في أيّام الشّباب وقبل الاتسام بالعلم والفضل، قال بعضهم تفقّهوا قبل أن تسودوا وفي الخبر مثل الذي يتعلّم العلم في الصّغر كالنّقش على الحجر، ومثل الذي يتعلّم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء وهذا باعتبار الغالب، ولا ينبغي لمن كبر أن يمنع نفسه عن الطلب فإنّ فضل الله واسع؛ وقد اشتغل جماعة من السّلف في حال كبرهم فتفقّهوا وصاروا أساطين في الدين ومصنّفين في الفقه وغيره.

وثانيها: أن يقطع ما قدر عليه من العوائق الشاغلة والعلائق المانعة عن تمام الطّلب وكمال الاجتهاد ويرضى بما تيسر من القوت وبما يستر مثله من اللّباس وإن كان خلقاً، فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم ويجمع شمل القلب عن متفرّقات الآمال لينفجر عنه ينابيع الحكمة والكمال؛ قال بعض السلف لا يطلب أحد هذا العلم بعزّ النفس فيفلح ولكن من طلبه بذلّ النّفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح، وقال بعضهم لا ينال هذا العلم إلّا من عطّل دكانه وخرّب بستانه وهجر إخوانه ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته، وهذا كلّه وإن كان فيه مبالغة فالمقصود أنّه لا بدّ فيه من جمع القلب واجتماع الفكر، وقال بعض المشايخ لبعض تلامذته اصبغ ثوبك حتى لا يشغلك فكر غسله. ومن أقوى موانع الطلب التزويج فينبغي تركه أيام التحصيل لأنّه قلما يجتمع مع العلم حتى قال بعضهم ذبح العلم في فروج النساء وعن إبراهيم بن أدهم من تعوّد أفخاذ النساء لم يفلح، يعني اشتغل بهنّ عن الكمال؛ وفي المثل السائر لو كلّفت بصلة ما فهمت مسألة، ولا يغتّر الطالب بما ورد في النكاح من الترغيب فإن ذلك حيث لا يعارضه واجب أولى منه ولا واجب أضيق من العلم سيّما في هذا الزمان فإنّه كما قيل وإن وجب على الأعيان والكفاية على تفصيل فقد وجب في هذا الزمان على الأعيان مطلقاً، لأنّ فرض الكفاية إذا لم يقم به من فيه كفاية يصير كالواجب العيني في مخاطبة الكلّ وتأثيمهم[1] وينبغي له أن يترك المعاشرة مع من يشغله عن مطلوبه فإنّ تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم ولا سيّما لغير الجنس وخصوصاً لمن كثرت بطالته فإنّ الطبع سرّاق، فإذا خالط فلا يخالط إلّا من يفيده أو يستفيد منه فإن لم يتّفق فالوحدة ولا قرين السوء.

قال مؤلف هذا الكتاب: عفا الله عنه سنذكر إن شاء الله تعالى في نور آخر

(١) غير خفي على القارىء العزيز أنّه إذا كان تحصيل العلم الديني من الواجبات العينية في زمان المصنف رحمه الله ففي زماننا هذا يكون من أوجبها بلا إشكال ومن جهة وضوح الأمر لا حاجة إلى البيان وإطالة الكلام.

أحوالنا وما جرى علينا من ضيق المعاش أيّام تحصيل العلم وكيف تنقّلنا لأجل العلم من بلاد إلى بلاد فمن راجعه سهل عليه الصبر على مضايق العلم وعلى الله التوكّل.

وثالثها: أن يكون حريصاً على التّعلّم مواظباً عليه في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً سفراً وحضراً ولا يذهب شيئاً من أوقاته في غير العلم إلّا بقدر الضرورة لما لا بدّ منه من أكل ونوم واستراحة يسيرة لإزالة الملل ومؤانسة زائر وتحصيل قوت وغيره فإنّ بقيّة العمر لا ثمن لها ومن استوى يوماه فهو مغبون؛ وليس بعاقل من أمكنه الحصول على درجة ورّثها (ورثة) الأنبياء ثمّ فوتها ولا بدّ دون الشّهد من إبر النّحل وقيل:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وأن يكون عالي الهمة فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، ولا يؤخّر فائدة إلى وقت آخر يرجو فيه إزالة الموانع فإنّ هذا الوقت لم يخلق وإذا خلق فله فائدة أُخرى وفي الخبر الوقت سيف فإن قطعته وإلاّ قطعك؛ وينبغي أن يأخذ في ترتيب العلم بما هو الأولى، وإذا اشتغل في فنّ فلا ينتقل عنه حتى يتقن فنه كتاباً أو كتباً إن أمكن. وليحذر التنقل من كتاب إلى كتاب ومن فن إلى غيره من غير موجب فإنّ ذلك علامة الضجر وعدم الفلاح، فإذا تحقّقت أهليّته فالأولى له أن لا يدع فنّاً من العلوم المحمودة إلّا وينظر فيه نظر تطلّع، ثمّ إن ساعده العمر طلب التّبحّر فيه فإنّ العلوم متقاربة وبعضها مرتبط ببعض.

الفائدة السابعة: آدابه مع شيخه، قال الصادق عليه السلام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول إنّ من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تأخذ بثوبه وإذا دخلت عليه وعنده قوم فسلّم عليهم وخصّه بالتّحيّة دونهم، واجلس بين يديه ولا تجلس خلفه ولا تغمز بعينك وإنّما مثل العالم مثل النّخلة تنتظرها متى يسقط عليك منها شيء؛ والعالم أعظم أجراً عند الله من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وفي الحديث المروي عن مولانا زين العابدين عليه السلام: وحق سائسك بالعلم التّعظيم له والتّوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والاقبال عليه وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب احداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب ولا تحدث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب أحداً؛ وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه، ولا تجالس له عدوّاً ولا تعادي له وليّاً، فإذا فعلت ذلك شهدت لك ملائكة الله عزّ وجلّ بأنّك قصدته وتعلّمت علمه لله جلّ اسمه لا للناس وفي هذه الفائدة أمور:

أولها: وهو الأهمّ أن يقدّم النظر فيمن يأخذ عنه العلم فإنّ تربية الشيخ لتلميذه

مما يكسبه جميع أخلاقه بل ودينه أيضاً على ما شاهدناه، مع أنّ العالم نائب عن الرسول ﷺ وليس كلّ عالم يصلح لهذا، فليختر من كملت أهليته وظهرت ديانته وعرفت عفّته واشتهرت صيانته وسيادته، وظهرت مروّته وحسن تعليمه، ولا يغتر الطالب بمن زاد علمه مع نقص في ورعه أو دينه أو خلقه؛ وليحترز ممن أخذ علمه من بطون الكتب من غير قراءة على الشّيوخ خوفاً من وقوعه في التّصحيف والغلط والتحريف؛ قال بعض السّلف من تفقّه من بطون الكتب ضيّع الأحكام[1] وقال آخر إيّاكم والصّحفيّين الذين يأخذون علمهم من الصّحف فإنّ ما يفسدون أكثر ممّا يصلحون، وليحذر من التّقييد بالمشهورين وترك الأخذ من الخاملين فإنّ ذلك من الكبر على العلم وهو عين الحماقة لأنّ الحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

وثانيها: أن يعتقد في شيخه أنّه الأب الحقيقي والوالد الروحاني وهو أعظم من الوالد الجسماني فيبالغ في رعاية حقّه أعظم من رعايته حق أبيه، وسئل الإسكندر ما بالك توقّر معلّمك أكثر من والدك؟ فقال لأن المعلّم سبب لحياتي الباقية ووالدي سبب لحياتي الفانية؛ وأيضاً فالأب لم يقصد حال الجماع وجود الولد ولا كمال وجوده وإنّما قصد لذّة نفسه وأمّا المعلم فقصد تكميل وجوده وسببه وبذل فيه جهده؛ وقد روي أنّ السيد الرضي قدّس الله روحه كان عالي الهمة أبيّ النفس عن أن يقبل من أحد شيئاً، فقال له يوماً بعض مشايخه إنّ دارك ضيّقة لا تليق بحالك ولي دار واسعة قد هيّأتها لك فانتقل إليها، فأبى فأعاد عليه الكلام، فقال يا شيخ أنا لم أقبل بر أبي قط فكيف أقبل برّ! غيره فقال له الشيخ إنّما حقي عليك أعظم من حق أبيك لأنّي أبوك الروحاني وهو أبوك الجسماني. فقال السيّد رحمه الله قد قبلت الدار، ومن هنا قال بعض الفضلاء:

مـن عـلّـم الـعـلـم كـان خـيـر أب ذاك أبـو الـروح لا أبـو الـنّـطـف

وثالثها: أن يعتقد أنّه مريض وشيخه طبيب وذلك لأنّ المرض هو انحراف الروح عن المجرى الطبيعي وطبيعة النّفس العلم وقد خرجت عنه بسبب اشتغال القوى البدنيّة وأخلاطها فلا ينبغي أن يخالفه فيما يشير عليه كأن يقول له اقرأ الكتاب الفلاني واكتفِ بهذا القدر من الدرس، فإذا خالفه كان بمنزلة المريض الذي يردّ على

(١) لا شك أنّ هذا الكلام من الحكم الصادرة عن أرباب العلم والحكمة فإنّا نشاهد في هذا العصر التعيس مصداقاً كثيراً لمعنى هذه الكلمة النيرة وقد حبسنا القلم عن ذكره خوفاً من الازراء على بعض المعاصرين.

الطبيب وقد قيل في الحكمة مراجعة المريض طبيبه يوجب تعذيبه، وكما أنّ الواجب على المريض ترك تناول المؤذيات والأغذية المفسدة للدّواء في حضرة الطبيب وغيبته كذلك المتعلّم.

وينبغي أن ينظر إلى الشيخ بعين الاجلال والاحترام ويضرب صفحاً عن عيوبه، وقد كان بعض السّلف إذا ذهب إلى شيخه تصدّق بشيء وقال اللّهمّ استر عيب معلّمي عنّي ولا تذهب ببركة علمه منّي، وقال آخر كنت أصفح الورقة بين يدي شيخي صفحاً رقيقاً هيبة له لئلاّ يسمع وقعها، وقال آخر والله ما اجترأت أن أشرب الماء وشيخي ينظر إليّ هيبة له؛ وقال حمدان الاصفهاني كنت عند شريك فأتاه بعض أولاد الخليفة المهدي فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا ثمّ عاد، فعاد شريك لمثل ذلك، فقال أتستخفّ بأولاد الخلفاء؟ قال لا ولكن العلم أجلّ عند الله من أن أُضيعه فجثى على ركبتيه؛ فقال شريك هكذا يطلب العلم، وقال النّبي ﷺ من علّم أحداً مسألة ملك رقه، قيل أيبيعه ويشتريه؟ قال بل يأمره وينهاه.

ونقل بعض الأفاضل قال حكيت لشيخي مناماً لي فقلت رأيت أنّك قلت لي كذا وكذا فقلت لك لم ذاك؟ فهجرني شهراً ولم يكلّمني؛ وقال لولا أنّه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام، والأمر كما قال، قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه قد كان حالي مع شيخي صاحب كتاب بحار الأنوار[1] لما كنت أقرأ عليه في اصفهان أنّه خصني من بين تلامذته مع أنّهم كانوا يزيدون على الألف بالتّأهّل عليه والمعاشرة معه ليلاً ونهاراً، وذلك أنّه لما كان يصنّف ذلك الكتاب كنت أبات معه لأجل بعض مصالح التّصنيف وكان كثير المزاح معي والضّحك والظرائف حتى لا أملّ من المطالعة، ومع هذا كله كنت إذا أردت الدخول عليه أقف بالباب ساعة حتى أتأهب للدخول عليه ويرجع قلبي إلى استقراره من شدة ما كان يتداخلني من الهيبة والتّوقير والاحترام حتى أدخل عليه، ولقد كنت وحق جنابه الشريف والأيّام التي قضيناها في صحبته ونرجو من الله أن تعود أستسهل

(١) هو العلاّمة المحدث شيخ الإسلام والمسلمين المولى محمد باقر المجلسي رحمه الله المتوفى (١١١١هـ) وقد صنف المحدث النوري رحمه الله كتاب الفيض القدسي في أحواله وترجمة حالاته ولكن له فيه عثرات في مقايسته بين المجلسي رحمه الله وبين العلاّمة الحلي قدس سره ليس هنا محل ذكرها وذكرنا بعضها في هامش نسخة الفيض القدسي التي عندنا.

لقاء الأسود على الدخول عليه هيبة له وإجلالاً. وينبغي أن يعظمه في حال الخطاب ولا يخاطبه بتاء الخطاب وكافه ولا يناديه من بُعد بل يقول يا سيّدي ويا أستاذي وما أشبه ذلك ويخاطبه بصيغ الجمع، وينبغي أن يردّ غيبته زيادة على ما يجب رعايته في غيره فإن عجز عن ذلك قام وفارق المجلس، ويرعى ذريّته وأقاربه وأوداءه ومحبيه في حياته وبعد موته.

ورابعها: أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق ولا يصدّه ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته ويتأوّل أفعاله التي ظاهرها مذموم على أحسن تأويل وأصحّه فما يعجزه عن ذلك إلّا قليل التّوفيق، ويبدأ هو عند جفوة شيخه بالاعتذار والتّوبة ممّا وقع والاستغفار وينسب الموجب إليه ويجعل العتب فيه عليه فإنّ ذلك أبقى لمودّة شيخه وعن بعض السلف من لم يصبر على ذل التعليم بقي عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عزّ الدنيا والآخرة، وأما نحن فسنذكر إن شاء الله تعالى الذلّ الذي أصابنا في تحصيل العلم في النور الآتي وبحمد الله وتوفيقه آل أمرنا إلى عزّ الدنيا ونرجو منه تعالى عزّ الآخرة وهو المطلوب، وبقيت أمور أُخرى كثيرة تركناها حذراً من التّطويل وبما ذكرناه كفاية للعامل.

الفائدة الثامنة: آدابه في درسه وقراءته وهي أمور:

الأوّل: أن يبتدىء أولاً بحفظ كتاب الله العزيز حفظاً متقناً فهذا أصل العلوم وأجلّها وكان السّلف لا يعلّمون الفقه والحديث إلّا لمن حفظ القرآن.

الثاني: أن يقتصر من المطالعة على ما يحتمله فهمه ولا يمجه طبعه وليحذر من تحيّر الذهن في مطالعة الكتب الكثيرة فإنّه يضيّع زمانه، وليعط الكتاب الذي يقرأه والفنّ الذي يأخذه كلّيته حتى يتقنه حذراً من الخبط، ومن هذا الباب الاشتغال بكتب الخلاف في العقليات ونحوها قبل أن يصح فهمه ويستقر رأيه على الحق.

وينبغي أن يعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه قبل حفظه تصحيحاً متقناً ثم يحفظه حفظاً محكماً، ثمّ يكرره وأن يحضر معه الدّواة والقلم للتصحيح؛ وإذا ردّ عليه الشيخ لفظة فظن أو علم أنّ ردّه خلاف الصواب كرر اللفظة مع ما قبلها لينبّه بها الشيخ أو يأتي بلفظها الصواب على وجه الاستفهام، فربما وقع ذلك سهواً ولا يقل بل هي كذا، فإن رجع الشيخ إلى الصواب فذاك وإلاّ ترك تحقيقها إلى مجلس آخر بتلطّف ولا يبادر إلى إصلاحها على الوجه الذي عرفه مع اطلاع الشيخ والحاضرين، وكذلك إذا تحقّق خطأ الشيخ في جواب مسألة وكان لا يفوت تحقيقه فإن كان كذلك

كالكتابة في رقاع الاستفتاء وكون السائل غريباً أو بعيد الدار أو مشنّعاً تعيّن تنبيه الشيخ على ذلك في الحال بالاشارة ثم بالتصريح؛ فإنّ تركه ذلك خيانة للشيخ فيجب نصحه بما أمكن من تلطف وغيره؛ فإذا وقف على مكان في التصحيح كتب قبالته بلغ العرض أو التصحيح.

وينبغي له أن يقسم أوقات ليله ونهاره على ما يحصله فإنّ الأوراد توجب الازدياد وأجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل وبقايا النهار، ومما قالوه ودلت عليه التجربة أنّ حفظ الليل أنفع من حفظ النّهار؛ ووقت الجوع أنفع من وقت الشّبع والمكان البعيد عن الملهيات أنفع، وأن يباكر بدرسه لخبر: بورك لأمّتي في بكورها، ولخبر: أغدوا في طلب العلم فإنّي سألت ربّي أن يبارك لأُمتي في بكورها؛ ويجعل ابتداءه يوم الخميس، وفي رواية يوم السبت أو الخميس وفي آخر عنه ﷺ: أطلبوا العلم يوم الإثنين فإنه ميسر لطالبه؛ وروي في يوم الأربعاء خبر: ما من شيء بدىء به يوم الأربعاء إلّا وقد تمّ، وربما اختار بعض العلماء الابتداء يوم الأحد ولم نقف على مأخذه.

الثالث: إذا حضر مجلس الشيخ فليسلّم على الحاضرين ثم يخص الشيخ بزيادة تحية وإكرام، وعدَّ بعضهم حلق العلم حال أخذهم في البحث من المواضع التي لا يسلّم فيها؛ واختاره جماعة من الأفاضل وهو متّجه حيث يشغلهم رد السلام عمّا فيه من البحث وحضور القلب كما هو الغالب، سيما إذا كان في أثناء تقرير مسألة فإنّ قطعه عليهم أضر من كثير من الموارد التي ورد أنّه لا يسلم فيها، لكن متى أريد ذلك فليجلس الداخل عليهم على بعد من مقابلة الشيخ بحيث لا يشعر به حتى يفرغ إن أمكن جمعاً بين حق الأدب وحق البحث في دفع الشواغل، وينبغي له إذا سلم أن لا يتخطى رقاب الحاضرين إلى قرب الشيخ إن لم تكن منزلته كذلك بل يجلس حيث ينتهي به المجلس كما ورد في الحديث؛ فإن صرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدّم أو كانت منزلته أو كان يعلم إيثار الشيخ والجماعة لذلك أو كان جلوسه بقرب الشيخ لمصلحة كأن يذاكره مذاكرة ينتفع بها الحاضرون أو لكونه كبير السّن أو كثير الفضيلة والصّلاح فلا بأس، قال شيخنا الشيخ زين الدين طاب ثراه واعلم أنّه متى سبق إلى مكان من مجلس الدرس كان أحقّ به فليس لغيره أن يزعجه منه وإن كان أحقّ به بحسب الآداب، قيل ويبقى بعد ذلك أحقّ به كالمحترف إذا ألف مكاناً من السوق أو الشارع فلا يسقط حقه منه بمفارقته وإن انقطع عن الدرس يوماً أو يومين إذا حضر بعد ذلك- انتهى؛ وفيه ما لا يخفى.

وينبغي أن لا يجلس بين أخوين أو أب وابن؛ أو قريبين أو متصاحبين إلّا برضاهما معاً لما روي أنّ النّبي ﷺ نهى أن يجلس الرجل بين الرجلين إلّا بإذنهما، وينبغي أن لا يقرأ إلّا بإذن الشيخ ذكره جماعة من العلماء، فإذا أذن له استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثمّ سمّى الله تعالى وحمده وصلّى على النّبي وآله ثم يدعو للشيخ ولوالديه ولمشايخه وللعلماء ولنفسه، وينبغي أن يتذاكر مع من يوافقه من مواظبي مجلس الشيخ بما وقع فيه من الفوائد فإنّ في المذاكرة نفعاً عظيماً وقدم على نفع الحفظ وينبغي الإسراع بها قبل تفرّق أذهانهم فإن لم يجد من يتذاكر معه ذاكر نفسه بأن يكرّر معنى ما سمعه ولفظه على قلبه ليتعلّق ذلك بخاطره؛ وقد اشتهر أنّ الأخفش كان له عنز يتذاكر إليه.

الفائدة التاسعة: في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي. اعلم أولاً أنّ الإفتاء وإن كان كثير الأجر لكنّه عظيم الخطر لأن المفتي وارث النبي وهو موقع عن الله تعالى ونائبه ولسانه الناطق عنه فليعرف كيف يكون، قال سبحانه في التحذير: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، وانظر إلى خطابه لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، فكيف يكون حاله مع غيره إذا تقول عليه[1]

---

(١) ولذلك أهل الورع والتقوى من فقهائنا في الزمن الغابر وكذا أهل التقى منهم في الزمن الحاضر يتورعون عن الفتوى كما نقل أنّ السيد العالم الرباني السيد رضي الدين علي بن طاووس الحسني رحمه الله مع غزارة علمه وتبحره في العلوم ومكانته العالية في الفقاهة والاجتهاد كان متورعاً عن الفتوى لعظم خطرها كما صرح به قدس سره في كتاب إجازاته وقال ما هذا لفظه: واعلم أنني إنّما اقتصرت على تأليف كتاب غياث سلطان الورى لسكان الثرى من كتب الفقه في قضاء الصلاة عن الأموات ولم أُصنف غير ذلك من الفقه وتقرير المسائل والجوابات لأنني كنت قد رأيت مصلحتي ومعاذي في دنياي وآخرتي في التورع عن الفتوى في الأحكام الشرعية لاجل ما وجدت من الاختلاف في الرواية بين فقهاء أصحابنا في التكاليف الفعلية وسمعت كلام الله جل جلاله يقول عن أعز موجود من الخلائق عليه محمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥]، فلو صنفت كتباً في الفقه يعمل بعدي عليها كان ذلك نقضاً لتورعي عن الفتوى ودخولاً تحت خطر الآية المشار إليها لأنه جل جلاله إذا كان هذا تهديده للرسول العزيز الأعلم لو تقول عليه فكيف يكون حالي إذا تقولت عليه جل جلاله وافتيت أو صنفت خطاءً أو غلطًا يوم حضوري بين يديه الخ.
أقول هذا حال هذا الرجل العظيم في التورع عن الفتوى مع أنّه من أكبر رجال الدين واغزر عيالم العلم وأركان حملة الفقه والحديث وقد كفتنا مؤنة التعريف به شهرته في جميع الفضائل=

وقال ﷺ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبيّاً أو قتله نبيّ أو رجل يضلّ الناس بغير علم أو مصورّ يصوّر التماثيل، وعن أبي عبيدة الحذاء قال سمعت أباجعفر الباقر عليه السلام يقول من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ولحقه وزر من عمل بفتياه.

واعلم أنّه يجب في المفتي أن يكون مكلّفاً مسلماً عادلاً مجتهداً ومن لم يكن مجتهداً فلا يجوز له الإقدام على الإفتاء (الفتوى) والفتوى فرض كفاية فإذا سئل وليس هناك غيره تعيّن عليه الجواب، وينبغي أن لا يفتي في حال تغيّر أخلاقه من الغضب والجوع والعطش والحزن والفرح والنّعاس والحر والبرد ومدافعة الأخبثين، وإذا أفتى في واقعة ثمّ تغيّر اجتهاده وعلم المقلّد برجوعه من مستفتٍ أو غيره عمل بقوله الثاني، فإن لم يكن عمل بالقول الأوّل لم يجز العمل به وإن كان قد عمل به قبل علمه لم ينقض ولو لم يعلم المستفتي رجوع المفتي فكأنّه لم يرجع في حقّه ويلزم المفتي إعلامه برجوعه قبل العمل وبعده ليرجع عنه في عمل آخر (عمله الآخر) ولو أفتى في حادثة ثمّ حدث مثلها فإن ذكر الفتوى الأولى ودليلها افتى بذلك ثانياً بلا نظر، وإن ذكرها ولم يذكر دليلها ولاطرأ ما يوجب رجوعه ففي جواز افتائه بالأولى أو وجوب إعادة الاجتهاد قولان، ومثله تجديد الطلب في التيمم والاجتهاد في القبلة؛ والقاضي إذا حكم بالاجتهاد ثمّ وقعت المسألة وليس للمفتي أن يكتب السؤال على علمه من صورة الواقعة إذا لم يكن في الرقعة تعرض له بل على ما في الرقعة، فإن أراد خلافه قال إن كان الأمر كذا فجوابه كذا، واستحبّوا أن يزيد على ما في الرقعة ما له تعلق بها مما يحتاج إليه السائل لحديث ما هو الطهور ماؤه أيحلّ ميتته؟

ويستحبّ أن يكتب في أول فتواه الحمدلله أو الله الموفق أو حسبنا الله أو حسبي الله، أو الجواب وبالله التوفيق أو نحو ذلك؛ وأحسنه الابتداء بالتّحميد للحديث، وينبغي أن يقوله بلسانه ويكتب ثم يختمه بقوله والله اعلم أو بالله التّوفيق ويكتب بعده قال أو كتبه فلان بن فلان الفلاني فينتسب إلى ما يعرف به من قبيلة أو بلد أو صفة ونحوها؛ وينبغي أن يقتصر (يختصر) جوابه غالباً ويكون بحيث تفهمه العامة فهماً

= فكيف يكون حال المتفقهة من ابناء هذا الزمان تراهم يتصدون للفتوى بمجرد تعلم مقدمات الفقه وأصوله وليس حالهم هذا إلا من حب الشهرة والجاه وقلة الورع والتقوى وجلب حطام الدنيا والله العاصم.

جليّاً، حتى كان بعضهم يكتب تحت أيجوز: يجوز أو لا يجوز، وتحت أم لا: لا أو نعم ونحوها، وإذا رأى المفتي رقعة الاستفتاء وفيها خطّ غيره ممّن هو أهل للفتوى فإن كان دونه ووافق ما عنده كتب تحت خطه الجواب صحيح أو هذا جواب صحيح أو جوابي كذلك أو مثل هذا أو بهذا أقول ونحو ذلك؛ وأمّا إذا رأى فيها خط من ليس أهلاً للفتوى فلا يفتي معه لأنّ في ذلك تقريراً منه لمنكر بل له أن يضرب عليه وإن لم يأذن له صاحب الرقعة لكن لا تحبسها عنده إلّا بإذنه، وله نهي السائل وزجره وتعريفه قبح ما فعله، وإن رأى فيها اسم من لا يعرفه سأل عنه فإن لم يعرفه فله الامتناع من الفتوى معه خوفاً ممّا قلناه، ولو خاف فتنة من الضرر على فتيا عادم الأهليّة ولم يكن خطأ عدل إلى الإمتناع من الفتيا معه وأمّا إذا كانت خطاء وجب التّنبيه عليه وحرم عليه الامتناع من الإفتاء تاركاً للتّنبيه على خطائها.

ولو اجتمع مفتيان فأكثر ممّن يجوز استفتاؤهم فإنّ اتّفقوا في الفتوى أخذ المسفتي بها؛ وإن اختلفوا وجب عليه الرجوع إلى الأعلم الأتقى، وإن اختلفوا في الوصفين رجع إلى أعلم الورعين وأورع العالمين، فإن تعارض الاعلم والأورع قدم الأعلم في التقليد أما لو كان المفتي ميّتاً فهل يجوز تقليده مع وجود الحيّ أو لا معه؟ للجمهور أقوال أصحّها عندهم جوازه مطلقاً[1] لأنّ المذاهب لا تموت بموت

---

(١) لا يجوز تقليد الميت ابتداء لعدم دليل على جوازه وجواز التقليد حكم شرعي لا بد له من دليل والأصل عدمه مضافاً إلى أنّ الاجماع قائم من علمائنا الامامية على عدم جواز تقليد الميت ابتداء وخالف في ذلك جماعة من علمائنا الأخباريين على ما نسب إليهم ولكن أستاذنا المجتهد الأكبر فقيه العصر دام ظله الوارف قال في مستمسك العروة الوثقى: على تأمل في صحة النسبة لظهور كلمات بعضهم في كون ذلك في التقليد بمعنى آخر غير ما هو محل الكلام انظر المستمسك (- ج ١ ص ١٦ ط ٢ النجف -) وكيف كان فعلى تقدير صحة النسبة لا يعبأ بخلافهم لأنه غير قادح فإنّ الاجماع سابق عليهم ولا اعتداد برأي الميت فإنّه بعد الموت ليس له رأي مستنبط من الأدلة الأربعة المتعارفة بل آراؤه بعد الموت بانكشاف الواقع له في عالم البرزخ والواجب على المقلد بحسب أدلة وجوب التقليد هو العمل بآراء المجتهد التي استنبطها من الأدلة المتعارفة ولذا يصح أن يقال إنّ المذاهب تموت بموت أصحابها وضبطها في الكتب إنّما هو لبيان الفتوى وإراءة مستنده حتى يستند إليه من يأتي بعده من المجتهدين إن اطمأن بصحة دليل من سبقه والاعتداد بالاجماع والخلاف بعدهم إنّما هو على الدليل اعني الاجماع لا على المذاهب والآراء فإنّ المتبع عند المجتهد هو الدليل دون أي مذهب فقهي حتى أنّ المتبع عند المجتهد في صورة موافقة ما استنبطه من الحكم مع أحد المذاهب الفقهية هو ما فهمه من الدليل وادى ظنه منه دون قول فلان ولا رأي فلان وفي صورة المخالفة =

أصحابها ولهذا يعتدّ بها بعدهم في الإجماع والخلاف، وإن موت الشّاهد قبل الحكم بشهادته لا يمنع الحكم بشهادته بخلاف فسقه.

والثاني لا يجوز مطلقاً لفوات أهليّته بالموت ولهذا ينعقد الإجماع بعده ولا ينعقد في حياته على خلافه وهذا هو المشهور بين أصحابنا خصوصاً المتأخّرين منهم؛ والذي استوجهناه في تضاعيف هذا الكتاب هو جواز تقليد المجتهد الميت لأنّ كلّ ما دل على جواز تقليد المجتهد الحيّ يدلّ على جواز تقليد المجتهد[1] الميّت خصوصاً شيخنا المحقق قدس الله روحه في كتابه الشرائع والمعتبر فإنّه نقل

= يستحيل في حقه القطع والاذعان أو الظن والاطمئنان لقول من يخالفه والعمل على رأيه كما فصلنا هذا المطلب في محله وما ذكره المصنف رحمه الله أنّ موت الشاهد قبل الحكم الخ فهو لا دخل له بما نحن فيه ولا يقاس عليه تقليد الميت كما هو واضح.

(١) الأدلة الدالة على جواز تقليد المجتهد الحي لا دلالة فيها على جواز تقليد المجتهد الميت ابتداء فإنها إن كانت أدلة لفظية من العموم والاطلاق فعلى تقدير تسليم وجودها في المقام وتمامية دلالتها فهي منصرفة إلى أحياء الفقهاء.
وإن كانت أدلة لبية كالاجماع القائم على جواز تقليد المجتهد وهو العمدة في هذا الباب فالقدر المتيقن منه هو المجتهد الحي الاعلم الجامع لشرائط الفتوى لأن الاجماع دليل لبّيّ يأخذ بالمتيقن منه ووظيفة المقلد بالنسبة إلى جميع الأوصاف المعتبرة في المجتهد هو الأخذ بالمتيقن من الحياة والأعلمية والذكورية وغيرها للشك في صحة تقليد فاقد واحدة منها وأما المجتهد الميت فلا دلالة في الاجماع على جواز تقليده فعلى مدعي الجواز البيان وقول المصنف رحمه الله أنّ كل ما دل على جواز تقليد المجتهد الحي يدل على جواز تقليد المجتهد الميت كلام خال عن التحقيق ليت شعري أي دليل من أدلة جواز تقليد الحي يدل على جواز تقليد الميت أيضاً وما ذكره من الفرق بين المحقق رحمه الله في الشرائع والمعتبر وبين آية الله العلاّمة رحمه الله من غرائب الكلام فإنّ كل واحد منهما مجتهد أصولي افتى في كتابه بحسب ما أدى إليه ظنه واجتهاده فما معنى أنّ العلاّمة رحمه الله كان كثير الاجتهاد والفتوى والحق أنّ مسلك هؤلاء الأخباريين مختلف وآراءهم متشتتة شتان ما بين ما ذكره المصنف رحمه الله في حق كتاب الشرائع هنا وبين ما نقل عن بعض الاخباريين أنّه تناول كتاباً لينظر إليه ما هو فقيل له قبل أن يفتحه إنّه كتاب الشرائع فطرحه من يده مسرعاً كأنه عقربة لدغته ثم أشار إلى كتاب آخر فقيل إنّه كتاب المفاتيح ففتحه وجعل ينظر فيه وحكى العلاّمة الوحيد البهبهاني رحمه الله أنّ أوائل قدومه العراق كان يرى الرجل منهم إذا أراد أن ينظر إلى كتاب من كتب فقهائنا رضوان الله عليهم كان يحمله مع منديل انظر تنقيح المقال الفائدة ٢١ ج ١ ص ٢٠٩ وتعجب من تشتت الآراء في مسلك الجمود المأخوذ من الظاهريين من مذاهب أهل السنة ولا تغفل عن مطالعة ومراجعة كتاب (الوحيد البهبهاني) للخطيب المعاصر الدواني دام بقاؤه.

(ينقل) متون الأخبار في أكثر المسائل بخلاف العلاّمة طاب ثراه فإنّه كثير الاجتهاد والفتوى.

الفائدة العاشرة: في المناظرة وآدابها؛ إعلم أنّ المناظرة في أحكام الدين من الدين؛ وينبغي أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتّفق لا ظهور غزارة علمه وصحّة نظره فإنّ ذلك من أقبح القبائح؛ ومن آيات هذا القصد أن لا يوقعها إلّا مع رجاء المباشرة، فأمّا إذا علم عدم قبول المناظر للحق وأنّه لا يرجع عن رأيه وإن تبيّن خطاؤه فمناظرته غير جائزة، وشرط المناظر في الدين أن يكون مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب أحد حتى إذا بان له الحق على لسان خصمه انتقل إليه، فأمّا من لا يجتهد فليس له مخالفة مذهب من يقلّده فأيّ فائدة له في المناظرة.

وينبغي أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من الوقوع والمهمّ أن يبيّن الحق ولا يطول الكلام زيادة على ما يحتاج إليه في تحقيق الحق، وأن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه منها في المحفل والصدور فإن في حضور الخلق ما يحرك دواعي الرياء والحرص على الإفحام ولو بالباطل، وينبغي أن لا يمنع مفتيه من الانتقال من دليل إلى دليل ومن سؤال إلى سؤال بل يمكنه من إيراد ما يحضره ويخرج من كلامه ما يحتاج إليه في إصابة الحق، فإن وجده في جملته أو استلزمه وإن كان غافلاً عن اللزوم فليقبله ويحمدالله تعالى فإنّ الغرض إصابة الحق، وإن كان في كلام متهافت إذا حصل منه المطلوب، وأمّا قوله قد تركت كلامك الأول وليس لك ذلك ونحو ذلك من أراجيف المناظرين فهو محض العناد، وأمّا آفات المناظرة فهي أكثر من أن تذكر فلا ينبغي الوقوع فيها وقبولها إلّا عند الاضطرار إليها.

الفائدة الحادية عشر: في آداب الكتابة وما يتعلّق بها. إعلم أنّ الكتابة من أجلّ المطالب الدينيّة وهو تابع للعلم فإنّ كان واجباً عينيّاً كانت الكتابة كذلك إذا توقّف الحفظ عليه وإن كان واجباً كفائيّاً كانت الكتابة كذلك؛ روي عن النّبي ﷺ أنّه قال قيّدوا العلم، قيل وما تقييده؟ قال كتابته، قال الصادق عليه السلام لعبيد بن زرارة احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها؛ وروى الصدوق في أماليه بإسناده إلى النّبي ﷺ أنّه قال إنّ المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم كانت الورقة ستراً فيما بينه وبين النّار، وأعطاه الله تعالى بكل حرف مدينة أوسع من الدّنيا وما فيها، ومن جلس عند العالم ساعة ناداه الملك جلست إلى عبدي وعزّتي وجلالي لأسكننك الجنّة معه ولا أبالي؛ ويجب على الكاتب إخلاص النيّة لله تعالى كما

يجب إخلاصها في طلب العلم لأنّها عبادة وضرب من تحصيل العلم بل هي في بعض الموارد أكثر ثواباً من العلم بسبب كثرة الإنتفاع بها ودوامها، ومن هنا جاء تفضيل مداد العلماء على دماء الشهداء حيث إنّ مدادهم ينتفع به بعد موتهم ودماء الشهداء لا ينتفع به بعد موتهم.

وينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب بأيّ نوع كان لأنّه قد حصل بها نوف زائد لمن حصلها على من لم يحصلها، وينبغي أن لا يشتغل بنسخها إن أمكنه تحصيلها بشراء ونحوه، ويستحبّ إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممّن لا ضرر منه بها استحباباً مؤكّداً لما فيه من الإعانة على العلم والمساعدة على البرّ والتّقوى، وقال بعض السّلف من بخل بالعلم ابتلي بإحدى ثلاث: أن ينساه أو يموت فلا ينتفع به أو تذهب كتبه، وهذا شيء شاهدناه مراراً كثيرة، وقد كان لنا شيخ يحصل منه بعض البخل بالكتب فبقيت كتبه بعده قد باعها بناته في الأسواق بأبخس قيمة؛ وكان لنا شيخ آخر إذا طلبنا نحن أو غيرنا منه كتاباً وكان له حاجة إليه قلع الأوراق التي يحتاج إليها وأعطى الباقي فنمت كتبه وانتفع العلماء بها وأعطاه الله تعالى أولاداً قابلين للعلم وفهمه، وإذا قضى حاجته من الكتاب فلا يحبسه لئلا يمنع صاحبه من إعارة غيره، أمّا إذا طلبه المالك حرم عليه حبسه ويصير ضامناً له، ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره المستعار أو المستأجر بغير إذن صاحبه فلا يحسّنه ولا يكتب له شيئاً في بياض فواتحه إلّا إذا علم رضاء مالكه ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه فإنّ النسخ انتفاع زائد على الانتفاع بالمطالعة.

وينبغي أن يراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها وشرف مصنّفها فيضع الأشرف على الكلّ ثم يراعي التّدريج؛ فإن كان فيها المصحف الكريم جعل أعلى الكلّ؛ والأولى أن يكون في خريطة ذات عروة في مسمار أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس؛ ثمّ كتب الحديث الخالص، ثمّ تفسير القرآن؛ ثمّ تفسير الحديث ثمّ أصول الدّين، ثمّ أصول الفقه، ثمّ العربيّة، ولا يضع الكبير فوق الصغير لئلاّ يكثر تساقطها.

وينبغي أن يكتب اسم الكتاب في جانب آخر الصّفحات، وفائدته معرفة الكتاب وتيسّر إخراجه، ولا ينبغي أن يجعل الكتاب خزانة الكراريس أو غيرها؛ ولا مخدّة ولا مروحة ولا مسنداً ولا مقتلة للبراغيث، ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها، وكان شيخنا صاحب كتاب بحار الأنوار أدام الله أيّام سعادته يعير تلامذته كتب

الحديث فإذا أرجعوها يخرج من تحت الأوراق من فتات الخبز ما يزيد على شبع الرجل. ثمّ إنّه سلّمه الله تعالى صار إذا أراد أن يعير كتاباً لواحد من الطلبة يقول إن كان عندك طبق تأكل فيه الخبز وإلاّ أعرناك طبقاً مدّة كون الكتاب عندك.

وينبغي لمن استعار كتاباً أن يتفقده عند أخذه وردّه؛ وإذا اشترى كتاباً تعهّد أوّله وآخره ووسطه ويصفح أوراقه ويعتبر صحّته وما يغلب على ظنّه صحّته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه أن يرى إلحاقاً أو إصلاحاً فإنّه من شواهد الصحة، حتى قال بعضهم لا يضيء الكتاب حتى يظلم، يريد إصلاحه بالضرب والكشط والإلحاق ونحوه؛ وينبغي له إذا نسخ شيئاً من الكتب الشرعيّة أن يكون على طهارة مستقبلاً طاهر البدن والحبر والورق ويبتدىء الكتاب بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة على رسوله وآله، وكلّما كتب اسم الله تعالى أتبعه بالتّعظيم مثل تعالى أو عزّ وجلّ أو تقدّس أو نحو ذلك ويتلفظ بذلك وكلّما كتب اسم النّبي صلّى الله عليه وآله كتب بعده الصلاة عليه وعلى آله؛ بل قال بعضهم والسلام أيضاً، ويصلّي هو بلسانه أيضاً، ولا يختصر الصلاة في الكتاب ولا يسأم من تكريرها ولو وقعت في السطر مراراً كما يفعله بعض المحرومين من الثواب لطلب الاختصار، فيكتبون صلعم؛ أو صل أو صه أو نحو ذلك. فإنّ ذلك كلّه كما قال شيخنا الشهيد الثاني طاب ثراه خلاف الأولى والمنصوص، بل قال بعض العلماء إنّ أول من كتب صلعم قطعت يده، وأقلّ ما في الإخلال بها تفويت الثواب العظيم عليها، فقد ورد عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال من صلّى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب، وإذا مرّ بذكر أحد من الصحابة الأكابر كتب رضي الله عنه أو رضوان الله عليه أو بذكر أحد من السلف الأعلام كتب رحمه الله أو تغمّده الله برحمته ونحو ذلك، وينبغي أن لا يكتب الكتب بالكتابة الدقيقة؛ قال بعض السلف لكاتب وقد رآه يكتب خطّاً دقيقاً: لا تفعل فإنّه يخونك أحوج ما تكون إليه.

وأمّا القلم فقالوا لا ينبغي أن يكون صلباً جداً فيمنع من سرعة الجري أو رخواً جداً فيسرع إليه الحفاء، قال بعضهم إذا أردت أن يجود خطك فأطل جلفتك وأسمنها، وحرّف قطّتك وأيمنها، وليكن السكين حادة لبراية الأقلام وكشط الورق خاصة ولا تستعمل في غير ذلك، وليكن ما يقط عليه القلم صلباً؛ وقالوا الأحسن أن يكون القصب الفارسي اليابس جداً، وينبغي أن لا يقرطم (يقرمط خ) الحروف ولا يأتي بها مشبهة بغيرها بل يعطي كل حرف حقّه وكل كلمة حقها ويراعي من الآداب الواردة مطلقاً في ذلك ما روي عن النّبي صلّى الله عليه وآله أنّه قال لبعض كتّابه ألقِ

الدواة وحرّف القلم وانصب الباء وفرّق السّين ولا تعور الميم وحسّن الله ومدّ الرحمن وجوّد الرحيم، وضع قلمك على أُذنك اليسرى فإنّه أذكر لك.

وعن زيد بن ثابت أنّه قال: قال رسول الله ﷺ إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبيّن السّين فيه؛ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لا تمدّ الباء إلى الميم ترفع السّين، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمدّ الرحمن؛ وعنه من كتب بسم الله الرحمن الرحيم فجوّده تعظيماً غفر الله له، وعن عليّ عليه السلام أنّه قال تنوّق رجل في بسم الله الرحمن الرحيم فغفر له، وقد كرهوا في الكتابة فصل مضاف إسم الله تعالى منه كعبد الله أو رسول الله ﷺ فلا يكتب عبد أو رسول في آخر سطر والله مع ما بعده أول سطر آخر لقبح الصورة، وهذه الكراهة للتّنزيه، وذكروا أنّ الضرب على الغلط هو أجود من الكشط والمحو لا سيما في الحديث لأن كلاً منهما يضعف الكتاب وربما أفسد الورق، وعن بعض المشايخ أنّه كان يقول كان الشيوخ يكرهون حضور السكين مجلس السماع، وفي كيفية الضرب خمسة أقوال:

أحدها: أن يصل بالحروف المضروب عليها ويخطّ عليها ممتّداً ويسمى عند المغاربة بالشّق، وأجوده ما كان دقيقاً بيّناً يدل على المقصود؛ ولا يسود الورق ولا يطمس الحروف ولا يمنع قراءة ما تحته.

وثانيها: أن يجعل الخط فوق الحروف منفصلاً منعطفاً طرفاه على أول المبطل وآخره ومثاله هكذا }.

وثالثها: أن يكتب لفظة لا أو لفظة «من» أوله ولفظة «الى» فوق آخره، ومعناه من هنا ساقط إلى هنا ومثل هذا يحسن فيما صحّ في رواية وسقط في أُخرى.

ورابعها: أن يكتب في أول الكلام المبطل وفي آخره نصف دائرة ومثاله (هكذا) فإن ضاق المحلّ جعله في أعلى كل جانب.

وخامسها: أن يكتب في أول المبطل وفي آخره صفراً وهو دائرة صغيرة سميت بذلك لخلو ما أشير إليه بها من الصحة كتسمية الحساب لها بذلك لخلو موضعها من عدد؛ وإذا صحح الكتاب على الشيخ أو في المقابلة علّم على موضع وقوفه يبلغ أو بلغت أو بلغ العرض أو نحو ذلك ممّا يفيد معناه.

وينبغي أن يفصل بين كل كلامين أو حديثين بدارة أو قلم غليظ ولا يوصل الكتابة كلّها على طريقة واحدة لما فيه من عسر استخراج المقصود، ورجحوا الدائرة على

غيرها وعمل عليها غالب المحدثين واختار بعضهم اعتمال الدائرة حتى تقابل، فكل كلام يفرغ منه ينقط في الدائرة التّي تليه نقطة وفي المقابلة الثانية ثانية وهكذا.

الفائدة الثانية عشر: في أقسام العلوم الشرعيّة وما يتوقّف عليه من العلوم العقليّة والأدبيّة. اعلم أنّ العلوم الشرعية الأصليّة أربعة: علم الكلام، وعلم الكتاب العزيز وعلم الأحاديث النبويّة، وعلم الأحكام الشرعيّة، وهو المعبّر عنه بالفقه، فأما علم الكلام وهو أصول الدين فهو أساس العلوم الشرعية لأن معلومه أشرف المعلومات وقد ورد الحث على تعلّمه، قال ابن عباس جاء أعرابي إلى النّبي ﷺ فقال يا رسول الله علّمني من غرائب العلم، قال ما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائب العلم؟ قال الرّجل ما رأس العلم يا رسول الله؟ قال معرفة الله تعالى حق معرفته، قال الأعرابي وما معرفة الله حق معرفته؟ قال تعرفه بلا مثل ولا شبيه، ولا ندّ وأنّه واحد أحد ظاهر باطن أوّل آخر لا كفء له ولا نظير فذلك حق معرفته.

وأمّا علم الكتاب فقد استقرّ الاصطلاح فيه على ثلاثة فنون قد أُفردت بالتصنيف وأُطلق عليها اسم العلم: أحدها علم التجويد وفائدته معرفة أوضاع حروفه وكلماته مفردة ومركبة، فيدخل فيه معرفة مخارج الحروف وصفاتها ومدّها وإظهارها وإخفائها وإدغامها، وإمالتها وتفخيمها وترقيقها ونحو ذلك، وثانيها علم القراءة، وفائدته معرفة الوجوه الإعرابية والبنائيّة التي نزل القرآن بها وادعوا نقلها عن النّبي ﷺ تواتراً ويندرج فيه بعض ما سبق في الفن الأول؛ وقد يطلق عليهما اسم واحد ويجمعهما تصنيف واحد، وثالثها علم التفسير وفائدته معرفة معانيه وأحكامه؛ وأمّا علم الحديث فهو من أجلّ العلوم قدراً وأعلاها رتبة وأعظمها مثوبة بعد القرآن، وأما الفقه فهو العلم بالحكم الشرعي المأخوذ عن الدليل فهذه الأربعة هي أصول العلوم وهي المقصودة بالذات.

وأمّا العلوم الفرعيّة وهي التي تتوقّف هذه الأربعة عليها، أمّا معرفة الله تعالى وما يتبعه فلا يتوقّف أصل تحقّقه على شيء من العلوم بل يكفي فيه مجرّد النظر وهو أمر عقلي يجب على كل مكلّف، وهو أول الواجبات بالذات وإن كان الخوض في مباحثه وتحقيق مطالبه ودفع شبه المبطلين فيه يتوقّف على بعض العلوم العقليّة كالمنطق وغيره وأمّا الكتاب العزيز فإنّه بلسان عربي مبين فتتوقّف معرفته على علوم العربية من النحو والتّصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع ولغة العرب وأصول الفقه ليعرف به حكم عامه وخاصه ومطلقه ومقيّده ومحكمه ومتشابهه إلى غير ذلك.

وأمّا الحديث النّبوي فالكلام فيه كالكلام في الكتاب وعلومه ويزيد الحديث عليه بمعرفة رواته من حيث الجرح والتّعديل؛ وأمّا الفقه فتوقّف معرفته على جميع ما ذكر من العلوم الفرعيّة والأصليّة، والمنطق آلة شريفة لتحقيق الأدلّة مطلقاً فهذه عشرة علوم تتوقف عليها العلوم الشرعيّة وجملة ما يتوقّف عليه الفقه اثنى عشرة وهي ترجع بحسب ما استقر عليه تدوين العلماء إلى ثمانية فإنّ علم الاشتقاق قد أُدرج في أصول الفقه غالباً وفي بعض علوم العربيّة وعلم المعاني والبيان والبديع قد صار علماً واحداً في أكثر الكتب الموضوعة لها، والتّصريف داخل في النّحو في أكثر الكتب وقلَّ من أفرده علماً خصوصاً المتقدّمين.

الفائدة الثالثة عشر: في بيان العلم الشرعي وما أُلحق به على ثلاث مراتب: فرض عين، وفرض كفاية، وسنّة، فالأوّل ما لا يتأدّى الواجب عيناً إلّا به وعليه حمل حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم، وأمّا فرض الكفاية فممّا لا بدّ للنّاس منه في إقامة دينهم من العلوم الشّرعيّة كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما والفقه والأصول والعربيّة وما يحتاج إليه في قوام أمر المعاش كالطّب والحساب، وتعلّم الصنائع الضرورية كالخياطة والفلاحة حتى الحجامة ونحوها، وقال بعض العلماء فرض الكفاية أفضل من فرض العين لأنّه يصان بقيام البعض به جميع المكلّفين عن إثمهم المترتّب على تركهم له بخلاف فرض العين فإنّه إنّما يصان به عن الإثم القائم به فقط؛ وأمّا السّنّة فكتعلّم نقل العبادات والآداب الدينيّة ومكارم الأخلاق وشبه ذلك وهو كثير ومنه تعلّم الهيئة للاطّلاع على عظمة الله تعالى وما يترتّب عليه من الهندسة وغيرها.

وبقي علوم آخر بعضها محرّم مطلقاً كالسّحر والشّعبذة وبعض الفلسفة وكلّ ما يترتّب عليه إثارة الشّكوك، وبعضها محرم على وجه دون آخر كأحكام النّجوم والرّمل فإنّه يحرم تعلّمها مع اعتقاد تأثيرها وتحقيق وقوعها ويباح مع اعتقاد كون الأمر مستنداً إلى الله تعالى وأنّه أجرى بالعادة كونها سبباً في بعض الآثار وعلى سبيل التفؤل كما قاله بعض الأصحاب؛ وقد تقدّم أنّ الأولى هو القول بتحريم تعلّم علم النجوم وتعليمه مطلقاً، وبعضها مكروه كأشعار المولّدين المشتملة على الغزل وترجية الوقت بالبطالة وتضييع العمر بغير فائدة، وبعضها مباح كمعرفة التواريخ والوقائع والأشعار الخالية عمّا ذكر ممّا لا يدخل في الواجب كأشعار العرب العاربة التي تصلح للاحتجاج بها في الكتاب والسنة فإنها ملحقة باللغة، وباقي العلوم من الطبيعي والرّياضي والصّناعي أكثره موصوف بالإباحة بالنّظر إلى ذاته وقد يمكن

جعله منه (مستحبّاً لتكميل النفس خ) وبالتّكميل للنّفس وإعدادها لغيره من العلوم الشّرعيّة بتقويتها في القوة النظريّة، وقد يكون حراماً إذا استلزم التّقصير في العلم الواجب عيناً أو كفاية كما يتّفق كثيراً في زماننا هذا لبعض المحرومين الغافلين عن حقائق الدين.

الفائدة الرابعة عشر: في ترتيب العلوم بالنّظر إلى المتعلم. اعلم أنّ لكل علم من هذه العلوم مرتبة من التعلم لا بد لطالبه من مراعاتها لئلا يضيع سعيه وليصل إلى بغيته بسرعة، وكم قد رأينا طلاّباً للعلم سنين كثيرة لم يحصلوا منه إلا القليل، وآخرين حصلوا منه كثيراً في مدة قليلة بسبب مراعاة ترتيبه، فينبغي أن يشتغل في أول أمره بحفظ كتاب الله تعالى وتجويده على الوجه المعتبر ليكون مفتاحاً صالحاً ومعيناً ناجحاً فإذا فرغ منه اشتغل بتعلّم العلوم العربيّة فإنّها أوّل آلات الفهم وأعظم أسباب العلم الشّرعي، فيقرأ أولاً علم التّصريف ويتدرّج في كتبه من الأسهل إلى الأصعب حتى يتقنه ويحيط به علماً، ثمّ ينتقل إلى النحو فيشتغل فيه على هذا النّهج ويزيد فيه بالجدّ والحفظ؛ ثمّ ينتقل منه إلى بقيّة العلوم العربيّة، فإذا فرغ منها أجمع اشتغل بالمنطق وحقّق مقاصده على النّمط الأوسط ولا يبالغ فيه مبالغته في غيره لأنّ المقصود منه يحصل بدونه.

وحدّثني جماعة من الثّقات أنّ السّيد المحقق السيّد محمّد صاحب المدارك وخاله الشّيخ الأجلّ الشيخ حسن ابن الشّهيد الثاني رحمه الله كانا يقرآن في النجف الأشرف عند الزاهد الورع المولى أحمد الأردبيلي فقرأ عليه من شرح الشّمسيّة ما يتوقّف عليه الاجتهاد من مباحث الألفاظ وبعض أحوال القضايا والقياسات والظّاهر أنّه لا يزيد على عشرة دروس وقرآ من شرح مختصر ابن الحاجب للعضدي ما يتوقّف عليه أيضاً الاجتهاد وهي دروس معدودة، وكان الجماعة الذين يقرأون عند المولى الأردبيلي يهزأون بهما على هذا النمط من القراءة، فقال لهم المولى لا تهزأوا بهما فعن قليل يصلون إلى درجة الاجتهاد وأحتاج أنا إلى أن آخذ تصديق اجتهادي عنهم[1] فكان الحال كما قال، فإنّهم بلغوا رتبة التصنيف والاجتهاد في مدة ثمان سنين، ثم إذا فرغ من المنطق انتقل إلى علم الكلام ويتدرّج فيه كذلك، ثم ينتقل منه إلى أصول الفقه متدرجاً في كتبه ومباحثه وهذا العلم أولى بالعلوم تحريراً فلا يقتصر منه على القليل فبقدر ما تحققه يتحقق عنده المباحث الفقهيّة؛ ثم ينتقل منه إلى علم

(١) هذا الكلام من المحقق الاردبيلي رحمه الله من باب التواضع.

دراية الحديث فيطالعه ويحيط بقواعده وليس هو من العلوم الدقيقة وإنّما هو من مصطلحات مدونة وفوائد مجموعة، فإذا وقف على مقاصده انتقل إلى قراءة الحديث بالرواية والتّفسير والبحث والتّصحيح على حسب ما يقتضيه الحال ويسعه الوقت، ولا أقلّ من أصل منه يشتمل على أبواب الفقه وأحاديثه.

وكان شيخنا المعاصر أدام الله عزّه يقول يكفي من الأصول الأربعة كتاب التهذيب ثمّ ينتقل منه إلى البحث عن الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالأحكام الشرعية فقد أفردها العلماء رضوان الله عليهم بالبحث وخصّوها بالتّصنيف فليطالع فيها كتاباً وأحسنها في هذه الأيّام الآيات الأحكاميّة التي صنّفها شيخنا الشيخ جواد الكاظمي تغمّده الله برحمته[1] فإذا فرغ منها انتقل إلى قراءة كتب الفقه فيقرأ منها أولاً كتاباً يطلع فيه على مطالبه ورؤوس مسائله وعلى مصطلحات الفقهاء وقواعدهم فإنّها لا تكاد تستفاد إلّا من أفواه المشايخ بخلاف غيرها من العلوم، ثمّ يشرع ثانياً في قراءة كتاب آخر بالبحث والاستدلال واستنباط الفروع من الأصول واستفادة الحكم من كتاب أو سنّة من جهة النّص أو الاستنباط من عموم لفظ أو إطلاقه ومن حديث صحيح أو حسن أو غيرهما ليتدرّب على هذه المطالب على التدريج؛ وهذا لا يحصل إلّا بقوة قدسيّة يمنحها الله سبحانه لعبده ولا حيلة للعبد فيها نعم للجد والمجاهدة والانقطاع إلى الله سبحانه أثر بيّن في تحصيلها كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فإذا فرغ من ذلك كلّه شرع في تفسير الكتاب العزيز بأسره فكل هذه العلوم مقدّمة له، فإذا وفق له فلا يقتصر على ما استخرجه المفسّرون بأنظارهم فيه بل يكثر من التفكر في معانيه ويصفي نفسه للتطلع على خوافيه ويبتهل إلى الله تعالى في أن يمنحه من لدنه فهم كتابه وأسرار خطابه، فحينئذ يظهر عليه من الحقائق ما لم يصل إليه غيره من المفسرين، لأن الكتاب العزيز بحر لجّيّ في قعره درر وفي ظاهره خبر، والناس في التقاط درره والاطّلاع على بعض حقائقه على مراتب ومن ثم ترى التفاسير مختلفة حسب اختلاف أهلها في ما يغلب عليهم.

فمنها ما يغلب عليه العربيّة ككشّاف الزّمخشري؛ ومنها ما يغلب عليه الحكمة والبرهان الكلامي كمفاتح الغيب للرازي، ومنها ما يغلب عليه القصص كتفاسير

---

(١) هو تلميذ الشيخ البهائي قدس سره وكتابه في آيات الأحكام يسمى المسالك الجوادية ومسالك الأفهام في آيات الأحكام وهو كتاب جليل من نفائس الآثار وفي مكتبتنا نسخة مخطوطة منه.

الثعلبي ومنها ما يسلّط على تأويل الحقائق دون التفسير الظاهر كتفسير عبد الرزاق الكاشي[١] إلى غير ذلك من المظاهر فإذا فرغ من ذلك وأراد الترقّي وتكميل النفس فليطالع كتب الحكمة من الطبيعي والرياضي والحكمة العملية المشتملة على تهذيب الأخلاق في النفس وما خرج عنها من ضرورات دار الفناء، ثم ينتقل بعده إلى العلوم الحقيقيّة والفنون الخفيّة فإنّها الباب لهذه العلوم ونتيجة كل معلوم وبها يصل إلى درجة المقربين ويحصل على مقاصد الواصلين، هذا كله ترتيب من هو أهل لهذه العلوم وله استعداد لتحصيلها ونفس قابلة لفهمها، فأمّا القاصرون عن درك هذا المقام والممنوعون بالعوائق عن الوصول إلى هذا المرام فليقتصروا منها على ما يمكنهم الوصول إليه متدرّجين فيه حسب ما دللنا عليه، فإن لم يكن لهم بدّ من الاقتصار فلا أقلّ من الاكتفاء بالعلوم الشرعيّة والأحكام الدينيّة؛ فإن ضاق الوقت وضعف النفس عن ذلك فالفقه أولى من الجميع فبه قامت النبوّات وانتظم أمر المعاش والمعاد مضيفاً إليه ما يجب مراعاته من تهذيب النفس وإصلاح القلب ليترتّب عليه العدالة التي بها قامت السمٰوات والأرض والتقوى الذي هو ملاك الأمر.

فإذا فرغ عما خلق له من العلوم فليشتغل بالعمل الذي هو زبدة العلم وعلة الخلق قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وما أجهل وأخسر وأحمق من متعلّم صنعة لينتفع بها في أمر معاشه ثم يصرف عمره ويجعل كده في تحصيل آلاتها من غير أن يشتغل بها اشتغالاً يحصل به الغرض منها وكم قد رأينا في شيراز واصفهان من طالب اشتغل بالمقدمات وأمعن النظر فيها حتى انقضى عمره ولم يعرف شيئاً من العلوم الشرعيّة، وربما آل الأمر إلى احتقارها واحتقار من يعرفها بل يعدون الفقيه حماراً وليس هذا إلّا من عدم ثبات الإيمان في قلوبهم.

واعلم أنّ ترتيب العلوم على نحو ما ذكرنا مأخوذ من كلام شيخنا الشهيد الثاني نور الله ضريحه بل أكثر فوائد هذا النور مأخوذة من كلامه ولا عيب علينا في أخذ كلامه لأنّه البحر الذي غرف منه المتأخّرون بأسرهم، وحيث إنّك قد عرفت أوّلاً أنّ

(١) الكاشي في النسبة إلى كاشان من اغلاط العوام تخفيفاً والأولى أن يقال في النسبة إلى كاشان من مشاهير مدن إيران بالعجمية كاشاني وبالعربية معرباً قاشاني بالشين المعجمة لا القاساني بالمهملة كما فعله بعض الأكابر لئلا يشتبه الأمر في النسبة إلى كاشان وقاسان التي هي قرية من قرى جبل عامل ومدينة بما وراء النهر خربت بغلبة الترك عليها.

الأذهان تحتاج إلى تشحيذ لأنّها تكلّ كما تكلّ الأبدان وتشحيذها إنّما يكون بلطائف العلوم وغوامض الفنون وهو الذي فهمه المحققون من قوله عليه السلام روّحوا أرواحكم ببدائع الحكمة فإنّها تكل كما تكل الأبدان، فلا بأس بذكر نور يشتمل على بعض ما في الفنون من العربيّة وغيرها والله الموفق.



الفهرس

الموضوع	الصفحة